الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّراية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء الثامن عشر

[سورة التوبة، الآية: ٩٧]- [سورة هود، الآية:٣٩]

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

الرقم الدولى(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)} [التوبة : ١١١]

التفسير:

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم في مقابل ذلك الجنة، وما أعد الله فيها من النعيم لبذلهم نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه لإعلاء كلمته وإظهار دينه، فيَقْتلون ويُقتَلون، وعدًا عليه حقًّا في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن المنزل على محمد ﷺ. ولا أحد أوفى بعهده من الله لمن وفَّى بما عاهد الله عليه، فأظهِروا السرور-أيها المؤمنون- ببيعكم الذي بايعتم الله به، وبما وعدكم به من الجنة والرضوان، وذلك البيع هو الفلاح العظيم.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة : ١١١]، أي:" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم في مقابل ذلك الجنة، وما أعد الله فيها من النعيم"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله ابتاعَ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة"[٢].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له"[٣].

قال السعدي:" يخبر تعالى خبرا صدقا، ويعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه {اشترى} بنفسه الكريمة {من المؤمنين أنفسهم وأموالهم} فهي المثمن والسلعة المبيعة، {بأن لهم الجنة} التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات. وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه"[٤].

قال أبو الليث السمرقندي:" معناه: إنه طلب من المؤمنين أن يفدوا أنفسهم وأموالهم، ويخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، ليثيبهم الجنة. وذكر الشراء على وجه المثل، لأن الأموال والأنفس كلها لله تعالى، وهي عند أهلها عارية، ولكنه أراد به التحريض والترغيب في الجهاد. وهذا كقوله: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا} [البقرة: ٢٤٥]"[٥].

قال الماتريدي:" يحتمل قوله: {اشترى}، أي: استام؛ لأن قوله: {اشترى}خبر، ولكن يحتمل الاستيام، أي: استام أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم لله؛ ليجعل لهم الجنة، ثم بين فقال: {يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون}"[٦].

عن الحسن في قوله: "{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}، قال: هم الذين وفوا ببيعتهم"[٧].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٢] تفسير الطبري:٤٩٨/١٤.
[٣] تفسير ابن كثير:٢١٨/٤.
[٤] تفسير السعدي:٣٥٢.
[٥] بحر العلوم:٨٩/٢.
[٦] تأويلات أهل السنة:٤٨٥/٥.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٥):ص١٨٨٦/٦.

عن مبارك بن فضالة قال: "سمعت الحسن يقول: اسمعوا رحمكم الله بيعة بايع الله لكل مؤمن، قال الحسن: لا والله ما على ظهر الأرض مؤمن إلا قد دخل في هذه البيعة {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}، الآية"[١].

عن سهيل عن كثيرعن الحسن:" أنه كان إذا تلا هذه الآية :{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}، قال: بايعهم والله فأغلى لهم"[٢].

عن قتادة قوله: "{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم}، الآية. قال: الغزو غزوان: فغزو يطاع الله فيه وينهى فيه عن الفساد، ويحسن فيه مشاركة الشريك فهذا من خير الغزو، وغزو آخر يعصى الله فيه، ويظهر فيه الفساد، وينكل فيه عن العدو ويساء فيه صحابة الصاحب، فهذا من شر الغزو"[٣].

قال التستري:" يعني: اشتراها من شهوات الدنيا وما يوجب الاشتغال عن ذكره، حتى تكون نفسه وماله خالصة له، فمن لم يبع من الله حياته الفانية وشهواته الزائلة، كيف يعيش مع الله تعالى؟ وكيف يحيا حياة طيبة؟ ثم قال: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بما لا خير فيه، وعوضهم ما فيه الخير كله، مع أن ما في الكونين فهو ملكه، وهذا من غاية لطفه وكرمه بعباده المؤمنين. وقد حكي عن مالك بن دينار أنه مر بقصر يعمر، فسأل الأجراء عن أجرتهم، فأجابه كل واحد منهم بما كانت أجرته، ولم يجبه واحد، فقال: ما أجرتك؟ فقال: لا أجر لي. فقال: ولم ذلك؟ قال: لأني عبد صاحب القصر. فقال مالك: إلهي ما أسخاك، الخلق كلهم عبيدك، كلفتهم العمل ووعدتهم الأجر"[٤].

قوله تعالى:{يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [التوبة : ١١١]، أي:" إنهم يقاتلون فى سبيل الحق والعدل التي توصل إلى مرضاة الله تعالى ببذل أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه الصادين عن سبيله، وإما مقتولين شهداء فى هذه السبيل "[٥].

قال الماتريدي:" أي: يقتلون العدو، ويقتلهم العدو"[٦].

قال أبو الليث السمرقندي :"يعني: [يقاتلون] في طاعة الله تعالى مع العدو، يقتلون العدو ويقتلهم العدو"[٧].

قال السعدي:" يخبر تعالى خبرا صدقا، ويعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه {اشترى} بنفسه الكريمة {من المؤمنين أنفسهم وأموالهم} فهي المثمن والسلعة المبيعة، {بأن لهم الجنة} التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات. وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه"[٨].

قال المراغي:" ولا فرق بين القاتل والمقتول فى الفضل والمثوبة عند الله، فكل منهما كان فى سبيله ولم يكن رغبة فى سفك الدماء، ولا حبا للأموال ولا توسلا إلى ظلم العباد كما يفعل الذين يقاتلون لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء"[٩].

عن سعيد بن جبير في قول الله :"{يقاتلون}، يعني: أن يقاتلوا المشركين، في سبيل الله يعني: في طاعة الله، {فيقتلون}، يعني: العدو {ويقتلون} يعني: المؤمنين"[١٠].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٦):ص١٨٨٦/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٧):ص١٨٨٦/٦.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠١٠):ص١٨٨٧/٦.
[٤] تفسير التستري:٧٤.
[٥] تفسير المراغي:٣٢/١١.
[٦] تأويلات أهل السنة:٤٨٥/٥.
[٧] بحر العلوم:٨٩/٢-٩٠.
[٨] تفسير السعدي:٣٥٢.
[٩] تفسير المراغي:٣٢/١١.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٩):ص١٨٨٧/٦.

قرأ حمزة والكسائي «فيقتلون» بالرفع، «ويقتلون» بالنصب، على معنى التقديم والتأخير، وقرأ الباقون «يقتلون» بالنصب «ويقتلون»، بالرفع[١].

قوله تعالى:{وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة : ١١١]، أي:" وعدًا عليه حقًّا في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن المنزل على محمد ﷺ"[٢].

قال الطبري:" يقول: وعدهم الجنة جل ثناؤه، وعدًا عليه حقًّا أن يوفِّي لهم به، في كتبه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وَفَوا بما عاهدوا الله، فقاتلوا في سبيله ونصرةِ دينه أعداءَه، فقَتَلوا وقُتِلوا"[٣].

قال أبو الليث:" يعني: واجبا لهم ذلك، بأن يفي لهم ما وعد، وبين لهم ذلك في التوراة والإنجيل والقرآن [٤].

قال المراغي:" أي: وعدهم وعدا أوجبه على نفسه وجعله حقا وأثبته فى التوراة والإنجيل، وضياعه منهما فى النسخ التي بين يدى أهل الكتاب لا يضير فى ذلك لأنه قد ضاع منهما كثير وحرف بعضهما لفظا ومعنى، ويكفى إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما"[٥].

عن سعيد بن جبير في قوله: "{وعدا عليه حقا}، يعني: ينجز ما وعدهم من الجنة في التوراة والإنجيل والقرآن"[٦].

عن مبارك قال: "سمعت الحسن يقول في قوله: وعدا عليه حقا قال الحسن: أين قال؟ في التوراة والإنجيل والقرآن"[٧].

قوله تعالى:{وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة : ١١١]، أي:" ولا أحد أوفى بعهده من الله لمن وفَّى بما عاهد الله عليه"[٨].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: ومن أحسن وفاءً بما ضمن وشرط من الله"[٩].

قال المراغي:" أي: لا أحد أوفى بعهده وأصدق فى إنجاز وعده من الله، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه"[١٠].

قال السمعاني:" معناه: أن ثواب الجنة وعد حق"[١١].

عن سعيد بن جبير قوله: "{ومن أوفى بعهده من الله}، فليس أحد أوفى بعهده من الله"[١٢].

قوله تعالى:{فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ} [التوبة : ١١١]، أي:" فأظهروا السرور- أيها المؤمنون- ببيعكم الذي بايعتم الله به، وبما وعدكم به من الجنة والرضوان"[١٣].

قال الطبري:" يقول ذلك للمؤمنين: فاستبشروا، أيها المؤمنون، الذين صَدَقوا الله فيما عاهدوا، ببيعكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم به"[١٤].

---

[١] انظر: بحر العلوم:٨٩/٢-٩٠.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٣] تفسير الطبري:٤٩٨/١٤.
[٤] بحر العلوم:٨٩/٢-٩٠.
[٥] تفسير المراغي:٣٢/١١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١١):ص١٨٨٧/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٢):ص١٨٨٧/٦.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٩] تفسير الطبري:٤٩٨/١٤.
[١٠] تفسير المراغي:٣٢/١١.
[١١] تفسير السمعاني:٣٥٠/٢.
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠١٣):ص١٨٨٨/٦.
[١٣] التفسير الميسر:٢٠٤.
[١٤] تفسير الطبري:٤٩٨/١٤.

قال ابن كثير:" أي : فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد ، بالفوز العظيم ، والنعيم المقيم "[١].

قال المراغي:" أي: فإذا كان الأمر على هذه الحال فأظهروا السرور على ما فزتم به من الجنة"[٢].

عن سعيد بن جبير :"{فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به} الرب تبارك وتعالى بإقراركم بالعهد الذي ذكره في الآية"[٣].

قوله تعالى:{وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ١١١]، أي:" وذلك البيع هو الفلاح العظيم"[٤].

قال المراغي:" أي: وذلك الفوز الذي لا فوز أعظم منه، وما يتقدمه من النصر والسيادة والملك لا يعد فوزا إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل"[٥].

عن سعيد في قوله عز وجل: "{وذلك}، يعني: الذي ذكر من الثواب في الجنة للقاتل والمقتول هو الفوز العظيم"[٦].

قال السعدي:" لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله ﷻ، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق"[٧].

عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: "نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد :{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة}، إلى آخر الآية، فكبر الناس في المسجد، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي ردائه على أحد عاتقيه، فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية؟ فقال: نعم فقال الأنصاري: بيع ربيح، لا نقيل ولا نستقيل"[٨].

عن المعرور بن سويد قال: "خرجنا مع عمر في حجة حجها فقرأ هذه الآية: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}، إلى آخر الآية فجعل لهم الصفقتين جميعا"[٩].

وعن الضحاك بن مزاحم، "وسأله رجل عن قوله: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم}، الآية، قال الرجل: ألا أحمل على المشركين فأقاتل حتى أقتل؟ قال: ويلك! أين الشرط؟ {التائبون العابدون}"[١٠] .

الفوائد:

١- بيان فضل الله تعالى ومننه على عباده المؤمنين حيث وهبهم أرواحهم وأموالهم واشتراها منهم.
٢- فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.
٣- على المؤمن أن لا يدخل الضرر على نفسه ولا على ماله بحكم أنهما لله تعالى.

---

[١] تفسير ابن كثير:٢١٩/٤.
[٢] تفسير المراغي:٣٢/١١.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠١٤):ص١٨٨٨/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٥] تفسير المراغي:٣٢/١١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٥):ص١٨٨٨/٦ .
[٧] تفسير السعدي:٣٥٢.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٣):ص١٨٨٦/٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٤):ص١٨٨٦/٦.
[١٠] أخرجه الطبري(١٧٢٧١):ص٥٠٠/١٤.

القرآن

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)} [التوبة : ١١٢]

التفسير:

ومن صفات هؤلاء المؤمنين الذين لهم البشارة بدخول الجنة أنهم التائبون الراجعون عما كرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه، الذين أخلصوا العبادة لله وحده وجدوا في طاعته، الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير أو شر، الصائمون، الراكعون في صلاتهم، الساجدون فيها، الذين يأمرون الناس بكل ما أمر الله ورسوله به، وينهونهم عن كل ما نهى الله عنه ورسوله، المؤدون فرائض الله المنتهون إلى أمره ونهيه، القائمون على طاعته، الواقفون عند حدوده. وبشّر -أيها النبي- هؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات برضوان الله وجنته.

قوله تعالى:{التَّائِبُونَ} [التوبة : ١١٢]، أي:" ومن صفات هؤلاء المؤمنين الذين لهم البشارة بدخول الجنة أنهم التائبون الراجعون عما كرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه"[١].

قال الزجاج:" التائبون الذين تابوا من الكفر"[٢].

قال ابن كثير:" هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة : { التَّائِبُونَ } ، من الذنوب كلها ، التاركون للفواحش"[٣].

قال الماوردي:" يعني من الذنوب، ويحتمل أن يراد بهم الراجعون إلى الله تعالى في فعل ما أمر واجتناب ما حظر لأنها صفة مبالغة في المدح ، والتائب هو الراجع ، والراجع إلى الطاعة أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين"[٤].

عن الحسن :"{التائبون}، قال: تابوا من الشرك وبروءا من النفاق"[٥].

عن الضحاك في قوله: "{التائبون}، قال: من الذنوب والشرك"[٦].

قال الزجاج :" وقوله: (التائبون...}، يصلح أن يكون رفعه على وجوه:

أحدها: المدح، كأنه قال: هؤلاء التائبون، أو هم التائبون.

[والثاني]:ويجوز أن يكون على البدل، المعنى: يقاتل التائبون، وهذا مذهب أهل اللغة.

[والثالث]: قال. أبو إسحاق: والذي عندي والله أعلم أن قوله: التائبون العابدون رفع بالابتداء، وخبره مضمر، المعنى: التائبون العابدون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا، أي: من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد، لأن بعض المسلمين يجزى عن بعض في الجهاد. فمن كانت هذه صفته فله الجنة أيضا"[٧].

قال التستري:" ليس شيء في الدنيا من الحقوق أوجب على الخلق من التوبة، فهي واجبة في كل لمحة ولحظة، ولا عقوبة عليهم أشد من فقد علم التوبة. فقيل: ما التوبة؟ فقال: أن لا تنسى ذنبك، وقال: أول ما يؤمر به المبتدئ التحويل من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة، وهي التوبة ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت، ولا يصح له الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة، ولا تصح له الخلوة إلا بأكل الحلال، ولا يصح له أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى، ولا يصح له أداء الحق إلا بحفظ الجوارح والقلب، ولا يصح له ما وصفنا حتى يستعين بالله عز وجل على جميعه. فقيل: ما علامة صدق التوبة؟ قال علامتها أن يدع ما له سوى ما ليس له. وسئل سهل عن الرجل يتوب ويقلع عن ذلك الذنب، ثم يخطر ذلك بقلبه أو

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٥.

[٢] معاني القرآن:٤٧٢/٢.

[٣] تفسير ابن كثير:٢١٩/٤.

[٤] النكت والعيون:٤٠٦/٢-٤٠٧.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٦):ص١٨٨٨/٦.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٧):ص١٨٨٨/٦.

[٧] معاني القرآن:٤٧١/٢-٤٧٢.

يراه أو يسمع به فيجد حلاوة ذلك الذنب السيئ كيف الحيلة فيه؟ فقال: وجدان الحلاوة من الطبع لا يتحول، فيصير المحبوب مكروها ولكن يقهر عزم القلب فيرجع في ذلك إلى الله عز وجل، ويرفع إليه شكواه، ويلزم نفسه وقلبه الإنكار ولا يفارقه، فإنه إن غفل عن الإنكار طرفة عين تخوفت عليه أن لا يسلم منه. قال: دعوا القال والقيل كله في هذا الزمان، عليكم بثلاث: توبوا إلى الله عز وجل مما تعرفوه بينكم وبينه، وأدوا مظالم العباد التي قبلكم، فإذا أصبحتم فلا تحدثوا أنفسكم بالمساء، وإذا أمسيتم فلا تحدثوا أنفسكم بالصباح، لأن الأحداث قد كثرت، والخطر عظيم، فاتقوا الله، وألزموا أنفسكم التوبة"[١].

قوله تعالى:{الْعَابِدُونَ} [التوبة : ١١٢]، أي:" الذين أخلصوا العبادة لله وحده وجدوا في طاعته"[٢].

قال الزجاج:" الذين عبدوا الله وحده"[٣].

قال الطبري:" هم الذين ذلُّوا خشيةً لله وتواضعًا له ، فجدُّوا في خدمته"[٤].

قال ابن كثير:" أي : القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها ، وهي الأقوال والأفعال فمن أخَصّ الأقوال الحمد "[٥].

وفي قوله تعالى:{الْعَابِدُونَ} [التوبة : ١١٢]، وجوه:

أحدها : العابدون بتوحيد الله تعالى ، قاله سعيد بن جبير[٦].

والثاني : العابدون بطول الصلاة ، قاله الحسن[٧].

والثالث : هم الذين يقيمون الصلاة. قاله ابن عباس[٨].

والرابع: الذين عبدوا الله على أحايينهم كلها ، في السراء والضراء. قاله الحسن أيضا[٩].

وروي عن الحسن : "{العابدون}، قال : العابدون لربهم"[١٠].

والخامس: العابدون لله عز وجل، قاله الضحاك[١١].

والسادس: العابدون: قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم. قاله قتادة[١٢].

قوله تعالى:{الْحَامِدُونَ} [التوبة : ١١٢]، أي:" الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير أو شر"[١٣].

قال الطبري:" إنهم الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير وشر"[١٤].

قال ابن كثير:" أي : القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال"[١٥].

وفي قوله تعالى:{الْحَامِدُونَ} [التوبة : ١١٢]، وجهان:

أحدهما :الحامدون لله تعالى على أحايينهم كلها، في السرّاء والضرّاء. قاله الحسن[١٦]، وقتادة[١].

وقتادة[١].

---

[١] تفسير التستري:٧٤-٧٥.

[٢] التفسير الميسر:٢٠٥.

[٣] معاني القرآن:٤٧٢/٢.

[٤] تفسير الطبري:٥٠١/١٤.

[٥] تفسير ابن كثير:٢١٩/٤.

[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٢٢):ص١٨٨٩/٦.

[٧] انظر:تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠١٩):ص١٨٨٨/٦.

[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠١٨):ص١٨٨٨/٦.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٨٠):ص٥٠١/١٤-٥٠٢.

[١٠] أخرجه الطبري(١٧٢٨١):ص٥٠٢/١٤.

[١١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٢١):ص١٨٨٩/٦.

[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٢٣):ص١٨٨٩/٦.

[١٣] التفسير الميسر:٢٠٥.

[١٤] تفسير الطبري:٥٠٢/١٤.

[١٥] تفسير ابن كثير:٢١٩/٤.

[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٨٣):ص٥٠٢/١٤.

عن الحسن: "أنه سئل عن هذه الآية :{الحامدون}، قال: مثلها، يعني: يحمدون على أحايينهم كلها في السراء والضراء"[٢].
والثاني: الحامدون لله تعالى على دين الإسلام ، قاله الحسن[٣].
قوله تعالى:{السَّائِحُونَ} [التوبة : ١١٢]، أي:" السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم"[٤].
قال ابن كثير:" ومن أفضل الأعمال الصيامُ ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع ، وهو المراد بالسياحة هاهنا ؛ ولهذا قال : { السَّائِحُونَ } كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى : { سَائِحَاتٍ } [التحريم : ٥] أي : صائمات "[٥].
وفي قوله تعالى:{السَّائِحُونَ} [التوبة : ١١٢]، أقوال:
أحدها : المجاهدون. وهو ما روى أبو داود وابن ابي حاتم من حديث أبي أمامة :" أن رجلا قال : يا رسول الله ، ائذن لي في السياحة. فقال النبي ﷺ :«سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»"[٦].
وقال ابن مبارك عن عُمارة بن غَزِيَّة : "أن السياحة ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله ﷺ : «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله ، والتكبير على كل شرف»"[٧].
والثاني : الصائمون، وهو قول أم المؤمنين عائشة[٨]، وابن مسعود[٩]، وأبي هريرة[١٠]، وابن عباس[١١]، والحسن[١٢]، وأبي عبد الرحمن السلمي[١٣]، وسعيد بن جبير[١٤]، ومجاهد[١٥]، وأبي الحسن[١٦]، وأبي عياض[١٧]، وعطاء[١٨]، والضحاك[١٩]، وقتادة[٢٠]، ووهب بن منبه[٢١]، والربيع بن أنس[٢٢]، وأبي عمرو العبدي[٢٣]، وابن قتيبة[٢٤]، والزجاج[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٨٢):ص٥٠٢/١٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٢٦):ص١٨٨٩/٦.
[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٢٥):ص١٨٨٩/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٥.
[٥] تفسير ابن كثير:٢١٩/٤.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٢٧):ص١٨٨٩/٦، وأبو داود في سننه برقم (٢٤٨٦).
[٧] تفسير ابن كثير:٢٢٠/٤. وهذا معضل ، عمارة بن غزية لم يدرك أحدا من الصحابة.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٣١٣):ص٥٠٥٠/١٤-٥٠٦.
قال المحقق:"إبراهيم بن يزيد الخوزي " ، متروك الحديث ، مضى برقم : ٧٤٨٤ ، ١٦٢٥٩ . و " الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث " ، ثقة ، مضى برقم : ١٦٢٥٩ ، ولم يدرك أن يروي عن عائشة ، فهو مرسل عن عائشة . فهذا خبر ضعيف الإسناد جدا .
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٩٦):ص٥٠٤/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٢٨):ص١٨٨٩/٦.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٨٨):ص٥٠٣/١٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٩٢):ص٥٠٣/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٨٩/٦. حكاه دون ذكر السند.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٣٠٤):ص٥٠٤/١٤.
[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٠/٦ حكاه دون ذكر السند.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٩٤):ص٥٠٣/١٤..
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٩٩):ص٥٠٤/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٠/٦ حكاه دون ذكر السند.
[١٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٠/٦ حكاه دون ذكر السند.
[١٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٠/٦ حكاه دون ذكر السند.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٣٠٩):ص٥٠٥/١٤، و تفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٠/٦ حكاه دون ذكر السند.
[١٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٣٠٥)-(١٧٣٠٨):ص٥٠٥/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٠/٦ حكاه دون ذكر السند.
[٢٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٣١٢):ص٥٠٥/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٠/٦ حكاه دون ذكر السند.
[٢١] انظر: تفسير الطبري(١٧٣١١):ص٥٠٥/١٤..
[٢٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٠/٦ حكاه دون ذكر السند.
[٢٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٣٠٢):ص٥٠٤/١٤.
[٢٤] انظر: غريب القرآن:١٩٣.

قال ابن كثير:" فهذه أصح الأقوال وأشهرها"[2].

وقال ابن سلام البغدادي:" {السائحون}، الصائمون بلغة هذيل"[3].

قال الزجاج:" وقوله: {السائحون} في قول أهل اللغة والتفسير جميعا: الصائمون، ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض، وقد قيل: إنهم الذين يديمون الصيام، وقول الحسن في هذا أبين"[4].

عن أبي هريرة قال : "قال لي رسول الله ﷺ : {السائحون}، هم الصائمون"[5].

وروي عن ابن أبي الهذيل قال: "سمعت من سأل أبا عمرو العبدي عن «السائحين»: قال: الذين يديمون الصيام من المؤمنين والرهبان"[6].

وروي عن أبي عمرو العبدي قال: "{السائحون}: الصائمون الذين يديمون الصيام"[7].

قال ابن قتيبة:" وأصل السائح: الذاهب في الأرض. ومنه يقال: ماء سائح وسيح: إذا جرى وذهب. والسائح في الأرض ممتنع من الشهوات. فشبه الصائم به. لإمساكه في صومه عن المطعم والمشرب والنكاح"[8].

الثالث : أن السياحة: قيام الليل وصيام النهار. روي عن إسحاق بن سويد عن أبي فاختة مولى جعدة بن هبيرة "أن عثمان بن مظعون أراد أن ينظر أيستطيع السياحة؟ قال: وكانوا يعدون السياحة قيام الليل وصيام النهار، قال إسحاق: فصادفت يحيى بن عمر بن خراساني فإذا هو يحدث القوم هذا الحديث لم يدع منه حرفا"[9].

والرابع: المهاجرون ، قاله عبد الرحمن بن زيد[10].

قال ابن زيد:" هم المهاجرون، ليس في أمة محمد- ﷺ- سياحة إلا الهجرة وكان سياحتهم الهجرة حين هاجروا إلى المدينة، ليس في أمة محمد ﷺ وترهب"[11].

والخامس: هم طلبة العِلم ، قاله عكرمة[12].

قال ابن كثير:" وليس المراد من «السياحة» ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض ، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتَن والزلازل في الدين ، كما ثبت في صحيح البخاري ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : "يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَم يَتْبَع بها شَعفَ الجبال ، ومواقع القَطْر ، يفر بدينه من الفتن»[13]"[14].

قوله تعالى:{الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} [التوبة : ١١٢]، أي:" الراكعون في صلاتهم، الساجدون فيها"[15].

---

[1] انظر: معاني القرآن:٤٧٢/٢.

[2] تفسير ابن كثير:٢٢٠/٤.

[3] لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم:٦.[مرقم آليا]

[4] معاني القرآن:٤٧٢/٢.

[5] أخرجه الطبري(١٧٢٨٧):ص٥٠٣/١٤.

[6] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣٠):ص١٨٩٠/٦.

[7] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٢٩):ص١٨٩٠/٦.

[8] غريب القرآن:١٩٣.

[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣١):ص١٨٩٠/٦.

[10] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٣٣):ص١٨٩٠/٦، وانظر: تفسير ابن كثير:٢٢٠/٤، وانظر: النكت والعيون٤٠٨/٢.

[11] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣٢):ص١٨٩٠/٦.

[12] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٣٢):ص١٨٩٠/٦، وانظر: تفسير ابن كثير:٢٢٠/٤، وانظر: النكت والعيون٤٠٨/٢.

[13] صحيح البخاري برقم (١٩).

[14] تفسير ابن كثير:٢٢٠/٤.

[15] التفسير الميسر:٢٠٥.

قال الزجاج:" الذين أدوا ما افترض الله عليهم في الركوع والسجود"[١].
قال الطبري:" يعني: المصلين ، الراكعين في صلاتهم ، الساجدين فيها"[٢].
عن سعيد بن جبير: "{الراكعون}، يعني: في الصلوات"[٣].
أخرج الطبري عن الحسن : "{الراكعون الساجدون}، قال : الصلاة المفروضة"[٤].
وأخرج ابن ابي حاتم عن الحسن:"{الساجدون}، في الصلوات المفروضة"[٥].
عن قتادة :"{الساجدون}، قال: ذكر لنا أن أقرب ما يكون العبد إلى الله في سجوده"[٦].

قوله تعالى:{الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة : ١١٢]، أي:" الذين يأمرون الناس بكل ما أمر الله ورسوله به، وينهونهم عن كل ما نهى الله عنه ورسوله"[٧].

قال الطبري:" يعني أنهم يأمرون الناس بالحق في أديانهم ، واتباع الرشد والهدى ، والعمل وينهونهم عن المنكر ، وذلك نهيهم الناسَ عن كل فعل وقول نهى الله عباده عنه"[٨].

قال ابن كثير:" وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركُه "[٩].

عن الحسن في قوله : "{الآمرون بالمعروف} ، قال : أمَا إنهم لم يأمروا الناس حتى كانوا من أهلها {والناهون عن المنكر}، قال : أمَا إنهم لم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه"[١٠].

عن أبي العالية ، قال : كل ما ذكر في القرآن " الأمر بالمعروف " ، و " النهي عن المنكر " ، فالأمر بالمعروف ، دعاءٌ من الشرك إلى الإسلام والنهي عن المنكر، نهيٌ عن عبادة الأوثان والشياطين"[١١].

وفي قوله تعالى:{الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} [التوبة : ١١٢]، ثلاثة وجوه:
أحدها : بكلمة التوحيد«لا إله إلا الله». قاله الحسن[١٢]، وسعيد بن جبير[١٣].
الثاني : بالإسلام [١٤].
قال الزجاج:" الآمرون بالإيمان بالله"[١٥].
والثالث: الآمرون بجميع المعروف. قاله الزجاج أيضا[١٦].

وروي عن الحسن، "أنه سئل عن هذه الآية :{الآمرون بالمعروف}، قال: لم يأمروا بالمعروف حتى كانوا من أهله"[١٧].

وفي قوله تعالى:{وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة : ١١٢]، ثلاثة وجوه:
أحدهما : عن الشرك ، قاله الحسن[١٨]، وسعيد بن جبير[١]، والزجاج[٢].

---

[١] معاني القرآن:٤٧٢/٢. ونسبه إلى الحسن، فقال:" عند الحسن هم الذين يؤدون ما افترض عليهم في ركوعهم وسجودهم". معاني القرآن:٤٧٢/٢
[٢] تفسير الطبري:٥٠٦/١٤.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٣٤):ص١٨٩٠/٦-١٨٩١.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٣١٤):ص٥٠٦/١٤.
[٥] تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٣٥):ص١٨٩٠/٦-١٨٩١.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٣٦):ص١٨٩٠/٦-١٨٩١.
[٧] التفسير الميسر:٢٠٥.
[٨] تفسير الطبري:٥٠٦/١٤.
[٩] تفسير ابن كثير:٢١٩/٤.
[١٠] اخرجه الطبري(١٧٣١٦):ص٥٠٦/١٤-٥٠٧.
[١١] اخرجه الطبري(١٧٣١٧):ص٥٠٧/١٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٣١٥):ص٥٠٦/١٤.
[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٣٧):ص١٨٩١/٦.
[١٤] انظر: النكت والعيون:٤٠٨/٢.
[١٥] معاني القرآن:٤٧٢/٢.
[١٦] انظر: معاني القرآن:٤٧٢/٢.
[١٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣٩):ص١٨٩١/٦، وانظر: الدر/ ٣/ ٢٨١.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٣١٥):ص٥٠٦/١٤.

الثاني : أنهم الذين لم ينهوا عنه حتى انتهوا قبل ذلك عنه ، قاله الحسن [٣].
والثالث: معناه: الناهون عن جميع المنكر. قاله الزجاج[٤].
وروي عن الحسين[٥]: "أنه سئل عن هذه الآية والناهون عن المنكر قال: لم ينهوا الناس عن المنكر حتى انتهوا عنه"[٦].
قوله تعالى:{وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ} [التوبة : ١١٢]، أي:" المحافظون على فرائض الله، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام"[٧].
قال ابن كثير:" وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علما وعملا"[٨].
وفي قوله تعالى:{وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ} [التوبة : ١١٢]، ثلاثة أقوال:
أحدها : القائمون على طاعة الله. قاله ابن عباس[٩].
وروي عن الحسن:"{والحافظون لحدود الله} ، قال : القائمون على أمر الله"[١٠].
وقال الزجاج:"القائمون بأمر الله تعالى"[١١].
والثاني : الحافظون لفرائض الله تعالى من حلاله وحرامه ، قاله قتادة[١٢].
وروي عن الحسن:"{والحافظون لحدود الله} ، قال : لفرائض الله"[١٣].
والثالث : الحافظون لشرط الله في الجهاد ، قاله مقاتل بن حيان[١٤].
قال مقاتل بن حيان:" يعني: الحافظين لشرط الله في الجهاد، فمن وفى بهذا الشرط، وفى الله له بالجنة"[١٥].
وروي عن ابن عباس:"{والحافظون لحدود الله}، يعني : القائمين على طاعة الله. وهو شرطٌ اشترطه على أهل الجهاد ، إذا وَفَوا الله بشرطه ، وفى لهم بشرطهم"[١٦].
قوله تعالى:{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة : ١١٢]، أي:" وبشِّر -أيها النبي- هؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات برضوان الله وجنته"[١٧].
قال الطبري:"يعني : وبشّر المصدِّقين بما وعدهم الله إذا هم وفَّوا الله بعهده ، أنه مُوفٍّ لهم بما وعدهم من إدخالهم الجنة"[١٨].
قال ابن كثير:" قال:{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}، لأن الإيمان يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به"[١٩].
وفي قوله تعالى:{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة : ١١٢]، وجوه:
أحدها : يعني المصدقين بما وعد الله تعالى في هذه الآيات . قاله سعيد بن جبير[١].

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٤٠):ص١٨٩١/٦.
[٢] انظر: معاني القرآن:٤٧٢/٢.
[٣] انظر: النكت والعيون:٤٠٨/٢.
[٤] انظر: معاني القرآن:٤٧٢/٢.
[٥] كذا في المطبوع.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٤١):ص١٨٩١/٦-١٨٩٢.
[٧] صفوة التفاسير:٥٢٦/١.
[٨] تفسير ابن كثير:٢١٩/٤.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٣١٩):ص٥٠٨/١٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٧٣٢٠):ص٥٠٨/١٤.
[١١] انظر: معاني القرآن:٤٧٢/٢، وذكره الماوردي في النكت والعيون:٤٠٨/٢. دون نسبته لأحد.
[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٤٣):ص١٨٩٢/٦.
[١٣] أخرجه الطبري(١٧٣٢١):ص٥٠٨/١٤.
[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٤٤):ص١٨٩٢/٦.
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٤٤):ص١٨٩٢/٦.
[١٦] أخرجه الطبري(١٧٣١٨):ص٥٠٧/١٤.
[١٧] التفسير الميسر:٢٠٥.
[١٨] تفسير الطبري:٥٠٨/١٤.
[١٩] تفسير ابن كثير:٢١٩/٤.

والثاني : يعني: القائمين على طاعة الله. قاله ابن عباس[٢].
والثالث: يعني: وبشر الذين لم يهز من الفقرائ. وهذا مروي عن الحسن أيضا[٣].
والرابع: يعني: وبشر العاملين بما ندب الله إليه في هذه الآيات، ذكره الماوردي وقال:وهذا أشبه بقول الحسن"[٤].

قال الطبري:" وقال بعضهم : معنى ذلك : وبشر من فعل هذه الأفعال يعني قوله : (التائبون العابدون) ، إلى آخر الآية وإن لم يغزوا... عن الحسن : «{وبشر المؤمنين} ، قال : الذين لم يغزوا»[٥]"[٦].

وفي هذا السياق روي عن الحسن : "{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم}، حتى ختم الآية ، قال الذين وفوا ببيعتهم {التائبون العابدون الحامدون} ، حتى ختم الآية ، فقال : هذا عملهم وسيرهم في الرخاء ، ثم لقوا العدوّ فصدَقوا ما عاهدوا الله عليه"[٧].

وفيه أيضا وروي عن الحسن:"{وبشر المؤمنين}: الذين أيضا لا يجاهدون"[٨].

الفوائد:

١- وعد الله الجنة للمؤمنين المجاهدين وعداً موثقاً وذكر تسعة أوصاف لهم فثبت أنهم كانوا كذلك ويفوزون بالجنة.
٢- على المؤمن أن يتعاهد نفسه ليرى هل هو متصف بهذه الصفات التسع أولا فإن رأى نقصا كمله وإن رأى كمالا حمد الله تعالى عليه وحفظه وحافظ عليه.
٣- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو من أعظم فرائض الله تعالى والجهاد في سبيله الذي هو ذروة سنام الإسلام، وعليه يترتب لأوليائه الفتح أو الشهادة.
٤- ويستفاد من الآية: أن لإيمان إخلاص لله بالقلوب، وشهادة بالألسنة، وعمل بالجوارح، على نية حسنة وإصابة السنة.

والإيمان بالله هو باللسان والقلب وتصديق ذلك العمل. فالقول والعمل قرينان لا يقوم أحدهما إلا بصاحبه[٩].

٥- أن الجنة لا يدخلها إلا من قام بجلائل الأعمال، واتصف بكرائم الصفات.

القرآن

{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)} [التوبة : ١١٣]

التفسير:

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٤٧):ص١٨٩٢/٦-١٨٩٣.

[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٤٥):ص١٨٩٢/٦.

أخرج ابن ابي حاتم أبي ثنا أبو صالح ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: وبشر المؤمنين يعني: القائمين على طاعة الله وهو شرط اشترطه على أهل الجهاد إذا وفوا الله شرطه، وفي لهم بشرطه".

وأخرج الطبري١٧٣١٨ :ص٥٠٧/١٤ عن المثنى قال ، حدثنا عبد الله بن صالح قال ، حدثني معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس : (والحافظون لحدود الله) ، يعني : القائمين على طاعة الله. وهو شرطٌ اشترطه على أهل الجهاد ، إذا وَفَوا الله بشرطه ، وفى لهم بشرطهم".

[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٤٦):ص١٨٩٢/٦.

[٤] النكت والعيون:٤٠٨/٢.

[٥] تفسير الطبري(١٧٣٢٣):ص٥٠٨/١٤.

[٦] تفسير الطبري:٥٠٨/١٤.

[٧] أخرجه الطبري(١٧٣٢٢):ص٥٠٨/١٤.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٤٨):ص١٨٩٣/٦.

[٩] انظر: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (أكثر من ٩٠٠٠ موقف لأكثر من ١٠٠٠ عالم على مدى ١٥ قرنًا، المغراوي:٢٠/٦-٢١..

ما كان ينبغي للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كانوا ذوي قرابة لهم مِن بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم لموتهم على الشرك، والله لا يغفر للمشركين.
في سبب نزول الآية أقوال:
أحدها: عن أبي الخليل عن علي قال: "سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ قال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرته لرسول الله- ﷺ- فنزلت {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى}"[1].
وروي عن ابن عباس قوله: "{ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين}، وكانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الإستغفار ولم ينتهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ثم أنزل الله: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه}، يعني: استغفر له ما كان حيا، فلما مات أمسك عن الإستغفار"[2].
والثاني: عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رسول الله- ﷺ- يوما إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلا، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه، ثم دعانا فقال: ما أبكاكم؟ قلنا: بكينا لبكائك، قال: إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل على ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى فأخذني ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة"[3].
وقال مقاتل:" وذلك أن النبي- ﷺ- سأل بعد ما افتتح مكة: أي أبويه أحدث به عهدا؟ قيل له: أمك آمنة بنت وهب بن عبد مناف. قال: حتى أستغفر لها فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك. فهم النبي- ﷺ- بذلك فأنزل الله- عز وجل-:{ما كان للنبي}"[4].
والثالث: عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة فدخل عليه النبي- ﷺ- وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: فكان آخر شيء كلمهم به أن قال: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى}"[5].
قوله تعالى:{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة : ١١٣]، أي:" ما كان ينبغي للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا أن يدعوا بالمغفرة للمشركين"[6].
قوله تعالى:{وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} [التوبة : ١١٣]، أي:" ولو كان المشركون ذوي قرابة لهم"[7].
قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة : ١١٣]، أي:" من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر"[8].
عن أبي مالك قوله: "{الجحيم}، قال: ما عظم من النار"[9].
الفوائد:

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٤٩):ص١٨٩٣/٦.
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٠):ص١٨٩٣/٦.
[3] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥١):ص١٨٩٣/٦-١٨٩٤.
[4] تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٩/٢.
[5] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٢):ص١٨٩٤/٦.
[6] التفسير الميسر:٢٠٥.
[7] التفسير الميسر:٢٠٥.
[8] صفوة التفاسير:٥٢٦/١.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٣):ص١٨٩٤/٦.

١- حرمة الاستغفار لمن مات على الشرك لأن الله لا يغفر أن يشرك به فلذا لا يطلب منه شيء أخبر أنه لا يفعله.
٢- تحريم موالات المشركين ومحبتهم، لأنه إذا حرم الاستغفار لهم، فموالاتهم ومحبتهم أولى.
٣- أنه لا وسيلة للعبد إلى نيل شفاعة النبي - صلّى الله عليه وسلّم - إلا بالإيمان به وبما جاء به من توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، ومحبته واتباعه وتعظيم أمره ونهيه، والدعوة إلى ما بعث به من دين الله، والنهي عما نهى عنه.
٤- أنه من حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أنه أبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي صلي الله عليه وسلم " لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك". فأنزل الله عز وجل: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} ٦. وأنزل الله ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي صلي الله عليه وسلم - الذي هو أفضل خلقه - من هداية القلوب وتفريج الكروب؛ ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء؛ لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول! وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده[١].
٥- وفي الآية الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف، أي: إذا زاد على المشروع بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

وفي الحديث:« والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، قاله لأبى طالب»[٢].

قال النووي: "وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييبا لنفس أبي طالب"[٣].

القرآن

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)} [التوبة : ١١٤]

التفسير:

وما كان استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك، إلا عن موعدة وعدها إياه، وهي قوله: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} . فلما تبيَّن لإبراهيم أن أباه عدو لله ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير، وأنه سيموت كافرًا، تركه وترك الاستغفار له، وتبرأ منه. إن إبراهيم عليه السلام عظيم التضرع لله، كثير الصفح عما يصدر مِن قومه من الزلات.

سبب النزول:

قال محمد بن كعب:" لما مرض أبو طالب أتاه النبي- ﷺ-، فقال المسلمون: هذا محمد يستغفر لعمه وقد استغفر إبراهيم لأبيه، قال: فاستغفروا لقراباتهم من المشركين قال: ثم أنزل الله: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه}، قال: كان يرجوه في حياته فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه"[٤].

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ} [التوبة : ١١٤]، أي:" وما كان استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك، إلا عن موعدة وعدها إياه"[٥].

---

[١] انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد:٢١٤-٢١٥.
[٢]أخرجه البخارى (٤٥٧/١، رقم ١٢٩٤) ومسلم (٥٤/١، رقم ٢٤) . وأخرجه أيضا: أبو عوانة (٢٤/١، رقم ٢٢) وابن حبان (٢٦٢/٣، رقم ٩٨٢) ، وابن منده (١٧٩/١، رقم ٣٧).
[٣] نقلا عن: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد:٢١٥.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٦):ص١٨٩٤/٦-١٨٩٥.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٥.

عن أبي الخليل قال سمعت عليا يقول: "أنزل الله عذر إبراهيم فقال: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه}"(1).

عن ابن عباس قال: "ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله، لم يستغفر له"(2).

قوله تعالى:{فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} [التوبة : ١١٤]، أي:" فلما تبيَّن لإبراهيم أن أباه عدو لله ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير، وأنه سيموت كافرًا، تركه وترك الاستغفار له، وتبرأ منه"(3).

عن ابن المسيب عن أبيه :"{فلما تبين له أنه عدو لله}، قال: لما مات وهو كافر"(4).

وروي عن مجاهد والحسن، "أنهما قالا: لما مات"(5).

قال قتادة:"ثم عذر الله نبيه إبراهيم فقال: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله} لما مات على شركه {تبرأ منه}"(6). وفي رواية أخرى قال قتادة:" تبين له حين مات، وعلم أن التوبة قد انقطعت منه"(7).

قال ابن عباس:" كان إبراهيم- ﷺ- يستغفر لأبيه فلما مات لم يستغفر له"(8).

وروي عن الحكم بن عتيبة قال: "تبرأ منه حين مات ولم يؤمن"(9).

قوله تعالى:{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة : ١١٤]، أي:" إن إبراهيم عليه السلام عظيم التضرع لله، كثير الصفح عما يصدر مِن قومه من الزلات"(10).

عن عبد الله بن شداد قال: "قال رجل: يا رسول الله، ما «الأواه؟» قال: الخاشع، المتضرع الدعاء، قال: إن إبراهيم لأواه حليم"(11).

عن شعبة عن أبي يونس الباهلي :"سمعت رجلا كان بمكة أصله رومي يحده عن أبي ذر، قال: كان رجل يطوف بالبيت ويقول في دعائه: أوه أوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لأواه، قال أبو ذر فخرجت ليلة فإذا رسول الله- ﷺ- معه المصباح يدفن ذلك الرجل"(12).

قال ابن كثير:" هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه"(13).

وروي عن يحيى بن الجزار "أن أبا العبيدين سأل عبد الله عن «الأواه»؟ فقال: الرحيم"(14). وروي عن أبي ميسرة. والحسن ومجاهد وقتادة مثل ذلك(15).

وروي عن ابن عباس قال: "«الأواه»: الموقن"(16).

عن مجاهد وعكرمة قالا:"«الأواه»: الموقن بلسان الحبشة"(17).

---

(1) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٤):ص١٨٩٤/٦.
(2) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٥):ص١٨٩٤/٦.
(3) التفسير الميسر:٢٠٥.
(4) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٨):ص١٨٩٥/٦.
(5) تفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٥/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(6) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٧):ص١٨٩٥/٦.
(7) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٩):ص١٨٩٥/٦.
(8) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٠):ص١٨٩٥/٦.
(9) تفسير ابن أبي حاتم:١٨٩٥/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(10) التفسير الميسر:٢٠٥.
(11) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٢):ص١٨٩٥/٦-١٨٩٦.
(12) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦١):ص١٨٩٥/٦.
(13) تفسير ابن كثير:٢٢٦/٤.
(14) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٣):ص١٨٩٦/٦.
(15) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٩٦/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(16) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٤):ص١٨٩٦/٦.
(17) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٥):ص١٨٩٦/٦.

وروي عن مجاهد قال:" فقيه موقن"[١].
وروي عن ابن عباس قوله: "{إن إبراهيم لأواه}، يعني: التواب"[٢].
وعن مجاهد قال: "«الأواب»: المنيب"[٣].
وروي عن أبي أيوب قال: "«الأواه»: الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها"[٤].
وعن مجاهد في قول آخر: "«الأواه»: الحفيظ، الرجل يذنب الذنب سرا ثم يتوب منه سرا"[٥].
وروي عن أبي الدرداء قال: "لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه"[٦].
وعن الشعبي قوله:"«اواه»: المسبح"[٧].
وروي عن الحسين في قوله: "{إن إبراهيم لأواه حليم}، قال: الحليم: الرحيم"[٨].

الفوائد:

١- وجوب الوفاء بالوعود والعهود.
٢- أن ما وجب للأبوين الكافرين من بر وإحسان وتذلل ليس هو التعظيم الواجب لمن فضله الله عز وجل، لأن التعظيم الواجب لمن فضله الله عز وجل هو مودة في الله ومحبة فيه وولاية له، وأما البر الواجب للأبوين الكافرين والتذلل لهما والإحسان إليهما فكل ذلك مرتبط بالعداوة ولله تعالى وللبراءة منه وإسقاط المودة كما قاله تعالى في نص القرآن[٩]. القرآن[٩].
٣- أن صفة «الحلم» من الصفات التي اختلف فيها المتكلمون، هل هي صفات فعل أو صفات معنى؟ قيل: أنها صفات معان قائمة بذات الله - جلّ وعلا –
فإنه وصف نفسه - سبحانه - بالحلم، قال: {ليدخلنَّهم مدخلاً يرضونه وإنَّ الله لعليم حليمٌ} [الحج: ٥٩] {واعلموا أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أنَّ الله غفور حليمٌ} [البقرة: ٢٣٥] ، {قولٌ معروفٌ ومغفرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى والله غني حليم ٌ} [البقرة: ٢٦٣] .
ووصف بعض المخلوقين بالحلم، قال: {إنَّ إبراهيم لأوَّاه حليمٌ} [التوبة: ١١٤]، {فبشَّرناه بغلامٍ حليمٍ} [الصافات: ١٠١][١٠].

القرآن

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)} [التوبة : ١١٥]

التفسير:

وما كان الله ليضلَّ قومًا بعد أن مَنَّ عليهم بالهداية والتوفيق حتى يبيِّن لهم ما يتقونه به، وما يحتاجون إليه في أصول الدين وفروعه. إن الله بكل شيء عليم، فقد علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبيَّن لكم ما به تنتفعون، وأقام الحجة عليكم بإبلاغكم رسالته.
في سبب نزول الآية قولان:

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٦):ص١٨٩٦/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٧):ص١٨٩٦/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٨):ص١٨٩٦/٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٩):ص١٨٩٦/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧١):ص١٨٩٧/٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٠):ص١٨٩٧/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٢):ص١٨٩٧/٦.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٣):ص١٨٩٧/٦.
[٩] انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، القرطبي:٩٤/٤.
[١٠] انظر: العقيدة في الله، عمر بن سليمان الأشقر:٢٣٦.

أحدهما: قال مقاتل والكلبي[1]:" وذلك أن الله أنزل فرائض فعمل بها المؤمنون ثم نزل بعد ما نسخ به الأمر الأول فحولهم إليه، وقد غاب أناس لم يبلغهم ذلك فيعملوا بالناسخ بعد النسخ وذكروا ذلك للنبي- ﷺ- فقالوا: يا نبي الله، كنا عندك والخمر حلال والقبلة إلى بيت المقدس ثم غبنا عنك فحولت القبلة ولم نشعر بها فصلينا إليها بعد التحويل والتحريم. وقالوا: ما ترى يا رسول الله. فأنزل الله- عز وجل- {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}"[2].

وقال السمعاني:" أن قوما كانوا أتوا النبي فأسلموا، ولم تكن الخمر حرمت ولا القبلة صرفت، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك، ثم حرمت الخمر (و) صرفت القبلة ولم يكن لهم علم بذلك، فلما قدموا بعد ذلك للمدينة وجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت، فقالوا للنبي: قد كنت على دين ونحن على (غيره) فنحن ضلال؟ فأنزل الله {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}"[3].

والثاني: "أن الآية في الاستغفار للمشركين؛ فإن جماعة من الصحابة كانوا استغفروا لآبائهم ولم يعلموا أن ذلك لا يجوز، فلما أنزل النهي عنه خافوا على أنفسهم خوفا شديدا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية"[4].

قال الشوكاني:" لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل الله سبحانه :{وما كان الله ليضل قوما...} "[5].

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} [التوبة : ١١٥]، أي:" وما كان الله ليضلَّ قومًا بعد أن مَنَّ عليهم بالهداية والتوفيق حتى يبيِّن لهم ما يتقونه به، وما يحتاجون إليه في أصول الدين وفروعه"[6].

قال الشوكاني:" أي: أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم إلى الإسلام، والقيام بشرائعه ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرم، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به، ومعنى :{حتى يبين لهم ما يتقون}: حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع"[7].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما كان الله ليقضي عليكم، في استغفاركم لموتاكم المشركين، بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدَّم إليكم بالنهي عنه، فتتركوا الانتهاء عنه. فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهيّ، فأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائنٍ مطيعًا أو عاصيًا فيما لم يؤمَرْ به ولم ينه عنه"[8].
عنه"[8].

عن سعيد:{ مَا يَتَّقُونَ}، "ما يتقون قال: ما يأتونه، وما ينتهون عنه"[9].

قال مجاهد:" يبين الله للمؤمنين في أن لا يستغفروا للمشركين في بيانه في طاعته وفي معصيته، فافعلوا أو ذروا"[10].

---

[1] حكاه عنهما البغوي في تفسيره:١٠٣/٤. واللفظ لمقاتل كما في تفسيره:٢٠٠/٢
[2] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٠/٢.
[3] تفسير السمعاني:٣٥٥/٢.
[4] تفسير السمعاني:٣٥٥/٢.
[5] فتح القدير:٤٦٩/٢.
[6] التفسير الميسر:٢٠٥.
[7] فتح القدير:٤٦٩/٢.
[8] تفسير الطبري:٥٣٦/١٤.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٥):ص١٨٩٧/٦.
[10] أخرجه الطبري(١٧٤٢٢):ص٥٣٧/١٤.

وعن مجاهد في رواية أخرى :"{وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}، قال: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة وفي بيانه طاعته وفي معصيته عامة، ما فعلوا أو تركوا"[١].

وقال الضحاك: "ما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون"[٢].

قال الزمخشري:" يعنى: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضلالا، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم. وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه. وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها: وهي أن المهدى للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال"[٣].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التوبة : ١١٥]، أي:" إن الله بكل شيء عليم، فقد علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبيَّن لكم ما به تنتفعون، وأقام الحجة عليكم بإبلاغكم رسالته"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بما خالط أنفسكم عند نهي الله إياكم من الاستغفار لموتاكم المشركين، من الجزع على ما سلف منكم"[٥].

قال الشوكاني:" {عليم}، مما يحل لعباده ويحرم عليهم، ومن سائر الأشياء التي خلقها"[٦].

قال الصابوني:" أي: عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق الإضلال"[٧].

وقال مقاتل:يعني:" من أمرهم بنسخ ما يشاء من القرآن فيجعله منسوخا ويقر ما يشاء فلا ينسخه"[٨].

الفوائد:

١- أعلم الله سبحانه أنه لا يؤاخذ إلا بعد البيان، ولا يعاقب إلا بعد الإنذار.
٢- ليس من سنة الله تعالى في الناس أن يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه.
٣- ويستفاد من الآية الكريمة: أن القرآن الكريم هو كتاب العقيدة والإيمان. فليس وراءه مصدر إلا ما كان يخرج من مشكاته، وهو الحكمة أو سنة النبي ﷺ.
٤- ومن أسمائه تعالى: «العليم»، أي: المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٩].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٤):ص١٨٩٧/٦.
(٢) تفسير البغوي:١٠٣/٤.
(٣) الكشاف:٣١٦/٢.
(٤) التفسير الميسر:٢٠٥.
(٥) تفسير الطبري:٥٣٦/١٤.
(٦) فتح القدير:٤٦٩/٢.
(٧) صفوة التفاسير:٥٢٧/١.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٠/٢.
(٩) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[١].

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)} [التوبة : ١١٦]

التفسير:

إن الله مالك السموات والأرض وما فيهن لا شريك له في الخلق والتدبير والعبادة والتشريع، يحيي مَن يشاء ويميت مَن يشاء، وما لكم مِن أحد غير الله يتولى أموركم، ولا نصير ينصركم على عدوكم.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [التوبة : ١١٦]، أي:" إن الله مالك السموات والأرض وما فيهن لا شريك له في الخلق والتدبير والعبادة والتشريع"[٢].

قوله تعالى:{يُحْيِي وَيُمِيتُ} [التوبة : ١١٦]، أي:" يحيي مَن يشاء ويميت مَن يشاء"[٣].

قوله تعالى:{وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة : ١١٦]، أي:" وما لكم مِن أحد غير الله يتولى أموركم، ولا نصير ينصركم على عدوكم"[٤].

قال البيضاوي:" لما منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأسا، بين لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشراشرهم إليه ويتبرؤوا مما عداه حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه"[٥].

قال القاسمي:كهذه الآية" تقوية لما تقدم من التبرؤ منهم، وإرشاد للمؤمنين بأن يتكلوا على ربهم، ولا يرهبوا من أولئك، فإنه إذا كان ناصرهم فلا يضرهم كيدهم، وتنبيه على لزوم امتثال أمره، والانقياد لحكمه، والتوجه إليه وحده، إذ لا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى"[٦].

الفوائد:

١- عرَّفنا ربُّنا - تبارك وتعالى - في هذه الآية الكريمة أنَّ له ملك السموات والأرض، ومالك السموات والأرض هو خالقهما الذي لم يشركه أحدٌ في خلقهما.

٢- وعرَّفنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ - أنه يحيي ويميت سبحانه، فهو مما اختُصَّ به، لا يشركه في ذلك أحد، كما قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [المالك:

٣- ليس للعبد من دون الله من ولي يتولاه ولا نصير ينصره ولذا وجبت ولاية الله بطاعته واللجوء إليه بالتوكل عليه.

٤- ومن الفوائد اثبات اسمان من اسمائه تعالى، وهما: «المولى» و«النصير»:

- فـ«المولى»»: أي:" الناصر: والمعين"[٧].
- و«النصير»: هو الموثوق منه بان لا يسلم وليه ولا يخذله"[٨].

---

[١] شأن الدعاء:٥٧.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٥.
[٣] التفسير الميسر:٢٠٥.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٥.
[٥] تفسير البيضاوي:١٠٠/٣.
[٦] محاسن التأويل:٥١٧/٥.
[٧] شأن الدعاء:١٠١.
[٨] الأسماء والصفات للبيهقي:٩١.

القرآن

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)} [التوبة : ١١٧]

التفسير:

لقد وفَّق الله نبيه محمدا ﷺ إلى الإنابة إليه وطاعته، وتاب الله على المهاجرين الذين هجروا ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وتاب على أنصار رسول الله ﷺ الذين خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة (تبوك) في حرٍّ شديد، وضيق من الزاد والظَّهْر، لقد تاب الله عليهم من بعد ما كاد يَميل قلوب بعضهم عن الحق، فيميلون إلى الدَّعة والسكون، لكن الله ثبتهم وقوَّاهم وتاب عليهم، إنه بهم رؤوف رحيم. ومن رحمته بهم أنْ مَنَّ عليهم بالتوبة، وقَبِلَها منهم، وثبَّتهم عليها.

قوله تعالى:{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [التوبة : ١١٧]، أي:" لقد وفَّق الله نبيه محمدا ﷺ إلى الإنابة إليه وطاعته، وتاب الله على المهاجرين الذين هجروا ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وتاب على أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة (تبوك) في حرٍّ شديد، وضيق من الزاد والظَّهْر"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته، نبيّه محمدًا ﷺ، والمهاجرين ديارَهم وعشيرتَهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله الذين اتبعوا رَسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء"[٢].

عن مجاهد: "{ساعة العسرة}، قال: غزوة تبوك، قال: "العسرة"، أصابهم جَهْدٌ شديد، حتى إن الرجلين ليشقّان التمرة بينهما، وأنهم ليمصُّون التمرة الواحدة، ويشربون عليها الماء"[٣].

عن عبد الله بن محمد بن عقيل: "{في ساعة العسرة}، قال: خرجوا في غزوةٍ، الرجلان والثلاثة على بعير. وخرجوا في حرٍّ شديد، وأصابهم يومئذ عطش شديد، فجعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها، ويشربون ماءه، وكان ذلك عسرة من الماء، وعسرة من الظهر، وعسرة من النفقة"[٤].

عن قتادة قوله: "{لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوا في ساعة العسرة}، الآية، الذين اتبعوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قِبَل الشأم في لهَبَانِ الحرّ على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقّان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم، يمصُّها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصُّها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوهم"[٥].

عن عبد الله بن عباس: "أنه قيل لعمر بن الخطاب رحمة الله عليه في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمسُ الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فَرْثه فيشربه[٦]، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيرًا، فادع لنا! قال: تحب ذلك؟ قال: نعم!

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٥.

[٢] تفسير الطبري:٥٣٩/١٤.

[٣] أخرجه الطبري(١٧٤٢٥):ص٥٤٠/١٤، وانظر: (١٧٤٢٣):ص٥٣٩-٥٤٠.

[٤] أخرجه الطبري(١٧٤٢٤):ص٥٤٠/١٤.

[٥] أخرجه الطبري(١٧٤٢٨):ص٥٤١/١٤.

[٦] الفرث "، سرجين الكرش ما دام في الكرش.

فرفع يديه، فلم يَرْجِعهما حتى قالت السماء[١]، فأظلّت، ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها، جاوزت العسكر"[٢].

وفي هذه التوبة من الله على النبي -ﷺ- والمهاجرين والأنصار وجهان محتملان :

أحدهما : استنقاذهم من شدة العسر .

والثاني : أنها خلاصهم من نكاية العدوّ . وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه وهو الرجوع إلى الحالة الأولى .

قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} [التوبة : ١١٧]، أي:" من بعد ما كاد يَميل قلوب بعضهم عن الحق، فيميلون إلى الدَّعة والسكون"[٣].

قال الطبري:" يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه"[٤].

وفي قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} [التوبة : ١١٧]، وجهان[٥]:

أحدهما : تتلف بالجهد والشدة .

والثاني : تعدِل عن الحق في المتابعة والنصرة ، قاله ابن عباس .

قوله تعالى:{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} [التوبة : ١١٧]، أي:" وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا"[٦].

قال مقاتل:" يعنى: تجاوز عنهم"[٧].

قال الطبري:" يقول: ثم رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم"[٨].

وهذه التوبة غير الأولى ، وفيها قولان[٩]:

أحدهما : أن التوبة الأولى في الذهاب ، والتوبة الثانية في الرجوع .

والقول الثاني : أن الأولى في السفر ، والثانية بعد العودة إلى المدينة .

فإن قيل بالأول ، أن التوبة الثانية في الرجوع ، احتملت وجهين[١٠]:

أحدهما : أنها الإذن لهم بالرجوع إلى المدينة .

الثاني : أنها بالمعونة لهم في إمطار السماء عليهم حتى حيوا ، وتكون التوبة على هذين الوجهين عامة .

وإن قيل إن التوبة الثانية بعد عودهم إلى المدينة احتملت وجهين[١١]:

أحدهما : أنها العفو عنهم من ممالأة من تخلف عن الخروج معهم .

الثاني : غفران ما همَّ به فريق منهم من العدول عن الحق ، وتكون التوبة على هذين الوجهين خاصة .

قوله تعالى:{إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ١١٧]، أي:" إنه بهم رؤوف رحيم"[١٢].

---

[١]قالت السماء "، أي: أقبلت بالسحاب، وفي ابن كثير، وغيره " سالت " وليست بشيء. وهذا تعبير عزيز جيد. وقوله: " فأظلت "، أي: جاء السحاب بالظل، وفي ابن كثير وغيره " فأهطلت "، وليست بشيء. وفي مجمع الزوائد: " فأطلت "، وكأنه تصحيف.[تفسير الطبري:٥٤١/١٤]

[٢] أخرجه الطبري(١٧٤٢٩):ص٥٤١/١٤-٥٤٢.

[٣] التفسير الميسر:٢٠٥.

[٤] تفسير الطبري:٥٣٩/١٤.

[٥] انظر:النكت والعيون:٤١٢/٢.

[٦] صفوة التفاسير:٥٢٨/١.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠١/٢.

[٨] تفسير الطبري:٥٣٩/١٤.

[٩] انظر:النكت والعيون:٤١٢/٢.

[١٠] انظر:النكت والعيون:٤١٢/٢.

[١١] انظر:النكت والعيون:٤١٢/٢.

[١٢] التفسير الميسر:٢٠٥.

قال الطبري:" يقول: إن ربكم بالذين خالط قلوبَهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة رءوف بهم ، {رحيم} أن يهلكهم، فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلَوْا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء"[١].

قال مقاتل:" يعني: يرق لهم حين تاب عليهم، يعني أبا لبابة وأصحابه"[٢].

الفوائد:

١- بيان فضل أصحاب رسول الله ﷺ، إذ شهدت نصوص القرآن على عدالتهم والرضا عن جملتهم.

وفي ذلك دليل على عظمة قدرهم عند الله تعالى، وكرامتهم ودرجتهم عند الرسول ﷺ، فليت شعري: كيف يستجيز ذو دين الطعن فيهم، ونسبة الكفر إليهم!

وقد روي عن عبد الله بن مسعود، قال: " إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ "[٣].

٢- بيان فضل غزوة العسرة على غيرها من الغزوات "وهي غزوة تبوك".

٣- بيان فضل الله على المؤمنين بعصمة قلوبهم من الزيغ في حال الشدة.

٤- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«الرءوف»«والرحيم»:

فـ«الرؤوف»:" أي: شديد الرأفة بعباده"[٤].

قال الخطابي:"«الرؤوف»: هو الرحيم العاطف برأفته على عباده، وقال بعضهم: الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. ويقال: إن الرافة أخص، والرحمة أعم، وقد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة، ولا تكاد الرأفة تكون في الكراهة؛ فهذا موضع الفرق بينهما"[٥].

قال الزجاج:" يقال إن الرأفة والرحمة واحد وقد فرقوا بينهما أيضا وذلك أن الرأفة هي المنزلة الثانية يقال فلان رحيم فإذا اشتدت رحمته فهو رؤوف"[٦].

- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٧].

١- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه- [٨].

القرآن

---

[١] تفسير الطبري:٥٣٩/١٤.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠١/٢.

[٣]إسناده حسن ، أخرجه أحمد في المسند(٣٦٠٠):ص٨٤/٦، وأخرجه البزار (١٣٠) (زوائد) ، والطبراني في "الكبير" (٨٥٨٢)، وأورده الهيثمي في "المجمع" ١٧٧/١-١٧٨، ونسبه إلى أحمد والبزار والطبراني، وقال: رجاله موثقون.

وأخرجه بنحوه الطيالسي (٢٤٦) ، ومن طريقه أبو نعيم في "الحلية" ٣٧٥/١-٣٧٦، والطبراني في "الكبير" (٨٥٨٣) ، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" ١٦٦/١-١٦٧، والبغوي في "شرح السنة" (١٠٥).

[٤] تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي:١٩٨.

[٥] شأن الدعاء:٩١.

[٦] تفسير اسماء الله الحسنى:٦٢.

[٧] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

[٨] انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٥٩/٢.

{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)} [التوبة : ١١٨]

التفسير:

وكذلك تاب الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا من الأنصار -وهم كعب بن مالك وهلال بن أُميَّة ومُرَارة بن الربيع- تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ، وحزنوا حزنًا شديدًا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسَعَتها غمًّا وندمًا بسبب تخلفهم، وضاقت عليهم أنفسهم لِمَا أصابهم من الهم، وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وفَّقهم الله سبحانه وتعالى إلى الطاعة والرجوع إلى ما يرضيه سبحانه. إن الله هو التواب على عباده، الرحيم بهم.

سبب النزول:

عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك، وهو يريد الروم ونصارى العرب بالشام، حتى إذا بلغ تبوك، أقام بها بضع عشرة ليلة، ولقيه بها وفد أذْرُح ووفد أيلة، فصَالحهم رسول الله ﷺ على الجزية، ثم قَفَل رسول الله ﷺ من تبوك ولم يجاوزها، وأنزل الله: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوا في ساعة العسرة) ، الآية، والثلاثة الذين خلفوا: رَهْطٌ منهم: كعب بن مالك، وهو أحد بني سَلِمة، ومرارة بن ربيعة، وهو أحد بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية، وهو من بني واقف، وكانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في تلك الغزوة في بضعة وثمانين رجلا. فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، صَدَقه أولئك حديثهم، واعترفوا بذنوبهم، وكذب سائرهم، فحلفوا لرسول الله ﷺ: ما حبسهم إلا العذر، فقبل منهم رسول الله وبايعهم، ووكَلَهم في سرائرهم إلى الله، ونهى رسول الله ﷺ عن كلام الذين خُلِّفوا، وقال لهم حين حدَّثوه حديثهم واعترفوا بذنوبهم: قد صدقتم، فقوموا حتى يقضي الله فيكم. فلما أنزل الله القرآن، تاب على الثلاثة، وقال للآخرين: (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم) ، حتى بلغ: (لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) [سورة التوبة: ٩٥، ٩٦] .

أخرج الطبري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: "أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعبٍ من بنيه حين عَمي -قال: سمعت كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعب: لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتبْ أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد. ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكرَ في الناس منها. فكان من خبري حين تخلفت عن النبي ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قطٌّ حتى جمعْتُهما في تلك الغزوة. فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفاوِزَ، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبُوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع النبي ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظٌ - يريد بذلك: الديوان- قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيّب إلا يظنَّ أن ذلك سيخفى، ما لم ينزل فيه وَحْيٌ من الله. وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليهما أصعَرُ. فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، [فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: "أنا قادر على ذلك إذا أردت! "، فلم يزل ذلك يتمادى بي، حتى استمرّ بالناس الجدُّ. فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه]، ولم أقض من جَهازي شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا. فلم يزل ذلك يتمادى [بي]، حتى أسرعوا وتفارط الغزْوُ، وهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت، فلم يُقْدَر ذلك لي. فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم يحزنني أنّي لا أرى لي أسوةً إلا رجلا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سَلِمَة: يا رسول الله، حبسه بُرْداه، والنظر في

عِطْفَيْه! [فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيرًا] ! فسكت رسول الله ﷺ، فبينا هو على ذلك، رأى رجلا مُبَيِّضًا يزول به السرابُ، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة! فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدَّق بصاع التمر، فلمزه المنافقون.

قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلا من تبوك، حضرني بثِّي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: "بم أخرج من سَخَطه غدًا"؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: "إن رسول الله ﷺ قد أظَلّ قادمًا! "، زاح عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه، وصَبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. حتى جئتُ، فلما سلمت تبسم تبسُّم المغْضَب، ثم قال: تعالَ! فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سَخَطه بعذرٍ، لقد أعطيتُ جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدَّثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني، ليوشكنّ الله أن يُسْخِطَك عليّ، ولئن حدثتك حديث صِدْق تَجدُ عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفوَ الله، والله ما كان لي عُذْر! والله ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: أمّا هذا فقد صَدَق، قم حتى يقضي الله فيك! فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني وقالوا: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا! لقد عجزتَ في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافِيَك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك! قال: فوالله ما زالوا يؤنِّبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّبَ نفسي! قال: ثم قلت لهم: هل لَقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثلَ ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة، من بين من تخلّف عنه. قال: فاجتنبنا الناسُ وتغيَّروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأمّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمّا أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: "هل حرك شفتيه بردّ السلام أم لا؟ "، ثم أصلي معه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إليّ = فسلمت عليه، فوالله ما ردّ علي السلام! فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. قال: فعُدْت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم! ففاضت عيناي، وتولَّيت حتى تسوَّرت الجدار.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا بنبطيّ من نَبَط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له، حتى جاءني، فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا، فقرأته، فإذا فيه: "أما بعدُ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ، فالحق بنا نُوَاسِك".

قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضًا من البلاء!! فتأمَّمتُ به التنُّور فسجرته به. حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال فقلت: أطلِّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها فلا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبي بذلك. قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلالٍ رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدُمَه؟ فقال: لا ولكن لا يقرَبَنْكِ! قالت فقلت: إنه والله ما به

حركة إلى شيء! ووالله ما زال يبكي مُنْذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا! قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدُمه؟ قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول لي إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شابٌّ! فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منّا، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعتُ صوت صارخٍ أوْفى على جبل سَلْع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر! قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرجٌ. قال: وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبَلَ صاحبي مبشرون، وركض رجل إلي فرسًا، وسعى ساعٍ من أسْلَم قِبَلي وأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرعَ من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ.

فتلقَّاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة ويقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهَرول حتى صافحني، وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره - قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة - قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرُقُ وجهه من السرور: أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمك! فقلت: أمن عندك، يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله! وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأن وجه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. فقال رسول الله ﷺ: أمسك بعض مالك، فهو خيرٌ لك! قال فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإنّ من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقًا ما بقيت! قال: فوالله ما علمت أحدًا من المسلمين ابتلاه الله في صِدْق الحديث، منذ ذكرت ذلك لرسول الله عليه السلام، أحسن مما ابتلاني، والله ما تعمَّدت كِذْبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني أرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله: {لقد تابَ الله على النبي}، حتى بلغ: {وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا} ، إلى: {اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} .

قال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمةٍ قطُّ بعد أن هَدَاني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوا، حين أنزل الوحي، شَرَّ ما قال لأحدٍ: {سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون}، إلى قوله: {لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة: ٩٥، ٩٦] .

قال كعب: خُلِّفنا، أيها الثلاثة، عن أمر أولئك الذين قَبِلَ رسول الله ﷺ توبتهم حين حَلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمْرَنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) ، وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيّانا، وإرجاؤه أمرَنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه"[١].

قال مقاتل:" ثم ذكر الذين خلفوا عن التوبة. فقال : وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة بعد أبي لبابة وأصحابه وهم ثلاثة: مرارة بن ربيعة، وهلال بن أمية، وكعب بن مالك، ولم يذكر توبتهم ولا عقوبتهم وذلك أنهم لم يفعلوا كفعل أبي لبابة وأصحابه فلم ينزل فيهم شيء شهرا فكان الناس لا يكلمونهم، ولا يخالطونهم، ولا يبايعونهم، ولا يشترون منهم، ولا يكلمهم

---

[١] أخرجه الطبري(١٧٤٤٧):ص١٤/٥٤٧-٥٥٦.

أهلهم، فضاقت عليهم الأرض فأنزل الله- عز وجل- فيهم بعد شهور أو شهر وتاب أيضا «على الثلاثة الذين خلفوا»"[1].

قوله تعالى:{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [التوبة : ١١٨]، أي:" وكذلك تاب الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا من الأنصار"[2].

قال الطبري: أي:" ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفهم الله عن التوبة، فأرجأهم عمَّن تاب عليه ممن تخلف عن رسول الله ﷺ"[3].

قال الفراء:" وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة"[4].

عن جابر في قوله: "{وعلى الثلاثة الذين خلفوا}، قال: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار"[5].

عن عكرمة وعامر: "{وعلى الثلاثة الذين خلفوا}، قال: أرْجئوا، في أوسط «براءة»"[6].

عن مجاهد: "{الثلاثة الذين خلفوا}، قال: الذين أرجئوا في أوسط "براءة"، قوله: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللَّهِ} [سورة التوبة: ١٠٦] هلال بن أمية، ومرارة بن رِبْعيّ، وكعب بن مالك"[7].

عن سعيد قال: "{الثلاثة الذين خلفوا}، كعب بن مالك وكان شاعرا، ومرارة بن الربيع، وهلال ابن أمية، وكلهم أنصاريّ"[8].

قال الضحاك:" كلهم من الأنصار: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك"[9].

عن قتادة قوله: "{وعلى الثلاثة الذين خلفوا} ، إلى قوله: {ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم}، كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، تخلفوا في غزوة تبوك. ذكر لنا أن كعب بن مالك أوثق نفسه إلى سارية، فقال: لا أطلقها - أو لا أطلق نفسي - حتى يُطلقني رسول الله ﷺ! فقال رسول الله: والله لا أطلقه حتى يطلقه ربُّه إن شاء! وأما الآخر فكان تخلف على حائط له كان أدرك، فجعله صدقة في سبيل الله، وقال: والله لا أطعمه! وأما الآخر فركب المفاوز يتبع رسول الله، ترفعه أرض وتَضَعه أخرى، وقدماه تَشَلْشَلان دمًا"[10].

عن عمر بن كثير بن أفلح قال: "قال كعب بن مالك: ما كنت في غَزاة أيسر للظهر والنفقة مني في تلك الغَزاة! قال كعب بن مالك: لما خرج رسول الله ﷺ قلت: "أتجهز غدًا ثم ألحقه"، فأخذت في جَهازي، فأمسيت ولم أفرغ. فلما كان اليوم الثالث، أخذت في جهازي، فأمسيت ولم أفرغ، فقلت: هيهات! سار الناس ثلاثًا! فأقمت. فلما قدم رسول الله ﷺ، جعل الناس يعتذرون إليه، فجئت حتى قمت بين يديه، فقلت: ما كنت في غَزاة أيسر للظهر والنفقة مني في هذه الغزاة! فأعرض عني رسول الله ﷺ، فأمر الناس أن ألا يكلمونا، وأمِرَتْ نساؤنا أن يتحوَّلن عنَّا. قال: فتسوَّرت حائطا ذات يوم، فإذا أنا بجابر بن عبد الله، فقلت: أيْ جابر! نشدتك بالله، هل علمتَني غششت الله ورسوله يومًا قطُّ؟ فسكت عني فجعل لا يكلمني. (١) فبينا أنا ذات يوم، إذ سمعت رجلا على الثنيَّة يقول: كعب! كعب! حتى دنا مني، فقال: بشِّروا كعبًا"[11].

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠١/٢.
[2] التفسير الميسر:٢٠٦.
[3] تفسير الطبري:٥٤٣/١٤.
[4] معاني القرآن:٤٥١/١.
[5] أخرجه الطبري(١٧٤٣٣):ص٥٤٤/١٤.
[6] أخرجه الطبري(١٧٤٣٥):ص٥٤٥/١٤.
[7] أخرجه الطبري(١٧٤٣٦):ص٥٤٥/١٤.
[8] أخرجه الطبري(١٧٤٤٠):ص٥٤٥/١٤.
[9] أخرجه الطبري(١٧٤٤١):ص٥٤٥/١٤.
[10] أخرجه الطبري(١٧٤٤٣):ص٥٤٦/١٤.
[11] أخرجه الطبري(١٧٤٤٦):ص٥٤٦/١٤-٥٤٧.

وفي قوله تعالى:{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [التوبة : ١١٨]، وجهان:
أحدهما : خلفوا عن التوبة وأخرت عليهم حين تاب عليهم ، أي على الثلاثة الذين لم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة ، قاله الضحاك وأبو مالك، وعكرمة[١].
الثاني : خلفوا عن بعث رسول الله -ﷺ- ، قاله عكرمة .

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} [التوبة : ١١٨]، أي:" حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسَعَتها غمًّا وندمًا بسبب تخلفهم"[٢].

قال الطبري:" يقول: بسعتها، غمًّا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٣].

قال الماوردي:" لأن المسلمين امتنعوا من كلامهم"[٤].

قوله تعالى:{وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ} [التوبة : ١١٨]، أي:" وضاقت عليهم أنفسهم لِمَا أصابهم من الهم"[٥].

قال الطبري:أي:" بما نالهم من الوَجْد والكرْب بذلك"[٦].

قوله تعالى:{وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ} [التوبة : ١١٨]، أي:" وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه، إلا بالرجوع والإنابة إليه سبحانه"[٧].

قال مقاتل:" يعني: وأيقنوا ألا حرز من الله إلا إليه"[٨].

قال الطبري:" يقول: وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجأون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء، بتخلفهم خِلافَ رسول الله ﷺ، ينجيهم من كربه، ولا مما يحذرون من عذاب الله، إلا الله"[٩].

قال الماوردي:" أي: تيقنوا أن لا ملجأ يلجؤون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه "[١٠].

قوله تعالى:{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا} [التوبة : ١١٨]، أي:" ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها"[١١].

قال مقاتل:" يعني: تجاوز عنهم لكي يتوبوا"[١٢].

قال الطبري:" ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم، لينيبوا إليه، ويرجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه"[١٣].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة : ١١٨]، أي:" إن الله هو التواب على عباده، الرحيم بهم"[١٤].

قال الطبري:" يقول: إن الله هو الوهّاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفقُ من أحبَّ توفيقه منهم لما يرضيه عنه، {الرحيم} بهم، أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبةَ والإنابةَ ولا يتوب عليه"[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٣١)، و(١٧٤٣٢):ص٥٤٣/١٤.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٦.
[٣] تفسير الطبري:٥٤٣/١٤.
[٤] النكت والعيون:٤١٣/٢.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٦.
[٦] تفسير الطبري:٥٤٣/١٤.
[٧] صفوة التفاسير:٥٢٨/١.
[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٢/٢.
[٩] تفسير الطبري:٥٤٣/١٤-٥٤٤.
[١٠] النكت والعيون:٤١٣/٢.
[١١] صفوة التفاسير:٥٢٨/١.
[١٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٢/٢.
[١٣] تفسير الطبري:٥٤٤/١٤.
[١٤] التفسير الميسر:٢٠٦.

الفوائد:

١- تضمنت الآية توبة الله على الثلاثة المخلفين الذين تأخروا عن رسول الله - ﷺ - في تلك الغزوة بعد هجر النبي - ﷺ - لهم، وندمهم ندماً عظيماً حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.
٢- بيان فضل كعب بن مالك وصاحبيه في صبرهم وصدقهم ولجوئهم إلى الله تعالى حتى فرج عليهم وتاب عليهم وكانوا مثالا للصدق.
١- أن التوبة ليست بجهد منا، بل إنما التوبة من الله جل وعلا، فالتوبة محفوفة بتوبتين: توبة قبلية، وتوبة بعدية، وكلاهما من الله جل وعلا، لكن التوبة البعدية هي قبول توبة العبد، قال الله تعالى عن الثلاثة الذين خلفوا: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا} [التوبة:١١٨]، أولاً: تاب عليهم، أي: أودع في قلوبهم التوبة، وبعد ذلك: مكنهم أن يرفعوا الأيدي، وأن يتذللوا ويتضرعوا ويخضعوا لله جل وعلا توبة إليه، فيقبل هذه التوبة، فالتوبة محفوفة بتوبتين توبة قبلية من الله جل وعلا، وتوبة بعدية هي منه سبحانه أيضاً، أي: قبول توبة العبد التي هي في الوسط.
٢- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «التواب»، و«الرحيم»؛ وإثبات ما تضمنناه من صفة. وهي: التوبة، والرحمة:

فـ«التواب»:" هو الذي يتوب على عبده، ويقبل توبته كلما تكررت التوبة تكرر القبول"[2].

قال الخطابي:" ومعنى التوبة: عود العبد إلى الطاعة بعد المعصية"[3].

قال السعدي:" التواب الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين فكل من تاب إلى الله توبة نصوحا تاب الله عليه، وتوبته على عبده نوعان:

أحدهما: أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه، والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها، وإستبدالها بعمل صالح.

والثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها، ومحو الذنوب بها فإن التوبة النصوح تجب ما قبلها"[4].

- ومن اسماءه تعالى: «الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [5].

٢- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه-[6].

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)} [التوبة : ١١٩]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه في كل ما تفعلون وتتركون، وكونوا مع الصادقين في أيمانهم وعهودهم، وفي كل شأن من شؤونهم.

---

(١) تفسير الطبري:٥٤٤/١٤.

(٢) شأن الدعاء:٩٠.

(٣) شأن الدعاء:٩٠.

(٤) تفسير أسماء الله الحسنى:١٧٦.

(٥) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

(٦) انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٥٩/٢.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ} [التوبة : ١١٩]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه في كل ما تفعلون وتتركون"[١].

قال مقاتل:" يعني: صدقوا بتوحيد الله- عز وجل- اتقوا الله ولا تعصوه في الهجرة"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين، معرِّفَهم سبيل النجاة من عقابه، والخلاصِ من أليم عذابه: {يا أيها الذين آمنوا}، بالله ورسوله، {اتقوا الله} وراقبوه بأداء فرائضه، وتجنب حدوده"[٣].

وذكر أهل العلم في هذه الآية قولين :

أحدهما : أنها في أهل الكتاب ، وتأويلها : يا أيها الذين آمنوا من اليهود بموسى ، ومن النصارى بعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد -ﷺ- فآمنوا به ، وكونوا مع الصادقين يعني مع النبي -ﷺ- وأصحابه في جهاد المشركين ، قاله مقاتل بن حيان[٤].

الثاني : أنها في المسلمين : وتأويلها : يا أيها الذين آمنوا من المسلمين اتقوا الله[٥].

وفي المراد بهذه التقوى وجهان :

أحدهما : اتقوا الله من الكذب ، قاله ابن مسعود[٦].

عن عبيدة بن عبد الله بن مسعود، قال: " قال ابن مسعود: إن الكذب لا يحلُّ منه جدٌّ ولا هزلٌ، اقرءوا إن شئتم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ}، قال: وكذلك هي قراءة ابن مسعود: {من الصادقين}، فهل ترون في الكذب رُخْصَة؟"[٧].

قال الزجاج:" وقد رويت عن بعضهم «من الصادقين»، والمعنى واحد، ويجوز أن يكون ممن يصدق ولا يكذب في قول ولا فعل"[٨].

والثاني : اتقوا الله في طاعة رسوله إذا أمركم بجهاد عدوِّه[٩].

قال الطبري:" أنّ رسوم المصاحف كلِّها مجمعة على: {وكونوا مع الصادقين}، وهي القراءة التي لا أستجيز لأحدٍ القراءةَ بخلافها، وتأويل عبد الله، رحمة الله عليه، في ذلك على قراءته، تأويلٌ صحيح، غير أن القراءة بخلافها"[١٠].

قوله تعالى:{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة : ١١٩]، أي:" وكونوا مع الصادقين في أَيمانهم وعهودهم، وفي كل شأن من شؤونهم"[١١].

قال مقاتل:" في إيمانهم"[١٢].

قال الطبري:أي:" {وكونوا}، في الدنيا، من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا في الآخرة، {مع الصادقين} في الجنة. يعني: مع من صَدَق اللهَ الإيمانَ به، فحقَّق قوله بفعله، ولم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذِّب قيلَهم فعلُهم، وإنما معنى الكلام: وكونوا مع الصادقين في الآخرة باتقاء الله في الدنيا، كما قال جل ثناؤه: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين} [سورة النساء: ٦٩]"[١٣].

وفي قوله تعالى:{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة : ١١٩]، أقوال:

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٦.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٢/٢.

[٣] تفسير الطبري:٥٥٨/١٤.

[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٩٩):ص١٩٠٦/٦-١٩٠٧.

[٥] انظر: النكت والعيون:٤١٤/٢.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٥٦)-(١٧٤٦١):ص٥٥٩/١٤-٥٦٠.

[٧] أخرجه الطبري(١٧٤٥٦):ص٥٥٩/١٤-٥٦٠.

[٨] معاني القرآن:٤٧٥/٢.

[٩] انظر: النكت والعيون:٤١٤/٢.

[١٠] تفسير الطبري:٥٦٠/١٤-٥٦١.

[١١] التفسير الميسر:٢٠٦.

[١٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٢/٢.

[١٣] تفسير الطبري:٥٥٨/١٤.

أحدها : مع أبي بكر وعمر، وأصحابهما-رحمة الله عليهم-. قاله الضحاك[1].

وروي عن سعيد بن جبير:"مع أبي بكر وعمر-رحمة الله عليهما-"[2].

الثاني : مع الثلاثة الذين خُلفوا حين صدقوا النبي -ﷺ- عن تأخرهم ولم يكذبوا، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة، وهلال بن أمية. قاله السدي[3].

والثالث : مع من صدق في قوله ونيته وعمله وسره وعلانيته ، قاله قتادة[4].

والرابع : مع المهاجرين لأنهم لم يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله -ﷺ-. ذكره مقاتل بن حيان[5]، وحكاه الماوردي عن ابن جريج[6].

والخامس: أنهم النبي ﷺ وأصحابه. قاله نافع[7].

والسادس: مع الزاهدين في الدنيا، والذين يكفون عن اهل الملة. قاله الحسن[8].

والسابع: أن الصادقين هم الذين ذكرهم تعالى في قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات : ١٥]. وهذا قول مقاتل[9].

قال الزجاج:" على نسق الكلام يدل على أنهم أمروا بأن يكونوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في الشده والرخاء، ويجوز - والله أعلم - على هذا قوله: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب : ٢٣] "[10].

قال الطبري:"والصحيح من التأويل في ذلك، هو التأويل الذي ذكرناه عن نافع[11]، والضحاك[12]"[13].

الفوائد:

١- وجوب التقوى والصدق في النيات والأقوال والأحوال والأعمال.
٢- في الآية الكريمة: ينادي المؤمنين باسم الإيمان يحركهم بذلك على أن يكونوا مع الصادقين. فإذا كان الكون مع الصادقين من الإيمان بهذه الدلالة فالأولى أن يكون الصدق نفسه من الإيمان، وجاء في الأخبار: "الكذب يجانب الإيمان"[14]، وفي هذا تحقيق ما دلت هذه الآية عليه[15].
٣- وفي الآية بيان فضل الصحابة الكرام-رضي الله عنه- إذ قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد - ﷺ - ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتم في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم، وكونه معهم.

القرآن

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٥٣):ص٥٥٩/١٤.
[2] أخرجه الطبري(١٧٤٥٤):ص٥٥٩/١٤.
[3] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٠١):ص١٩٠٧/٦.
[4] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٠٢):ص١٩٠٧/٦.
[5] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٩٩):ص١٩٠٦/٦-١٩٠٧.
[6] انظر: النكت والعيون:٤١٤/٢.
[7] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٥١):ص٥٥٩/١٤.
[8] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٠٠):ص١٩٠٧/٦.
[9] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٢/٢.
[10] معاني القرآن:٤٧٥/٢.
[11] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٥١):ص٥٥٩/١٤.
[12] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٥٣):ص٥٥٩/١٤.
[13] تفسير الطبري:٥٦٠/١٤.
[14] السنة لأبي بكر بن الخلال(١٤٦٧):ص٨/٥. جاء في أسنى المطالب(١١٢٣):ص٢٢٣" الْأَصَح أَنه من كَلَام الصّديق، قَالَه الدَّارَقُطْنِيّ ".
[15] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:٤/٣.

{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)} [التوبة : ١٢٠]

التفسير:

ما كان ينبغي لأهل مدينة رسول الله ﷺ ومَن حولهم من سكان البادية أن يتخلَّفوا في أهلهم ودورهم عن رسول الله ﷺ، ولا يرضوا لأنفسهم بالراحة والرسول ﷺ في تعب ومشقة؛ ذلك بأنهم لا يصيبهم في سفرهم وجهادهم عطش ولا تعب ولا مجاعة في سبيل الله، ولا يطؤون أرضًا يُغضِبُ الكفارَ وطؤهم إياها، ولا يصيبون مِن عدو الله وعدوهم قتلا أو هزيمةً إلا كُتِب لهم بذلك كله ثواب عمل صالح. إن الله لا يضيع أجر المحسنين الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه، وحق خلقه.

قوله تعالى:{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ} [التوبة : ١٢٠]، أي:"ما كان ينبغي لأهل مدينة رسول الله ﷺ ومَن حولهم من سكان البادية أن يتخلَّفوا في أهلهم ودورهم عن رسول الله ﷺ"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لم يكن لأهل المدينة، مدينة رسول الله ﷺ {ومن حولهم من الأعراب}، سُكّان البوادي، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهم من أهل الإيمان به، أن يتخلفوا في أهاليهم ولا دارٍ لهم"(٢).

قوله تعالى:{وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} [التوبة : ١٢٠]، أي:" ولا يرضوا لأنفسهم بالراحة والرسول ﷺ في تعب ومشقة"(٣).

قال الطبري:أي:" ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صحبته في سفره والجهاد معه، ومعاونته على ما يعانيه في غزوه ذلك"(٤).

عن قتادة: "يعني قوله: لأولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه}، قال: إذا بعث الجيوش والسرايا فليس لهم أن يعروا نبي الله ﷺ، وإذا غزا نبي الله ﷺ بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بأمره"(٥).

قوله تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة : ١٢٠]، أي:"ذلك بأنهم لا يصيبهم في سفرهم وجهادهم عطش ولا تعب ولا مجاعة في سبيل الله، ولا يطؤون أرضًا يُغضِبُ الكفارَ وطؤهم إياها، ولا يصيبون مِن عدو الله وعدوهم قتلا أو هزيمةً إلا كُتِب لهم بذلك كله ثواب عمل صالح"(٦).

قال الطبري:" يقول: إنه لم يكن لهم هذا من أجل أنهم، وبسبب أنهم {لا يصيبهم}، في سفرهم إذا كانوا معه {ظمأ} وهو العطش {ولا نصب}، يقول: ولا تعب، {ولا مخمصة في سبيل الله}، يعني: ولا مجاعة في إقامة دين الله ونصرته، وهدْم مَنَار الكفر، {ولا يطئون موطئًا}، يعني: أرضًا، يقول: ولا يطأون أرضًا {يغيظ الكفار}، وطؤهم إياها، {ولا ينالون من عدوّ نيلا}، يقول: ولا يصيبون من عدوّ الله وعَدُوّهم شيئًا في أموالهم وأنفسهم وأولادهم، إلا كتب الله لهم بذلك كله، ثوابَ عمل صالح قد ارتضاه "(٧).

---

(١) التفسير الميسر:٢٠٦.

(٢) تفسير الطبري:٥٦١/١٤.

(٣) التفسير الميسر:٢٠٦.

(٤) تفسير الطبري:٥٦١/١٤.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٠٥):ص١٩٠٨/٦.

(٦) التفسير الميسر:٢٠٦.

(٧) تفسير الطبري:٥٦١/١٤-٥٦٢.

قال الزجاج:" المخمصة: المجاعة، فأعلم الله أنه يجازيهم على جميع ذلك، وأنه يكتب لهم عملا صالحا"[١].

ابن عباس في قوله: "{ولا مخمصة}، قال: مجاعة"[٢]. وروي عن قتادة والسدي: مثل ذلك[٣].

قال أسباط:" الظمأ: العطش"[٤].

قال أسباط:" النصب: العناء"[٥].

وروي عن رجاء ابن حيوة ومكحول: "أنهما يكرهان التلثيم من الغبار في سبيل الله"[٦].

الله"[٦].

عن علي رضي الله عنه :"أن رسول الله ﷺ أراد أن يغزو فدعاني فعزم علي إلا تخلفت قبل أن أتكلم فبكيت، فقال: ما يبكيك يا علي؟ قلت: يبكيني خصال غير واحدة تقول قريش: ما أسرع ما تخلف عن ابن عمه وخذله! وتبكيني خصلة أخرى: كنت أتعرض للجهاد في سبيل الله لأن الله عز وجل قال: {ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار}، الآية وكنت أريد أن أتعرض للأجر من الله "[٧].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة : ١٢٠]، أي:" إن الله لا يضيع أجر المحسنين الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه، وحق خلقه"[٨].

قال الطبري:" يقول: إن الله لا يدع محسنًا من خلقه أحسن في عمله فأطاعه فيما أمره، وانتهى عما نهاه عنه، أن يجازيه على إحسانه، ويثيبه على صالح عمله. فلذلك كتبَ لمن فعل ذلك من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ما ذكر في هذه الآية، الثوابَ على كلّ ما فعل، فلم يضيّع له أجرَ فعله ذلك"[٩].

وقد اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية، على قولين:

أحدهما: أنهما محكمة، وإنما كان ذلك لرسول الله ﷺ خاصة، لم يكن لأحدٍ أن يتخلف إذا غزا خِلافَه فيقعد عنه، إلا من كان ذا عُذْرٍ. فأما غيره من الأئمة والولاة، فإن لمن شاء من المؤمنين أن يتخلَّف خلافه، إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة. وهذا قول قتادة[١٠]، والأوزاعي[١١]، وعبد الله بن المبارك[١٢]، والفزاري[١٣]، والسبيعي[١٤]، وابن جابر[١٥]، وسعيد بن عبد العزيز[١٦].

قال الوليد بن مسلم :" سمعت الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، والفزاري، والسبيعي، وابن جابر، وسعيد بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية: {ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من

---

[١] معاني القرآن:٤٧٥/٢.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١١٠):ص١٩٠٨/٦.
[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٩٠٨/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٠٦):ص١٩٠٨/٦.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٠٧):ص١٩٠٨/٦.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٠٨):ص١٩٠٨/٦.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١١١):ص١٩٠٨/٦-١٩٠٩.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٦.
[٩] تفسير الطبري:٥٦٢/١٤.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦٢):ص٥٦٢/١٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦٣):ص٥٦٢/١٤-٥٦٣.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦٣):ص٥٦٢/١٤-٥٦٣.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦٣):ص٥٦٢/١٤-٥٦٣.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦٣):ص٥٦٢/١٤-٥٦٣.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦٣):ص٥٦٢/١٤-٥٦٣.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦٣):ص٥٦٢/١٤-٥٦٣.

الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله}، إلى آخر الآية، إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها من المجاهدين في سبيل الله"[1].

والثاني: أنها نزلت وفي أهل الإسلام قلة، فلما كثروا نسخها الله، وأباح التخلف لمن شاء، فقال: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) [سورة التوبة: ١٢٢]. وهذا قول ابن زيد[2].

قال ابن زيد:" هذا حين كان الإسلام قليلا فلما كثر الإسلام بعدُ قال: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة}، إلى آخر الآية"[3].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي، أن الله عنى بها الذين وصفهم بقوله: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ}، [سورة التوبة: ٩٠] . ثم قال جل ثناؤه: {ما كان لأهل المدينة}، الذين تخلفوا عن رسول الله، ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه، أن يتخلفوا خِلافَه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه. وذلك أن رسول الله ﷺ كان ندب في غزوته تلك كلَّ من أطاق النهوض معه إلى الشخوص، إلا من أذن له، أو أمره بالمقام بعده. فلم يكن لمن قدر على الشخوص التخلُّف. فعدّد جل ثناؤه من تخلف منهم، فأظهر نفاقَ من كان تخلُّفه منهم نفاقًا، وعذر من كان تخلفه لعُذْرٍ، وتاب على من كان تخلُّفه تفريطًا من غير شك ولا ارتياب في أمر الله، إذ تاب من خطأ ما كان منه من الفعل. فأما التخلف عنه في حال استغنائه، فلم يكن محظورًا، إذا لم يكن عن كراهةٍ منه ﷺ ذلك. وكذلك حكم المسلمين اليوم إزاء إمامهم. فليس بفرضٍ على جميعهم النهوضُ معه، إلا في حال حاجته إليهم، لما لا بُدَّ للإسلام وأهله من حضورهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم، فيلزمهم حينئذ طاعته، وإذا كان ذلك معنى الآية، لم تكن إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخةً للأخرى، إذ لم تكن إحداهما نافيةً حكم الأخرى من كل وجوهه، ولا جاء خبر يوجِّه الحجة بأن إحداهما ناسخة للأخرى"[4].

الفوائد:

١- وجوب إيثار رسول الله ﷺ على النفس بكل خير بل بالحياة كلها.
٢- بيان فضل السير في سبيل الله، وما فيه من الأجر العظيم.
٣- فضل الإحسان وأهله.

القرآن

{وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)} [التوبة : ١٢١]

التفسير:

ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة في سبيل الله، ولا يقطعون واديًا في سيرهم مع رسول الله ﷺ في جهاده، إلا كُتِب لهم أجر عملهم؛ ليجزيهم الله أحسن ما يُجْزَون به على أعمالهم الصالحة.

قوله تعالى:{وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ} [التوبة : ١٢١]، أي:" ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة في سبيل الله، ولا يقطعون واديًا في سيرهم مع رسول الله ﷺ في جهاده، إلا كُتِب لهم أجر عملهم"[5].

قال أبو الليث السمرقندي:" ثم قال تعالى: {ولا ينفقون نفقة}، يعني: في الجهاد، {صغيرة ولا كبيرة}، يعني: قليلا ولا كثيرا. {ولا يقطعون واديا} من الأودية مقبلين إلى العدو أو مدبرين، {إلا كتب لهم}، يعني: كتب لهم ثواب"[6].

---

[1] أخرجه الطبري(١٧٤٦٣):ص٥٦٢/١٤-٥٦٣.
[2] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٦٤):ص٥٦٣/١٤.
[3] أخرجه الطبري(١٧٤٦٤):ص٥٦٣/١٤.
[4] تفسير الطبري:٥٦٣/١٤-٥٦٤.
[5] التفسير الميسر:٢٠٦.
[6] بحر العلوم:٩٧/٢.

قال ابن كثير:" يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله { نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً } أي : قليلا ولا كثيرا { وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا } أي : في السير إلى الأعداء { إِلا كُتِبَ لَهُمْ } ولم يقل ها هنا "به" لأن هذه أفعال صادرة عنهم"[١].

عن قتادة :"{ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة}، الآية، قال ك ما ازداد قوم من أهليهم بعدا في سبيل الله، إلا ازدادوا من الله قربا"[٢].

وعن قتادة أيضا: قوله: "{ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون}، قال: ما ازداد القوم من أهليهم في سبيل الله بعدا، إلا ازدادوا من الله قربا"[٣].

قوله تعالى:{لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة : ١٢١]، أي:" ليجزيهم الله أحسن ما يُجْزَون به على أعمالهم الصالحة"[٤].

قال أبو الليث السمرقندي:" يقول: ليجزيهم بأعمالهم، ويقال يجزيهم أحسن من أعمالهم، لأنه يعطي بحسنة واحدة عشرة، إلى سبعمائة، إلى ما لا يدرك حسابه، ويقال: ليجزيهم بأحسن أعمالهم وتصير سائر أعمالهم فضلا"[٥].

قال ابن كثير:" وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، من هذه الآية الكريمة حظ وافر ، ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة ، والأموال الجزيلة ، كما قال عبد الله بن الإمام أحمد :... عن عبد الرحمن بن خَبَّاب السلمي قال : "خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان ، رضي الله عنه : عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال : ثم حث ، فقال عثمان : عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال : ثم نزل مرْقاة من المنبر ثم حث ، فقال عثمان بن عفان : عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال : فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا - يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب : ما على عثمان ما عمل بعد هذا»[٦].

وقال عبد الله أيضا : .... عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار في ثوبه حين جَهَّز النبي ﷺ جيش العسرة قال : فصبها في حجر النبي ﷺ ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول : «ما ضَرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم». يرددها مرارا[٧] "[٨].

الفوائد:

١- بيان فضل الجهاد في سبيل الله والإنفاق فيه.
٢- الآية تثبت تسجيل الملائكة لأعمال العباد في الدنيا، وأنهم موكلون بذلك، أمناء على ما يكتبون، لا يغيب عنهم من أعمال العباد شيء.
٣- أنه يجب على كل إنسان أن يؤمن بصحف الأعمال التي يقرؤها العباد، وهي الكتب التي كتبت فيها الملائكة ما فعله العباد في حياتهم الدنيا، فيجب الإيمان بأن الله ـ عز وجل ـ وكَّل بنا من ملائكته من يحفظنا، ويكتب أعمالنا وأقوالنا وهم الحافظون الكرام الكاتبون فكل ما يكتبه هؤلاء الملائكة يقرؤه العباد يوم القيامة، طبقاً لما عملوه، أو قالوه دون زيادة، أو نقصان.

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٣٤/٤-٢٣٥.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١١٣):ص١٩٠٩/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١١٤):ص١٩٠٩/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٦.
[٥] بحر العلوم:٩٧/٢.
[٦]زوائد المسند (٧٥/٤) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٧٠٠) من طريق السكن بن المغيرة به ، وقال الترمذي : "هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة".
[٧]زوائد المسند (٦٣/٥) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٧٠١) من طريق الحسن بن واقع عن ضمرة بن ربيعة به ، وقال الترمذي : "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه"..
[٨] تفسير ابن كثير:٢٣٥/٤.

وقد دلت السنة المطهرة في أحاديث متعددة على كتابة الملائكة لأعمال بني آدم فمن ذلك:

- ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول، ومثل المهجر[١] كمثل الذي يهدي بدنة، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كبشاً، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر"[٢].
- وروى البخاري بإسناده إلى رفاعة بن رافع الزرقي قال: كنا يوماً نصلي وراء النبي ﷺ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: "سمع الله لمن حمده" قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: "من المتكلم؟ " قال: أنا قال: "رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً"[٣].
- وروى البخاري ومسلم أيضاً: بإسنادهما إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ـ عز وجل ـ قال قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده سيئة واحدة"[٤].

القرآن

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)} [التوبة : ١٢٢]

التفسير:

وما كان ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا لقتال عدوِّهم، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعًا، فهلا خرج من كل فرقة جماعة تحصل بهم الكفاية والمقصود؛ وذلك ليتفقه القاعدون عن القتال فيعلموا ما تجدد من الأحكام في دين الله وما أنزل على رسوله، وينذروا قومهم بما تعلموه عند رجوعهم إليهم، لعلهم يحذرون عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: عبد الله بن عبيد بن عمير في قوله:"{وما كان المؤمنون لينفروا كافة}، إلى آخر الآية، قال: كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد إذا بعث رسول الله ﷺ بالمدينة في رقة من الناس، فأنزل الله عز وجل: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة}، أمروا إذا بعث النبي- صلى الله عليه وسلم- سرية أن تخرج طائفة وتقيم طائفة فيحفظ المقيمون على الذين خرجوا ما أنزل الله من القرآن، وما يسن من السنن فإذا رجعوا إلى إخوانهم أخبروهم بذلك، وإذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتخلف عنه أحد إلا بإذن، أو عذر"[٥].

والثاني: عن مجاهد قوله: "{فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة}، ناس من أصحاب محمد- صلى الله عليه وسلم- خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال لهم الناس: ما نراكم إلا تركتم أصحابكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجا، وأقبلوا من البادية كلهم، حتى دخلوا على النبي ﷺ فقال الله

---

[١]مثل المهجر: المبكر كما في النهاية ٢٤٦/٥.

[٢]صحيح البخاري مع الفتح ٤٠٧/٢، صحيح مسلم ٥٨٧/٢.

[٣]صحيح البخاري مع الفتح ٢٨٤/٢.

[٤]صحيح البخاري مع الفتح ٣٢٣/١١، صحيح مسلم ١١٨/١.

[٥] اخرجه ابن أبي حاتم(١٠١١٧):ص١٩١٠/٦.

عز وجل: {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة} خرج بعض وقعد بعض، يبتغون الخير، ليتفقهوا ويسمعوا ما في الناس، وما أنزل بعدهم"[١].
والثالث: وقال السدي:" أقبلت أعراب هذيل، وأصابهم الجوع واستعانوا بتمر المدينة، وأظهروا الإسلام ودخلوا، فقال عتبة بن مسعود -أخو عبد الله بن مسعود- له: أشعرت أنه قدم منا ألف أهل بيت أسلموا جميعا؟ فقال عبد الله: والله لوددت أنه لم يبق منهم، فكانوا يفخرون على المؤمنين ويقولون: نحن أسلمنا طائعين بغير قتال، وأنتم قاتلتم، فنحن خير منكم، فآذوا المؤمنين فأنزل الله فيهم يخبرهم بأمرهم فقال: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة}، يقول: جميعا {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة}، يقول: من كل بطن منهم طائفة، فأتوا محمدا ﷺ فسمعوا كلامه، ثم رجعوا فأخبروهم الخبر، فجئتم على بصيرة، ولكن إنما جئتم من أجل الطعام"[٢].
والرابع: عن ابن عباس قوله: "{وما كان المؤمنون لينفروا كافة}، فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين، أجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ، وأجهدوهم فأنزل الله جل ثناؤه يخبر رسول الله ﷺ إلى عشائرهم، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك، قوله: {ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}"[٣].
والخامس: حكي الماوردي عن الكلبي، قال: "وسبب نزول ذلك أن المسلمين بعد أن عُيّروا بالتخلف عن غزوة تبوك توفروا على الخروج في سرايا رسول الله -ﷺ- وتركوه وحده بالمدينة ، فنزل ذلك فيهم "[٤].

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [التوبة : ١٢٢]، أي:" وما كان ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا لقتال عدوِّهم"[٥].

قال ابن كثير:" هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى : { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا } [التوبة : ٤١] ، وقال : { مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ } [التوبة : ١٢٠] ، قالوا : فنسخ ذلك بهذه الآية، وقد يقال : إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها ، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمران في هذا : النفير المعين وبعده ، صلوات الله وسلامه عليه ، تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد ؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء"[٦].

قال ابن عباس:" يعني: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا، ويتركوا رسول الله ﷺ في المدينة وحده"[٧].

وعن ابن عباس أيضا، قوله: " {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا}[٨]، وقوله: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا عَذَابًا أَلِيمًا}[٩]، فنسخ هؤلاء الآيات: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً}[١٠]، يقول: لتنفر طائفة، ولتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ"[١١].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٢١):ص٦/١٩١٠-١٩١١.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٢٣):ص٦/١٩١١.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٣٥):ص٦/١٩١٣.
[٤] النكت والعيون:٢/٤١٥.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٦.
[٦] تفسير ابن كثير:٤/٢٣٥-٢٣٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١١٦):ص٦/١٩٠٩.
[٨][التوبة : ٤١].
[٩][التوبة : ٣٩].
[١٠][التوبة : ١٢٢].
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١١٥):ص٦/١٩٠٩.

وعن ابن عباس قوله: "{كافة}، يقول: جميعا"[1]. قال ابن أبي حاتم:"وروي عن أبي العالية والربيع بن أنس وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان: نحو ذلك"[2].

عن أبي مالك: "وكل ما في القرآن {فلولا}، فهو «فهلا»، إلا حرفين: في يونس : {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَت}[3]، والآخر: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُم}[4]"[5].

وفي قوله تعالى:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [التوبة : ١٢٢]، وجهان:

أحدهما : وما كان عليهم أن ينفروا جميعاً لأن فرضه صار على الكفاية وهذا ناسخ لقوله تعالى {انفِرُو خِفَافاً وَثِقَالاً}. قاله ابن عباس .

والثاني : معناه: وما كان للمؤمنين إذا بعث رسول الله -ﷺ- سَرية أن يخرجوا جميعاً فيها ويتركوا رسول الله -ﷺ- وحده بالمدينة حتى يقيم معه بعضهم ، قاله عبد الله بن عبيد الله بن عمير .

قوله تعالى:{فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} [التوبة : ١٢٢]، أي:" فهلا خرج من كل فرقة جماعة تحصل بهم الكفاية والمقصود؛ وذلك ليتفقه القاعدون عن القتال فيعلموا ما تجدد من الأحكام في دين الله وما أنزل على رسوله"[6].

عن ابن عباس قوله: "{فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة}، يعني: عصبة السرايا ولا يتسروا إلا بإذنه"[7].

وعن ابن عباس أيضا: قوله: "{فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين}، يعني: السرايا، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن، تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ قال: إن الله قد أنزل على نبيكم بعدكم قرآنا، وقد تعلمنا سرايا آخرين فذلك قوله تعالى: ليتفقهوا في الدين يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، ويعلموا السرايا إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون"[8].

وقال ابن عباس:" كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي- صلى الله عليه وسلم- فيسألونه عما يريدونه من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله صلى الله عليه وسلم: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا بما نقوله لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم؟ قال: فيأمرهم نبي الله- ﷺ- بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم على الصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: من أسلم فهو منا، وينذرونهم، حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه"[9].

وفي قوله تعالى:{فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} [التوبة : ١٢٢]، وجهان:

أحدهما : لتتفقه الطائفة الباقية إما مع رسول الله -ﷺ- في جهاده ، وإما مهاجرة إليه في إقامته ، قاله الحسن[10].

قال الحسن:" ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصر، وينذروا قومهم"[11].

الثاني : أن الماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو لعلهم يحذرون. قاله ابن عباس[12].

وفي قوله تعالى:{ طَائِفَةٌ} [التوبة : ١٢٢]، وجهان:

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١١٨):ص١٩١٠/٦.
(٢) تفسير ابن ابي حاتم: ١٩١٠/٦.
(٣)[يونس : ٩٨].
(٤)[هود : ١١٦].
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١١٩):ص١٩١٠/٦.
(٦) التفسير الميسر:٢٠٦.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٢٠):ص١٩١٠/٦.
(٨)أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٢٧):ص١٩١٢/٦.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٢٢):ص١٩١١/٦.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٢٨):ص١٩١٢/٦.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٢٨):ص١٩١٢/٦.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٢٦):ص١٩١٢/٦.

أحدهما: أنها عصبة. قاله ابن عباس[١].
والثاني: رجل. قاله مجاهد[٢].
وفي قوله تعالى: لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} [التوبة : ١٢٢]، وجهان من التفسير[٣]:
أحدهما : ليتفقهوا في أحكام الدين ومعالم الشرع ويتحملوا عنه ما يقع به البلاغ وينذروا به قومهم إذا رجعوا إليهم .
الثاني : ليتفقهوا فيما يشاهدونه من نصر الله لرسوله وتأييده لدينه وتصديق وعده ومشاهدة معجزاته ليقوى إيمانهم ويخبروا به قومهم .
قوله تعالى:{وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة : ١٢٢]، أي:" وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه"[٤].
عن ابن عباس قوله: "{ولينذروا قومهم}، ينذرون إخوانهم"[٥]، "{إذا رجعوا إليهم}، قال: قال: من الغزو"[٦]، " {لعلهم يحذرون} ما نزل من بعدهم من قضاء الله وكتابه، وحدوده"[٧].
وفي قوله تعالى:{وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ}[التوبة:١٢٢]، وجهان:
احدهما: معناه: ينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام، وينذرونهم النار، ويبشرونهم الجنة، يعني: يعلموه السرايا. قاله ابن عبس[٨].
والثاني: أن معنى:{ولينذروا قومهم}، أي: الناس كلهم. قاله مجاهد[٩].
الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أهمية تكوين الدعاة لنشر الدعوة، وبيان الإسلام.
٢- تساوي فضل طلب العلم والجهاد على شرط النية الصالحة في الكل وطالب العلم لا ينال هذا الأجر إلا إذا كان يتعلم ليعلم فيعمل فيعلم مجانا في سبيل الله والمجاهد لا ينال هذا الأجر إلا إذا كان لإعلاء كلمة الله خاصة.
٣- حاجة الأمة إلى الجهاد والمجاهدين كحاجتها إلى العلم والعلماء سواء بسواء.
٤- أن هذه الآية الكريمة دالة على قبول خبر الواحد العدل؛ لأن «الطائفة» تقع على الواحد فصاعدا.

وخبر الواحد يفيد العلم عند أهل السنة والجماعة إذا صحّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ويتلقى بالقبول، ويعمل به بدون تفريق بين العقائد وبين الأحكام التشريعية الفقهية، ومن الأدلة على قبول خبر الواحد، قول الله سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢] ، وحين أراد النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يرسل إلى اليمن من يدعوهم إلى الإسلام أرسل إليهم معاذ بن جبل ، وقال: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله ... "[١٠]، وبه قامت الحجة على أهل اليمن وهو واحد[١١].

---

[١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٢٤):ص١٩١١/٦.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٢٥):ص١٩١٢/٦.
[٣] انظر: النكت والعيون:٤١٥/٢.
[٤] صفوة التفاسير:٥٢٩/١.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٢٩):ص١٩١٢/٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٣٣):ص١٩١٣/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٣٤):ص١٩١٣/٦.
[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٢٩)-(١٠١٣١):ص١٩١٢/٦.
[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٣٢):ص١٩١٣/٦.
[١٠]الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٣٥٧/٣، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء.
[١١] انظر: دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد:٥٦-٥٧.

القرآن
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)} [التوبة : ١٢٣]
التفسير:
يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إلى دار الإسلام من الكفار، وليجد الكفار فيكم غِلْظة وشدة، واعلموا أن الله مع المتقين بتأييده ونصره.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [التوبة : ١٢٣]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[١].

قوله تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبة : ١٢٣]، أي:" ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إلى دار الإسلام من الكفار"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله : " يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ، قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بَعُد منهم. يقول لهم : ابدأوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارًا ، دون الأبعد فالأبعد"[٣].

وفي قوله تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبة : ١٢٣]، اربعة أقوال:
أحدها : أنهم الروم قاله ابن عمر[٤].
الثاني : أنهم الديلم ، قاله الحسن[٥].
الثالث : أنهم العرب ، قاله ابن زيد[٦].
الرابع : أنه على العموم في قتال الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى ، وهذا معنى قول قتادة[٧].

قال قتادة:" يريد المشركين الذين حول المدينة، أحب أن يقاتل كل قوم من يليهم إلا أنه قال: على مكان يخاف فيه على المسلمين"[٨].

قال الطبري:" وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ ، الروم ، لأنهم كانوا سكان الشأم يومئذ ، والشأم كانت أقرب إلى المدينة من العراق. فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد ، فإن الفرض على أهل كل ناحية ، قتالُ من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم ، ما لم يضطرّ إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام ، فإن اضطروا إليهم ، لزمهم عونهم ونصرهم ، لأن المسلمين يدٌ على من سواهم ولصحة كون ذلك كذلك ، تأوّل كلٌّ من تأوّل هذه الآية ، أنّ معناها إيجاب الفرض على أهل كل ناحية قتالَ من وليهم من الأعداء"[٩].

قوله تعالى:{وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة : ١٢٣]، أي:" وليجد الكفار فيكم غِلْظة وشدة"[١٠].

قال الطبري:" معناه : وليجد هؤلاء الكفار الذين تقاتلونهم (فيكم) ، أي : منكم شدةً عليهم"[١١].

عن ابن عباس:" {وليجدوا فيكم غلظة}، قال: شدة"[١٢].

---
[١] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٣] تفسير الطبري:٥٧٤/١٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٨١):ص٥٧٥/١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٨٢):ص٥٧٥/١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٨٧):ص٥٧٦/١٤.
[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٣٨):ص١٩١٤/١٤.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٣٨):ص١٩١٤/١٤.
[٩] تفسير الطبري:٥٧٤/١٤-٥٧٥.
[١٠] التفسير الميسر:٢٠٧.
[١١] تفسير الطبري:٥٧٦/١٤.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٤٠):ص١٩١٤/٦.

قوله تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة : ١٢٣]، أي:" واعلموا أن الله مع المتقين بتأييده ونصره"[١].

قال الطبري:أي:" وأيقنوا ، عند قتالكم إياهم ، أن الله معكم ، وهو ناصركم عليهم ، فإن اتقيتم الله وخفتموه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، فإن الله ناصر من اتقاه ومعينه"[٢].

الفوائد:

١- أن صفة المؤمنين عند الله أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيما برا بالأخيار، غضوبا عبوسا في وجه الكفار، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة} .
٢- وعد الله بالنصر والتأييد لأهل التقوى العامة والخاصة.

القرآن

{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤)} [التوبة : ١٢٤]

التفسير:

وإذا ما أنزل الله سورة من سور القرآن على رسوله، فمِن هؤلاء المنافقين من يقول: -إنكارًا واستهزاءً- أيُّكم زادته هذه السورة تصديقًا بالله وآياته؟

فأما الذين آمنوا بالله ورسوله فزادهم نزول السورة إيمانًا بالعلم بها وتدبرها واعتقادها والعمل بها، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين.

قوله تعالى:{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [التوبة : ١٢٤]، أي:" وإذا ما أنزل الله سورة من سور القرآن على رسوله، فمِن هؤلاء المنافقين من يقول: -إنكارًا واستهزاءً- أيُّكم زادته هذه السورة تصديقًا بالله وآياته؟"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه محمد ﷺ ، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله في هذه السورة من يقول : أيها الناس ، أيكم زادته هذه السورة إيمانًا ؟"[٤].

قال ابن عباس:" كان إذا نزلت سورة آمنوا بها ، فزادهم الله إيمانًا وتصديقًا ، وكانوا يستبشرون"[٥].

وفي قولهم ذلك عند نزول السورة وجهان:

أحدهما : أنه قول بعضهم لبعض على وجه الإنكار ، قاله الحسن[٦].

الثاني : أنهم يقولون ذلك لضعفاء المسلمين على وجه الاستهزاء[٧].

قوله تعالى:{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة : ١٢٤]، أي:" فأما الذين آمنوا بالله ورسوله فزادهم نزول السورة إيمانًا بالعلم بها وتدبرها واعتقادها والعمل بها، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين"[٨].

قال الطبري:" يقول : تصديقًا بالله وبآياته. يقول الله : {فأما الذين آمنوا}، من الذين قيل لهم ذلك {فزادتهم}، السورة التي أنزلت {إيمانا}، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٢] تفسير الطبري:٥٧٦/١٤.
[٣] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٤] تفسير الطبري:٥٧٧/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٧٤٨٨):ص٥٧٨/١٤.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤١٦/٢.
[٧] انظر: النكت والعيون:٤١٦/٢.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٧.

وفي قوله تعالى:{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة : ١٢٤]، وجهان:
أحدهما: فزادتهم خشيةً. قاله الربيع بن أنس [٢].
والثاني: فزادتهم السورة إيماناً لأنهم قبل نزولها لم يكونوا مؤمنين بها ، قاله الطبري[٣].
الفوائد:
١- تقرير مبدأ زيادة الإيمان ونقصانه زيادته بالطاعة ونقصانه بالعصيان، فيزداد الإيمان من حيث القول فإن من ذكر الله عشر مرات ليس كمن ذكر الله مئة مرة، فالثاني أزيد بكثير، وكذلك أيضاً من أتى بالعبادة على وجه كامل يكون إيمانه أزيد ممن أتى بها على وجه ناقص، وكذلك العمل فإن الإنسان إذا عمل عملاً بجوارحه أكثر من الآخر صار الأكثر أزيد إيماناً من الناقص[٤].
وفي الحديث روي عنه ﷺ: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان "[٥].
فدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شعب الإيمان وخصاله[٦] وأن بعضه أعلى من بعض.
وقال ﷺ: " يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من إيمان، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من إيمان.."[٧].
فدل هذا الحديث على أن الإيمان يتفاوت قوة وضعفاً في القلوب. كما دل الحديث الذي قبله على أن شعب الإيمان بعضها أقوى وأعلى من بعض.
ومما تقدم من النصوص يتضح لنا تعريف الإيمان في الكتاب والسنة وأنه قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن بعض خصاله أعلى من بعض، وأن أهله يتفاوتون فيه قوة وضعفاً.
وعلى هذا القول السلف الصالح -رضوان الله عليهم- أهل الذكر الذين لازموا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واستمدوا علومهم منهما.
٢- ومن الفوائد: جواز الفرح بالإيمان وصالح الأعمال.

القرآن
{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)} [التوبة : ١٢٥]
التفسير:
وأما الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله، فإن نزول السورة يزيدهم نفاقًا وشكًا إلى ما هم عليه من قبلُ من النفاق والشك، وهلك هؤلاء وهم جاحدون بالله وآياته.
قوله تعالى:{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة : ١٢٥]، أي:" وأما الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله، فإن نزول السورة يزيدهم نفاقًا وشكًا إلى ما هم عليه من قبلُ من النفاق والشك"[١].

---

[١] تفسير الطبري:٥٧٧/١٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٧٤٨٩):ص٥٧٨/١٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري:٥٧٧/١٤.
[٤] انظر: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (أكثر من ٩٠٠٠ موقف لأكثر من ١٠٠٠ عالم على مدى ١٥ قرنًا:٤٥٨/١٠.
[٥]رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان. ح (٤٩) ج٦٩/١.
[٦]جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي ص٣٠٦ مكتبة الرسالة الحديثة- عمان، ط. ت: بدون.
[٧]رواه البخاري، كتاب الإيمان. باب زيادة الإيمان ونقصانه، ح (٤٤) الصحيح مع الفتح ١٠٣/١.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : {وأما الذين في قلوبهم مرض}، نفاق وشك في دين الله، فإن السورة التي أنزلت {زادتهم رجسًا إلى رجسهم} ، وذلك أنهم شكوا في أنها من عند الله ، فلم يؤمنوا بها ولم يصدّقوا ، فكان ذلك زيادة شكٍّ حادثةٍ في تنزيل الله ، لزمهم الإيمان به عليهم ، بل ارتابوا بذلك ، فكان ذلك زيادة نَتْنٍ من أفعالهم ، إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق. وذلك معنى قوله : {فزادتهم رجسا إلى رجسهم}"[٢].

قال ابن كثير:" أي : زادتهم شكا إلى شكهم ، وريبا إلى ريبهم ، كما قال تعالى : { وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا } [الإسراء : ٨٢] ، وقال تعالى : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } [فصلت : ٤٤] ، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا"[٣].

عن ابن عباس قوله: "{وأما الذين في قلوبهم مرض}، قال: المرض: النفاق"[٤].

وروي عن طاوس في قوله: "{وأما الذين في قلوبهم مرض}، قال: كان ذلك في بعض أمور النساء"[٥].

وفي قوله تعالى:{ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة : ١٢٥]، وجوه:

أحدها : إثماً إلى إثمهم، يعني: نفاقا مع نفاقهم الذي هم عليه قبل ذلك. قاله مقاتل[٦].

الثاني : شكاً إلى شكِّهم ، قاله السدي[٧]، والكلبي[٨].

الثالث : كفراً إلى كفرهم ، قاله قطرب[٩]، وابن قتيبة[١٠]، والزجاج[١١].

قال ابن قتيبة:" قد يسمّى الكفر والنفاق: رجسا، لأنّه نتن. قال الله تعالى: فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ [التوبة: ١٢٥] ، أي: كفرا إلى كفرهم، أو نفاقا إلى نفاقهم"[١٢].

قال الزجاج:" أي: زادتهم كفرا إلى كفرهم، لأنهم كلما كفروا بسورة ازداد كفرهم"[١٣].

قوله تعالى:{وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة : ١٢٥]، أي:" وهلك هؤلاء وهم جاحدون بالله وآياته"[١٤].

قال الطبري:" يعني : هؤلاء المنافقين أنهم هلكوا، وهم كافرون بالله وآياته "[١٥].

الفوائد:

١- أن الكفر يزيد وينقص، والنفاق يزيد وينقص، والإيمان يزيد وينقص.
٢- أنمريض القلب يزداد مرضا وصحيحه يزداد صحة سنة من سنن الله في العباد.

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٢] تفسير الطبري:٥٧٨/١٤.
[٣] تفسير ابن كثير:٢٣٩/٤.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٤٥):ص١٩١٥/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٤٦):ص١٩١٥/٦.
[٦] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٤/٢.
[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٤٧):ص١٩١٥/٦.
[٨] انظر: النكت والعيون:٤١٦.
[٩] انظر: النكت والعيون:٤١٦.
[١٠] انظر: غريب القرآن:١٩٣، وتأويل مشكل القرآن:٢٦٠.
[١١] انظر: معاني القرآن:٤٧٦/٢.
[١٢] تأويل مشكل القرآن:٢٦٠.
[١٣]معاني القرآن:٤٧٦/٢.
[١٤] التفسير الميسر:٢٠٧.
[١٥] تفسير الطبري:٥٧٨/١٤.

٣- ومن الفوائد: أن مرض الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته، قال تعالى: {وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم}[١].

القرآن
{أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)} [التوبة : ١٢٦]
التفسير:
أو لا يرى المنافقون أن الله يبتليهم بالقحط والشدة، وبإظهار ما يبطنون من النفاق مرة أو مرتين في كل عام؟ ثم هم مع ذلك لا يتوبون مِن كفرهم ونفاقهم، ولا هم يتعظون ولا يتذكرون بما يعاينون من آيات الله.

قوله تعالى:{أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} [التوبة : ١٢٦]، أي:" أو لا يرى المنافقون أن الله يبتليهم بالقحط والشدة، وبإظهار ما يبطنون من النفاق مرة أو مرتين في كل عام؟"[٢].

قال الطبري:" أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنَّ الله يختبرهم في كل عام مرة أو مرتين ، بمعنى أنه يختبرهم في بعض الأعوام مرة ، وفي بعضها مرتين"[٣].

واختلف أهل التفسير في معنى «الفتنة» التي ذكر الله في هذا الموضع، على أقوال:
أحدها : يبتلون ، قاله ابن عباس[٤]، والحسن[٥]، مجاهد[٦]، وقتادة[٧].
الثاني : يضلون ، قاله عبد الرحمن بن زيد[٨].
الثالث : يختبرون ، قاله أبو جعفر الطبري[٩].
والرابع: قال مقاتل:" وذلك أنهم كانوا إذا خلوا تكلموا فيما لا يحل لهم وإذا أتوا النبي- ﷺ- أخبرهم بما تكلموا به في الخلاء فيعلمون أنه نبي رسول ثم يأتيهم الشيطان فيحدثهم أن محمدا إنما أخبركم بما قلتم لأنه بلغه عنكم فيشكون فيه فذلك قوله: {يفتنون في كل عام مرة أو مرتين} فيعرفون أنه نبي، وينكرون أخرى"[١٠].

وفي الذي يفتنون به أقوال:
أحدها : أنه الجوع والقحط ، قاله مجاهد[١١].
الثاني : أنه الغزو والجهاد في سبيل الله ، قاله الحسن[١٢]، وقتادة[١٣].
الثالث : ما يلقونه من الأكاذيب على رسول الله ﷺ وأصحابه، فيفتتن بذلك الذين في قلوبهم مرض، قاله حذيفة بن اليمان[١٤].

وروي عن حذيفة:" كان لهم في كل عام كذبة أو كذبتان"[١].

---

[١] انظر: شرح العقيدة الطحاوية:١٨٧.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٣] تفسير الطبري:٥٧٩/١٤.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٤٨):ص١٩١٥/٦.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٥٠):ص١٩١٥/٦.
[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٤٩):ص١٩١٥/٦.
[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٥١):ص١٩١٦/٦.
[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٥٣):ص١٩١٦/٦.
[٩] انظر: تفسير الطبري:٥٨١/١٤.
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٤/٢.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٩٠)-(١٧٤٩٣):ص٥٨٠/١٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٩٥):ص٥٨٠/١٤.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٩٤):ص٥٨٠/١٤.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٤٩٦):ص٥٨١/١٤.

الرابع : يختبرون أنه ينزل عليهم العذاب والمكروه. حكاه الزجاج(٢).
والخامس: أنه ما يظهره الله تعالى من هتك أستارهم وسوء نياتهم ، حكاه علي بن عيسى(٣).

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله عجَّب عبادَه المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ووبَّخ المنافقين في أنفسهم بقلّة تذكرهم، وسوء تنبههم لمواعظ الله التي يعظهم بها. وجائزٌ أن تكون تلك المواعظُ الشدائدَ التي ينزلها بهم من الجوع والقحط ، وجائزٌ أن تكون ما يريهم من نُصرة رسوله على أهل الكفر به، ويرزقه من إظهار كلمته على كلمتهم، وجائزٌ أن تكون ما يظهر للمسلمين من نفاقهم وخبث سرائرهم، بركونهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله ﷺ وأصحابه ولا خبر يوجب صحةَ بعض ذلك دون بعض، من الوجه الذي يجب التسليم له. ولا قول في ذلك أولى بالصواب من التسليم لظاهر قول الله وهو: أو لا يرون أنهم يختبرون في كل عام مرة أو مرتين، بما يكون زاجرًا لهم، ثم لا ينزجرون ولا يتعظون؟"(٤).

قَرَأَ حَمْزَة وَحده «أَولا ترَوْنَ» بِالتَّاءِ، وَقَرَأَ الْباقون بِالْيَاءِ(٥).

وهي في قراءة ابن مسعود «أَوَ لاَ تَرَى أَنَّهُم يُفْتَنُونَ» خطاباً لرسول الله -ﷺ- (٦)..

قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ} [التوبة : ١٢٦]، أي:" ثم هم مع ذلك لا يتوبون مِن كفرهم ونفاقهم"(٧).

قال الطبري:" يقول : ثم هم مع البلاء الذي يحلّ بهم من الله ، والاختبار الذي يعرض لهم ، لا ينيبون من نفاقهم ، ولا يتوبون من كفرهم "(٨).

قوله تعالى:{وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة : ١٢٦]، أي:" ولا يتذكرون بما يعاينون من آيات الله"(٩).

قال الطبري:" ولا هم يتذكرون بما يرون من حجج الله ويعاينون من آياته ، فيتعظوا بها ، ولكنهم مصرُّون على نفاقهم ؟"(١٠).

قال مقاتل:" فيما أخبرهم النبي- ﷺ- بما تكلموا به فيعرفوا ولا يعتبروا"(١١).

الفوائد:

١- كشف أغوار المنافقين وفضيحتهم في آخر آية من سورة التوبة تتحدث عنهم.

يقول الحافظ ابن كثير: "وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية، لأنّ مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير حلفاء الأوس وبنو قريظة، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج وقلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تُخاف، بل قد

---

(١) اخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٥٢):ص١٩١٦/٦.
(٢) مهعاني القرآن:٤٧٦/٢.
(٣) تفسير الطبري:٥٨١/١٤.
(٤) تفسير الطبري:٥٨١/١٤.
(٥) انظر: السبعة في القراءات:٣٢٠.
(٦) تفسير الطبري:٥٨١/١٤.
(٧) التفسير الميسر:٢٠٧.
(٨) تفسير الطبري:٥٧٩/١٤.
(٩) التفسير الميسر:٢٠٧.
(١٠) تفسير الطبري:٥٧٩/١٤.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٤/٢.

كان ﷺ وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر الله قد توجه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وُجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة"[١].

٢- إن الله تعالى بعد ترجيح العاصي للعصيان باختياره الموافق لعلم الله وقدره ومشيئته لا يزال سبحانه يفعل من مرجحات الطاعة والموقظات عن الغفلة ما يؤكد الحجة البالغة، ويجددها تفضلا منه سبحانه تارة بما يفعله من الأمراض كما قال تعالى: {أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون} [التوبة: ١٢٦]، وتارة بما يريهم من مصارع آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وجيرانهم، قال تعالى: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} [الملك: ٢].

وتارة بما يقرع أسماعهم من مواعظ الله وحججه على ألسنة أنبيائه وأوليائه، فلا يزال سبحانه وتعالى يقابل الدواعي إلى معصيته بالدواعي إلى طاعته، والعاصي لا يزداد إلا تماديا على سوء اختياره، وطول غفلته كما شكاه نوح عليه السلام من قوله، ولذلك عظم الله شأن التذكر والموجب للترجيح، وقال في غير آية: {لعلهم يذكرون} أي: لمحبته ذلك لهم، وطلبه منهم عند أهل السنة كما مضى.

وقال في الغافلين: {أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} [الأعراف: ١٧٩]، وتأمل قوله تعالى: {بل هم أضل} فإنه يدل على أن الله تعالى مكنهم من اختيار الصواب بخلاف الأنعام[٢].

القرآن

{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)} [التوبة : ١٢٧]

التفسير:

وإذا ما أُنزلت سورة تغَامَزَ المنافقون بالعيون إنكارًا لنزولها وسخرية وغيظًا؛ لِمَا نزل فيها مِن ذِكْر عيوبهم وأفعالهم، ثم يقولون: هل يراكم من أحد إن قمتم من عند الرسول؟ فإن لم يرهم أحد قاموا وانصرفوا من عنده عليه الصلاة والسلام مخافة الفضيحة. صرف الله قلوبهم عن الإيمان؛ بسبب أنهم لا يفهمون ولا يتدبرون.

قوله تعالى:{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا} [التوبة : ١٢٧]، أي:"وإذا أنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف، فإنا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وإذا ما أنزلت سورة}، من القرآن، فيها عيبُ هؤلاء المنافقين الذين وصفَ جل ثناؤه صفتهم في هذه السورة، وهم عند رسول الله ﷺ، {نظر بعضهم

---

[١] تفسير ابن كثير:٥٠/١.

[٢] انظر: العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم:١٧٠/٦-١٧١.

[٣] صفوة التفاسير:٥٢٩/١.

إلى بعض}، فتناظروا، {هل يراكم من أحد}إن تكلمتم أو تناجيتم بمعايب القوم يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ، ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معايبهم"(١).

قال الزجاج:" يقولون ذلك إيماء لأنهم منافقون لا يظهرون ذلك:{ هل يراكم من أحد}، يقولون ذلك استسرارا وتحذرا من أن يعلم بهم الله - عز وجل - وهو أعلم، {ثم انصرفوا}، أي: يفعلون ذلك وينصرفون، فجائز أن يكون ينصرفون عن المكان الذي استحقوا فيه، وجائز أن يكون ينصرفون عن العمل بشيء مما يستمعون"(٢).

قال ابن ابي زمنين:" يعني: المنافقين {هل يراكم من أحد} من المسلمين؛ يقوله بعضهم لبعض {ثم انصرفوا} قال الحسن: يعني: عزموا على الكفر"(٣).

قال مكي بن ابي طالب:" المعنى: وإذا ما أنزل الله عز وجل، سورة، وهم جلوس عند النبي عليه السلام، فكان فيها إظهار سرهم {نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ}، هل رآكم أحد إذ قلتم وتناجيتم، ثم قاموا فانصروا ولم يسمعوا قراءته، وقيل: المعنى: إذا ما أُنزلت سورة فيها أسرارهم، {نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ}، أحد إن قمتم، فإن قالوا: نعم، قاموا ولم يسمعوا القرآن"(٤).

قال البغوي:"{وإذا ما أنزلت سورة} فيها عيب المنافقين وتوبيخهم، {نظر بعضهم إلى بعض} يريدون الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة، {هل يراكم من أحد} أي: أحد من المؤمنين، إن قمتم، فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد، وإن علموا أن أحدا يراهم أقاموا وثبتوا، {ثم انصرفوا} عن الإيمان بها. وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها"(٥).

قال السمعاني: قوله :"{ثم انصرفوا} فيه معنيان:

أحدهما: انصرفوا عن مواضعهم.

والآخر: انصرفوا عن الإيمان، أي: لم يؤمنوا ولم يقبلوا"(٦).

قال الزمخشري:" {نظر بعضهم إلى بعض}، تغامزوا بالعيون إنكارا للوحى وسخرية به قائلين: {هل يراكم من أحد} من المسلمين لننصرف، فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم. أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لو إذا يقولون: هل يراكم من أحد. وقيل: معناه: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين"(٧).

عن ابن عباس قوله: "{وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض}، الآية، قال: هم المنافقون"(٨).

قال ابن زيد في قوله:"{وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد} ، ممن سمع خبرَكم، رآكم أحدٌ أخبره؟ إذا نزل شيء يخبر عن كلامهم. قال: وهم المنافقون. قال: وقرأ: {وَإِذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا}، حتى بلغ: {نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد} أخبره بهذا؟ أكان معكم أحد؟ سمع كلامكم أحد يخبره بهذا؟"(٩).

قوله تعالى:{صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة : ١٢٧]، أي:" صرف الله قلوبهم عن الإيمان؛ بسبب أنهم لا يفهمون ولا يتدبرون"(١٠).

قال الزجاج:" أي: أضلهم الله مجازاة على فعلهم"(١١).

---

(١) تفسير الطبري:٥٨٢/١٤.

(٢) معاني القرآن:٤٧٦/٢-٤٧٧.

(٣) تفسير ابن ابي زمنين:٢٤١/٢.

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣١٩٨/٤.

(٥) تفسير البغوي:١١٥/٤.

(٦) تفسير السمعاني:٣٦٢/٢.

(٧) الكشاف:٣٢٤/٢-٣٢٥.

(٨) أخرجه الطبري(١٧٥٠١):ص٥٨٣/١٤.

(٩) أخرجه الطبري(١٧٥٠٢):ص٥٨٣/١٤-٥٨٤.

(١٠) التفسير الميسر:٢٠٧.

(١١) معاني القرآن:٤٧٧/٢.

قال الطبري:" صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوبَ هؤلاء المنافقين {ذلك بأنهم قوم لا يفقهون}، يقول: فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكبارًا، ونفاقا"[1].

قال ابن ابي زمنين:" {صرف الله قلوبهم} هذا دعاء، {بأنهم قوم لا يفقهون} لا يرجعون إلى الإيمان"[2].

قال مكي بن ابي طالب:" {صَرَفَ الله قُلُوبَهُم}، أي: عن الخير والتوفيق، {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ}، أي: لا يفقهون عن الله، عز وجل، مواعظة، استنكاراً ونفاقاً"[3].

قال الزمخشري:" {صرف الله قلوبهم}، دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بأنهم بسبب أنهم قوم لا يفقهون لا يتدبرون حتى يفقهوا"[4].

روي عن ابن عباس قال:« لا تقولوا: "انصرفنا من الصلاة"، فإن قومًا انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا: "قد قضينا الصلاة»"[5].

الفوائد:

١- أن المنافقين إذا أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض جازمين على ترك العمل بها، وينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ثم انصرفوا مُتسلّلين، وانقلبوا مُعرضين، فجازاهم الله بعقوبةٍ من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل صرف الله قلوبهم، وصدّها عن الحق، وخذلها بأنهم قوم لا يفقهون فقهاً ينفعهم؛ فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا أُنزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها[6]، كما قال - عز وجل -: {وَمِنْهُم مَّن مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}[محمد:١٦]،، وقال سبحانه: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله أَفَلا تَذَكَّرُونَ}[الجاثية:٢٣].

٢- أن من آثار عدم التسليم: الشكّ والزيغ، كما قال تعالى في موضع آخر: { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف : ٥]، وعكس ذلك من كان مُسلِّما لله عز وجل، ولرسوله - ﷺ - قد قام دينه على التسليم، فأصبح ثابت القلب ليس عنده تردد ولا تذبذب ولا حيرة ولا قلق، بل هو يسير على صراط واضح مستقيم، يمشي بنور من الله، قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ} [الحديد: ٢٨] فالمؤمن الصحيح التوحيد يمشي في هذه الحياة بنور الحق، فيعرف مواقع أقدامه، والطريق الذي يسير عليه {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} [الأنعام: ١٥٣] لكن هذا المتذبذب لا يدري أين طريق النجاة، فهو متذبذب متردد بين التصديق والتكذيب والإقرار والإنكار فهو في حيرة دائمة؛ لأن الشك والحيرة عذاب، أما المؤمن فقلبه في نعيم، وكلامنا هذا في إنسان ينتمي للإسلام، أما الكافر فهو غارق في بحر الضلال والكفر، فليس عنده تفكير، وتردد بين حق وباطل وإقرار وإنكار وإيمان وكفر؛ بل عنده كفر خالص وإنكار دائم تام؛ لكن هذا الذي ينتمي للدين، ويدعي الإيمان، ولكنه لم يكن مستقيما مسلما مستسلما، فهذا الذي يحصل له ما يحصل من الاضطراب والقلق، فإما أن يعصمه الله ويثبته ويوفقه؛ فيثبت على الإيمان

---

[1] تفسير الطبري:٥٨٢/١٤.
[2] تفسير ابن ابي زمنين:٢٤١/٢.
[3] الهداية إلى بلوغ النهاية:٣١٩٨/٤.
[4] الكشاف:٣٢٥/٢.
[5] أخرجه الطبري(١٧٤٩٨):ص٥٨٣/١٤.
[6] انظر: تفسير السعدي٣١٣.

وينجو من هذه الوساوس والشكوك، وإما أن يقوى في قلبه سلطان الباطل؛ فيصير إلى الكفر دائما ولا يكون عنده تردد[١].

٣- من ترك الحق ابتلي بالباطل، كما دلت عليه الآية، فلما رفضوه أول الأمر عند ذلك ابتلاهم الله بتقليب أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم، فلا تقبل الحق بعد ذلك. وهذا خطر شديد، بخلاف الذي يقبل الحق ويرغب فيه، فإن الله يهديه ويزيده علما وبصيرة.

٤- يستحب أن لا يقال «انصرفنا» من الصلاة أو الدرس، ولكن يقال :«انقضت الصلاة» أو «انقضى الدرس»، ونحو ذلك.

القرآن

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)} [التوبة : ١٢٨]

التفسير:

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول من قومكم، يشق عليه ما تلقون من المكروه والعنت، حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم، وهو بالمؤمنين كثير الرأفة والرحمة.

سبب النزول:

أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال :"لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا له: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا، قال: ولم سألتم هذا قالوا: نطلب الأمن فأنزل الله تعالى هذه الآية :{لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم} الآية"[٢].

قوله تعالى:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة : ١٢٨]، أي:" لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول من قومكم"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للعرب : {لقد جاءكم}، أيها القوم ، رسول الله إليكم {من أنفسكم}، تعرفونه ، لا من غيركم ، فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم"[٤].

وقال مقاتل:"{لقد جاءكم}، يا أهل مكة، {رسول من أنفسكم}، تعرفونه ولا تنكرونه"[٥].

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: محمدا ﷺ {من أنفسكم}، يعني: من جميع العرب، لأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولرسول الله ﷺ فيها قرابة. وهذا من المجاز والاستعارة، لأن النبي ﷺ كان فيهم ولم يجيء من موضع آخر، ولكن معناه: ظهر فيكم رسول الله ﷺ ويقال: هذا الخطاب لجميع الناس: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم}، يعني: آدميا مثلكم"[٦].

قال الزجاج:"أي: هو بشر مثلكم. أي: فهو أوكد للحجة عليكم، لأنكم تفهمون عمن هو مثلكم، وجائز أن يكون عنى به إنه عربي كما أنكم عرب، فأنتم تخبرونه وقد وقفتم على مذهبه"[٧].

قال قتادة:" جعله الله من أنفسهم ، فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة"[٨].

---

[١] انظر: شرح العقيدة الطحاوية للراك:١٣٤-١٣٥.
[٢] الدر المنثور:٣٣٣/٤.
[٣] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٤] تفسير الطبري:٥٨٤/١٤.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٥/٢.
[٦] بحر العلوم:١٠٠/٢-١٠١.
[٧] معاني القرآن:٤٧٧/٢.
[٨] أخرجه الطبري(١٧٥٠٧):ص٥٨٥/١٤.

وروي عن جبير بن نفير "أن رسول الله ﷺ قال: لقد جاءكم رسول إليكم ليس بوهن ولا كسل ليحيي قلوبا غلفا ويفتح أعينا عميا، ويسمع آذانا صما ويقيم ألسنة عوجا، حتى يقال: لا إله إلا الله وحده"[١].

وقوله تعالى:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة : ١٢٨]، فيه قراءتان[٢]:
إحداهما : «من أنفسكم»، بفتح «الفاء»، ويحتمل تأويلها ثلاثة أوجه :
أحدها : من أكثركم طاعة لله تعالى .
الثاني : من أفضلكم خلقاً .
الثالث : من أشرفكم نسباً.

قال البغوي:" قرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن "من أنفسكم" بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم"[٣].

قال الزمخشري:" وقرئ: «من أنفسكم»، أى: من أشرفكم وأفضلكم. وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ وفاطمة وعائشة رضى الله عنهما"[٤].

وقال أبو الليث السمرقندي:" قرأ بعضهم: «من أنفِسكم»، بنصب «الفاء»، يعني: من أشرفكم وأعزكم، وهي قراءة شاذة"[٥].

والقراءة الثانية : «من أنفسكم»، بضم «الفاء»، وفي تفسيرها أربعة أوجه :
أحدها : يعني: من المؤمنين لم يصبه شيء من شرك في ولادته، قاله محمد بن علي[٦].
الثاني : يعني: من نكاح لم يصبه من ولادة الجاهلية ، قاله جعفر بن محمد[٧].

وقد روي عن النبي -ﷺ- أنه قال :« إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح»[٨].

وفي روياة أخرى:« خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء»[٩].

الثالث : ممن تعرفونه بينكم، وهذا معنى قول قتادة[١٠].
الرابع : يعني من جميع العرب، لأنه لم يبق بطن من بطون العرب إلا قد ولدوه ، حكاه الماوردي عن الكلبي[١١].

قال الزمخشري: "{ من أنفسكم}، من جنسكم ومن نسبكم عربى قرشي مثلكم"[١٢].

قوله تعالى:{عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة : ١٢٨]، أي:" يشق عليه ما تلقون من المكروه والعنت"[١٣].

قال الطبري:" أي : عزيز عليه عنتكم ، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى "[١].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٥٩):ص١٩١٧/٦.
[٢] انظر: النكت والعيون:٤١٧/٢-٤١٨.
[٣] تفسير البغوي:١١٥/٤.
[٤] الكشاف:٣٢٥/٢.
[٥] بحر العلوم:١٠١/٢.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٥٠٤):٥٨٥/١٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٥٠٥):٥٨٥/١٤.
[٨] أخرجه عبد الرزاق (٣٠٣/٧، رقم ١٣٢٧٣) . وأخرجه أيضا: البيهقى (١٩٠/٧، رقم ١٣٨٥٥).
[٩] أخرجه الطبرانى فى الأوسط من طريق ابن أبى عمر (٨٠/٥، رقم ٤٧٢٨) ، قال الهيثمى (٢١٤/٨) : فيه محمد بن جعفر بن محمد بن على، صحح له الحاكم فى المستدرك وقد تكلم فيه وبقية رجاله ثقات. وابن عساكر من طريق ابن أبى عمر وابن عدى (٤٠٢/٣) . وأخرجه أيضا: الرامهرمزى فى المحدث الفاصل (ص ٤٧٠) ، والديلمى (١٩٠/٢، رقم ٢٩٤٩) . قال الحافظ فى التلخيص الحبير (١٧٦/٣) : فى إسناده نظر.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٥٠٧):ص٥٨٥/١٤.
[١١] انظر: النكت والعيون:٤١٨/٢.
[١٢] الكشاف:٣٢٥/٢.
[١٣] التفسير الميسر:٢٠٧.

قال الزجاج:" أي: عزيز عليه عنتكم، والعنت لقاء الشدة"[٢].
قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: شديد عليه ما أثمتم وعصيتم"[٣].
قال البغوي:" {ما عنتم} قيل {ما} صلة أي: عنتكم، وهو دخول المشقة والمضرة عليكم"[٤].
قال الزمخشري: " ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله عزيز عليه {ما عنتم}، أي: شديد عليه شاق- لكونه بعضا منكم- عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب"[٥].
عن ابن عباس قوله: "{عزيز عليه}، قال: شديد عليه"[٦]. " {ما عنتم}، قال: ما شق عليكم"[٧].
وفي قوله تعالى:{عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة : ١٢٨]، وجوه من التفسير:
أحدها:معناه: ما ضللتم. قاله ابن عباس[٨].
وروي عن أبي روق قوله: "{حريص عليكم}، أن يؤمن كفاركم"[٩].
وقال القتيبي: "ما أعنتكم وضركم"[١٠].
والثاني: معناه: عزيز عليه عَنت مؤمنكم. قاله قتادة[١١].
وروي عن قتادة أيضا:" حريص على ضالهم أن يهديه"[١٢].
والثالث: معناه: يعزّ عليه ما أثمتم في دينكم. قاله مقاتل[١٣].
والرابع:معناه: ما أتممتم. حكاه البغوي عن الضحاك والكلبي[١٤].
والراجح-والله أعلم- هو "قولُ ابن عباس، وذلك أن الله عمَّ بالخبر عن نبيّ الله أنه عزيز عليه ما عنتَ قومَه ، ولم يخصص أهل الإيمان به. فكان ﷺ [كما جاء الخبرُ من] الله به ، عزيزٌ عليه عَنَتُ جمعهم، فإن قال قائل : وكيف يجوز أن يوصف ﷺ بأنه كان عزيزًا عليه عنتُ جميعهم، وهو يقتل كفارَهم، ويسبي ذراريَّهم، ويسلبهم أموالهم ؟
قيل : إن إسلامهم ، لو كانوا أسلموا ، كان أحبَّ إليه من إقامتهم على كفرهم وتكذيبهم إياه ، حتى يستحقوا ذلك من الله. وإنما وصفه الله جل ثناؤه بأنه عزيزٌ عليه عنتهم ، لأنه كان عزيزًا عليه أن يأتوا ما يُعنتهم ، وذلك أن يضلُّوا فيستوجبوا العنت من الله بالقتل والسبي"[١٥].
قوله تعالى:{حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} [التوبة : ١٢٨]، أي:" حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم"[١٦].
قال الطبري:" يقول : حريص على هُدَى ضُلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق "[١٧].

---

[١] تفسير الطبري:٥٨٤/١٤.
[٢] معاني القرآن:٤٧٧/٢.
[٣] بحر العلوم:١٠١/٢.
[٤] تفسير البغوي:١١٥/٤-١١٦.
[٥] الكشاف:٣٢٥/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٦١):ص١٩١٧/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٦٢):ص١٩١٧/٦.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٥٠٨):ص٥٨٥/١٤.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٦٥):ص١٩١٨/٦.
[١٠] تفسير البغوي:١١٦/٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٥٠٠):ص٥٨٦/١٤.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٦٦):ص١٩١٨/٦.
[١٣] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٥/٢.
[١٤] انظر: تفسير البغوي:١١٦/٤.
[١٥] تفسير الطبري:٥٨٦/١٤.
[١٦] التفسير الميسر:٢٠٧.
[١٧] تفسير الطبري:٥٨٤/١٤.

قال الزجاج:" أي: حريص على إيمانكم"[١].
قال البغوي:" أي: على إيمانكم وصلاحكم"[٢].
قال الزمخشري:أي:" حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به"[٣].
قال مقاتل:"{حريص عليكم}، بالرشد والهدى"[٤].
قال الكلبي:" يعني:على إيمانكم"[٥].
قال قتادة:" حريص على ضالهم أن يهديه الله"[٦]. وفي رواية أخرى:" حريص على من من لم يسلم أن يسلم"[٧].
قوله تعالى:{بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ١٢٨]، أي:" وهو بالمؤمنين كثير الرأفة والرحمة"[٨].
قال الطبري:" أي: رفيق {رحيم}"[٩].
قال أبو الليث السمرقندي:" أي: رفيق بجميع المؤمنين، {رحيم} بهم"[١٠].
قال البغوي:" قيل:{رؤوف} بالمطيعين، {رحيم} بالمذنبين"[١١].
قال الزمخشري:أي:" بالمؤمنين منكم ومن غيركم {رؤف رحيم}"[١٢].
قال مقاتل:" يعني :يرق لهم، {رحيم بهم}، يعني: حين يودهم...«الرأفة» يعني: الرقة والرحمة، يعني: مودة بعضكم لبعض، كقوله : {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[١٣]، يعنى: متوادين"[١٤].
قال السمعاني:" وقد أعطاه الله تعالى في هذه الآيه اسمين من أسمائه، وهو في نهاية الكرامه"[١٥].
قال الزمخشري:" قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: {رؤف رحيم}"[١٦].
عن أبي روق في قوله: "{بالمؤمنين}، كلهم رؤف رحيم"[١٧].
عن سعيد بن أبي عروبة :"{بالمؤمنين رؤف رحيم}، قال: رؤف: رقيق"[١٨].
عن عكرمة قال: "قال رسول الله ﷺ: جاء جبريل فقال لي: يا محمد إن ربك يقرئك السلام وهذا ملك الجبال قد أرسله إليك وأمره ألا يفعل شيئا إلا بأمرك فقال له ملك الجبال: إن الله أمرني ألا أفعل شيئا إلا بأمرك، إن شئت دمدمت عليهم الجبال، وإن شئت رميتهم بالحصباء

---

[١] معاني القرآن:٤٧٧/٢.
[٢] تفسير البغوي:١١٦/٤.
[٣] الكشاف:٣٢٥/٢.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٥/٢.
[٥] حكاه عنه أبو الليث السمرقندي في بحر العلوم:١٠١/٢.
[٦] أخرجه الطبري(١٧٥١٠):ص٥٨٧/١٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٧٥١١):ص٥٨٧/١٤.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٩] تفسير الطبري:٥٨٤/١٤.
[١٠] بحر العلوم:١٠١/٢.
[١١] تفسير البغوي:١١٦/٤.
[١٢] الكشاف:٣٢٥/٢.
[١٣][الفتح : ٢٩].
[١٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٥/٢.
[١٥] تفسير السمعاني:٣٦٣/٢.
[١٦] الكشاف:٣٢٥/٢.
[١٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٦٨):ص١٩١٨/٦.
[١٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٠):ص١٩١٩/٦.

وإن شئت خسفت بهم الأرض، قال: يا ملك الجبال، فإني آتي بهم بهم، لعلهم أن تخرج ذرية يقولوا: لا إله إلا الله، فقال ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤف رحيم"[١].

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: لي أسماء، أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذين يحشر النساء على قدمي، وأنا العاقب: الذي ليس بعده أحد وقد سماه الله رؤفا رحيما"[٢].

الفوائد:

١- أن الآية شهادة أن محمد رسول الله-ﷺ-، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}، ومعنى شهادة أن محمدا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع[٣].

٢- أن الرضا بنبوة الرسول ورسالته، وأتباعه من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته. قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [سورة التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سورة آل عمران: ١٦٤].

٣- أخبر أن رأفته ورحمته -ﷺ- بالمؤمنين لا بالكفار والمنافقين، بل كان عليهم غليظاً شديداً، ويستفاد من ذلك أنه كان المقصود من إقامة الحدود هو رحمتهم وردعهم من الوقوع في المحرمات والمنهيات.

٤- أن الآية فيه الدليل على أن المحبة والمودة إنما تكون لأولياء الله، ولا تكون لأعداء الله.

٥- أن الله تعالى لم يتعبدنا بإتباع بديهة عقولنا السليمة، ولم يتركنا لها هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً من أنفسنا عزيز عليه، ما يعنتنا، بالمؤمنين رؤوف رحيم. جداءنا بكتاب عزيز: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت، الآية:٤٢] يقول الله تعالى فيه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة، الآية:١٢٨] ويقول تعالى فيه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً} [المائدة، الآية:٣] ويقول تعالى فيه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر، الآية:٧].

٦- بيان منه الله تعالى على العرب خاصة وعلى البشرية عامة ببعثه خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم.

فإنه لا منة علينا لأحد بعد الله كما لهذا النبي الكريم، ولا فضل لبشر سواه علينا كفضله العميم، إذ به هدانا الله إلى الصراط المستقيم، ووقانا من حر نار الجحيم.، قال تعالى: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم (١٢٨ؤ [التوبة: ١٢٨]، به حصلت لنا مصالح الدنيا والأخرة، وأسبغ الله علينا نعمه باطنة وظاهرة، وبصرنا بعد العمى، وهدانا بعد الضلال، وعلمنا بعد الجهل، وبه ـ إن شاء الله ـ نرجو الأمن بعد الخوف، اختبأ لنا دعوته شفاعة لنا يوم القيامة، وسأل الله لنا ما لا تبلغه أمنيتنا من أنواع الكرامة، فكيف نقوم بشكره؟! أو نقوم من واجب حقه بمعشار عشره!

فلذلك ـ ولما له عند الله من المرتبة العلية ـ أوجب علينا تعظيمه وتوقيره ونصرته ومحبته والأدب معه، فقال تعالى: {إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا (٨) لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه} [الفتح: ٨ - ٩]، وقال تعالى: {إلا تنصروه فقد

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٦٩):ص١٩١٨/٦.

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٦٧):ص١٩١٨/٦.

[٣] انظر: ثلاثة الأصول وأدلتها - وشروط الصلاة - والقواعد الأربع:١٥.

نصره الله} [التوبة: ٤٠]، ومن تأمل القرآن كله وجده طافحًا بتعظيم عظيم لقدر النبي ﷺ.

وإن الله تعالى كما أخذ علينا لنفسه ـ مع التصديق به وبوحدانيته ـ واجبات: في قلوبنا: من التعظيم والإجلال والمهابة والخوف والرضى والتوكل والشكر، وفي ألسنتنا: مِنَ الثناء والذكر والحمد والقراءة، وفي جوارحنا: من الصلاة وغيرها من الواجبات.

كذلك أوجب لنبيه ـ مع التصديق به وبرسالته ـ واجبات: في قلوبنا: من التوقير والعظيم والمحبة، وفي ألسنتنا: من الصلاة والشهادة في الأذان والصلاة والخطبة، وفي جوارحنا: بأن نقدمه على أنفسنا ونبذل مهجنا بين يديه، إلى غير ذلك مما أوجبه الله له، هذا زيادة على ما يجب بتبليغه من جهة الرسالة، فإن ذلك عام في كل رسول من حيث الرسالة، وهذا قدر زائد تعظيمًا لخصوصه زيادة على التبليغ[١].

القرآن

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)} [التوبة : ١٢٩]

التفسير:

فإن أعرض المشركون والمنافقون عن الإيمان بك -أيها الرسول- فقل لهم: حسبي الله، يكفيني جميع ما أهمَّني، لا معبود بحق إلا هو، عليه اعتمدت، وإليه فَوَّضْتُ جميع أموري؛ فإنه ناصري ومعيني، وهو رب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات.

قوله تعالى:{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ} [التوبة : ١٢٩]، أي: فإن أعرض المشركون والمنافقون عن الإيمان بك -أيها الرسول- فقل لهم: حسبي الله، يكفيني جميع ما أهمَّني"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : فإن تولى ، يا محمد ، هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك ، فأدبروا عنك ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله ، وما دعوتهم إليه من النور والهدى، {فقل حسبي الله}، يكفيني ربي"[٣].

قال مقاتل:" فإن تولوا عنك، يعني: فإن لم يتبعوك على الإيمان -يا محمد- {فقل حسبي الله..}"[٤].

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: إن أعرضوا عنك ولم يؤمنوا بك، فقل حسبي الله يعني قل: كفاني الله وفوضت أمري إلى الله ووثقت به"[٥].

قال البغوي:" {فإن تولوا}، إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك الحرب"[٦].

قال الزمخشري:" {فإن تولوا}، فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوض إليه، فهو كافيك معرتهم[٧]، ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم"[٨].

قال الزجاج:{ فَقُلْ حَسْبِيَ }"أي: الذي يكفيني الله"[٩].

عن ابن عباس: "{فإن تولوا فقل حسبي الله}، يعني: الكفار، تولوا عن النبي ﷺ، وهذه في المؤمنين"[١٠].

---

[١] انظر: السيف المسلول على من سبّ الرسول:١٠٩-١١١.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٣] تفسير الطبري:٥٨٧/١٤.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٥/٢.
[٥] بحر العلوم:١٠١/٢.
[٦] تفسير البغوي:١١٦/٤.
[٧]المعرة: الإثم، كذا في الصحاح.
[٨] الكشاف:٣٢٥/٢.
[٩] معاني القرآن:٤٧٧/٢.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٧١):ص١٩١٩/٦.

قوله تعالى:{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } [التوبة : ١٢٩] ، أي: لا معبود بحق إلا هو"[١].
قال الطبري:أي:" لا معبود سواه"[٢].
قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: لا ناصر ولا رازق ولا معين إلا هو"[٣].
عن ابن عباس: "{لا إله إلا الله}، قال: توحيد"[٤].
عن محمد بن إسحاق :"{لا إله إلا الله}، أي: ليس معه غيره شريكا في أمره"[٥].
قوله تعالى:{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} [التوبة : ١٢٩] ، أي: عليه اعتمدت، وإليه فَوَّضْتُ جميع أموري، فإنه ناصري ومعيني"[٦].
قال الطبري:أي:" وبه وثقت ، وعلى عونه اتكلت ، وإليه وإلى نصره استندت ، فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم ومن غيركم من الناس "[٧].
قال مقاتل:" يعني: به واثق"[٨].
قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: به أثق"[٩].
قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل المؤمنون"[١٠].
قوله تعالى:{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة : ١٢٩] ، أي: وهو رب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات"[١١].
قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: خالق السرير العظيم، الذي هو أعظم من السموات والأرض"[١٢].
قال الطبري:أي:"الذي يملك كلَّ ما دونه ، والملوك كلهم مماليكه وعبيده، وإنما عنى بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم ، الخبرَ عن جميع ما دونه أنهم عبيده ، وفي ملكه وسلطانه ، لأن " العرش العظيم " ، إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه " ذو العرش " دون سائر خلقه ، وأنه الملك العظيم دون غيره ، وأن من دونه في سلطانه وملكه ، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه"[١٣].
قال ابن عباس:" إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه"[١٤].
وعن ابن عباس أيضا، قال: "العرش لا يقدر أحد قدره"[١٥].
إسماعيل بن أبي خالد قال: "سمعت سعدا الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء"[١٦].
عن كعب قال: "إن السموات في العرش كالقنديل معلق بين السماء والأرض"[١٧].
عن مجاهد قال: "السماوات والأرض عند العرش إلا كحلقة في أرض فلاة"[١٨].
عن وهب بن منبه قال: "إن الله خلق العرش من نوره، وذكر الحديث"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٢] تفسير الطبري:٥٨٧/١٤.
[٣] بحر العلوم:١٠١/٢.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٣):ص١٩١٩/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٤):ص١٩١٩/٦.
[٦] التفسير الميسر:٢٠٧.
[٧] تفسير الطبري:٥٨٧/١٤.
[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٠٥/٢.
[٩] بحر العلوم:١٠١/٢.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٥):ص١٩١٩/٦.
[١١] التفسير الميسر:٢٠٧.
[١٢] بحر العلوم:١٠١/٢.
[١٣] تفسير الطبري:٥٨٧/١٤.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٦):ص١٩١٩/٦.
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٨١):ص١٩٢٠/٦.
[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٧):ص١٩٢٠/٦.
[١٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٨٢):ص١٩٢٠/٦.
[١٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٨٣):ص١٩٢٠/٦.

عمر بن النصري قال:" في كتاب ما تنبأ عليه هارون النبي ﷺ أن بحرنا هذا خليج من نبطس، ونبطس وراءه، وهو محيط بالأرض، فالأرض وما فيها من البحار عند نبطس كعين على سيف البحر، وخلف نبطس عين محيط بالأرض فنبطس وما دونه عنده كعين على سيف البحر، وخلف نبطس الأصم محيط بالأرض فنبطس وما دونه عنده كعين على سيف البحر، وخلف الأصم المظلم محيط بالأرض فالأصم وما دونه عنده كعين على سيف البحر، وخلف المظلم جبل من الماس محيط بالأرض، فالمظلم وما دونه عنده كعين على سيف البحر، وخلف الماس الباكي وهو ماء عذب، محيط بالأرض أمر الله نصفه أن يكون تحت العرش فأراد أن يستجمع فزجره فهو باك يستغفر الله، فالماس وما دونه عنده كعين على سيف البحر والعرش خلف ذلك محيط بالأرض، فالباكي وما دونه عنده كعين على سيف البحر"[٢].

أخرج الطبري عن أبيّ بن كعب قال : "آخر آية نزلت من القرآن : {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم}، إلى آخر الآية"[٣].

عن عبيد بن عمير قال : "كان عمر رحمة الله عليه لا يُثْبِت آيةً في المصحف حتى يَشْهَدَ رجلان ، فجاء رجل من الأنصار بهاتين الآيتين : {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه}، فقال عمر : لا أسألك عليهما بيّنةً أبدًا ، كذا كان رسول الله ﷺ!"[٤].

عن أبي صالح الحنفي قال : "قال رسول الله ﷺ : إن الله رحيم يحبّ كل رحيم ، يضع رحمته على كل رحيم. قالوا : يا رسول الله ، إنا لنرحم أنفسنا وأموالنا قال : وأراه قال : وأزواجنا ؟ قال : ليس كذلك ، ولكن كونوا كما قال الله : {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم}. أراهُ قرأ هذه الآية كلها"[٥].

روي عن أبي بن كعب قال: "آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} إلى آخر السورة. وقال: هما أحدث الآيات بالله عهدا"[٦].

واخرج ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب :"أنهم جمعوا القرآن، فلما انتهوا إلى هذه الآية ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم فظنوا آخر ما نزل من القرآن، فقال لهم أبي بن كعب: إن النبي ﷺ أقرأني بعد هذا آيتين: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم}، إلى قوله: {لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم}، قال: فهذا آخر ما نزل من القرآن فختم الأمر بما فتح به، بلا إله إلا الله، يقول الله عز وجل:{وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}"[٧].

وقرأ بعضهم :«العظيمُ» بالرفع، فجعل «العظيم» من نعت «الله» تعالى، وقراءة العامة «العظيمِ» بالخفض، ويكون «العظيم» نعتا للعرش[٨].

الفوائد:

١- وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في كل شيء يقوم به العبد، فهذه الآية بيان للتبري من المخلوق والاعتماد على الخالق - تعالى وتقدس -في حوادث الدنيا والآخرة.

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٨):ص١٩٢٠/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٩):ص١٩٢٠/٦.
[٣] تفسير الطبري(١٧٥١٤):٥٨٨/١٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٥١٢):ص٥٨٨/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٧٥١٣):ص٥٨٨/١٤.
[٦]أخرجه الحاكم: ٢ / ٣٣٨، والإمام عبد الله بن أحمد في زوائد المسند: ٥ / ١١٧، وعزاه ابن حجر في المطالب العالية ٣ / ٣٣٧ لإسحاق بن راهويه، كلهم دون قوله: "هما أحدث الآيات ... ". وقال الهيثمي في المجمع: ٧ / ٣٦: "رواه عبد الله بن أحمد، والطبراني، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ثقة سيئ الحفظ، وبقية رجاله ثقات".
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٧٢):ص١٩١٩/٦.
[٨] انظر: بحر العلوم:١٠١/٢.

٢- أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد. بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما تقدم في صفة السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولذلك أمر الله به في غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطًا في الإيمان والإسلام ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه كما في الآية المترجم، وغير ذلك من الآيات.

وفي الحديث: "مَنْ سَرَّهُ أن يكون أقوى الناس إيمانًا فليتوكل على الله"[١].

وفي الحديث:" لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا[٢].

قال الإمام أحمد: "التوكل عمل القلب"[٣]، ولكن لا يتحقق إلا بالعلم: إذ العلم إما إما شرط فيه وإما جزء من ماهيته، والمقصود إن القلب متى كان على الحق تعظم طمأنينته ووثوقه بالله، وإذا كان منحرفاً مائلاً إلى الباطل علماً وعملاً، أو أصيب بأحدهما فإن ثقته واطمئنانه بالله معرَّضان للزوال فيكون لا ضمان له عند الله ولا عهد له عنده"[٤]. نعوذ بالله من ذلك.

وحقيقة التوكل الذي ذكرناه لا يصلح إلا لله- جل وعلا-؛ لأنه تفويض الأمر إلى من بيده الأمر والمخلوق ليس بيده الأمر، فالتجاء القلب ورغب القلب وطمع القلب في تحصيل المطلوب إنما يكون ذلك ممن يملكه وهو الله - جل وعلا-، أما المخلوق فلا يقدر على شيء استقلالا وإنما هو سبب، فإذا كان سببا فإنه لا يجوز التوكل عليه؛ لأن التوكل عمل القلب وإنما يجعله سببا بأن يجعله شفيعا، أو واسطة، ونحو ذلك، فهذا لا يعني أنه متوكل عليه، فيجعل المخلوق سببا فيما أقدره الله عليه ولكن يفوض أمر النفع بهذا السبب إلى الله- جل وعلا-، فيتوكل على الله ويأتي بالسبب الذي هو الانتفاع من هذا المخلوق بما جعل الله- جل وعلا- له من الانتفاع أو من القدرة ونحو ذلك[٥].

قال ابن القيم: فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به"[٦] .

وقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين ربط المسببات بأسبابها، فلا يجوز للإنسان تعطيلها مهما أمكنه القيام بها، فإذا فعلها عبودية يكون قد أتى بعبودية القلب بالتوكل وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة. وتحقيق التوكل موقوف على القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنياً، كما أن من عطلها يكون توكله عجزاً، وعجزه توكلاً لله٢ فالتارك

---

[١] المستدرك على الصحيحين للحاكم(٧٧٠٧):ص٣٠٠/٤. وأخرجه: عبد بن حميد (٦٧٥) ، والقضاعي في " مسند الشهاب " (٣٦٧) ، وسنده ضعيف.

[٢]أخرجه ابن المبارك فى الزهد (ص ١٩٦، رقم ٥٥٩) ، والطيالسى (ص ١١، رقم ٥١) ، وأحمد (٣٠/١، رقم ٢٠٥) ، والترمذى (٥٧٣/٤، رقم ٢٣٤٤) ، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٣٩٤/٢، رقم ٤١٦٤) ، وأبو يعلى
(٢١٢/١، رقم ٢٤٧) ، وابن حبان (٥٠٩/٢، رقم ٧٣٠) ، والحاكم (٣٥٤/٤، رقم ٧٨٩٤) ، وقال: صحيح الإسناد. والبيهقى فى شعب الإيمان (٦٦/٢، رقم ١١٨٢) ، والضياء (٣٣٣/١، رقم ٢٢٧) وقال: إسناده صحيح.

[٣] طريق الهجرتين وباب السعادتين:٢٥٧.

[٤]طريق الهجرتين ص٢٥٧ وانظر مدارج السالكين م١١٧/٢ ـ ١١٨، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

[٥] انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد:٣٨٦.

[٦] الفوائد:٨٦.

للأسباب المطلوبة منه شرعاً وعقلاً ويقول: إن كان قضي لي وسبق في الأزل حصول الولد فإنه آت لا محالة ولو لم أتزوج فهذا لا شك أنه يكون موقع إنكار الناس بل ربما يقال فيه إنه ليس من جملة العقلاء وأن البهائم أفهم منه فإن الواقع المشاهد من حال الحيوان أنه يسعى في تحصيل رزقه بالهداية العامة التي منحها الله جميع خلقه.

جاء في فتح المجيد: عند قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [المائدة:١١] فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض وإن كان مشوباً بنوع من التوكل فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً ولا عجزه توكلاً بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها[١].

ومما تقدم نجزم بأنه لا يجوز التخلي عن الأسباب بحال لأن ذلك ممنوع عقلاً وشرعاً وحسَّاً فالرسول ﷺ هو سيد المتوكلين وإمام المتقين عندما خرج من مكة استأجر دليلاً ليدله على الطريق وكان الدليل مشركاً على دين قومه[٢] وحضر غزوة أحد بين درعين، ولم يذكر أنه حضر الصف قط عرياناً[٣] وكفى به ﷺ قدوةً في تحقيق عبودية التوكل وبيان كيفيته، وكان عليه الصلاة والسلام يدخر لأهله قوت سنة[٤] وكان إذا خرج مسافراً للجهاد أو للعمرة أو للحج حمل معه الزاد وكذلك الصحابة رضي الله عنهم، وهم أولو التوكل حقاً، ومن جاء بعد الصحابة ووفقه الله بأن وصل إلى القمة في التوكل إنما اشتم رائحة توكلهم من مسافة بعيدة، أو عثر على أثر من غبارهم، فحال النبي ﷺ، وحال أصحابه هي الميزان الذي يقوم به حال من بعدهم، وعلى ضوء ذلك تعرف الأحوال الصحيحة من السقيمة، ولا يفوتنا أيضاً أن نقول: إن التوكل الذي كان في قلوب الصحابة كان سبباً في تبصير القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، فملئوا بتوكلهم القلوب هدى وإيماناً، وكانت هِمَمُهم عالية فكان أحدهم لا يصرف قوة توكله واعتماده على الله في أمر يحصل عليه بأقل حيلة وسعي، وإنما كانوا يتوكلون في الأمور العظيمة مثل فتح البلدان، والنصر على الأعداء، وتوطيد عقيدة التوحيد في كل مكان فرضي الله عنهم وأرضاهم[٥]، وعلى ضوء هذا نقول: إن من يطعن في متخذي متخذي الأسباب مع التوكل فإنما يطعن بالدرجة الأولى في نبي الهدى ﷺ وصحابته من بعده، ومن طعن في أولئك فليتهم نفسه بأنه على غير ملة الإسلام.

والذي نخلص إليه مما تقدم أن التوكل عبادة تعبد الله به عباده وأمرهم جميعاً بأن يخلصوه له وحده لا شريك له، وأن التوكل لا يتنافى مع الأسباب لأن الشرع أثبت الأسباب والمسببات وحكم على قول من أنكرها بالبطلان والفساد فالشرع جاء بالأمر بالتداوي[٦]، ولا ينافي ذلك توكل الإنسان على ربه ربه لأن التداوي من الأسباب المشروعة التي أباحها الله ـ تعالى ـ بل لا يكمل للعبد توحيده إلا بمباشرة الأسباب التي جعلها الله مقتضية لمسبباتها كوناً وشرعاً، وتعطيل الأسباب يقدح في التوكل، كما يقدح في أمر الله وحكمته

---

[١] ص:٣٦٥، ط السلفية، تيسير العزيز الحميد:٤٤٣.
[٢]انظر صحيح البخاري ٣٣/٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.
[٣]ذكره الترمذي في سننه ١١٩/٣ من حديث الزبير بن العوام وابن ماجة ٩٣٨/٢.
[٤]رواه البخاري في صحيحه ٢٨٧/٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
[٥]انظر مدارج السالكين ١٣٤/٢ ـ ١٣٥ بتصرف.
[٦]انظر سنن ابن ماجة ١١٣٧/٢، المسند ٢٧٨/٤.

البالغة، فالإنسان يتوكل على الله في كل أموره مع مباشرة الأسباب ولا يعتمد عليها بل يجعل قلبه متعلقاً بربه الذي له الفضل في إيجاد السبب والمسبب(١).

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العرش وعظمة عرش الرحمن عز وجل(٢).

وقد أورد الذهبي -رحمه الله- في كتابه "العرش" جملة طيبة من الأحاديث والآثار الواردة في العرش وصفته، وفي هذا المبحث لن نذكر تلك الأحاديث والآثار التي أوردها لأنها ستأتي، وإنما سنورد ههنا بعض الأحاديث الصحيحة في العرش وصفته التي لم يذكرها الذهبي في كتابه، وهذه الأحاديث كثيراً ما يوردها السلف في كتبهم ويستدلون بها لما فيها من الصحة والقوة، ولما فيها من الصفات الدالة على عرش الخالق سبحانه وتعالى.

- فقد جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "بينا رسول الله ﷺ جالس، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: من؟ قال: رجل من الأنصار، قال: ادعوه، فقال: أضربته؟ فقال: سمعته بالسوق يحلف والذي

---

(١) انظر: مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر بن علي عايض حسن ال الشيخ:٢٨٧-٢٩٠.

(٢)لقد جاء ذكر عرش الرحمن في القرآن الكريم في واحد وعشرين موضعاً:

١- قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف ٥٤]

٢- وقال تعالى: {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة ١٢٩] .

٣- وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [يونس ٣].

٤- وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [هود ٧] .

٥- وقال تعالى: {اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى} [الرعد ٢] .

٦- وقال تعالى: {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} [الإسراء ٤٢] .

٧- وقال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه ٥] .

٨- وقال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ} [الأنبياء ٢٢] .

٩- وقال تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [المؤمنون ٨٦] .

١٠- وقال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون ١١٦] .

١١- وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [الفرقان ٥٩] .

١٢- وقال تعالى: {اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل ٢٦]

١٣- وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ} [السجدة ٤] .

١٤- وقال تعالى: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر ٧٥] .

١٥- وقال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر ٧] .

١٦- وقال تعالى {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ} [غافر ١٦] .

١٧- وقال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الزخرف ٨٢].

١٨- وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد ٤] .

١٩- وقال تعالى {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة ١٧] .

٢٠- وقال تعالى {ذِو قُوة ٍعِنْدَ ذِي العرشِ مَكِين} [التكوير ٢٠] .

٢١- وقال تعالى {ذُو العرشِ المجِيد} [البروج ١٥] .

اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث على محمد ﷺ، فأخذتني غضبة فضربت وجهه، فقال النبي ﷺ: "لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان صعق أم حوسب بصعقته الأولى"(١).

- وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء"(٢).
- وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقول عن الكرب: "لا إله إلا الله العليم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم"(٣).
- وعن ابن عباس عن جويرية أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: "ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ "، قالت: نعم، قال النبي ﷺ: "لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته"(٤).

قال ابن تيمية: "فهذا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان"(٥).

- وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام"(٦).
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، قالوا: يا رسول الله أفلا ننبىء الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة"(٧).
- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله"(٨).
- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: "أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها:

---

(١)أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠/٥ مع الفتح) كتاب الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي. ومسلم في صحيحه (١٠١/٤-١٠٢) كتاب الفضائل.

(٢)أخرجه مسلم في القدر (٥١/٨).

(٣)أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، واللفظ له. فتح الباري (٤٠٥/١٣) . مسلم في الذكر والدعاء (٨٥/٨).

(٤)أخرجه مسلم في الذكر (٨٣/٨) واللفظ له. وأخرجه أبو داود في تخريج أبواب الوتر، باب التسبيح بالحصى (١٧١/٢) .وأخرجه الترمذي في الدعوات، وقال: (حديث حسن صحيح) . (٥٥٦/٥).

(٥)الرسالة العرشية (ص٨).

(٦)أخرجه أبو داود (٢٣٢/٤، رقم ٤٧٢٧) ، وابن عساكر (٦٠/٤٣) . وأخرجه أيضا: ابن أبى حاتم كما فى تفسير ابن كثير (٤١٥/٤) ، قال ابن كثير: هذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات. وأبو الشيخ (٩٤٨/٣، رقم ٤٧٦) . قال الحافظ فى الفتح (٦٦٥/٨) : إسناده على شرط الصحيح.

(٧)أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء. انظر: فتح الباري (٤٠٤/١٣).

(٨)أخرجه مسلم في البر والصلة (٧/٨).

ارجعي من حيث جئتي فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} "[١].

- وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي"[٢].
- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "المتحابون في الله يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله"[٣].

٤- ومن فوائد الآية الكريمة إثبات اسم من اسمائه تعالى، وهو: "الرب": أي:"المالك والمتصرف والمدبر والسيد والمربي"[٤].

و«الرب»: صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجَلَّ، وذلك من اسمه «الرب» الثابت بالكتاب والسنة في مواضع عديدة؛ تارة وحده «الرب»، وتارة مضافاً؛ مثل: «رب العالمين»، و«رب المشرقين».

قال تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢]، وقوله تعالى:{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} [الرحمن: ١٧].

و"الرب": لم يأت في القرآن بدون إضافة لكن في السنة قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: "أما الركوع فعظموا فيه الرب"[٥].

وقال في «السواك»: "مطهرة للفم مرضاة للرب"[٦].

وعن عمرو بن عبسة مرفوعاً: "أقرب ما يكون الرَّبُّ من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة؛ فكن"[٧].

قال ابن قتيبة:"ومن صفاته «الرب»، والرب المالك، يُقال: هذا رب الدار ورب الضيعة ورب الغلام؛ أي: مالكه، قال الله سبحانه: {ارْجِعْ إلى رَبِّكَ} ؛ أي: إلى سيدك. ولا يُقال لمخلوق: هذا الرَّبُّ؛ معرفاً بالألف واللام؛ كما يُقال لله، إنما يُقال: هذا رب كذا، فيُعرَّف بالإضافة؛ لأن الله مالك كل شيء. فإذا قيل: الرَّبُّ؛ دلَّت الألف واللام على معنى العموم، وإذا قيل لمخلوق: ربُّ كذا وربُّ كذا؛ نُسب إلى شيء خاص؛ لأنه لا يملك [شيئاً] غيره"[٨].

وقال ابن القيم:" وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي «الله» ، و«الرب»، و«الرحمن»؛ كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب، وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؛ فلها الجمع، ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات؛ فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إلاَّ له، وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة؛

---

[١]أخرجه البخاري في المغازي، باب صفة الشمس والقمر. فتح الباري (٢٩٧/٦).

[٢]أخرجه البخاري في بدء خلق، باب ما جاء في قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} . فتح الباري (٢٨٧/٦) .وأخرجه مسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله أنها سبقت غضبه. (٩٥/٨).

[٣]أخرجه أحمد في المسند (٢٢٩/٥، ٢٣٦، ٢٣٧) . وابن حبان (٢٥١٠) . والحاكم (١٦٩/٤-١٧٠) . وابن المبارك في الزهد (ص٧١٥) من طريقين صحيحين عنه.

[٤]صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، السقاف:١٧١.

[٥]رواه: البخاري (٥٧٤٢)، ومسلم (٢١٩١)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

[٦]رواه البخاري معلقًا مجزومًا (٤/ ١٥٨)، ووصله أحمد (٦/ ٦٢)، والنسائي (١/ ١٠)، وابن حبان (٢/ ٢٨٧)، وحسّنه البغوي في "شرح السنة" (١/ ٣٤٩).

[٧]صحيح سنن الترمذي: (٣٨٣٢).

[٨]غريب القرآن: ٩.

فالإلهية هي التي فرقتهم كما أنَّ الربوبية هي التي جمعتهم؛ فالدين والشرع، والأمر والنهي -مظهره وقيامه- من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك، وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى ..."[1].

قال السعدي:" «الرب»: هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم وبهذا كثر دعاؤهم له بهذا الإسم الجليل لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة، وهو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها وهي صفات الكمال كلها والمحامد كلها له والفضل كله والإحسان كله، وأنه لا يشارك الله أحد في معنى من معاني الربوبية { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير} [الشورى : ١١] ، لا بشر ولا ملك، بل هم جميعاً عبيد مربوبون لربهم بكل أنواع الربوبية، مقهورون خاضعون لجلاله وعظمته، فلا ينبغي أن يكون أحد منهم نداً ولا شريكاً لله في عبادته وإلوهيته، فبربوبيته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم خلقاً ورزقاً وتدبيراً وإحياءً وإماتةً، وهم يشكرونه على ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفيعاً، فالإلهية حق له سبحانه على عباده بصفة ربوبيته"[2].

قال الحازمي:" و«الرب»:هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور، وإذا أُفْرِدَ أو عُرِّفَ لم يطلق إلا على الله عز وجل[3].

«آخر تفسير سورة التوبة، والحمد لله وحده»

---

[1] مدارج السالكين: ٣٤/١.

[2] تفسير اسماء الله الحسنى للسعدي:١٩٩-٢٠٠.

[3] شرح العقيدة الواسطية، أبو عبد الله، أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي:الدرس(١٠/٢٢)[مرقم آليا]..

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة «يونس»

سورة «يونس»: هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف، تأتي بعد سورة «التوبة»، وبعد «الإسراء» في ترتيب النزول[١]، وعدد آياتها (١١٠) مائة وعشر آيات عند الشاميّين، و(١٠٩) مائة وتسع عند الباقين، عدد كلماتها (١٤٩٩) ألف وأربعمائة وتسع وتسعون كلمة. وحروفها (٧٠٦٥) سبعة آلاف وخمس وستون، والآيات المختلف فيها: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين} [يونس : ٢٢]، {وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس : ٥٧]، و{ مِنَ الشَّاكِرِين} [يونس : ٢٢][٢].

مجموع فواصل آياته (م ل ن) يجمها « ملْن» على «اللاَّم» منها آية واحدة {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيل} [يونس : ١٠٨]، وكلٌّ آية على «الميم» قبل «الميم» «ياء»[٣].

أسماء السورة:

ولهذه السورة أسماء أشهرها:

أولا:- اسمها التوقيفي: سورة «يونس»:

سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة: «سورة يونس»، ووجه تسميتها بسورة«يونس»، لأنها انفردت بذكر قصة قوم يونس-عليه السلام- إذ أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب، فعفا الله عنهم لما آمنوا، وذلك في قوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)} [يونس : ٩٨].

قال الصاوي:" سميت [السورة] بذلك لذكر اسمه فيها وقصته، وقد جرت عادة الله بتسمية السورة ببعض أجزائها"[٤].

وقد وردت تسميتها بسورة«يونس» في كلام بعض الصحابة والتابعين، وذلك كما يأتي:

- روي عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال:" نزلت سورة يونس بمكة"[٥].
- وعن الاحنف، قال:" صليت خلف عمر-رضي الله عنه- الغداة، فقرأ بـ«يونس» و«هود»، وغيرهما"[٦].
- وعن محمد بن سيرين، قال:"كانت سورة «يونس» تعدّ «السابعة»"[٧].

ثانيا: اسمها الإجتهادي: سورة «السابعة»:

سمّاها السيوطي في كتاب التحبير في علم التفسير: «السابعة»، وعلّل تسميتها بقوله:" لانها سابعة السبع الطوال"[٨].

---

[١] انظر: الكشاف: ٣٢٦/٢.
[٢]انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٣٨، وعمدة القاري:٣٤٤/١٨.
[٣]انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٣٨.
[٤] حاشية الصاوي:٢٢٣/٢.
[٥] أورده السيوطي في الدر المنثور:٣٣٩/٤، وعزاه إلى النحاس وابي الشيخ وابن مردوية.
[٦] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلوات، باب"مايقرأ في صلاة الفجر":ص٣٥٣/١
[٧] أورده السيوطي في الدر المنثور:٣٣٩/٤، وعزاه لأبي الشيخ.
[٨]التحبير في علم التفسير:٣٧٠.

والحق أن السورة انفردت باسم سورة«يونس» ولا يعرف لها سام غيره، ولم نجد في كتب التفسير والسنة-فيما وقفنا عليه- من يسميها بغير اسمها المشهور.

مكية السورة ومدنيتها:

اختلف أهل التفسير في مكان نزول السورة على أقوال:
أحدها: أنها مكِّيّة. وهذا قول ابن عباس[١]، وعبدالله بن الزبير[٢]، والحسن[٣]، وعكرمة[٤]، وعطاء[٥]، وجابر[٦]، وعليه جمهور المفسرين[٧].

قال الفيروزآبادي:" اعلم أنّ هذه السّورة مكِّيّة، بالاتِّفاق"[٨].

والثاني: أنها مكية إلا قوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} [يونس : ٤٠]. نزلت بالمدينة في اليهود. وهذا قول الكلبي[٩].

والثالث: أن كلها مكية غير آيتين وهما: قوله- تعالى-: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس : ٩٤]، وقوله: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [يونس : ٩٥] ، فإنهما مدنيتان. وهذا قول مقاتل[١٠].

والرابع: أنها مكية إلا ثلاث آيات، وهي: (٩٤ و ٩٥ و ٩٦). وهذا القول منسوب إلى ابن عباس[١١].

والخامس: أنها مكية، إلا الآيات: (٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦) فمدنية، به قال الزمخشري[١٢].

والسادس: أنه نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة. حكاه القرطبي عن آخرين[١٣].

قال السيوطي:" المشهور أنها مكية وعن ابن عباس روايتان فتقدم في الآثار السابقة عنها أنها مكية وأخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عنه ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه ومن طريق خصيف عن مجاهد عن ابن الزبير، وأخرج من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس أنها مدنية، ويؤيد المشهور ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: «لما بعث الله محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك، ومن أنكر منهم قالوا: الله أعظم من ان يكون رسوله بشرا [مثل محمد]، فأنزل الله: {أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم}»[١٤]"[١].

---

[١] أورده السيوطي في الدر المنثور:٣٣٩/٤، وعزاه إلى النحاس وابي الشيخ وابن مردوية.
[٢] أورده السيوطي في الدر المنثور:٣٣٩/٤، وعزاه إلى ابن مردوية.
[٣] عزاه إليه القرطبي في تفسيره:٣٠٤/٨، وانظر: فتح القدير للشوكاني: ٤٧٩/٢.
[٤] عزاه إليه القرطبي في تفسيره:٣٠٤/٨، وانظر: فتح القدير للشوكاني: ٤٧٩/٢.
[٥] عزاه إليه القرطبي في تفسيره:٣٠٤/٨، وانظر: فتح القدير للشوكاني: ٤٧٩/٢.
[٦] عزاه إليه القرطبي في تفسيره:٣٠٤/٨.
[٧] انظر: تفسير عبدالرزاق:١٧٣/٢، والكشف والبيان:١١٦/٥، وبحر العلوم:١٠٢/٢، وتفسير ابن كثير:٢٤٥/٤، وروح المعاني:٥٥/٦، والبصائر:٢٣٨/١- والدر المنثور:٣٣٩/٤.
[٨] انظر: البصائر:٢٣٨/١.
[٩] عزاه إليه القرطبي في تفسيره:٣٠٤/٨.
[١٠] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٢٤/٢.
[١١] عزاه إليه القرطبي في تفسيره:٣٠٤/٨.
[١٢] انظر: الكشاف:٣٢٦/٢.
[١٣] انظر: تفسير القرطبي:٣٠٤/٨.
[١٤] تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٢١):ص٢٢٨٤/٧. والخبر بتمامه:" عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك، ومن أنكر منهم قالوا: الله أعظم من ان يكون رسوله بشرا مثل محمد فأنزل الله: {أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم}، وقال: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}، يعني: فاسألوا أهل الذكر والكتب الماضية: أبشرا كانت الرسل الذين أتتهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة

مناسبة سورة«يونس» مع سورة «التوبة»:

١- ختمت سورة «التوبة» بذكر صفات الرسول-ﷺ-، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ١٢٨]، وبدأت يورة«يونس» بتبديد الشكوك والاوهام نحو إنزال الوحي على الرسول-صلى الله عليه وسلم-، للتشير والإنذار، قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} [يونس : ٢].

٢- تحدث معظم آيات سورة«التوبة» في أحوال المنافقين وموقفهم من القرآن، إذ طلب المشركون والكفار من الرسول-ﷺ- أن ينزل عليهم آية من الله تعالى، لاعتقادهم بأن القرآن غير معجز وانه ليس من عند الله، وزعمهم أنه من عند محمد -ﷺ-، قال تعالى: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)} [يونس : ٣٧ - ٣٩].

٣- ومن المناسبة بين السوريتين: ذكرت سورة«التوبة» أوصاف الرسول التي تستدعي الإيمان به وبما جاء به من عند الله، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ١٢٨]، ثم ذكر هذا الكتاب الذي أنزل والنبي الذي ارسل وأن شأن الضالين التكذيب بالكتب الإلهية، قال تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)} [يونس : ١ - ٢](٢).

أغراض السورة ومقاصدها:

وسوة«يونس»-كباقي السور القرآنية- لها مقاصد عظيمة وجليلة، فمن أشهر تلك المقاصد:

١- بيان أن القرآن الكريم كتاب محكم واضح بيّن فيما اشتمل عليه من حرام وحرام وحدود واحكام.

٢- أن مقومات اختيار الأنبياء لا تعتمد على معايير الناس ومفاهيمهم كالمال والغنيى والثروة والجاه والزعامة، وإنما المعيار هو ما في علم الله تعالى من كون النبي المصطفى-ﷺ- هو الأكفأ والأجدر بتحمل أعباء الرسالة، والأوفق لتحقيق المصلحة وتبليغ الوحي إلى الناس.

٣- لقد خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة ايام، لتعليم الخلق التثبت في الأمر، مع أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر.

٤- إن أحوال الشمس والقمر وما فيهما من الفوائد، والمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وكل ما خلق الله في السماوات ووالارض آيات دالة على وجود الله توحيده، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، ولم يخلق الله ذلك إلا لحكمة وصاب، ومصلحة للإنسان.

أتتكم وإن كانوا بشرا فلا تنكروا إن يكون رسولا. ثم قال: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى}، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم".

(١) الإتقان في علوم القرآن:١/٤٧-٤٨.

(٢) انظر: التفسير المنير للزحيلي:١١/١٧٥، و٥/٩٣-٩٤.

٥- بيان أن للكافرين الجاحدين عذاب النار بسبب ما اكتسبوا أو اقترفوا من الكفر والتكذيب والمعاصي، وقد وصفهم الله تعالى بصفات أربع في الآية السابعة من سورة«يونس»، وهي[١]:
الاولى:- {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} [يونس : ٧]، أي: لايخافون عقابا ولا يرجون ثوابا.
الثانية:- {وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس : ٧]، أي: رضوا بها عوضا من الآخرة فعلموا لها.
الثالثة:- {وَاطْمَأَنُّوا بِهَا} [يونس : ٧]، أي: فرحوا بالدنيا وسكنوا إليها.
الرابعة: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} [يونس : ٧]، أي: لا يعتبرون ولا يتفكرون بأدلتنا.
٦- بيان أن للمؤمنين المحقين العاملين الاعمال الصالحة جنات تجري من تحتهم الأنهار، أي: من تحت بساتينهم او أسرّتهم أنهار، يمجدون الله فيها، والفرحة تغمرهم، والبهجة تملأ قلوبهم، والسعادة ترفرف بأجنحتها عليهم، تحية الله لهم، او تحية الملك أو تحيتهم لبعضهم: سلام، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس : ٩].
٧- زيّن للإنسان الدعاء عند البلاء، والإعراض عند الرخاء، زيّن للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي، وهذا التزيين يجوز ان يكون من الله بخذلانه وتخليته، ويجوز ان يكون من الشيطان بوسوسته، وإضلال الشيطان: دعاؤه بالكفر، قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [يونس : ١٢][٢].
٨- إن إهلاك الأمم الظالمة قديما وحديثا غنما يكون بسبب الظلم، والظلم: إما بالكفر والشرك، وإما بالطغيان والأفراد والحكام، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [يونس : ١٣].
٩- المقصود من غنزال القرىن تبليغه إلى جميع الناس، ولاسيما المشركون، ولولا أن تكون مشيئة الله ذلك لما أنزله، لما أمر بتلاوته عليهم، ولما أخبرهم بمضمونه.
١٠- القرآن الكريم كلام الله بدليل إعجازه من حيث النظم والأسلوب والمبنى، ومن حيث المعاني التي اشتمل عليها، وبدليل كون المبلّغ له أميّا لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم من أحد، وبدليل التحدي لمعارضته والإتيان بمثله أو باقصر سورة من مثله، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس : ٣٨]، وقال في سورة«البقرة»: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة : ٢٣].
١١- سبق القضاء من الله بانه لايقضي بين العباد فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب قبل يوم القيامة، ولولا ذلك الحكم السابق والتأجيل المتقدم، لقضى الله بين الناس في الدنيا، فادخل المؤمنين الجنة والكافرين النار بكفرهم، وهو موعدهم يوم القيامة الذي جعله الله لحكمة بالغة هي إعطاء الفرصة الكافية للإنسان في تصحيح عقيدته، وتعديل وضعه، والتوبة من عصيانه وكفره، وضلاله، حتى لايؤخذ على حين غرّ، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)} [يونس : ٦٩ - ٧٠].

---

[١] انظر: التفسير المنير للزحيلي:١١٦/١.
[٢] انظر: المنتخب في تفسير القرىن الكريم، لجنة من علماء الأزهر:٢٨٧/١.

١٢- أن الكفار شانهم نكث العهد وعدم الوفاء به، فبالرغم مما قد يتعرضون له من مخاطر الغرق تراهم ينسون ذلك، ويعودون إلى الفساد في الأرض بالمعاصي، والبغي: الفساد والشرك، وهو اشنع أنواع الظلم، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)} [يونس : ٩٦ - ٩٧].

١٣- أن كل غنسان مسؤول عن نفسه وسيلقى جزاءه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فلا يؤاخذ الله أحد بذن الآخر.

١٤- أن الحواس: من سمع وبصر، لها هدفان[١]:

أحدهما: هدف ظاهري: وهو سماع المسموعات ورؤية المبصرات، لتكون الحياة بوجه سليم.

والثاني: هدف حقيقي: وهو استخدام تلك الحواس في تدبر المسموع وفهمه وتعقله وغنعام النظر وإدراك البصيرة في امور الدين والاخلاق، للتوصل إلى نعمة الإيمان والهداية والحق، والتخلص من ظلمة الكفر والظلال والباطن.

١٥- للذين أحسنوا العمل في الدنيا المثوبة الحسنى وهي الجنة، والزيادة فضلا من الله وهي تضعيف الحسنات، والنظر إلى وجه الله الكريم، والشعور بالسعادة الظاهرية والباطنية، فلا غشاوة لغبار مع سواد في محشرهم إلى الله، ولا مذلة ولا إهانة، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)} [يونس : ٦٣ - ٦٤].

١٦- أن للمسيئين الذين اشركوا بالله تعالى وكفروا بنعمته فلم يقابلوها بالإيمان والإحسان عقاب مماثل لسيئاتهم دون زيادة، أخذا بالعدل، ويغشاهم الهوان والخزي والذل والعار، ولا عاصم لهم، ولا مانع يمنعهم من عذاب الله، وجوهم مسودة كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل في حال ظلمته، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس : ٢٧].

حمانا الله من عذا أهل النار تكرما وإحسانا ونعاما، وهذانا إلى سواء السبيل.

١٧- أن لكل أمة رسول شاهد عليهم، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم، وكذلك لايعذب الناس في الدنيا حتى يرسل إليهم الله تعالى رسولا، فمن آمن فاز ونجا، ومن أعرض هلك وعذب.

١٨- أن إنزال العذاب مقدر بأجل معين في علم الله تعالى، ولا يملك إنزاله إلا الله تعالى، ومتى حان وقت هلاك امة من الأمم، فلا يتاخر ولا يتقدم لحظة، وليس لرسول أو نبي او غيرهما الحيلولة دون وقوع العذاب المقرر.

١٩- أن استعجال العذاب لا نفع فيه، وغنما النافع هو الإيمان قبل نزول العذاب، فإذا نزل فلا فائدة ولا نفع فيه، لأن إيمان اليأس غيرمفيد ولا صحيح.

٢٠- أن الله مالك من في السماوات ومن في الأرض، فيحكم فيهم بما يريد ويفعل فيهم ما يشاء، فليس للمحكوم والمملوك نفاذ او تدخل غي اي حكم، أو قدرة على التصرف في الاملاك، وهذا دليل سلب الالويهة عما سوى الله -عزّ وجل-، قال تعالى: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس : ٦٦][٢].

٢١- ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث الجسام وعواقبها المؤثرة في التأريخ.

---

[١] انظر: التفسير المنير للزحيلي:١٨٥/١١.

[٢] انظر: صفوة التفاسير:٥٤٦/١.

٢٢-سنة الله تعالى عند إيقاع العذاب الشامل إنجاء الرسل والمؤمنين معهم، وإهلاك الكافرين الضالين المكذبين، وهذا الاصطفاء والتمييز عدل من الله ورحمة[١].

فضائل السورة:

وردت عدة أحاديث في فضائل هذه السورة، منها:

- عن عبد الله بن عمرو، قال: "أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: «اقرأ ثلاثا من ذوات الر»، فقال: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: «فاقرأ ثلاثا من ذوات حاميم»، فقال مثل مقالته، فقال: «اقرأ ثلاثا من المسبحات»، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فأقرأه النبي -ﷺ- «إذا زلزلت الأرض» حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبدا، ثم أدبر الرجل، فقال النبي ﷺ: «أفلح الرويجل» مرتين"[٢].
- أخرج الثعلبي عن أبي بن كعب قال: "قال رسول الله ﷺ «من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر ومن الحسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون»"[٣].
- أخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه:" سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل»"[٤].

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

---

[١] انظر: منهجيات الإصلاح في سورتي«يونس وهود»-دراسة موضوعية-،إيمان محمود محمد الفرا-(بحث ماجستير في التفسير وعلوم القرآن)-:ص٢٨-٣٣.[بتصرف].

[٢] أخرجه أبو داود في"باب تحزيب القرآن"(١٣٩٩):ص٥٧/٢. والبيهقي في الشعب، في تعظيم القرىن، فصل"في فضائل السور والآيات"(٢٥١٢):ص٤٩٦/٢، والنسائي في عمل اليوم والليلة(٧٢١):ص٢١٦-٢١٧.

وقوله: من ذوات (الر)، أي: من السور التي تبدأ بهذه الأحرف الثلاثة التي تقرأ مقطعة: ألف، لام، را، والذي في القرآن منها خمس سور: يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر.

وقوله من ذوات {حم}، أي: من السور التي تبدأ بهذين الحرفين: حا، ميم، وهي في القرآن سبع سور: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

وقوله: من المسبحات، أي: السور التي أولها سَبَّح ويُسَبحُ وسَبح، وهي الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى.

وحكم الألباني«ضعيف»، انظر: «ضعيف أبي داود» (٢٤٧).

[تعليق شعيب الأرنؤوط]

إسناده صحيح، عيسى بن هلال الصدفي، روى عنه غير واحد وذكره المؤلف في الثقات، وهو صدوق كما قال الحافظ في التقريب(ص٤٤١)، وقال الحاكم:"حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بقوله:«بل صحيح»، أي: فقط من غير أن يكون على شرط الشيخين(٥٨٠/٢)، وأورده الفسوي في تاريخه: ٢/ ٥١٥ - ٥١٦ في ثقات التابعين من أهل مصر، وباقي رجاله ثقات من رجال الصحيح.

[٣] الكشف والبيان:١٦٦/٥.

[٤] الدر المنثور:٣٣٩/٤.

الرائيات: هي السور المبدوءة بـ«الر» والطواسين: هي السور المبدوءة بـ «طسم» أو «طس».

القرآن

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)} [يونس : ١]

التفسير:

(الر) سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة.

هذه آيات الكتاب المحكم الذي أحكمه الله وبيَّنه لعباده.

قوله تعالى:{الر} [يونس : ١]، الله أعلم بمراده.

قال السعدي: " وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله ـ تعالى ـ لم ينزلها عبثاً، بل لحكمة لا نعلمها"[١].

ولقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير الأحرف المقطعة في السور الفواتح ولم يجزموا بوجه من الوجوه، إذا لم يصح في تفسيرها شيء عن رسول الله- ﷺ -.

وتجدر الإشارة بأن هناك محل متفق عليه بين أهل العلم في هذه الحروف، وهو أن أهل الإسلام أجمعوا على أن لهذه الحروف معنى، وأنها ذُكِرت لحكمة. يقرر هذا ويوضحه ثلاثة أمور:

الأمر الأول:- أن الله أمرنا بتدبر كتابه وتفهمه دون استثناء، فدخلت الحروف المقطعة في هذا، قال الله – تعالى-: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، وقال - تعالى -: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٦٨] [٢].

---

[١] تفسير السعدي:٤٠.

[٢] انظر: مفاتيح الغيب:٢/٢٥٠.

الأمر الثاني:- أن الله تعالى قد تحدى عباده من الإنس والجن بأن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات، وقراء الكوفة يعدون الحروف المقطعة آية في كل سورة، و: {حم (١) عسق} [الشورى: ١، ٢] آيتان [١].

فلو أتوا بآيتين مكونتين من حروف مقطعة، ثم أتوا بآية من كلام آخر لأدوا ما تحداهم الله به، فلو لم يكن لها معنى لقالوا: كيف يتحدانا بكلام لا نفهمه؟ [٢].

الأمر الثالث:- أن الله تعالى حكيم، وهذا كلامه، فهو كلام حكيم، نزل من حكيم، : {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤١، ٤٢]، فإذا كان قائل هذا القرآن حكيماً حميداً، كيف يوجد في كلامه ما لا معنى له، ولم يُذْكَر لحكمة؟ ، : {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١].

وقد اختلف في تفسير قوله تعالى:{الر} [يونس : ١]، على أربعة أقوال:

أحدها: معناه: أنا الله أرى ، قاله ابن عباس[٣]، والضحاك[٤].

والثاني: هي حروف من اسم الله الذي هو الرحمن ، قاله سعيد بن جبير[٥]، وعامر الشعبي[٦].

وعن عكرمة عن ابن عباس، "{الر}: حروف الرحمن مفرقة فحدثنيه الأعمش فقال بذلك مثل هذا فلا تخبرنا"[٧].

وقال ابن ابي حاتم:"وروي عن سالم بن عبد الله "{الر} و{حم} {ن}: اسم الرحمن مقطع"[٨].

الثالث: هو اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة[٩].

الرابع: أنها فواتح افتتح الله بها القرآن ، قاله مجاهد[١٠].

عن ابن جريج :"قال مجاهد: {الم}: هذا فواتح يفتح الله بها القرآن، قال قلت: ألم تكن تقل اسما قال: لا"[١١].

والراجح-والله أعلم- أن الحروف المقطعة لها معاني خاصة، سميت أسرارا وحكما أو غير ذلك، ومن رحمة الله تعالى بنا أنه لم يكلفنا بإدراكها، بل نؤمن بتنزيلها وكونها كلام الله تعالى، ونفوض له سبحانه العلم بحقيقة ما أراد من معانيها، دون أن نزيغ بها إلى معاني باطلة كما وقع لبعض الإشراقيين والفلاسفة الإسلاميين، ودون أن نسلبها معانيها في نفس الأمر بحيث يلزم من ذلك ثبوت كلام لله تعالى لا مدلول له في نفس الأمر، تعالى كلام ربنا عن ذلك.

---

[١] انظر: البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو عثمان بن سعد الأموي الداني: ٥٩.
[٢] انظر: فاتيح الغيب: ٢/ ٢٥١.
[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٨٤):ص١٩٢١/٦.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٨٥):ص١٩٢١/٦.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٥٢٢):ص١٠/١٥.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٥٢٣):ص١٠/١٥.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٨٦):ص١٩٢١/٦.
[٨] تفسير ابن ابي حاتم:ص١٩٢١/٦. حكاه ضمن الخبر المرقم((١٠١٨٦) في الصحيفة نفسها.
[٩]انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٨٧):ص١٩٢١/٦.
[١٠]انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠١٨٨):ص١٩٢١/٦.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٨٨):ص١٩٢١/٦.

وهذا مرجع كلام الصحب الكرام رضوان الله تعالى عليهم.

قرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر:« الر» بإمالة «الراء»، وقرأ ابن كثير وحفص بنصب «الراء»، وقرأ نافع بين ذلك[١].

قوله تعالى:{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [يونس : ١]، أي:" هذه آيات الكتاب المحكم الذي أحكمه الله وبيَّنه لعباده"[٢].

قال الزجاج:" أي: الآيات التي جرى ذكرها هي آيات الكتاب الحكيم"[٣].

قال القرطبي:" أي: تلك التي جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم"[٤].

قال الطبري:" تلك آيات الكتاب المحكم، الذي أحكمه الله وبينه لعباده، كما قال جل ثناؤه: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[سورة هود: ١]"[٥].

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: هذه آيات الكتاب الذي أنزل عليك يا محمد، ويقال: تلك الآيات التي وعدتك يوم الميثاق أن أوحينا إليك الكتاب. الحكيم"[٦].

قال أبو عبيدة:" مجاز «آيات» مجاز أعلام الكتاب وعجائبه، و«آياته» أيضا: فواصله، والعرب يخاطبون بلفظ الغائب وهم يعنون الشاهد، وفى آية أخرى: {الم ذلِكَ الْكِتابُ}[البقرة:١-٢] مجازه: هذا القرآن، قال عنترة[٧]:

شطّت مزار العاشقين فأصبحت عسرا علىّ طلابك ابنة مخرم"[٨]

عن السدي، عن أبي مالك، قوله: "{تلك}، يعني: هذه"[٩].

قال الماوردي:" يعني بقوله:{تِلْكَ ءَايَاتُ}، أي: هذه آيات ، كما قال الأعشى[١٠]:

تلك خَيْلِي مِنْهُ وتلكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلاَدُها كالزَّبِيبِ"[١١]

قال الطبري:الصواب " تأويل من تأوّله: «هذه آيات القرآن»، ووجّه معنى {تلك} إلى معنى «هذه»"[١٢].

وفي قوله تعالى:{الكِتَابِ الْحِكيمِ} [يونس : ١]،ها هنا أربعة أقوال:

أحدها : التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد[١].

---

[١]انظر: بحر العلوم:١٠٢/٢.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٣]معاني القرآن:٥/٣ .
[٤] تفسير القرطبي:٣٠٥/٨.
[٥] تفسير الطبري:١٢/١٥.
[٦] بحر العلوم:١٠٢/٢.
[٧]هذا البيت من معلقته وهو فى ديوانه فى الستة ٤٥ وشرح العشر ٩١.
[٨] مجاز القرآن:٢٧٣/١.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٨٩):ص١٩٢١/٦-١٩٢٢.
[١٠]البيت من الخفيف، وهو للأعشى في ديوانه ص ٣٨٥، ولسان العرب (خشب) ، (صفر) ، وتهذيب اللغة ١٢/ ١٧٠، وجمهرة اللغة ص ٧٤٠، وتاج العروس (خشب) ، والخزانة ٢/ ٤٦٤، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٣/ ٢٩٤، ومجمل اللغة ٣/ ٢٣١، والمخصص ٢/ ١٠٥.
[١١] النكت والعيون:٤٢٠/٢.
[١٢] تفسير الطبري:١١/١٥.

الثاني : الزبور ، قاله مطر في رواية ابن الحسين بن واقد[٢].

الثالث : التوراة والزبور. قاله الحسن[٣].

والرابع: اسم من أسماء القرآن. لأنه لم يجيء للْتوراة والإنجيل قبلُ ذكرٌ ولا تلاوةٌ بعدُ، فيوجه إليه الخبر قاله الطبري[٤].

وقال مقاتل:" الكتاب يعني: القرآن"[٥].

قال أبو عبيدة:" مجازها: هذه آيات الكتاب الحكيم، أي القرآن، قال الشاعر[٦]:

ما فهم من الكتاب أم آي القرآن"[٧]

قال القرطبي:" المراد «القرآن»، وهو أولى بالصواب، لأنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر، ولأن «الحكيم» من نعت القرآن. دليله قوله تعالى:{الر كتاب أحكمت آياته}[هود: ١]"[٨].

والخامس: الكتب التي خلت قبل القرآن. قاله قتادة[٩].

قال ابن كثير:" وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه"[١٠].

وفي قوله:{الحَكِيمِ} [يونس : ١]، وجوه من التفسير:
أحدها : أنه بمعنى المحكم، لا كذب فيه ولا اختلاف، قاله مقاتل[١١]، وأبو عبيدة[١٢]، والطبري[١٣]، ومنه قول عمرو بن معد يكرب[١٤]:

أَمِنْ ريحانة الدَّاعي السَّميع يُؤْرِقُني وأَصْحابي هَجوع

قال أبو عبيدة:" والحكيم: مجازه المحكم المبيّن الموضّح، والعرب قد نضع «فعيل» فى معنى «مفعل»"[١٥].

الثاني : أنه كالناطق بالحكمة ، ذكره علي بن عيسى[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧٥٢٥):ص١١/١٥.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٩٠):ص١٩٢٢/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٩١):ص١٩٢٢/٦.
[٤] تفسير الطبري:١١/١٥-١٢.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٢٥/٢.
[٦] البيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن:١٧١/١، ولم أجده فيما توفرت لدي من المصادر، وفى وزن البيت خلل، وفى معناه غموض.
[٧] مجاز القرآن:٢٧٢/١.
[٨] تفسير القرطبي:٣٠٥/٨.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٩٢):ص١٩٢٢/٦.
[١٠] تفسير ابن كثير:٢٤٥/٤.
[١١] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٢٥/٢.
[١٢] انظر: مجاز القرآن:٢٧٢/١.
[١٣] .
[١٤]البيت في "الشعر والشعراء" ص ٢٣٥، و"تفسير الطبري" ١/ ١٢٣، "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٥١، و"تفسير الثعلبي" ١/ ٥٠ أ، و"تفسير ابن عطية" ١/ ١٦٥، "الأصمعيات" ص ١٧٢، "البحر المحيط" ١/ ٥٩. وريحانة: أخت عمرو، وكان الصمة أبو دريد قد غزا بني زبيد وسباها، وغزاهم عمرو مرارًا ولم يقدر عليها، وقيل: ريحانة امرأة أراد أن يتزوجها فهو يشبب بها.
[١٥] مجاز القرآن:٢٧٢/١.

والثالث: يعني: الحاكم على الكتب كلها. حكاه ابو الليث السمرقندي[٢].

والرابع: أن:" «الحكيم» بمعنى الحاكم، أي: إنه حاكم بالحلال والحرام، وحاكم بين الناس بالحق، فعيل بمعنى فاعل. دليله قوله:{وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: ٢١٣]". قاله القرطبي[٣].

وقال الكلبي: "يعني: أحكم بحلاله وحرامه"[٤].

والخامس:أن "«الحكيم» بمعنى :المحكوم فيه، أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه، فهو فعيل بمعنى المفعول". حكاه القرطبي عن الحسن وغيره[٥].

الفوائد:

١- تقرير عقيدة الوحي بشهادة الكتاب الموحى به.
٢- أن الله تعالى وصف القرآن بأنه محكم، وبأنه متشابه، وبأن بعضه محكم وبعضه متشابه.
فالأول كقوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [لقمان: ٢] .
والثاني كقوله: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً} [الزمر: ٢٣] .
والثالث كقوله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: ٧] .
- فالإحكام الذي وصف به جميع القرآن هو: الإتقان والجودة في اللفظ والمعنى، فألفاظ القرآن كله في أكمل البيان والفصاحة والبلاغة، ومعانيه أكمل المعاني وأجلها وأنفعها للخلق حيث تتضمن كمال الصدق في الأخبار، وكمال الرشد والعدل في الأحكام، كما قال الله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً} [الأنعام: ١١٥] .
- والتشابه الذي وصف به جميع القرآن هو: تشابه القرآن في الكمال والإتقان والائتلاف، فلا يناقض بعضه بعضاً في الأحكام، ولا يكذب بعضه بعضاً في الأخبار كما قال الله تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} [النساء: ٨٢] .
- والإحكام الذي وصف به بعض القرآن هو: الوضوح والظهور بحيث يكون معناه واضحاً بيناً لا يشتبه على أحد، وهذا كثير في الأخبار والأحكام.
مثاله في الأخبار قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥] . فكل أحد يعرف شهر رمضان، وكل أحد يعرف القرآن.
ومثاله في الأحكام قوله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [الإسراء: ٢٣] . فكل أحد يعرف والديه، وكل أحد يعرف الإحسان.
- وأما التشابه الذي وصف به بعض القرآن فهو: الاشتباه أي خفاء المعنى بحيث يشتبه على بعض الناس دون غيرهم، فيعلمه الراسخون في العلم دون غيرهم[٦].
٣- أن القرآن الكريم: متقن الألفاظ والمعاني، ومشتمل على الأحكام العادلة، والأخبار الصادقة، والشرائع المستقيمة، وأنه الحاكم بين العباد فيما يختلفون فيه، كما قال الله

---

[١] انظر: النكت والعيون:٤٢١/٢.
[٢] انظر: بحر العلوم:١٠٢/٢.
[٣] تفسير القرطبي:٣٠٥/٨.
[٤] نقله عنه أبو الليث السمرقندي في بحر العلوم:١٠٢/٢.
[٥] انظر: تفسير القرطبي:٣٠٥/٨.
[٦] انظر: قريب التدمرية:٧٨-٧٩.

سبحانه: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} الآية، وقال سبحانه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ}[آل عمران:٢٣] الآية.. فكيف يكون محكم الألفاظ والمعاني، وحاكما بين الناس وهو متناقض مشتمل على بعض الخرافات، وكيف يكون محكما وموثوقا به إذا كان الرسول الذي جاء به إنسانا بسيطا لا يفرق بين الحق والخرافة، فعلم بذلك أن من وصف القرآن بالتناقض أو بالاشتمال على بعض الخرافات، أو وصف الرسول - ﷺ - بما ذكرها فإنه متنقص لكتاب الله، ومكذب لخبر الله، وقادح في رسول الله، ﷺ،- إن كان مسلما قبل أن يقول هذه المقالة-، وقال الله سبحانه، في أول سورة يوسف: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)} [يوسف : ١ - ٣]، وقال سبحانه، في سورة الزمر: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر : ٢٣] ، ومعنى {مُتَشَابِهاً} في هذه الآية - عند أهل العلم - يشبه بعضه بعضا، ويصدّق بعضه بعضا فكيف يكون بهذا المعنى، وكيف يكون أحسن الحديث وأحسن القصص وهو متناقض، مشتمل على بعض الخرافات، سبحانك هذا بهتان عظيم.

القرآن

{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)} [يونس : ٢]

التفسير:

أكان أمرًا عجبًا للناس إنزالنا الوحي بالقرآن على رجل منهم ينذرهم عقاب الله، ويبشّر الذين آمنوا بالله ورسله أن لهم أجرًا حسنًا بما قدَّموا من صالح الأعمال؟ فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بوحي الله وتلاه عليهم، قال المنكرون: إنَّ محمدًا ساحر، وما جاء به سحر ظاهر البطلان.

سبب النزول:

عن ابن عباس قال : "لما بعث الله محمدًا رسولا أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : اللهُ أعظمُ من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد ! فأنزل الله تعالى : {أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم }، وقال : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا} [سورة يوسف : ١٠٩]"[١].

قوله تعالى:{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} [يونس : ٢]، أي:" أكان أمرًا عجبًا للناس إنزالنا الوحي بالقرآن على رجل منهم، بأن أنذر الناس عقاب الله"[٢].

قال الطبري:" : يقول تعالى ذكره: أكان عجبًا للناس إيحاؤنا القرآن على رجل منهم بإنذارهم عقابَ الله على معاصيه ، كأنهم لم يعلموا أنَّ الله قد أوحى من قبله إلى مثله من البشر ، فتعجَّبوا من وحينا إليه"[٣].

قال الصابوني:" الهمزة للإنكار، أي: لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧٥٢٧):ص١٥/١٣.

[٢] انظر: التفسير الميسر:٢٠٨، وصفوة التفاسير:٥٣٣/١.

[٣] تفسير الطبري:١٥/١٢-١٣.

قال ابن جريج: "عجبت قريش أن بُعث رجل منهم. قال : ومثل ذلك : {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} [سورة الأعراف : ٦٥] ، {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا}، [سورة الأعراف : ٧٣] ، قال الله: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ } [سورة الأعراف : ٦٩] "[٢].

قوله تعالى:{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [يونس : ٢]، أي:" وأنْ بَشّرٍ المؤمنين بأنَّ لهم سابقةً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال"[٣].

قال البيضاوي: "عمم الإنذار إذ قلما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به حقيقة... {قدم صدق عند ربهم}: سابقة ومنزلة رفيعة سميت «قدما»، لأن السبق بها كما سميت «النعمة» يدا، لأنها تعطى باليد، وإضافتها إلى «الصدق»، لتحققها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية"[٤].

قوله تعالى:{قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} [يونس : ٢]، أي:" فلما أتاهم رسول الله ﷺ بوحي الله وتلاه عليهم، قال المنكرون: إنَّ محمدًا ساحر، وما جاء به سحر ظاهر البطلان"[٥].

قال البيضاوي:"وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أمورا خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة"[٦].

قرأ ابن كثير والكوفيون :«لساحر» على أن الإشارة إلى الرسول ﷺ، وقرئ: «ما هذا إلا سحر مبين»[٧].

الفوائد:

١- إثبات نبوة محمد ﷺ وتقريرها بالوحي إليه.
٢- بيان مهمة الرسول ﷺ وهي النذارة والبشارة.
٣- بشرى أهل الإيمان والعمل الصالح، بما أعد لهم عند ربهم.
٤- عدم تورع أهل الكفر عن الكذب والتضليل.

القرآن

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)} [يونس : ٣]

التفسير:

إن ربكم الله الذي أوجد السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى -أي علا وارتفع- على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، يدبر أمور خلقه، لا يضادُّه في قضائه أحد، ولا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له بالشفاعة، فاعبدوا الله ربكم المتصف بهذه الصفات، وأخلصوا له العبادة. أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج؟

قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [يونس : ٣]، أي:" إن ربكم الله الذي أوجد السموات والأرض في ستة أيام"[٨].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خَلَق السموات والأرض في ستة أيام - قيل : كهذه الأيام ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدون"[١].

---

[١] صفوة التفاسير:٥٣٣/١.
[٢] أخرجه الطبري(١٧٥٢٨):ص١٣/١٥.
[٣] صفوة التفاسير:٥٣٣/١.
[٤] تفسير البيضاوي:١٠٤/٣.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٦] تفسير البيضاوي:١٠٤/٣.
[٧] انظر: تفسير البيضاوي:١٠٤/٣.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٨.

عن ابن عباس: "{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، قال: يوم مقداره ألف سنة"[٢].

عن محمد بن إسحاق، قال: "ابتدع السماوات والأرض، ولم يكونا بقدرته لم يستعن على ذلك بأحد من خلقه، ولم يشركه في شيء من أمره، فسلطانه قاهر قوله النافذ الذي يقول به لما أراه أن يقول له: كن فيكون، ففرغ من خلق السماوات والأرض في ستة أيام"[٣].

عن وهب بن منبه، قال:" قال عزير يا رب أمرت الماء فجمد في وسط الهواء فجعلت منه سبعا وسميته السماوات ثم أمرت الماء ينفتق من التراب وأمرت التراب أن يميز من الماء فكان كذلك، فسميت جميع ذلك الأرضين وجميع البحار"[٤].

قوله تعالى:{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس : ٣]، أي:" ثم استوى -أي علا وارتفع- على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته"[٥].

عن أبي العالية في قوله: "{ثم استوى}، يقول: ارتفع"[٦]. وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله[٧].

عن قتادة، في قول الله:"{ ثم استوى على العرش}، قال: يوم السابع"[٨].

عن الحكم بن أبان قال: "سمعت عكرمة يقول إن الله بدء خلق السماوات والأرض وما بينهما يوم الأحد، ثم استوى على العرش يوم الجمعة في ثلاث ساعات، فخلق في ناحية منها الشموس كي يرغب الناس إلى ربهم في الدعاء والمسألة، وخلق في ناحية النتن الذي يسقط على ابن آدم إذا مات لكي يقبر"[٩].

عن ابن عباس:"وإنما سمي العرش عرشا لارتفاعه"[١٠].

عن إسماعيل بن أبي خالد قال :"سمعت سعدا الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء"[١١].

عن وهب بن منبه قال :"إن الله خلق العرش من نور"[١٢].

قال الإمام ابن كثير:" وأما قوله تعالى:{ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ، ليس هذا موضع بسطها ، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك ، والأوزاعي ، والثوري، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، من أئمة المسلمين قديما وحديثا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، و{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى : ١١] بل الأمر كما قال

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٤٦/٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١٠):ص١٩٢٥/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٨):ص١٩٢٤/٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٩):ص١٩٢٤/٦-١٩٢٥.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١١):ص١٩٢٥/٦.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٩٢٥/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١٢):ص١٩٢٥/٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١٢):ص١٩٢٥/٦. قطعة من الخبر السابق.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١٣):ص١٩٢٥/٦.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١٤):ص١٩٢٥/٦.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١٥):ص١٩٢٥/٦.

الأئمة - منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي[1] شيخ البخاري - : «من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر»[2]. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ، ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى"[3].

وقال سفيان بن عيينة: "كل شيئ وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره، لا كيف ولا مثل"[4].

وقال أبو بكر المروذي: "سألت أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تردها الجهمية في الصفات والرؤية، والإسراء، وقصة العرش، فصححه أبو عبد الله وقال: تلقتها العلماء بالقبول، تمر الأخبار كما جاءت"[5].

وقال محمد بن الحسن الشيباني - صاحب أبي حنيفة - :"اتفق الفقهاء كلهم من الشرق إلى الغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل، من غير تفسير ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فإنهم لم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم[6] فقد فارق الجماعة لأنه وصفه بصفة لا شيئ"[7].

وقال عباد بن العوام: "قدم علينا شريك بن عبد الله، فقلنا: إن قوماً ينكرون هذه الأحاديث: " إن الله ينزل إلى سماء الدنيا " والرؤية وما أشبه هذه الأحاديث فقال: إنما جاء بهذه الأحاديث من جاء بالسنن في الصلاة، والزكاة، والحج، وإنما عرفنا الله بهذه الأحاديث"[8].

---

[1] هو أبو عبد الله، نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي، كان من أشهر المحدثين، توفي محبوساً في سامرا سنة ٢٢٨، وقيل غير ذلك.
انظر: الطبقات الكبرى ٥١٩/٧، وتهذيب التهذيب ٤٥٨/١٠.

[2] أورده الذهبي في العلو ص١٢٦، قال الألباني في مختصره لكتاب الذهبي ص١٨٦: إسناده صحيح، وابن تيمية في الفتاوى ١٩٦/٥، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص٢٢١.

[3] تفسير ابن كثير:٤٢٧/٣.

[4] أخرجه الدارقطني في كتاب الصفات ص٤١، والصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة مجموعة الرسائل المنيرية ١٢٠/١، وابن قدامة في ذم التأويل ص١٩، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم ((٧٣٦)) ٤٣١/٣.

[5] رواه مختصراً ابن قدامة في ذم التأويل ص٢١، ورواه بتمامه ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة ٥٦/١.

[6] جهم بن صفوان من أهل خراسان ينسب إلى سمرقند وزمنه ومحتده الكوفة، وكنى أبا محرز، وكان مولى لبني راسب من الأزد، أخذ الكلام عن الجعد بن درهم وكان فصيحاً، وكان صاحب مجادلات ومخاصمات في مسائل الكلام التي يدعو إليها، وكان أكثر كلامه في الإلهيات.
انظر تاريخ الجهمية والمعتزلة لجمال الدين القاسمي ص١٠.
قال المقريزي: حدث مذهب الجهم بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم ببلاد المشرق، فعظمت الفتنة به، فإنه نفى أن يكون لله تعالى صفة، وأورد على أهل الإسلام شكوكاً آثرت في الملة الإسلامية آثاراً قبيحة تولد عنها بلاء كبير، وكان قبيل المائة من سني الهجرة، فكثر أتباعة على أقواله التي تؤول إلى التعطيل، فأكبر أهل الإسلام بدعته، وتمالؤا على إنكارها وتضليل أهلها، وحذروا من الجهمية وعادوهم في الله، وذموا من جلس إليهم، وكتبوا في الرد عليهم ما هو معروف عند أهله.
الخطط ٢٥٧/٢.

[7] رواه ابن قدامة في ذم التأويل ص١٣-١٤، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم ((٧٤٠)) ٤٣٢/٣، والذهبي في العلو ص١١٣.

[8] الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي:٢٢٠، ولم أجده بهذا اللفظ، ورواه بلفظ مقارب الدارقطني في الصفات ص٤٣، والذهبي في سير أعلام النبلاء ١٨٥/٨.

قوله تعالى:{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [يونس : ٣]، أي:" يدبر أمور خلقه، لا يضادُّه في قضائه أحد"[١].

قال ابن كثير:" أي : يدبر أمر الخلائق ، {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأرْضِ } [سبأ : ٣] ، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلّطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير ، في الجبال والبحار والعمران والقفار ، { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [هود : ٦]. { وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام : ٥٩]"[٢].

عن مجاهد قوله: "{يدبر الأمر}، قال: يقبضه وحده"[٣].

قوله تعالى:{مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} [يونس : ٣]، أي:" ولا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له بالشفاعة"[٤].

عن سعيد بن جبير، قال: "من يتكلم عنده إلا بإذنه"[٥].

قوله تعالى:{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} [يونس : ٣]، أي:" فاعبدوا الله ربكم المتصف بهذه الصفات، وأخلصوا له العبادة"[٦].

عن ابن عباس قال: "«اعبدوا»، أي: وحدوا"[٧].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [يونس : ٣]، أي:" أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج؟"[٨].

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله: "{تذكرون}، قال: أهل الذكر هم أهل القرآن"[٩].

القرآن"[٩].

عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة" أنه قال حين نزلت هذه الآية : { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب ، فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا. من الجن ، خرجنا من المدينة ، أخرجتنا هذه الآية"[١٠].

الفوائد:

١- تقرير ألوهية الله تعالى وأنه الإله الحق.

٢- إثبات العرش، لقد جاء ذكر عرش الرحمن في القرآن الكريم في واحد وعشرين موضعاً:

١- قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف ٥٤]

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٤٦/٤.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢١٦):ص١٩٢٦/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢١٧):ص١٩٢٦/٦.
[٦] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢١٨):ص١٩٢٦/٦.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢١٩):ص١٩٢٦/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٥٧٢):ص١٤٩٦/٥، و(١٠٢٠٧):ص١٩٢٤/٦.

٢- وقال تعالى: {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة ١٢٩] .

٣- وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [يونس ٣].

٤- وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [هود ٧] .

٥- وقال تعالى: {اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى} [الرعد ٢] .

٦- وقال تعالى: {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} [الإسراء ٤٢] .

٧- وقال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه ٥] .

٨- وقال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ} [الأنبياء ٢٢] .

٩- وقال تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [المؤمنون ٨٦] .

١٠- وقال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون ١١٦] .

١١- وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [الفرقان ٥٩] .

١٢- وقال تعالى: {اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل ٢٦]

١٣- وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ} [السجدة ٤] .

١٤- وقال تعالى: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر ٧٥] .

١٥- وقال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر ٧] .

١٦- وقال تعالى {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ} [غافر ١٦] .

١٧- وقال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الزخرف ٨٢] .

١٨- وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد ٤] .

١٩- وقال تعالى {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة ١٧] .

٢٠- وقال تعالى {ذو قُوة ٍعِنْدَ ذِي العرشِ مَكِين} [التكوير ٢٠] .

٢١- وقال تعالى {ذُو العرشِ المجِيد} [البروج ١٥] .

وقد أورد الذهبي -رحمه الله- في كتابه "العرش" جملة طيبة من الأحاديث والآثار الواردة في العرش وصفته[١].

٣- من صفات الله عزوجل التي وصف بها نفسه "ونطق بها كتابه، وأخبر بها نبيه: أنه مستو على عرشه كما أخبر عن نفسه"[٢].

أ- فقال عزَّ من قائل في سورة الأعراف: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤] .

ب- وقال في سورة يونس: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس: ٣] .

ت- وقال في سورة الرعد: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الرعد: ٢] .

ث- وقال في سورة طه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] .

ج- وقال في سورة الفرقان: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٥٩] .

ح- وقال في سورة السجدة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [السجدة: ٤] .

خ- وقال في سورة الحديد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: ٤].

فطريقة السلف هي إثبات أسماء الله وصفاته مع نفي مماثلة المخلوقين، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى ١١] ، ففي قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} رد للإلحاد والتعطيل[٣].

ولقد كانت هذه طريقة السلف في جميع الصفات دون تفريق بين صفة وصفة، وفي ذلك يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والسنة"[٤] وبناءاً على هذه القاعدة كان مذهب السلف في صفة الاستواء أنهم يثبتون استواء الله على عرشه استواءاً يليق بجلاله وعظمته، ويناسب كبريائه، وهو بائن من خلقه وخلقه بائنون منه، فالاستواء صفة ثابتة في القرآن والسنة وقد أجمع سلف الأمة على إثباتها.

القرآن

---

[١] انظر: العرش للذهبي: ٣٠٧ وما بعدها..

[٢] عقيدة الحافظ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي: ٤٠.

[٣] انظر الرسالة التدمرية (ص٤-٧) ، المطبعة السلفية، الفتوى الحموية الكبرى (١٦-١٧) ، المطبعة السلفية.

[٤] مجموع الفتاوى (٥/٢٦).

{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)} [يونس : ٤]

التفسير:

إلى ربكم معادكم يوم القيامة جميعًا، وهذا وعد الله الحق، هو الذي يبدأ إيجاد الخلق ثم يعيده بعد الموت، فيوجده حيًا كهيئته الأولى، ليجزي مَن صَدَّق الله ورسوله، وعمل الأعمال الحسنة أحسن الجزاء بالعدل. والذين جحدوا وحدانية الله ورسالة رسوله لهم شراب من ماء شديد الحرارة يشوي الوجوه ويقطِّع الأمعاء، ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وضلالهم.

قوله تعالى:{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا} [يونس : ٤]، أي:" إلى ربكم مرجعكم أيها الناس يوم القيامة جميعاً"[١].

عن الضحاك، قوله: "{إليه مرجعكم جميعا}، قال: البر والفاجر"[٢].

قوله تعالى:{وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا} [يونس : ٤]، أي:" وهذا وعد الله الحق"[٣].

قال الصابوني:أي:" وعداً من الله لا يتبدّل، وفيه ردٌّ على منكري البعث حيث قالوا {مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر} [الجاثية: ٢٤]"[٤].

قوله تعالى:{إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [يونس : ٤]، أي:" هو الذي يبدأ إيجاد الخلق ثم يعيده بعد الموت، فيوجده حيًا كهيئته الأولى"[٥].

عن مجاهد قوله: "{يبدؤا الخلق ثم يعيده}: يحييه ثم يميته ثم يحييه"[٦].

قال البيضاوي:" والآية كالتعليل لقوله تعالى: {إليه مرجعكم جميعا}، فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ :«إنه يبدؤا» بالفتح، أي: «لأنه»، ويجوز أن يكون منصوبا أو مرفوعا بما نصب {وعد الله} أو بما نصب {حقا}"[٧].

قوله تعالى:{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ} [يونس : ٤]، أي:" ليجزي مَن صَدَّق الله ورسوله، وعمل الأعمال الحسنة أحسن الجزاء بالعدل"[٨].

عن زيد بن أسلم الذين: "{آمنوا وعملوا الصالحات}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم"[٩].

عن ابن عباس، "قوله: {بالقسط}، قال: بالعدل"[١٠]. وروي عن السدي ومجاهد وقتادة بمثل ذلك[١١].

وعن ابن عباس –أيضا- قال: "الأعمال الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر"[١٢].

---

[١] صفوة التفاسير:١/٥٤٣.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٢٠):ص٦/١٩٢٦.
[٣] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٤] صفوة التفاسير:١/٥٤٣.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢١):ص٦/١٩٢٦.
[٧] تفسير البيضاوي:١/٥٣٤.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٢):ص٦/١٩٢٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٤):ص٦/١٩٢٧.
[١١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٦/١٩٢٧. حكاه دون ذكر الإسناد.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٣):ص٦/١٩٢٧.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا} [يونس : ٤]، أي:" والذين جحدوا بالله وكذبوا رسله"[١].

قوله تعالى:{لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ} [يونس : ٤]، أي:" لهم في جهنم شرابٌ من حيمم، بالغ النهاية في الحرارة"[٢].

عن إبراهيم وأبي رزين، "{حميم}، قالا: ما يسيل من صديدهم"[٣].

قوله تعالى:{وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس : ٤]، أي:" ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وإشراكهم"[٤].

عن ابن عباس في قوله: "{عذاب أليم}، قال: نكال موجع"[٥].

وعن ابن عباس –ايضا- في قوله عز وجل: "{عذاب أليم}، قال: أليم: كل شيء موجع"[٦].

الفوائد:

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء في الدار الآخرة.
٢- أن الله جل في علاه من حكمته البالغة: أن خلق الخلق ليعبدوه، ثم الثواب والعقاب على ذلك.
٣- بيان عدل الله وحكمته، وإعطاءه لكل ذي حق حقه، وتفريقه بين الخبيث والطيب، والمحسن والمسيء، وحتى لا يكون من كفر بالله وعصاه كمن عبده وأطاعه، لهذا فإنَّ الله تعالى جعل اليوم بعد هذه الحياة؛ لينال فيه كل إنسان جزاء عمله من الثواب والعقاب. جاء ذلك واضحاً في قوله تعالى: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ}[يونس:٤]، وقوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه:١٥]، وقوله تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[ص:٢٨].

وواقع الحال أننا نرى كثيراً ممن ارتكبوا جرائم في هذه الحياة يفارقونها وهم متلبسون بجرائمهم، ولم يقتص منهم، كما نرى أناساً آخرين يغادرونها وهم مظلومون، ولم ترد إليهم مظالمهم، ولم يقتص من ظالميهم، كما نرى أشراراً في الدنيا منعمين، وأخياراً معذبين، مع العلم أنَّ ذلك كله واقع بعلم الله القوي القادر السميع البصير، الذي لا تخفى عليه خافية، والذي قد حرّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، ولكنه تعالى يمهل ولا يهمل.

لذا والحالة هذه، فإنه إذا ذهب كلُّ إنسان بما فعل، ظالماً أو مظلوماً دون محاسبة، أو مجازاة، كان ذلك خدشاً في حق الإله العظيم، وعدله تبارك وتعالى، فلا بدَّ إذاً من يوم يقف فيه الظالم والمظلوم، والقائم بالتكاليف الإلهية، والتارك لها بين يدي الخالق جل وعلا، ليقتص من الظالم للمظلوم، ولينال كلُّ من المحسن والمسيء جزاءه المستحق، كما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[الأنبياء:٤٧][٧].

---

[١] صفوة التفاسير:٥٤٣/١.
[٢] صفوة التفاسير:٥٤٣/١.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٥):ص١٩٢٧/٦.
[٤] صفوة التفاسير:٥٤٣/١.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٦):ص١٩٢٧/٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٧):ص١٩٢٧/٦.
[٧] انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الرحيلي: ٥٧٨/٢-٥٧٩.

١- أن مرجع الناس جميعاً إلى الله تعالى، إذ أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - أنَّ مرجعنا جميعاً إليه، وهذا وعد حق لا يتخلَّف بحالٍ من الأحوال، كما قال سبحانه: {لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٤ - ٩٥]، وقوله: {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أي: يبدأ خلق العباد في الحياة الدنيا، ثم يعيد خلقهم في الحياة الآخرة، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ} أي: يثيب المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحة بالعدل والجزاء الأوفى، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}، أي: ويجزي الذين كفروا بالله ورسوله، بإسقائهم شراباً تناهى حرُّه، ويذيقهم العذاب الأليم في النار بسبب كفرهم وضلالهم[١].

٢-

القرآن

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)} [يونس : ٥]

التفسير:

الله هو الذي جعل الشمس ضياء، وجعل القمر نورًا، وقدَّر القمر منازل، فبالشمس تعرف الأيام، وبالقمر تعرف الشهور والأعوام، ما خلق الله تعالى الشمس والقمر إلا لحكمة عظيمة، ودلالة على كمال قدرة الله وعلمه، يبيِّن الحجج والأدلة لقوم يعلمون الحكمة في إبداع الخلق.

قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً} [يونس : ٥]، أي:" الله هو الذي جعل الشمس ضياء"[٢].

قال الطبري:أي:" هو الذي أضاء الشمسَ"[٣].

قال الصابوني:" الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية، أي: هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهّاج"[٤].

قال أبو السعود:" تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنعه في النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من إبداع السموات والأرض والاستواء على العرش وغير ذلك، وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير إليه إشارة إجمالية وإرشاد إلى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوي الردى أولى وأحرى"[٥].

قوله تعالى:{وَالْقَمَرَ نُورًا} [يونس : ٥]، أي:" وجعل القمر منيراً بالليل"[٦].

قال الطبري:أي: هو الذي "أنار القمر"[٧].

قال الصابوني:" الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية، أي: هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهّاج"[٨].

قال أبو السعود:" «الضياء» أقوى من «النور»، وقيل: ما بالذات ضوء وما بالعرض نور، ففيه إشعار بأن نوره مستفاد من الشمس"[٩].

---

[١] انظر: الله يحدث عباده عن نفسه، عمر بن سليمان الأشقر:١٤٩-١٥٠.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٨.
[٣] تفسير الطبري:٣٣/١٥.
[٤] صفوة التفاسير:٥٣٤/١.
[٥] تفسير أبي السعود:١٢٠/٤.
[٦] صفوة التفاسير:٥٣٤/١.
[٧] تفسير الطبري:٣٣/١٥.
[٨] صفوة التفاسير:٥٣٤/١.
[٩] تفسير أبي السعود:١٢٠/٤.

عن السدي قوله: "{جعل الشمس ضياء والقمر نورا}، فلم يجعل كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}[1]: في اختلافهما"[2].

قوله تعالى:{وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} [يونس : ٥]، أي:" قدَّر سيره في منازل وهي البروج"[3].

قال الطبري:" يقول: قضاه فسوّاه منازلَ، لا يجاوزها ولا يقصر دُونها، على حالٍ واحدةٍ أبدًا"[4].

قال أبو السعود:" {وقدره} أي قدر له وهيأ، {منازل} أو قدر مسيره في منازل أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة في تواريخ العرب، وقد جعل الضمير لكل منهما وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس ثم يستسر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة وهى الشرطان والبطين والثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزباني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت"[5].

قوله تعالى:{لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس : ٥]، أي:" لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام"[6].

قوله تعالى:{مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} [يونس : ٥]، أي:" ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة"[7].

قوله تعالى:{يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [يونس : ٥]، أي:" يبيّن الآيات الكونيّة ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته"[8].

عن السدي قوله: "{يفصل الآيات}، أما «نفصل»: نبين"[9].

الفوائد:

١- بيان الحكمة في خلق الشمس والقمر وتقدير منازلهما.
٢- من فوائد النبوات ومنفعتها: تعريف الأحكام الفلكية كتفاصيل علم الهيئة، وأدوار الفلك، وحركات الكواكب. فإن ذلك مما لا تستقل به عقول البشر، ولا تفي أعمارهم بادراكه بالتجربة لو اشتغلت به عقولهم.

وكان دور الأنبياء فيما يتصل بذلك: الاستدلال- بالكواكب والأفلاك وعظيم خلقها وحركتها العجيبة واتقان صنعها ونظامها العجيب- على وحدانية الله وعظيم قدرته وبيان الحكمة من خلق هذه الأفلاك والكواكب ومنفعتها للخلق، كالاستضاءة والاهتداء

---

[1] [الإسراء : ١٢].
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٨):ص١٩٢٧/٦.
[3] صفوة التفاسير:٥٣٤/١.
[4] تفسير الطبري:٣٣/١٥.
[5] تفسير أبي السعود:١٢٠/٤.
[6] صفوة التفاسير:٥٣٤/١.
[7] صفوة التفاسير:٥٣٤/١.
[8] صفوة التفاسير:٥٣٤/١.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٩):ص١٩٢٨/٦.

بها وحساب الوقت والزمن، وكونها مواقيت للناس في معاملاتهم وعباداتهم كالصوم والحج والفطر ومدة الحمل وغير ذلك.

والآيات القرآنية في ذلك كثيرة لا يمكن إيرادها في هذا المكان، منها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والْقَمَرَ نُوراً وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[يونس: ٥]، وقوله تعالى:{يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِ} الآية [البقرة: ١٨٩]، وقوله تعالى: {وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٩٧]، وغيرها[١].

٣- أن الله وحده لا شريك له هو الذي جعل الضياء في الشمس والنور في القمر، ويجدر القول بأن الصواف[٢] نقل عن ابن باديس أنه قال في الشمس أنها هي التي أبصرت القمر.

والجواب أن يقال: بل الله وحده لا شريك له هو الذي جعل الضياء في الشمس والنور في القمر قال تعالى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} وقال تعالى مخبرا عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} وقال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا}.

فإن قيل أن نور القمر مستفاد من نور الشمس فما وجه الاعتراض على ابن باديس.

فالجواب أن يقال: أن الله تعالى هو الذي جعل الضياء في الشمس وجعله يمتد منها إلى القمر وينعكس منه إلى الأرض. فهذا كله خلق الله وفعله. والواجب في مثل هذا أن يسند الفعل إلى الفاعل المختار لا إلى المخلوق المربوب المدبر[٣].

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: مشروعية تعلم الحساب وعلم الفلك لما هو نافع للمسلمين.

القرآن

{إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)} [يونس : ٦]

التفسير:

إن في تعاقب الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض من عجائب الخلق وما فيهما من إبداع ونظام، لأدلة وحججًا واضحة لقوم يخشون عقاب الله وسخطه وعذابه.

قوله تعالى:{إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [يونس : ٦]، أي:" إن في تعاقب الليل والنهار"[٤].

قوله تعالى:{وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس : ٦]، أي:" وما خلق الله في السموات والأرض من عجائب الخلق وما فيهما من إبداع ونظام"[٥].

---

[١] انظر: الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري:١/٢٥٩-٢٦٠.

[٢]في صفحة ٧٤.

[٣] انظر: ذيل الصواعق لمحو الأباطيل والمخارق، حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري: ٢٠٧-٢٠٨.

[٤] التفسير الميسر:٢٠٨.

[٥] التفسير الميسر:٢٠٨.

عن ابن عباس قال: "أتت قريش إليه ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا، فدعا ربه فنزلت: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[1]، فليتفكروا فيها"[2].

قوله تعالى:{لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [يونس : ٦]، أي:" لأدلة وحججًا واضحة لقوم يخشون عقاب الله وسخطه وعذابه"[3].

عن الضحاك، قوله: "{يتقون}، قال: يتقون النار بالصلوات الخمس"[4].

الفوائد:

١- أن هذه الآية تنبيه إجمالي على قدرة الله تعالى.
٢- أن الليل والنهار من الآيات العظيمة الدالة على عظمة الخالق وكمال قدرته، وأنه المنعم على عباده بهذه النعم الجزيلة التي توجب عليهم ان يقابلوها بالشكر والثناء والانقياد لهذا الإله العظيم.

يقول الشيخ رحمه الله مبينا هذا الجانب: " والآيات الدالة على إختلاف الليل والنهار- من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله واستحقاقه للعبادة وحده-كثيرة جدا، كقوله: {ومن آياته الليل والنهار}[فصلت:٣٧] الآية ، وقوله: {وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون} ٢. وقوله: {يغشي الليل النهار}[الأعراف:٥٤] الآية: وقوله تعالى: {ولا الليل سابق النهار} [يس: ٤٠]. وقوله تعالى: {وسخر لكم الشمس والقمر} [النحل:١٢]الآية، وقوله تعالى: {إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون} [يونس:٦]: والآيات بمثل هذا كثيرة جدا. وقوله تعالى: {أفلا تعقلون} [المؤمنون:٨٠]: أي تدركون بعقولكم أن الذي ينشئ السمع والأبصار والأفئدة، ويذرؤكم في الأرض وإليه تحشرون، وهو الذي يحيي ويميت، ويخالف بين الليل والنهار: أنه الإله الحق المعبود وحد جل وعلا، الذي لا يصح أن يسوى به غيره سبحانه وتعالى علوا كبيرا"[5].

٣- فضل العلم والتقوى وأهلهما من المؤمنين.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧)} [يونس : ٧]

التفسير:

إن الذين لا يطمعون في لقائنا في الآخرة للحساب، وما يتلوه من الجزاء على الأعمال لإنكارهم البعث، ورضوا بالحياة الدنيا عوضًا عن الآخرة، وركنوا إليها، والذين هم عن آياتنا الكونية والشرعية ساهون.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} [يونس : ٧]، أي:" إن الذين لا يطمعون في لقائنا في الآخرة للحساب، وما يتلوه من الجزاء على الأعمال لإنكارهم البعث"[6].

قال القرطبي:"{يرجون}: يخافون، ومنه قول الشاعر[7]:

---

[1] [آل عمران : ١٩٠].
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٣٠):ص١٩٢٨/٦.
[3] التفسير الميسر:٢٠٨.
[4] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٣١):ص١٩٢٨/٦.
[5] أضواء البيان ٨١٠/٥-٨١١. وانظر المصدر نفسه ٧٣٨/٥-٧٣٩.
[6] .التفسير الميسر:٢٠٩
[7] البيت لأبي ذؤيب الهُذَليّ، انظر: شرح أشعار الهذليين: ١٤٠، وتخريجه فيه: ص ١٣٨١)، وانظر: خزانة الأدب: ٥/ ٤٩٩.

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ

وقيل: {يرجون}: يطمعون، ومنه قول الآخر[١]:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، أي: لا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا. وجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيما لهما. وقيل: يجري اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية، أي لا يطمعون في رؤيتنا. وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد، كقوله تعالى:{ما لكم لا ترجون لله وقارا}[نوح: ١٣]. وقال بعضهم: بل يقع بمعناه في كل موضع دل عليه المعنى"[٢].

قوله تعالى:{وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس : ٧]، أي:" ورضوا بالحياة الدنيا عوضًا عن الآخرة"[٣].

قال القرطبي:" أي: رضوا بها عوضا من الآخرة فعملوا لها"[٤].

قوله تعالى:{وَاطْمَأَنُّوا بِهَا} [يونس : ٧]، أي:" فرحوا بها وسكنوا إليها"[٥].

قال القرطبي:" أي فرحوا بها وسكنوا إليها، واصل: اطمأن طأمن طمأنينة، فقدمت ميمه وزيدت نون وألف وصل، ذكره الغزنوي"[٦].

عن مجاهد :"{واطمأنوا بها}، مثل قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا}[٧] "[٨].

عن الحسن في قوله: "{إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها}، فقال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها"[٩].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} [يونس : ٧]، أي:" والذين هم عن آياتنا الكونية والشرعية غافلون، لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون"[١٠].

قال القرطبي:" أي: عن أدلتنا {غافلون}، لا يعتبرون ولا يتفكرون"[١١].

عن عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم، في قوله تعالى: "{والذين هم عن آياتنا غافلون}، قال: هؤلاء هم أهل الكفر ثم قال: أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون"[١٢].

---

[١]البيت لسوار بن المضرب السعدي، انظر: خزانة الأدب: ٢/ ٤٦١. وقيل انه لفرزدق انشده حين هرب من الحجاج (معجم البلدان: ٢/ ٤٤٨):

ترجو بنو مروان سمعي وطاعتي، ... وخلفي تميم والفلاة أماميا؟.

[٢] تفسير القرطبي:٣١١/٨-٣١٢.

[٣] .التفسير الميسر:٢٠٩

[٤] تفسير القرطبي:٣١٢/٨.

[٥] صفوة التفاسير:٥٣٥/١.

[٦] تفسير القرطبي:٣١٢/٨.

[٧][هود : ١٥].

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٣٣):ص١٩٢٨/٦.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٣٤):ص١٩٢٨/٦.

[١٠] انظر: التفسير الميسر:٢٠٩، وصفوة التفاسير:٥٣٥/١.

[١١] تفسير القرطبي:٣١٢/٨.

[١٢]أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٣٥):ص١٩٢٩/٦ .

عن قتادة، قوله: "{إن الذين لا يرجون لقاءنا}، إلى قوله: {عن آياتنا غافلون}، قال: إذا أتيت رأيته صاحب دنيا، لها يفرح، ولها يحزن ولها يرضى ولها يسخط"[١].

الفوائد:

١- التحذير من نسيان االآخرة والإقبال على الدنيا والجري وراء زخارفها.
٢- أن عدم الإيمان بهذا اليوم يحمل الإنسان إلى الكفر والمعاصي، وعلى الظلم والعدوان، والبغي والفساد.
٣- التحذير من الغفلة بعدم التفكر بالآيات الكونية والقرآنية إذ هذا التفكير هو سبيل الهداية والنجاة من الغواية.
٤- أن الغفلة والإعراض والنسيان: هذه الأمور الثلاثة سبب عظيم من أسباب نقص الإيمان، فمن اعترته الغفلة، وشغله النسيان، وحصل منه الإعراض، نقص إيمانه وضعف بحسب توافر هذه الأمور الثلاثة فيه أو بعضها، وأوجبت له مرض القلب أو موته باستيلاء الشهوات والشبهات عليه، أما الغفلة فقد ذمها الله في كتابه وأخبر أنها خلق ذميم من أخلاق الكافرين والمنافقين، وحذر منها سبحانه أشد التحذير: قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يونس:٧-٨]، وقال تعالى: {وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس:٩٢]، وقال تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}[الروم:٧].
وقال لرسوله ﷺ: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف:٢٠٥].
فالغفلة- وهي: سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ[٢] داء خطير إذا اعترى الإنسان وتمكن منه لم يشغل بطاعة الله وذكره وعبادته، بل يشتغل بالأمور الملهية المبعدة عن ذكر الله، وإن عمل أعمالاً في طاعته تأتي منه على حال سيئة ووضع غير حسن فتكون أعمال عارية من الخشوع والخضوع والإنابة والخشية والطمأنينة والصدق والإخلاص، فهذه بعض آثار الغفلة السيئة على الإيمان.
أما الأعراض، فقد أخبر الله في القران الكريم أن له آثاراً سيئة كثيرة وعواقب ونتائج وخيمة:

- منها: أن الله وصف المعرض بأنه لا أحد أظلم منه، ووصفه بأنه من المجرمين كما في قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} [السجدة:٢٢].
- ومنها: إخبار الله أن المعرض يجعل الله على قلبه أكنة وأقفالا فلا يفقه ولا يهتدي أبدا كما في قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً} [الكهف:٥٧].
- ومنها: أن إعراضه يسبب له عيشه الضنك والضيق دنيا وآخرة، كما في قوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ... } [طه:١٢٤].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٣٢):ص١٩٢٨/٦.
[٢]بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي :١٤٠/٤.

- ومنها: إخبار الله سبحانه أن المعرض عن ذكر الله يقيض له القرناء من الشياطين فيفسدون عليه دينه، كما في قوله: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف:٣٦].
- ومنها: إخبار الله بأن المعرض يحمل يوم القيامة وزرا، وأنه يسلك العذاب الصعد كما في قوله: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً} [طه:٩٩-١٠٠].

وقوله: {وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً} [الجن:١٧]، ومعنى صعدا، أي: شديدا شاقاً.

وغيرها من الآيات التي يخبر فيها سبحانه وتعالى عن أخطار الإعراض وأضراره، والتي من أخطرها وأشنعها أنه مانع من الإيمان وحائل دونه لمن لم يؤمن، وموهن ومضعف لإيمان من آمن، وبحسب إعراض الإنسان يكن له نصيب من هذه النتائج والأخطار.

وأما النسيان- وهو: ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى يرتفع عن القلب ذكره[1]، فله أثر بالغ في الإيمان، فهو سبب من أسباب ضعفه، وبوجوده تقل الطاعات، وتكثر المعاصي.

والنسيان الذي جاء ذكره في القران الكريم على نوعين:

- نوع: لا يعذر فيه الإنسان وهو ما كان أصله عن تعمد منه، مثل قوله: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ} [الحشر:١٩].
- ونوع: يعذر فيه وهو ما لم يكن سببه منه كما في قوله تعالي: {رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة:١٨٦] وقد جاء في الحديث أن الله تعالى قال:"فعلت" [2].

والمسلم مطالب بمجاهدة نفسه وإبعادها عن الوقوع فيه، حتى لا يتضرر في دينه وإيمانه[3].

٥- الحذر من النظرية المادية للحياة ومفاسد هذه النظرية، إذ أن هناك نظرتان للحياة: نظرة مادية للحياة ونظرة صحيحة، ولكل من النظرتين آثارها:

- (ا) فالنظرة المادية للحياة - (معناها) : أن يكون تفكير الإنسان مقصورا على تحصيل ملذاته العاجلة، ويكون عمله محصورا في نطاق ذلك، فلا يتجاوز تفكيره ما وراء ذلك من العواقب، ولا يعمل له، ولا يهتم بشأنه، ولا يعلم أن الله جعل هذه الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، فجعل الدنيا دار عمل، وجعل الآخرة دار جزاء. فمن استغل دنياه بالعمل الصالح ربح الدارين، ومن ضيع دنياه ضاعت آخرته: {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١] فالله لا يخلق هذه الدنيا عبثا، بل خلقها لحكمة عظيمة، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢] وقال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: ٧] ، أوجد سبحانه في هذه الحياة من المتع العاجلة والزينة الظاهرة من الأموال والأولاد والجاه والسلطان وسائر المستلذات ما لا يعلمه إلا الله.

فمن الناس - وهم الأكثر - من قصر نظره على ظاهرها ومفاتنها، ومتع نفسه بها ولم يتأمل في سرها، فانشغل بتحصيلها وجمعها والتمتع بها عن العمل لما بعدها. بل أنكر أن يكون هناك حياة غيرها كما قال تعالى: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام: ٢٩] وقد توعد الله تعالى من هذه نظرته للحياة، فقال تعالى: {إِنَّ

---

[1] بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي :٥/ ٤٩.

[2] رواه مسلم (١/ ١١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

[3] انظر: زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، عبد الرزاق عبد المحسن:٢٣٩-٢٤٢.

الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ - أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يونس: ٧ - ٨] وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ - أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: ١٥ - ١٦].

وهذا الوعيد يشمل أصحاب هذه النظرة، سواء كانوا من الذين يعملون عمل الآخرة يريدون به الحياة الدنيا كالمنافقين والمرائين بأعمالهم أو كانوا من الكفار الذين لا يؤمنون ببعث ولا حساب كحال أهل الجاهلية والمذاهب الهدَّامة من رأسمالية وشيوعية وعلمانية إلحادية، وأولئك لم يعرفوا قدر الحياة ولا تعدو نظرتهم بها أن تكون كنظرة البهائم. بل هم أضل سبيلا، لأنهم ألغوا عقولهم وسخروا طاقاتهم وضيعوا أوقاتهم فيما لا يبقى لهم ولا يبقون له، ولم يعملوا لمصيرهم الذي ينتظرهم ولا بد لهم منه.

والبهائم ليس لها مصير ينتظرها وليس لها عقول تفكر بها بخلاف أولئك، ولهذا يقول تعالى فيهم: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٤] وقد وصف الله أهل هذه النظرة بعدم العلم، قال تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٦ - ٧] فهم وإن كانوا أهل خبرة في المخترعات والصناعات، فهم جُهَّال لا يستحقون أن يوصفوا بالعلم، لأن علمهم لم يتجاوز ظاهر الحياة الدنيا. وهذا علم ناقص لا يستحق أصحابه أن يطلق عليهم هذا الوصف الشريف، فيقال: العلماء، وإنما يطلق هذا على أهل معرفة الله وخشيته، كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] ومن النظرة المادية للحياة الدنيا ما ذكره في قصة قارون وما آتاه الله من الكنوز: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: ٧٩] فتمنوا مثله وغبطوه ووصفوه بالحظ العظيم بناء على نظرتهم المادية، وهذا كما هو الحال الآن في الدول الكافرة وما عندها من تقدم صناعي واقتصادي، فإن ضعاف الإيمان من المسلمين ينظرون إليهم نظرة إعجاب دون نظر إلى ما هم عليه من الكفر وما ينتظرهم من سوء المصير، فتبعثهم هذه النظرة الخاطئة إلى تعظيم الكفار واحترامهم في نفوسهم، والتشبه بهم في أخلاقهم وعاداتهم السيئة، ولم يقلدوهم في الجد وإعداد القوة والشيء النافع من المخترعات والصناعات.

- (ب) النظرة الثانية للحياة - (النظرة الصحيحة) : هي أن يعتبر الإنسان ما في هذه الحياة من مال وسلطان وقوى مادية وسيلة يستعان بها لعمل الآخرة، فالدنيا في الحقيقة لا تذم لذاتها، وإنما يتوجه المدح والذم إلى فعل العبد فيها، فهي قنطرة ومعبر للآخرة ومنها زاد الجنة. وخير عيش يناله أهل الجنة إنما حصل لهم بما زرعوه في الدنيا، فهي دار الجهاد والصلاة والصيام والإنفاق في سبيل الله ومضمار التسابق إلى الخيرات. يقول الله تعالى لأهل الجنة: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤] يعني: الدنيا[١].

القرآن

{أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)} [يونس : ٨]

التفسير:

أولئك مقرُّهم نار جهنم في الآخرة؛ جزاء بما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا.

---

[١] انظر: التوحيد للفوزان:٨٢-٨٦.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ} [يونس : ٨]، أي:" أولئك مقرُّهم نار جهنم في الآخرة"(١).

قال القرطبي:" أي: مثواهم ومقامهم"(٢).

قوله تعالى:{بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يونس : ٨]، أي:" جزاء بما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا"(٣).

قال القرطبي:" أي: من الكفر والتكذيب"(٤).

قال البيضاوي:أي:" بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي"(٥).

الفوائد:

١- أن النار مسكن الكفرة المشركين، لما كان الكفرة المشركون خالدين في النار فإن النار تعتبر بالنسبة لهم سكناً ومأوى، كما أن الجنة مسكن المؤمنين، {أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون} [يونس: ٨]، {ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين} [آل عمران: ١٥١] ، {أليس في جهنم مثوى للكافرين} [العنكبوت: ٦٨] . وهي مأواهم تتولى أمرهم {مأواكم النار هي مولاكم} [الحديد: ١٥]، وهي بئس المسكن والمثوى، {فحسبه جهنم ولبئس المهاد} [البقرة: ٢٠٦] ، {وإن للطاغين لشر مئاب*جهنم يصلونها فبئس المهاد} [ص: ٥٥-٥٦] .

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)} [يونس : ٩]

التفسير:

إن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات يدلهم ربهم إلى طريق الجنة ويوفقهم إلى العمل الموصل إليه؛ بسبب إيمانهم، ثم يثيبهم بدخول الجنة وإحلال رضوانه عليهم، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [يونس : ٩]، أي:" إن الذين صدَّقوا الله، ورسوله وعملوا بشرعه"(٦).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره:إن الذين صدقوا الله ورسوله"(٧) "{وعملوا الصالحات}، التي أمرهم الله عز وجل بها ، والتي نَدَبهم إليها"(٨).

و«الإيمان» في اللغة:" التصديق: قال تعالى عن إخوة يوسف قائلين لأبيهم: {وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين} [البقرة: ٢١٨]؛ وأما في الشرع: فهو التصديق المستلزم للقبول والإذعان"(٩).

---

(١) .التفسير الميسر:٢٠٩

(٢) تفسير القرطبي:٣١٢/٨.

(٣) .التفسير الميسر:٢٠٩

(٤) تفسير القرطبي:٣١٢/٨.

(٥) تفسير البيضاوي:١٠٦/٣.

(٦) التفسير الميسر:١٨٥.

(٧) تفسير الطبري:٧٧/١٤.

(٨) تفسير الطبري: ٢١/٦.

(٩) تفسير ابن عثيمين: ٦٢/٣.

قوله تعالى:{يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} [يونس : ٩]، أي:" الصالحات يدلهم ربهم إلى طريق الجنة ويوفقهم إلى العمل الموصل إليه؛ بسبب إيمانهم"[١].

قال الطبري:" يقول: يرشدهم ربهم بإيمانهم به إلى الجنة... وقال آخرون: معنى ذلك: بإيمانهم، يهديهم ربهم لدينه. يقول: بتصديقهم هَدَاهم"[٢].

عن مجاهد، قوله: "{يهديهم ربهم بإيمانهم}: يكون لهم نورا يمشون به"[٣].

عن قتادة :"يعني قوله: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم}، ثنا الحسن أن رسول الله ﷺ قال: إن المؤمن إذا خرج من قبره مثل له عمله في صورة حسنة، وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فو الله إني لأراك عين امرئ صدق فيقول أنا عملك فيكون له نورا قائدا إلى الجنة وأما الكافر إذا خرج من قبره مثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيقول ما أنت إني لأراك عين امرئ سوء فيقول: أنا عملك فينطلق حتى يدخله النار"[٤].

قوله تعالى:{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس : ٩]، أي:" ثم يثيبهم بدخول الجنة وإحلال رضوانه عليهم، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم"[٥].

عن أبي مالك قوله: "{تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم"[٦].

زيد بن الحباب قال: "سمعت أبا عبد الملك ... قال: قال رسول الله ﷺ: نعيم أهل الجنة برضوان الله عنهم أفضل من نعيمهم بها في الجنان"[٧].

قال الزمخشري:" فإن قلت: فلقد دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح. والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور.

قلت: الأمر كذلك. ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعا فيها بين الإيمان والعمل، كأنه قال: إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم، أى بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح، وهو بين واضح لا شبهة فيه"[٨].

الفوائد:

١- الإيمان والعمل الصالح مفتاح الجنة والطريق الهادي إليها.
٢- أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، وبهديه الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر.قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ}، وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [سورة التغابن: ١١].
٣- أن الإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية، ويربطه بمثل أعلى، وهو الله مصدر الخير، والبر، والكمال.

---

[١] .التفسير الميسر:٢٠٩
[٢] تفسير الطبري:٢٧/١٥-٢٨.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٣٦):ص١٩٢٩/٦.
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٣٧):ص١٩٢٩/٦.
[٥] .التفسير الميسر:٢٠٩
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٣٨):ص١٩٢٩/٦.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٣٩):ص١٩٢٩/٦.
[٨] الكشاف:٢/٢٣٠-٢٣١.

وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات، ويرتفع عن الشهوات، ويستكبر على لذائذ الدنيا، ويرى أن الخير والسعادة فى النزاهة والشرف، وتحقيق القيم الصالحة .. ومن ثم يتجه المرء اتجاها تلقائيا لخير نفسه، ولخير أمته، ولخير الناس جميعا.

وهذا هو السر فى اقتران العمل الصالح - بجميع شعبه وفروعه - بالإيمان، إذ أنه الأصل الذى تصدر عنه، وتتفرع منه.

١- {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم}

١- أن نعيم الجنة روحاني وجسماني.

القرآن

{دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)} [يونس : ١٠]

التفسير:

دعاؤهم في الجنة التسبيح (سبحانك اللهم) ، وتحية الله وملائكته لهم، وتحية بعضهم بعضًا في الجنة (سلام) ، وآخر دعائهم قولهم: «الحمد لله رب العالمين» أي: الشكر والثناء لله خالق المخلوقات ومربِّيها بنعمه.

قوله تعالى:{دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} [يونس : ١٠]، أي:" دعاؤهم في الجنة التسبيح «سبحانك اللهم»"[(١)].

قال الزمخشري:" {دعواهم} دعاؤهم، لأن «اللهم» نداء لله ومعناه: اللهم إنا نسبحك، كقول القانت في دعاء القنوت: اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد. ويجوز أن يراد بالدعاء: العبادة {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [مريم : ٤٨] على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة، إنما يلهمونه فينطقون به تلذذا بلا كلفة، كقوله تعالى: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً} [الأنفال : ٣٥]"[(٢)].

عن الربيع ابن أنس قال: "أهل الجنة إذا اشتهوا شيئا قالوا: سبحانك اللهم وبحمدك فإذا هو عندهم فذلك قوله: {دعواهم فيها سبحانك اللهم}"[(٣)].

عن قتادة، قوله: "{دعواهم فيها سبحانك اللهم}، يقول: ذلك قولهم فيها، {وتحيتهم فيها سلام}"[(٤)].

عن سفيان في قول الله عز وجل:"{ دعواهم فيها سبحانك اللهم}، قال: إذا أراد الرجل من أهل الجنة أن يدعوا قال: سبحانك اللهم فيأتيه الذي دعا به"[(٥)].

عن مقاتل بن حيان قال: "إن أهل الجنة إذا دعوا بالطعام قالوا: سبحانك اللهم، قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفة من ذهب، فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن أكلهن"[(٦)].

وفي معنى:«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ»، وجهان:

أحدهما: أن «سبحان الله»: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه. قاله الحسن[(١)].

[(١)] التفسير الميسر:٢٠٩.

[(٢)] الكشاف:٣٣١/٢.

[(٣)] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٤٠):ص١٩٢٩/٦-١٩٣٠.

[(٤)] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٤١):ص١٩٣٠/٦.

[(٥)]أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٤٣):ص١٩٣٠/٦ .

[(٦)] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٤٢):ص١٩٣٠/٦.

والثاني: أن «سبحان الله»: اسم يعظم الله به ونجانا به من السوء.قاله ميمون بن عثمان(٢).

قوله تعالى:{وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [يونس : ١٠]، أي:" وتحية الله وملائكته لهم، وتحية بعضهم بعضًا في الجنة :«سلام»"(٣).

قال الزمخشري:" معنى {وتحيتهم فيها سلام}، أن بعضهم يحيى بعضا بالسلام. وقيل: هي تحية الملائكة إياهم، إضافة للمصدر إلى المفعول. وقيل: تحية الله لهم"(٤).

قوله تعالى:{وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس : ١٠]، أي:" وآخر دعائهم قولهم: «الحمد لله رب العالمين» أي: الشكر والثناء لله خالق المخلوقات ومربِّيها بنعمه"(٥).

قال الزمخشري:أي:" وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا: {الحمد لله رب العالمين}"(٦).

روي عن ابن أبي المذيل :"«الحمد لله» أوله وآخره" (٧).

عن الفضل الرقاشي:" فقال: {تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين}، قال: فيتجلى لهم فيخرون له سجدا ويقولون: سبحانك اللهم وتحيتهم بالسلام فإذا انصرف عنهم قالوا الحمد لله رب العالمين"(٨).

وفي قوله تعالى:{وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس : ١٠]، وجوه:

أحدها: أن «الحمد لله» كلمة الشكر، فإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبدي. قاله ابن عباس (٩).

والثاني: أن« الحمد لله»: ثناء الله. قاله كعب(١٠).

والثالث: أن «الحمد»: رداء الرحمن، قاله الضحاك(١١).

وفي قوله تعالى:{ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس : ١٠]، وجوه:

أحدها: أن «العالمين»: ألف أمة، فستمائة في البحر وأربعمائة في البر. رواه مغيث بن شمس عن تبيع(١٢).

والثاني: أن «رب العالمين»: ما وصف من خلقه. قاله قتادة(١٣).

والثالث: أن «رب العالمين»: الجن والإنس، وهذا قول ابن عباس(١٤).

قال ابن ابي حاتم:" وروي عن علي بإسناد لا يعتمد عليه مثله وروي عن مجاهد مثله"(١٥).

الفوائد:

---

(١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٤٤):ص١٩٣٠/٦.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٤٥):ص١٩٣٠/٦.
(٣) التفسير الميسر:٢٠٩.
(٤) الكشاف:٣٣١/٢.
(٥) التفسير الميسر:٢٠٩.
(٦) الكشاف:٣٣١/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٤٧):ص١٩٣١/٦.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٤٦):ص١٩٣٠/٦.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٤٨):ص١٩٣١/٦.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٤٩):ص١٩٣١/٦.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٥٠):ص١٩٣١/٦.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٥٢):ص١٩٣١/٦.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٥٣):ص١٩٣١/٦.
(١٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٥٤):ص١٩٣١/٦.
(١٥) تفسير ابن ابي حاتم:١٩٣٢/٦.

١- أن نعيم الجنة حاصل ثلاث كلمات، هي: «سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين».
٢- أن السلام هو تحية المسلمين فيما بينهم في الدنيا فكذلك هو تحيتهم فيما بينهم في الدار الآخرة كما قال تعالى: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}.

وإذا علم فضل السلام وأنه تحية المسلمين في الدارين فليعلم أيضًا أنه لا أسفه رأيًا ممن رغب عن ذلك واستبدل عنه بإشارات الإفرنج وضربهم بالأرجل.

القرآن

{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)} [يونس : ١١]

التفسير:

ولو يعجِّل الله للناس إجابة دعائهم في الشر كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة لهلكوا، فنترك الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالبعث والنشور في تمرُّدهم وعتوِّهم، يترددون حائرين.

قوله تعالى:{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} [يونس : ١١]، أي:" ولو يعجِّل الله للناس إجابة دعائهم في الشر كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة لهلكوا وعُجِّل لهم الموت"[١].

قال الزمخشري:" أصله :ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير، فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير، إشعارا بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد أهل مكة. وقولهم: {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ} [الأنفال : ٣٢]، يعنى: ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لقضي إليهم أجلهم لأميتوا وأهلكوا"[٢].

قال البيضاوي:أي:" ولو يسرعه إليهم. {استعجالهم بالخير}، وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعارا بسرعة إجابته لهم في الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم، أو بأن المراد شر استعجلوه كقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء وتقدير الكلام: ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير، فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه. {لقضي إليهم أجلهم}، لأميتوا وأهلكوا"[٣].

عن مجاهد قوله: "{ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير}، قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه"[٤]، قوله "{لقضي إليهم أجلهم}: لأهلك من دعا دعا عليه ولأماته"[٥].

عن قتادة :"{ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير}، قال: هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له"[٦].

عن سعيد في قوله: "{ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير}، قال: هو الرجل يدعو على نفسه: اللهم اخزه اللهم افعل به كذا وكذا، فلو عجل الله لهم ذلك، كما يعجل الله لهم: اللهم ارزقني لقضي إليهم الأجل"[٧].

---

[١] انظر: التفسير الميسر:٢٠٩، وصفوة التفاسير:٥٣٥/١

[٢] الكشاف:٣٣٢/٢.

[٣] تفسير البيضاوي:١٠٦/٣.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٥٥):ص١٩٣٢/٦.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٥٨):ص١٩٣٢/٦.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٥٦):ص١٩٣٢/٦.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٥٧):ص١٩٣٢/٦.

وقرأ ابن عامر ويعقوب «لقضى» على البناء للفاعل، وهو الله تعالى، وقرئ «لقضينا»[1].

قوله تعالى:{فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [يونس : ١١]، أي:" فنترك الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالبعث والنشور في تمرُّدهم وعتوِّهم، يترددون حائرين"[2].

قال البيضاوي:أي:" فنذرهم إمهالا لهم واستدراجا"[3].

عن قتادة :"{الذين لا يرجون لقاءنا}، مشركي أهل مكة"[4].

عن أبي العالية في طغيانهم يعني: في ضلالهم، وقد تقدم القول فيه"[5].

قال الزمخشري:" فإن قلت، فكيف اتصل به قوله فنذر الذين لا يرجون لقاءنا وما معناه؟

قلت: قوله {ولو يعجل الله} متضمن معنى نفى التعجيل، كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم في طغيانهم أى فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم، إلزاما للحجة عليهم"[6].

الفوائد:

١- مظاهر رحمة الله بعباده إذ لو عجل لهم ما يطلبون من العذاب كما يعجل لهم الخير عندما يطلبونه لأهلكهم وقضى إليهم أجلهم فماتوا.
٢- يعصي الله العصاة ويكفر به الكافرون وبتركهم في باطلهم وشرهم فلا يعجل لهم العذاب لعلهم يرجعون.

القرآن

{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)} [يونس : ١٢]

التفسير:

وإذا أصاب الإنسانَ الشدةُ استغاث بنا في كشف ذلك عنه مضطجعًا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا، على حسب الحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرِّ به. فلما كشفنا عنه الشدة التي أصابته استمرَّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الشدة والبلاء، وترك الشكر لربه الذي فرَّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء، كما زُيِّن لهذا الإنسان استمراره على جحوده وعناده بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضر، زُيِّن للذين أسرفوا في الكذب على الله وعلى أنبيائه ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك به.

قوله تعالى:{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا} [يونس : ١٢]، أي:" وإذا أصاب الإنسانَ الشدةُ استغاث بنا في كشف ذلك عنه مضطجعًا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا، على حسب الحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرِّ به"[7].

عن قتادة قال: "إذا مسهم الضر: خلصوا لله الدعاء"[1].

---

[1] انظر: تفسير البيضاوي:١٠٦/٣.
[2] التفسير الميسر:٢٠٩.
[3] تفسير البيضاوي:١٠٦/٣.
[4] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٥٩):ص١٩٣٢/٦.
[5] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٦٠):ص١٩٣٢/٦.
[6] الكشاف:٣٣٢/٢.
[7] التفسير الميسر:٢٠٩.

قال الزمخشري:" فإن قلت: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟ قلت معناه أن المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها- إن كان منبطحا عاجز النهض[٢] متخاذل النوء[٣] أو كان قاعدا لا يقدر على القيام، أو كان قائما لا يطيق المشي والمضطرب- إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة[٤] بتمامها. ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالا وهو صاحب الفراش. ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود. ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء، لأن الإنسان للجنس"[٥].

قوله تعالى:{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ} [يونس : ١٢]، أي:" فلما كشفنا عنه الشدة التي أصابته استمرَّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الشدة والبلاء، وترك الشكر لربه الذي فرَّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء"[٦].

قال الزمخشري:" أى: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر، ونسى حال الجهد، أو مر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه، كأنه لا عهد له به كأن لم يدعنا، كأنه لم يدعنا"[٧].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [يونس : ١٢]، أي:" كما زُيّن لذلك الإنسان الدعاء عند الضرّ والإعراضُ عند الرخاءِ، كذلك زُيّن للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر، ومتابعة الشهوات"[٨].

قال الزمخشري:أي:" مثل ذلك التزيين زين للمسرفين زين الشيطان بوسوسته أو الله بخذلانه وتخليته ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات"[٩].

عن عباد ابن منصور، قال: "سألت الحسن عن قوله: {زين}، قال: زين لهم الشيطان"[١٠].

الفوائد:

١- بيان أن الإنسان الكافر يعرف الله عند الشدة ويدعوه ويضرع إليه فإذا نجاه عاد إلى الكفر به كأن لم يكن يعرفه.
٢- استمرار المشركين على إسرافهم في الكفر والشر والفساد مزين لهم١ حسب سنة الله تعالى. فمثلهم مثل الكافر يدعو عند الشدة وينسى عند الفرج.

القرآن
{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣)} [يونس : ١٣]
التفسير:

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٦١):ص١٩٣٣/٦.
[٢]قوله «عاجز النهض» نهض نهضا ونهوضا: قام.
[٣]قوله «متخاذل النوء» في الصحاح: ناء ينوء نوآ إذا نهض يجهد ومشقة.
[٤]قوله «والمسحة» في الصحاح: وعلى فلان مسحة من جمال.
[٥] الكشاف:٣٣٢/٢.
[٦] التفسير الميسر:٢٠٩.
[٧] الكشاف:٣٣٢/٢.
[٨] صفوة التفاسير:٥٣٥/١.
[٩] الكشاف:٣٣٢/٢.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٦٢):ص١٩٣٣/٦.

ولقد أهلكنا الأمم التي كذَّبت رسل الله من قبلكم -أيها المشركون بربهم- لمَّا أشركوا، وجاءتهم رسلهم من عند الله بالمعجزات الواضحات والحجج التي تبين صدق مَن جاء بها، فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها لتصدق رسلها وتنقاد لها، فاستحقوا الهلاك، ومثل ذلك الإهلاك نجزي كل مجرم متجاوز حدود الله.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [يونس : ١٣]، أي:" ولقد أهلكنا الأمم التي كذَّبت رسل الله من قبلكم -أيها المشركون بربهم- لمَّا أشركوا"[١].

قال القرطبي:" يعني: الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكناهم. {لما ظلموا}، أي: كفروا وأشركوا"[٢].

قال ابن زيد:" ما عذب قوم نوح حتى ما كان في الأرض سهل ولا جبل إلا وله عامر يعمره وحائز يحوزه"[٣].

عن زيد بن أسلم :"أن أهل السهل كان قد ضاق بهم وأهل الجبل حتى ما يقدروا أهل السهل أن يرتقوا إلى الجبل ولا أهل الجبل أن ينزلوا إلى أهل السهل في زمان نوح، قال حشوا"[٤].

قوله تعالى:{وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [يونس : ١٣]، أي:" وجاءتهم رسلهم من عند الله بالمعجزات الواضحات والحجج التي تبين صدق مَن جاء بها"[٥].

قال القرطبي:" أي: بالمعجزات الواضحات والبراهين النيرات"[٦].

عن مقاتل بن حيان، قوله: "{بالبينات}، يعني: بالبينات ما أنزل الله من الحلال والحرام"[٧].

قوله تعالى:{وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} [يونس : ١٣]، أي:" فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها لتصدق رسلها وتنقاد لها، فاستحقوا الهلاك"[٨].

قال القرطبي:" أي: أهلكنا هم لعلمنا أنهم لا يؤمنون. يخوف كفار مكة عذاب الأمم الماضية، أي نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا ﷺ، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم من يؤمن، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن. وهذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان. وقيل: معنى{ما كانوا ليؤمنوا}، أي: جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم، ويدل على هذا أنه قال:{كذلك نجزي القوم المجرمين}"[٩].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [يونس : ١٣]، أي:" ومثل ذلك الإهلاك نجزي كل مجرم متجاوز حدود الله"[١٠].

عن أبي مالك، قوله: "{كذلك}، يعني: هكذا"[١١].

الفوائد:

١- وعيد الله لأهل الإجرام بالعذاب العاجل أو الآجل إن لم يتوبوا.
٢- الحثّ على النظر والتأمل، والدراسة والاعتبار بمصير الأمم السابقة.

---

[١] صفوة التفاسير:١/٥٣٥.
[٢] تفسير القرطبي:٨/٣١٧.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٦٣):ص٦/١٩٣٣.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٦٤):ص٦/١٩٣٣.
[٥] صفوة التفاسير:١/٥٣٥.
[٦] تفسير القرطبي:٨/٣١٨.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٦٥):ص٦/١٩٣٣.
[٨] صفوة التفاسير:١/٥٣٥.
[٩] تفسير القرطبي:٨/٣١٨.
[١٠] صفوة التفاسير:١/٥٣٥.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٦٦):ص٦/١٩٣٣.

القرآن

{ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)} [يونس : ١٤]

التفسير:

ثم جعلناكم -أيها الناس- خَلَفًا في الأرض من بعد القرون المُهْلَكة، لننظر كيف تعملون: أخيرًا أم شرًا، فنجازيكم بذلك حسب عملكم.

قوله تعالى:{ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ} [يونس : ١٤]، أي:" ثم جعلناكم -أيها الناس- خَلَفًا في الأرض من بعد القرون المُهْلَكة"[١].

قال القرطبي:" أي جعلنا كم سكانا في الأرض، {من بعدهم}، أي: من بعد القرون المهلكة"[٢].

قال البغوي:" أي: خلفاء، {في الأرض من بعدهم} أي: من بعد القرون التي أهلكناهم"[٣].

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "قال عمر يقول الله تعالى: {ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون}، قال: فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل؟"[٤].

قوله تعالى:{لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس : ١٤]، أي:" لننظر كيف تعملون: أخيرًا أم شرًا، فنجازيكم بذلك حسب عملكم"[٥].

قال القرطبي:" {لننظر} نصب بلام كي، وقد تقدم نظائره وأمثاله، أي: ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب، ولم يزل يعلمه غيبا. وقيل: يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل. وقيل: النظر راجع إلى «الرسل»، أي: لينظر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم. و{كيف} نصب بقوله: {تعملون}: لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله"[٦].

قال البغوي:" وهو أعلم بهم. وروينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إن هذه الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون»[٧]"[٨].

تعملون»[٧]"[٨].

عن قتادة، في قول الله: "{ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون}، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا ما جعلنا خلائف الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا فأدوا الله خير أعمالكم بالليل والنهار والسر والعلانية"[٩].

الفوائد:

١- كل الناس أفرادا وأمما ممهلون مراقبون في أعمالهم وسلوكهم ومجزيون بأعمالهم خيرها وشرها لا محالة.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى لا يخلفه شيء أصلاً، لأن الخليفة لا يصير خليفة إلا مع مغيب المستخلف أو موته. ولهذا لا يصلح أن يقال: إن الله يستخلف أحدًا عنه؛

---

[١] صفوة التفاسير:٥٣٥/١.

[٢] تفسير القرطبي:٣١٨/٨.

[٣] تفسيرالبغوي:١٢٥/٤.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٦٧):ص١٩٣٤/٦.

[٥] صفوة التفاسير:٥٣٥/١.

[٦] تفسير القرطبي:٣١٨/٨.

[٧]أخرجه مسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ... برقم (٢٧٤٢) : ٤ / ٢٠٩٨، والمصنف في شرح السنة: ٩ / ١٢.

[٨] تفسيرالبغوي:١٢٥/٤.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٦٨):ص١٩٣٤/٦.

فإنه حي قيوم، مدبر لعباده، منزه عن الموت والنوم والغيبة. والله يوصف بأنه يخلف العبد، كما قال النبي - ﷺ -: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»[١] .
وقال في حديث الدجال: «والله خليفتي على كل مسلم»[٢] . وكل من وصفه الله بالخلافة بالخلافة في القرآن فهو خليفة عن مخلوق كان قبله
وإنما معنى كون آدم وداود والآدميين خلائف أنهم يخلفون غيرهم من المخلوقات لا أنهم يخلفون الخالق كما قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} [النور: ٥٥]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ (١٤)} [يونس: ١٣ - ١٤]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى في قصة نوح: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ} [يونس: ٧٣]، وقال تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى في خطاب هود لقومه: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [الأعراف: ٦٩]، وفي خطاب صالح قومه: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ} [الأعراف: ٧٤]، وقال في خطاب موسى لقومه: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٢٩].

القرآن

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)} [يونس : ١٥]

التفسير:

وإذا تتلى على المشركين آيات الله التي أنزلناها إليك -أيها الرسول- واضحات، قال الذين لا يخافون الحساب، ولا يرجون الثواب، ولا يؤمنون بيوم البعث والنشور: ائت بقرآن غير هذا، أو بدِّل هذا القرآن: بأن تجعل الحلال حرامًا، والحرام حلالا والوعد وعيدًا، والوعيد وعدًا، وأن تُسْقط ما فيه مِن عيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا، قل لهم -أيها الرسول-: إن ذلك ليس إليَّ، وإنما أتبع في كل ما آمركم به وأنهاكم عنه ما ينزله عليَّ ربي ويأمرني به، إني أخشى من الله -إن خالفت أمره- عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة.

قوله تعالى:{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} [يونس : ١٥]، أي:" وإذا تتلى على المشركين آيات الله التي أنزلناها إليك -أيها الرسول- واضحات"[٣].

قوله تعالى:{قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} [يونس : ١٥]، أي:" قال الذين لا يخافون الحساب، ولا يرجون الثواب، ولا يؤمنون بيوم البعث والنشور: ائت

---

[١] الترمذي ٥/ ١٦١.
[٢] صحيح مسلم (ك ٥١/ ب ٥٧، جـ ٢/ ٩٧٨) والترمذي (٥/ ١٦١) والمسند (٢/ ٤٣٣).
[٣] التفسير الميسر: ٢١٠.

بقرآن غير هذا، أو بدِّل هذا القرآن: بأن تجعل الحلال حرامًا، والحرام حلالا والوعد وعيدًا، والوعيد وعدًا، وأن تُسْقط ما فيه مِن عيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا"[١].

قوله تعالى:{قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي} [يونس : ١٥]، أي:" قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغيرّ أو أبدّل شيئاً من قبل نفسي"[٢].

عن قتادة :"{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات}، إلى قوله: {من تلقاء نفسي}، هذا قول مشركي مكة لنبي الله ﷺ"[٣].

قوله تعالى:{إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [يونس : ١٥]، أي:" وإنما أتبع في كل ما آمركم به وأنهاكم عنه ما ينزله عليَّ ربي ويأمرني به"[٤].

قوله تعالى:{إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس : ١٥]، أي:" إني أخشى من الله -إن خالفت أمره- عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة"[٥].

الفوائد:

١- أنه من الدعوة إلى الله تعالى تلاوة آياته القرآنية على الناس تذكيرا وتعليما.
٢- بيان ما كان عليه المشركون من تعنت وجحود ومكابرة.

القرآن

{قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)} [يونس : ١٦]

التفسير:

قل لهم -أيها الرسول-: لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، ولا أعلمكم الله به، فاعلموا أنه الحق من الله، فإنكم تعلمون أنني مكثت فيكم زمنًا طويلا من قبل أن يوحيه إليَّ ربي، ومن قبل أن أتلوه عليكم، أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر؟

قوله تعالى:{قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ} [يونس : ١٦]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، ولا أعلمكم الله به، فاعلموا أنه الحق من الله"[٦].

قال البغوي:" يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن علي. {ولا أدراكم به} أي: ولا أعلمكم الله"[٧].

عن قتادة قال: "ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ: {لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به}"[٨].

وفي قوله تعالى:{ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ} [يونس : ١٦]، وجوه:

أحدها: معناه: ولا أعلمكم به. قاله ابن عباس[٩].

والثاني: ولا أشعركم به. قاله قتادة[١٠].

والثالث: يعني: ولا أنذركم به. قاله شهر بن حوشب[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٠.
[٢] صفوة التفاسير:٥٣٦/١.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٦٩):ص١٩٣٤/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢١٠.
[٥] التفسير الميسر:٢١٠.
[٦] التفسير الميسر:٢١٠.
[٧] تفسير البغوي:١٢٥/٤.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٧١):ص١٩٣٤/٦.
[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٧٢):ص١٩٣٤/٦.
[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٧٣):ص١٩٣٤/٦.

قرأ البزي عن ابن كثير: «ولأدراكم به»، بالقصر به على الإيجاب، يريد: ولا علمكم به من غير قراءتي عليكم. وقرأ ابن عباس: «ولا أنذرتكم به»، من الإنذار[٢].

قوله تعالى:{فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ} [يونس : ١٦]، أي:" فإنكم تعلمون أنني مكثت فيكم زمنًا طويلا من قبل أن يوحيه إليَّ ربي، ومن قبل أن أتلوه عليكم"[٣].

قال البغوي:أي:" حينا وهو أربعون سنة، {من قبله} من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء"[٤].

قال الصابوني:" أي: فقد مكثتُ بين أظهركم زمنا طويلاً، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم"[٥].

عن السدي، قوله: "{لبثت فيكم عمرا من قبله}، قال: لم أتلوا عليكم، ولم أذكره {أفلا تعقلون}؟"[٦].

عن قتادة، قوله: "{فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون}، قال: لبث أربعين سنة ضالا ورأى رؤيا النبوة سنتين وأوحي إليه عشر سنين بمكة وعشر سنين بالمدينة وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة ﷺ"[٧].

قال الفخر:" أن القوم إنما التمسوا منه ذلك الالتماس، لأجل أنهم اتهموه بأنه هو الذي يأتي بهذا الكتاب من عند نفسه، على سبيل الاختلاق والافتعال، لا على سبيل كونه وحيا من عند الله فلهذا المعنى احتج النبي عليه الصلاة والسلام على فساد هذا الوهم بما ذكره الله تعالى في هذه الآية وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتابا ولا تلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء، وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي والإلهام من الله تعالى، فقوله: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به حكم منه عليه الصلاة والسلام بأن هذا القرآن وحي من عند الله تعالى، لا من اختلافي ولا من افتعالي، قوله: {فقد لبثت فيكم عمرا من قبله}، إشارة إلى الدليل الذي قررناه "[٨].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يونس : ١٦]، أي:" أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر؟"[٩].

قال البغوي:أي:" أنه ليس من قبلي، ولبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. وروى أنس: أنه أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ستين سنة[١٠]. والأول أشهر وأظهر "[١].

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٧٤):ص١٩٣٤/٦.
[٢] انظر: تفسير البغوي:١٢٥/٤-١٢٦.
[٣] التفسير الميسر:٢١٠.
[٤]تفسير البغوي:١٢٦/٤ .
[٥] صفوة التفاسير:٥٣٦/١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٧٦):ص١٩٣٥/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٧٥):ص١٩٣٥/٦.
[٨] مفاتيح الغيب:٢٢٥/١٧-٢٢٦.
[٩] التفسير الميسر:٢١٠.
[١٠]أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٣ / ٥٤، ١٤ / ٢٩١، وابن سعد في الطبقات: ٢ / ٣٠٨، وعبد الرزاق: ٣ / ٥٩٩. وانظر: الدر المنثور: ٤ / ٣٤٨-٣٤٩، كنز العمال: رقم (٤٧٥٠).

قال الفخر:" يعني: أن مثل هذا الكتاب العظيم إذا جاء على يد من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة، يعلم بالضرورة أنه لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل وإنكار العلوم الضرورية يقدح في صحة العقل، فلهذا السبب قال: {أفلا تعقلون}"[٢].

الفوائد:

١- كون النبي ﷺ عاش أربعين سنة لم يعرف فيها علما ولا معرفة ثم برز في شيء من العلوم والمعارف فتفوق وفاق كل أحد دليل على أنه نبي يوحى إليه قطعا.
٢- تدل الآية الكريمة على أن الله عزوجل له المشيئة النافذة في خلقه فكل صلاح وخير وطاعة وإيمان وقعت في هذه الحياة إنما وقعت بمشيئته جل وعلا ولو شاء لم تقع قال تعالى: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ}.
وكل فساد وانحراف ومعصية وكفر وقع في هذه الحياة إنما وقع بمشيئة الله عزوجل ولو شاء لم يقع قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}[البقرة:٢٥٣]، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ}[الأنعام:١١٢]، {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}[الأنعام:١٤٩] {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}[السجدة:١٣].
ويعتقد السلف أن الله عزوجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله.

القرآن
{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)} [يونس : ١٧]
التفسير:
لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق على الله الكذب أو كذَّب بآياته، إنه لا ينجح مَن كذَّب أنبياء الله ورسله، ولا ينالون الفلاح.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: عن عكرمة قال: "قال النضر وهو من بني عبد الدار: وإذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله عز وجل: {فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون}"[٣].

والثاني: عن معاذ بن رفاعة قال: "سمعت أبا خلف الأعمى، قال: كان ابن أبي سرح يكتب للنبي ﷺ الوحي، فأتى أهل مكة فقالوا: يا ابن أبي سرح كيف كتبت لابن أبي كبشة القرآن؟ قال: كنت أكتب كيف شئت، فأنزل الله تعالى :{ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون}"[٤].

قوله تعالى:{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} [يونس : ١٧]، أي:" لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق على الله الكذب أو كذَّب بآياته"[٥].

---

[١]تفسير البغوي:١٢٦/٤ .
[٢] مفاتيح الغيب:٢٢٥/١٧-٢٢٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٧٧):ص١٩٣٥/٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٧٨):ص١٩٣٥/٦.
[٥] التفسير الميسر:٢١٠.

قال الصابوني:" استفهام انكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد {أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} أي كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل"[١].

قوله تعالى:{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس : ١٧]، أي:" إنه لا ينجح مَن كذَّب أنبياء الله ورسله، ولا ينالون الفلاح"[٢].

الفوائد:

١- لا أحد أظلم من أحد رجلين رجل يكذب على الله تعالى وآخر يكذب الله تعالى.
٢- إبطال دعوى المشركين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله يوم القيامة.

القرآن

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)} [يونس : ١٨]

التفسير:

ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله ما لا يضرهم شيئًا، ولا ينفعهم في الدنيا والآخرة، ويقولون: إنما نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله، قل لهم -أيها الرسول-: أتخبرون الله تعالى بشيء لا يعلمه مِن أمر هؤلاء الشفعاء في السموات أو في الأرض؟ فإنه لو كان فيهما شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم، فالله تعالى منزَّه عما يفعله هؤلاء المشركون من إشراكهم في عبادته ما لا يضر ولا ينفع.

قوله تعالى:{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} [يونس : ١٨]، أي:" ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله ما لا يضرهم شيئًا، ولا ينفعهم في الدنيا والآخرة"[٣].

عن مجاهد قال: "الأوثان"[٤].

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس : ١٨]، أي:" ويقولون: إنما نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله"[٥].

عن عكرمة قال: "قال النضر بن الحارث، إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى قال فأنزل الله: {ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله}"[٦].

قوله تعالى:{قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [يونس : ١٨]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: أتخبرون الله تعالى بشيء لا يعلمه مِن أمر هؤلاء الشفعاء في السموات أو في الأرض؟ فإنه لو كان فيهما شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم"[٧].

عن السدي: قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض} أن له شريكا أم بظاهر من القول تقولونه أم تجدونه في القرآن أن له شريكا"[٨].

قوله تعالى:{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس : ١٨]، أي:" فالله تعالى منزَّه عما يفعله هؤلاء المشركون من إشراكهم في عبادته ما لا يضر ولا ينفع"[١].

---

[١] صفوة التفاسير:١/٥٣٦.
[٢] التفسير الميسر:٢١٠.
[٣] التفسير الميسر:٢١٠.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٧٩):ص٦/١٩٣٦.
[٥] التفسير الميسر:٢١٠.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٠):ص٦/١٩٣٦.
[٧] التفسير الميسر:٢١٠.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨١):ص٦/١٩٣٦.

عن السدي :{وتعالى عما يشركون}، يقول: عما أشرك المشركون"[٢].

عن مجاهد: {وتعالى عما يشركون}، قال: هو الانكفاف انكف نفسه يقول: عظم نفسه وأنكفته الملائكة وما سبح له"[٣].

عن أبي مالك: "{وتعالى عما يشركون}، قال: هذه لقوم محمد ﷺ"[٤].

الفوائد:

١- بيان سبب عبادة المشركين لآلهتهم وهو رجاؤهم شفاعتها لهم.
٢- أن الكفار يقرّون بأنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمور إلا هو كله لله وحده لا شريك له، وأنهم إنما اعتقدوا في آلهتهم لطلب الشفاعة والتقرب إلى الله.
٣- أنه تعالى جعل اتخاذهم للشفعاء شركا، ونزه نفسه عنه؛ لأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكيف يثبتون شفعاء لهم لم يأذن الله لهم في شفاعة، ولا هم أهل لها، ولا يغنون عنهم من الله شيئا؟!
٤- أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، والمعنى أن من أقر بالربوبية يلزمه أن يقر بالألوهية، وأن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، والمعنى أن من عبد الله وحده فهو مقر بأن الله هو الخالق وحده المحيي المميت وحده.

القرآن
{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)} [يونس : ١٩]
التفسير:
كان الناس على دين واحد وهو الإسلام، ثم اختلفوا بعد ذلك، فكفر بعضهم، وثبت بعضهم على الحق. ولولا كلمة سبقت من الله بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقُضِيَ بينهم: بأن يُهْلك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق.

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} [يونس : ١٩]، أي:" كان الناس على دين واحد وهو الإسلام، ثم اختلفوا بعد ذلك، فكفر بعضهم، وثبت بعضهم على الحق"[٥].
قال البغوي:" أي: على الإسلام... {فاختلفوا} وتفرقوا إلى مؤمن وكافر"[٦].

قال الزمخشري:" {وما كان الناس إلا أمة واحدة}، حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل. وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا"[٧].

عن مجاهد:"{كان الناس أمة} قال: آدم"[٨]. وروي عن الثوري نحو ذلك[٩].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٠.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٢):ص١٩٣٦/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٣):ص١٩٣٦/٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٤):ص١٩٣٦/٦.
[٥] التفسير الميسر:٢١٠.
[٦] تفسير البغوي:١٢٦/٤.
[٧] الكشاف:٣٣٦/٢.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٥):ص١٩٣٦/٦.
[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٣٦/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.

وعن مجاهد-أيضا- قوله: "{وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا}، حين قتل أحد ابني آدم أخاه"[١].

عن أبي بن كعب في قول الله: "{فاختلفوا}، قال: اختلفوا من بعد آدم"[٢].

عن قتادة: "{فاختلفوا} فيه قال: ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق ثم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله نوحا وكان أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض وبعث عند الاختلاف من الناس وترك الحق، فبعث الله رسله وأنزل كتابه ليحتج به على خلقه"[٣].

قوله تعالى:{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس : ١٩]، أي:" ولولا كلمة سبقت من الله بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقُضِيَ بينهم: بأن يُهْلك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق"[٤].

قال الزمخشري:" { ولولا كلمة سبقت من ربك}، وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة، {لقضي بينهم} عاجلا فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، و{سبق} كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب"[٥].

عن السدي، قوله: "{ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم}، يقول: كان الناس أهل دين واحد، على دين آدم فكفروا فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضي بينهم"[٦].

قال البغوي:" بأن جعل لكل أمة أجلا، {لقضي بينهم} بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلا بينهم، {فيما فيه يختلفون}"[٧].

وقال الحسن: "{ولولا كلمة سبقت من ربك}، مضت في حكمه أنه: لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة"[٨].

وقال الكلبي: "هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا"[٩].

الفوائد:

١- أن الأصل هو التوحيد، والشرك طارىء.
٢- الشر والشرك هما اللذان يحدثان الخلاف في الأمة والتفرق فيها أما التوحيد والخير فلا يترتب عليهما خلاف ولا حرب ولا فرقة.
٣- - بيان علة بقاء أهل الظلم والشرك يظلمون ويفسدون إلى آجالهم.

القرآن

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٧):ص١٩٣٧/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٦):ص١٩٣٧/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٧):ص١٩٣٧/٦. هكذا مرقم بالمطبوع!
[٤] التفسير الميسر:٢١٠.
[٥] الكشاف:٣٣٦/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٨):ص١٩٣٧/٦.
[٧] تفسير البغوي:١٢٦/٤-١٢٧.
[٨] تفسير البغوي:١٢٧/٤.
[٩] تفسير البغوي:١٢٦/٤-١٢٧.

{وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)} [يونس : ٢٠]

التفسير:

ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلاَّ أُنزل على محمد علم ودليل، وآية حسية من ربه نعلم بها أنه على حق فيما يقول، فقل لهم -أيها الرسول-: لا يعلم الغيب أحد إلا الله، فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، فانتظروا -أيها القوم- قضاء الله بيننا وبينكم بتعجيل عقوبته للمبطل منا، ونصرة صاحب الحق، إني منتظر ذلك.

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [يونس : ٢٠]، أي:" ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلاَّ أُنزل على محمد علم ودليل، وآية حسية من ربه نعلم بها أنه على حق فيما يقول"[١].

قال البغوي:" يعني: أهل مكة، {لولا أنزل عليه} أي: على محمد ﷺ {آية من ربه} على ما نقترحه"[٢].

قوله تعالى:{فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ} [يونس : ٢٠]، أي:" فقل لهم -أيها الرسول-: لا يعلم الغيب أحد إلا الله، فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل"[٣].

قال البغوي:" يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لم لم يفعل ذلك ولا يعلمه إلا هو"[٤].

قال الصابوني:أي:" قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مبلّغ"[٥].

قوله تعالى:{فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} [يونس : ٢٠]، أي:" فانتظروا -أيها القوم- قضاء الله بيننا وبينكم بتعجيل عقوبته للمبطل منا، ونصرة صاحب الحق، إني منتظر ذلك"[٦].

قال البغوي:أي:"{فانتظروا} نزولها، {إني معكم من المنتظرين}، وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحق على المبطل"[٧].

عن الربيع، في قوله: "{فانتظروا إني معكم من المنتظرين}، قال: خوفهم عذابه وعقوبته ونقمته"[٨].

الفوائد:

١- أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، فلا أحد يعلم الغيب إلا الله، ومن علمه الله شيئا منه وهذا خاص بالرسل لإقامة الحجة على أممهم.
والغيب: هو "ما غاب عن العيون - وإن كان محصلا في القلوب –"[٩].

٢- أن الغيب الذي اختص به الله تعالى هو الغيب الذاتي؛ أي: الذي لا يعلمه أحد بذاته دون واسطة إلا الله تعالى[١٠]، فهو سبحانه الذي يهيئ من الأسباب القدرية أو الشرعية ما

---

[١] التفسير الميسر:٢١٠.
[٢] تفسير البغوي:١٢٧/٤.
[٣] التفسير الميسر:٢١٠.
[٤] تفسير البغوي:١٢٧/٤.
[٥] صفوة التفاسير:٥٣٧/١.
[٦] التفسير الميسر:٢١٠.
[٧] تفسير البغوي:١٢٧/٤.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٨٩):ص١٩٣٧/٦.
[٩] قاله ابن الأعرابي؛ كما في لسان العرب :٦٥٤/ ١.
[١٠]قاله الشيخ الألباني رحمه الله في أشرطة فتاوى سلسلة الهدى والنور (ش ٤٢٦).

يمكن المخلوق من الاطلاع على شيء من الغيب، وله سبحانه في ذلك الحكمة البالغة[١].

القرآن

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)} [يونس : ٢١]

التفسير:

وإذا أذقنا المشركين يسرًا وفرجًا ورخاءً بعد عسر وشدة وكرب أصابهم، إذا هم يكذِّبون، ويستهزئون بآيات الله، قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله أسرع مكرًا واستدراجًا وعقوبة لكم. إن حَفَظَتَنا الذين نرسلهم إليكم يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا، ثم نحاسبكم على ذلك.

قوله تعالى:{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ} [يونس : ٢١]، أي:" وإذا أذقنا المشركين يسرًا وفرجًا ورخاءً بعد عسر وشدة وكرب أصابهم"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإذا رزقنا المشركين بالله فرجًا بعد كرب، ورخاء بعد شدّة أصابتهم"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ} [يونس : ٢١]، أربعة أوجه:

أحدها : رخاء بعد شدة[٤].

الثاني : عافية بعد سقم[٥].

الثالث : خصباً بعد جدب ، وهذا قول الضحاك[٦].

الرابع : إسلاماً بعد كفر وهو المنافق ، وهذا معنى قول الحسن[٧].

عن الحسن:" {وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم}. قال: ذاك المنافق"[١].

---

[١]فالقدرية منها: هو ما جرت به العادة؛ كبعض المخترعات الحديثة التي قدر الله المخلوق على صنعها؛ كالهاتف الخلوي (لعلم الحاضر)، والتصوير الشعاعي (لعلم المستقبل) والتحليل المخبري للمستحاثات وغيرها (لعلم الماضي)، وكتمكينه تعالى للجن من استراق السمع وإخبارهم أوليائهم من الكهان.

وأيضا الرؤيا في المنام هي من الله تعالى، وقد جاء في الحديث الوعيد على من أرى نفسه ما لم يرى، والحديث هو (من تحلم بحلم لم يره؛ كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل). البخاري (٧٠٤٢) من حديث ابن عباس مرفوعا.

وأما الشرعية منها فتكون وفق ما دلت عليه النصوص، فعلم بها أن الجنة والنار موجودتان (لعلم الحاضر)، ومراحل تكون الجنين (لعلم الحاضر أيضا)، ويوم القيامة وما سيكون فيه (لعلم المستقبل)، وقصة مريم عليها السلام فيما مضى من الزمان (لعلم الماضي).

[٢] التفسير الميسر:٢١١.

[٣] تفسير الطبري:٤٩/١٥.

[٤] انظر: النكت والعيون:٤٢٩/٢.

[٥] انظر: النكت والعيون:٤٢٩/٢.

[٦] انظر: النكت والعيون:٤٢٩/٢.

[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٩٠):ص١٩٣٧/٦، والنكت والعيون:٤٢٩/٢.

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ونحو ذلك"[٢].

قوله تعالى:{إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} [يونس : ٢١]، أي:" إذا هم يكذِّبون، ويستهزئون بآيات الله"[٣].

وفي قوله تعالى:{ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} [يونس : ٢١]، ثلاثة وجوه:
أحدها : أن المكر ها هنا الكفر والجحود ، قاله ابن بحر[٤].
الثاني : أنه الاستهزاء والتكذيب ، قاله مجاهد[٥].
والثالث: أن المكر -ها هنا- النفاق لأنه يظهر الإيمان ويبطن الكفر. أفاده الماوردي[٦].
وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء - مطر - أصابهم من الليل ثم قال : "هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال : "قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب"[٧].

قوله تعالى:{قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} [يونس : ٢١]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله أسرع مكرًا واستدراجًا وعقوبة لكم"[٨].
قال الماوردي:" يعني: أسرع جزاء على المكر"[٩].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {قل} لهؤلاء المشركين المستهزئين من حججنا وأدلتنا، يا محمد {الله أسرع مكرًا}، أي: أسرع مِحَالا بكم، واستدراجًا لكم وعقوبةً، منكم، من المكر في آيات الله"[١٠].
قال ابن كثير:" : أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب ، وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه ، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه ، ثم يعرضون على عالم الغيب والشهادة ، فيجازيه على الحقير والجليل والنقير والقِطْمير"[١١].

قوله تعالى:{إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} [يونس : ٢١]، أي:" إن حَفَظَتَنا الذين نرسلهم إليكم يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا، ثم نحاسبكم على ذلك"[١٢].
قال الطبري:" يقول: إن حفظتنا الذين نرسلهم إليكم، أيها الناس، يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا"[١٣].
عن سفيان، قال: "كل «مكر» في القرآن فهو عمل"[١٤].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٩٠):ص١٩٣٧/٦.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٥٩/٤.
[٣] التفسير الميسر:٢١١.
[٤] انظر: النكت والعيون:٤٣٠/٢.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٥٩٢):ص٤٩/١٥.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤٣٠/٢.
[٧] صحيح البخاري برقم (٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (٧١).
[٨] التفسير الميسر:٢١١.
[٩] النكت والعيون:٤٣٠/٢.
[١٠] تفسير الطبري:٤٩/١٥.
[١١] تفسير ابن كثير:٢٥٩/٤-٢٦٠.
[١٢] التفسير الميسر:٢١١.
[١٣] تفسير الطبري:٥٠/١٥.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٩٣):ص١٩٣٨/٦.

الفوائد:

١- من مكر مكر الله به والله أسرع مكرا وأكبر أثرا وضررا.
٢- أن الرب هو النافع الضار.
٣- ليست كل صفة من صفات الله تعالى تشتق منها أسماء له سبحانه: فمن الأمور الخطيرة التي يجب أن ننتبه إليها أنه: ليست كل صفة لله تعالى يمكن أن نشتق منها اسما له سبحانه، ذلك لأن أسماء الله تعالى - كما سبق أن أسلفت - توقيفية يجب أن نقف عند ما ورد بها النص في الكتاب والسنة، ولا نزيد عليها باجتهاداتنا، لأن ذلك أمرَ من الغيب الذي لا مدخل لنا إليه، وبيان ذلك أن الله تعالى يقول: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُم} [النساء : ١٤٢] ويقول: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران : ٥٤]، ويقول: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال : ٣٠]، ويقول: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرا} [يونس : ٢١]، ويقول: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل : ٥٠]، ويقول: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [يوسف :٧٦]، ويقول: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً} (الطارق ١٥، ١٦]..الخ من الآيات.
٤- ثبوت إحصاء الكرام الكاتبين لكل ما يصدر عن العبد، قال تعالى:{ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}.

القرآن

{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)} [يونس : ٢٢]

التفسير:

هو الذي يسيّركم -أيها الناس- في البر على الدواب وغيرها، وفي البحر في السُّفُن، حتى إذا كنتم فيها وجرت بريح طيبة، وفرح ركاب السفن بالريح الطيبة، جاءت هذه السفنَ ريحٌ شديدة، وجاء الركابَ الموجُ (وهو ما ارتفع من الماء) من كل مكان، وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، أخلصوا الدعاء لله وحده، وتركوا ما كانوا يعبدون، وقالوا: لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نحن فيها لنكونن من الشاكرين لك على نِعَمك.

قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [يونس : ٢٢]، أي:" هو الذي يسيّركم -أيها الناس- في البر على الدواب وغيرها، وفي البحر في السُّفُن"(١).

قال ابن كثير:" أي : يحفظكم ويكلؤكم بحراسته"(٢).

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [يونس : ٢٢]، أي:" حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن، وجرين بهم بالريح الليّنة الطرية التي تسيَّر السفن"(٣).

قوله تعالى:{وَفَرِحُوا بِهَا} [يونس : ٢٢]، أي:" وفرح الركاب بتلك الريح الطيبة"(٤).

قال ابن كثير:" أي : بسرعة سيرهم رافقين"(٥).

---

(١) التفسير الميسر:٢١١.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.
(٣) صفوة التفاسير:٥٤٠/١.
(٤) صفوة التفاسير:٥٤٠/١.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.

قوله تعالى:{جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ} [يونس : ٢٢]، أي:" وفجأةً جاءتها الريح الشديدة العاصفة المدمّرة"[١].

قال ابن كثير:" فبينما هم كذلك إذ { جَاءَتْهَا }، أي : تلك السفن { رِيحٌ عَاصِفٌ } أي : شديدة"[٢].

عن عبد الله بن شداد بن المناد قال :"الريح من روح الله. فإذا رأيتموها فاسألوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها"[٣].

قوله تعالى:{وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [يونس : ٢٢]، أي:" وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة"[٤].

قال ابن كثير:" أي : اغتلم البحر عليهم "[٥].

قوله تعالى:{وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} [يونس : ٢٢]، أي:" وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم"[٦].

قال ابن كثير:" أي : هلكوا"[٧].

عن مجاهد قال: "ما كان من «ظن» في القرآن فهو يقين"[٨].

قوله تعالى:{دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [يونس : ٢٢]، أي:" أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون"[٩].

قال ابن كثير:" أي : لا يدعون معه صنما ولا وثنا ، بل يفردونه بالدعاء والابتهال ، كما قال تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنْسَانُ كَفُورًا } [الإسراء : ٦٧]"[١٠].

قال القرطبي:" أي: دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون، وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه، وإن كان كافرا، لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب... وقال بعض المفسرين: إنهم قالوا في دعائهم :«أهيا شراهيا»، أي: يا حي يا قيوم. وهي لغة العجم"[١١].

عن قتادة :"{دعوا الله مخلصين له الدين}، قال: إذا مسهم الضر في البحر أخلصوا لله الدعاء"[١٢].

عن أبي عبيدة في قوله: "{مخلصين له الدين}، قال: هنا[١٣] شراها، تفسيره: يا حي يا قيوم"[١٤].

عن سعيد بن جبير:"{مخلصين له الدين}، قال: إذا قلت لا إله إلا الله فقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين"[١].

---

[١] صفوة التفاسير:١/٥٤٠.
[٢] تفسير ابن كثير:٤/٢٦٠.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٩٦):ص٦/١٩٣٨.
[٤] صفوة التفاسير:١/٥٤٠.
[٥] تفسير ابن كثير:٤/٢٦٠.
[٦] التفسير الميسر:٢١١.
[٧] تفسير ابن كثير:٤/٢٦٠.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٩٧):ص٦/١٩٣٨.
[٩] التفسير الميسر:٢١١.
[١٠] تفسير ابن كثير:٤/٢٦٠.
[١١] تفسير القرطبي:٨/٣٢٥.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٩٩):ص٦/١٩٣٩.
[١٣] هكذا في المطبوع!، والمشهور: «أهيا».
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٩٨):ص٦/١٩٣٩.

عن ابن عباس قال: "الإخلاص هكذا، وأشار أبو خالد بإصبعه السبابة"[٢].

قال أبو حيان:" معنى «الإخلاص»: إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام ولا غيرها، قال معناه: ابن عباس وابن زيد. وقال الحسن: مخلصين لا إخلاص إيمان، لكن لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله، فيكون ذلك جاريا مجرى الإيمان الاضطراري انتهى. والاعتراف بالله مركوز في طبائع العالم، وهم مجبولون على أنه المتصرف في الأشياء، ولذلك إذا حقت الحقائق رجعوا إليه كلهم مؤمنهم وكافرهم"[٣].

قال الالوسي:" وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً لأنهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين، وأياً ما كان فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال.

وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم في بر أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع ولا يرى ولا يسمع، فمنهم من يدعو الخضر وإلياس، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشائخ الأمة، ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه بتضرعه ودعاه، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، فبالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلاً، وأي الداعيين أقوم قيلاً، وإلى الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضلالة، وخرقت سفينة الشريعة، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة، وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف، ومالت دون النهي عن المنكر صنوف الحتوف"[٤].

قوله تعالى:{لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس : ٢٢]، أي:" لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك، والعاملين بطاعتك ومرضاتك"[٥].

قال ابن كثير:" أي : لا نشرك بك أحدا ، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا "[٦].

عن ابن عباس قال:" إذا ضل الرجل الطريق دعا الله مخلصا لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين"[٧].

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟

قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح"[٨].

الفوائد:

١- بيان ضعف الإنسان وفقره إلى الله وحاجته إليه عز وجل في حفظ حياته وبقائه إلى أجله.

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٠):ص١٩٣٩/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠١):ص١٩٣٩/٦.
[٣] البحر المحيط:٣٤/٦.
[٤] غاية الأماني في الرد على النبهاني:٣٨٢/٢-٣٨٣.
[٥]التفسير الميسر:٢١١.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٢):ص١٩٣٩/٦.
[٨] الكشاف:٣٣٨/٢.

٢- إخلاص العبد الدعاء في حال الشدة آية أن التوحيد أصل والشرك طارىء.
٣- يدل على خلق الأفعال قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، وقوله «يسيّر» على وزن «يقلِّب» الليل والنهار، وهو خلقه لاختلاف الليل والنهار فتكون يسير أي يخلق السير فيهم، والقدرية لا يقولون إن الله أنطق الخلق ولا أنه سيرهم بل هم الخالقون لنطقهم وسيرهم، وهذا رد منهم للقرآن الذي ختم الله على قلوبهم وجعل عليها أكنة أن يفقهوه[(١)].

وذكر هذه الآية ابن القيم - رحمه الله - في الاستدلال لخلق أفعال العباد، وقال: "فالتيسير فعله والسير فعل العباد وهو أثر التيسير"[(٢)].

فالقدرية الذين أنكروا أن الله يخلق أفعال العباد يستدلون بالآيات التي نسب الله فيها الفعل إلى العباد. والجبرية الذين يقولون إن العباد لا تنسب أفعالهم إليهم إلا كما تنسب إلى الجمادات وجعلوا حركتهم حركة اضرارية لا اختيار لهم فيها، استدل هؤلاء بالآيات التي تنسب الفعل إلى الله عزوجل كقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} وقوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} ونحوها من الآيات. وكلا القولين فاسد لأخذهم ببعض النصوص وتركهم البعض الآخر، فالقدرية تركت النصوص الدالة على خلق الله للأفعال والجبرية تركت النصوص الدالة على نسبة الأفعال إلى العباد وأن لهم فيها إرادة واختيار.

أما أهل السنة فجمعوا بين الآيات وأخذوا بجميع القرآن فكانوا على الاستقامة، فقالوا الآيات التي تدل على نسبة الفعل إلى الله المراد بها خلقه لها، والآيات التي تدل على نسبة الفعل إلى العباد فالمراد بها قيام الأفعال بهم أو أنهم المكتسبون لها بإرادتهم واختيارهم.

القرآن

{فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)} [يونس : ٢٣]

التفسير:

فلما أنجاهم الله من الشدائد والأهوال إذا هم يعملون في الأرض بالفساد وبالمعاصي. يا أيها الناس إنما وَبالُ بغيكم راجع على أنفسكم، لكم متاع في الحياة الدنيا الزائلة، ثم إلينا مصيركم ومرجعكم، فنخبركم بجميع أعمالكم، ونحاسبكم عليها.

قوله تعالى:{فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [يونس : ٢٣]، أي:" فلما خلّصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي"[(٣)].

عن مجاهد قوله: "{يبغون}، قال: يلعبون"[(٤)].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس : ٢٣]، أي:" يا أيها الناس إنما وَبالُ بغيكم راجع على أنفسكم"[(٥)].

قال ابن كثير:" أي : إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم ، كما جاء في الحديث : «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا ، مع ما يَدخر الله لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم»[(١)]"[(٢)].

---

(١) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار:٢٠٧/١.

(٢)شفاء العليل:٥٨.

(٣) صفوة التفاسير:٥٤٠/١.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٣):ص١٩٣٩/٦.

(٥)التفسير الميسر:٢١١.

عن ابن عباس:"{يا أيها الناس}، أي: الفريقين جميعا الكفار والمنافقين"[٣].

عن زيد بن أسلم :"أن النبي ﷺ قال: لا يؤخر الله عقوبة البغي فإن الله قال: إنما بغيكم على أنفسكم"[٤].

يونس عن الزهري قال: "بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تبغ ولا تعن باغيا فإن الله يقول: يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم"[٥].

قوله تعالى:{مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس : ٢٣]، أي:" لكم متاع في الحياة الدنيا الزائلة"[٦].

قال ابن كثير:" أي : إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة"[٧].

قال الصابوني:أي:" تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية"[٨].

عن الأعمش: "{متاع الحياة الدنيا}، قال: مثل زاد الراعي"[٩].

عن قتادة: "{متاع الحياة الدنيا}، قال: هي متاع متروكة أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله"[١٠].

قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ} [يونس : ٢٣]، أي:" ثم إلينا مصيركم ومرجعكم"[١١].

عن أبي العالية قال: "يرجعون إليه بعد الحياة"[١٢].

قال ابن كثير:" أي : مصيركم ومآلكم"[١٣].

قوله تعالى:{فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس : ٢٣]، أي:" فنخبركم بجميع أعمالكم، ونحاسبكم عليها"[١٤].

قال ابن كثير:" أي : فنخبركم بجميع أعمالكم ، ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه "[١٥].

عن الربيع بن أنس قال: "يبعثهم الله من بعد الموت فيبعث أولياءه وأعداءه فينبئهم بأعمالهم"[١٦].

قال الصابوني:" والآية الكريمة تمثيلٌ لطبيعة الإنسان الجحود، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدة، فإذا نجّاه الله من الضيق، وكشف عنه الكرب، رجع إلى الكفر والعصيان، وتمادى في الشرِّ والطغيان"[١٧].

---

[١]رواه أبو داود في السنن برقم (٤٩٠٢) والترمذي في السنن برقم (٢٥١١) وابن ماجه في السنن برقم (٤٢١١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : "هذا حديث حسن صحيح".

[٢] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٤):ص١٩٣٩/٦.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٥):ص١٩٤٠/٦.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٦):ص١٩٤٠/٦.

[٦]التفسير الميسر:٢١١.

[٧] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.

[٨] صفوة التفاسير:٥٤٠/١.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٧):ص١٩٤٠/٦.

[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٨):ص١٩٤٠/٦.

[١١] التفسير الميسر:٢١١.

[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٩):ص١٩٤٠/٦.

[١٣] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.

[١٤] التفسير الميسر:٢١١.

[١٥] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.

[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣١٠):ص١٩٤٠/٦.

[١٧] صفوة التفاسير:٥٤٠/١.

الفوائد:

١- بغي الإنسان عائد على نفسه كمكره ونكثه وفى الحديث "ثلاث على أصحابها رواجع: البغي والمكر والنكث"[١].

٢- أن الله - تعالى – هو الذي ينجي عباده من ظلمات البر والبحر، إذ أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يقول للمشركين سائلًا إياهم عن الذي ينجيهم من ظلمات البرِّ والبحر إذا أحاطت بهم {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأنعام: ٦٣].

والمراد بالظلمات في الآية الشدائد والأهوال والكربات التي تحيق بالإنسان في البرّ والبحر، والعرب تقول: عامٌ أسود، ويومٌ مظلمٌ، وقد اعتاد الإنسان حتى لو كان مشركًا إذا أحاطت به ظلمات البرّ والبحر أن يدعو ربَّه تضرُّعًا وخفية، أي: يدعوه مظهرًا الضَّراعة، وهي شدَّة الفقر والحاجة إلى ربّه، ويدعوه خفيةً، أي: سرّاً، وأعلمنا ربُّنا أنَّه يقول في مناجاته ربَّه {لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}. والإنسان عندما تحيط به المصائب العظام والكوارث التي لا يستطيع لها دفعًا يتوجَّه إلى ربه مخلصًا له الدين، لأنَّه في حالة الاضطرار يعلم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنَّه لا ينجيه مما حلَّ به إلا الحيُّ القيوم، {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [يونس: ٢٢ - ٢٣].

وقد تحدَّث بعض ركَّاب الطائرات عن حال الركاب عندما وقع خللٌ في طائرتهم، وهي تطير بهم في الفضاء، وتكاد تسقط بهم، وبيَّن كيف تضرَّعوا إلى ربِّهم مخلصين له الدين، لا فرق بين الفاسق والعالم بالله.

وأخبرنا ربُّنا - سبحانه - أنه وحده القادر على إنجاء عباده من الكوارث والكروب التي تحيط بهم، ولكنَّ هؤلاء بعد أن ينجيهم ربُّهم مما أصابهم يعودون إلى شركهم وكفرهم {قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ٦٤].

٣- أن الكفار في زمن النبي ﷺ كانوا يعلمون علما يقينا أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب، من خصائص الربوبية وكانوا إذا دهمتهم الكروب، كإحاطة الأمواج بهم في البحر، في وقت العواصف يخلصون الدعاء لله وحده، لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشراك.

٤- أن كل نعمة هي منه سبحانه وتعالى؛ فالافتقار إليه ذاتي وغناه تعالى مطلق.

٥- تقرير مبدأ البعث والجزاء يوم القيامة[٢].

القرآن

{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)} [يونس : ٢٤]

التفسير:

إنما مثل الحياة الدنيا وما تتفاخرون به فيها من زينة وأموال، كمثل مطر أنزلناه من السماء إلى الأرض، فنبتت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض مما يقتات به الناس من الثمار، وما تأكله الحيوانات من النبات، حتى إذا ظهر حُسْنُ هذه الأرض وبهاؤها، وظن أهل هذه الأرض

---

[١](ضعيف) انظر حديث رقم: ٢٥٥٥ في ضعيف الجامع.

[٢] انظر: الله يحدث عباده عن نفسه:١٠٢-١٠٣.

أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها، جاءها أمرنا وقضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات، والزينة إما ليلا وإما نهارًا، فجعلنا هذه النباتات والأشجار محصودة مقطوعة لا شيء فيها، كأن لم تكن تلك الزروع والنباتات قائمة قبل ذلك على وجه الأرض، فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهَون به من دنياكم وزخارفها فيفنيها الله ويهلكها. وكما بيَّنا لكم -أيها الناس- مَثَلَ هذه الدنيا وعرَّفناكم بحقيقتها، نبيِّن حججنا وأدلتنا لقوم يتفكرون في آيات الله، ويتدبرون ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} [يونس : ٢٤]، أي:" إنما مثل الحياة الدنيا وما تتفاخرون به فيها من زينة وأموال، كمثل مطر أنزلناه من السماء إلى الأرض"[١].

عن ابن عباس قال: "ضرب الله مثلا حسنا، وكل أمثاله حسن، وهو مثل خص به الله المؤمن والكافر فيما أوتيا"[٢].

عن شهر بن حوشب :"أن أبا هريرة قال: ما نزل قطر إلا بميزان"[٣].

عن عكرمة قال: ينزل الله الماء من السماء السابعة فتسع القطرة منه على السحابة مثل البعير"[٤].

قوله تعالى:{فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ} [يونس : ٢٤]، أي:"فنبتت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض مما يقتات به الناس من الثمار، وما تأكله الحيوانات من النبات"[٥].

قال عطاء:" أما اختلط به نبات الأرض فاختلط فنبت بالماء من كل لون"[٦].

عن السدي :قوله {الأنعام}، قال: "والأنعام: الراعية"[٧].

قال ابن كثير:" ضرب تبارك و تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء ، مما يأكل الناس من زرع وثمار ، على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أب وقَضْب وغير ذلك"[٨].

قال الزمخشري:" هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف ونكائف، وزين الأرض بخضرته ورفيفه «٤» فاختلط به فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا"[٩].

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ} [يونس : ٢٤]، أي:" حتى إذا ظهر حُسْنُ هذه الأرض وبهاؤها"[١٠].

---

[١]التفسير الميسر:٢١١.

أخرجه أبو الشيخ فى تفسيره، وابن مردويه، والخطيب (٤٤٩/٨)عن أنس. انظر: جامع الاحاديث(١١١٩٢):ص٤٥٤/١١

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣١١):ص١٩٤٠/٦.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣١٢):ص١٩٤٠/٦.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣١٣):ص١٩٤٠/٦.

[٥]التفسير الميسر:٢١١.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣١٤):ص١٩٤١/٦.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣١٥):ص١٩٤١/٦.

[٨] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.

[٩] الكشاف:٣٤٠/٢.

[١٠]التفسير الميسر:٢١١.

قال ابن كثير:" أي : زينتها الفانية، { وَازَّيَّنَتْ } أي : حَسُنت بما خرج من رُباها من زهور نَضِرة مختلفة الأشكال والألوان"[١].

قال الزمخشري:" جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين. وأصل ازينت تزينت، فأدغم"[٢].

عن مجاهد قال: "ما كنت أدري ما الزخرف حتى قرأت قراءة عبد الله: «أو يكون لك بيت من ذهب»"[٣].

عن قتادة قوله:"{حتى إذا أخذت الأرض زخرفها}، الآية،: أي والله، لئن تشبَّثَ بالدنيا وحَدِب عليها، لتوشك الدنيا أن تلفظه وتقضي منه"[٤].

وعن قتادة: -أيضا- :"{وازينت}، قال: أنبتت وحسُنَت"[٥].

وأصل "«ازينت»: تزينت، فأدغم، وبالأصل قرأ عبد الله. وقرئ: وأزينت، أى أفعلت، من غير إعلال الفعل كأغيلت أى صارت ذات زينة. وازيانت، بوزن ابياضت"[٦].

قوله تعالى:{وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} [يونس : ٢٤]، أي:" وظنَّ أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها، محصّلون لثمرتها وغلّتها"[٧].

قال الزمخشري:أي:" متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها، رافعون لغلتها"[٨].

قال ابن كثير:" { وَظَنَّ أَهْلُهَا } الذين زرعوها وغرسوها، { أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا } أي : على جَذاذها وحصادها"[٩].

عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: "سمعت مروان يقرأ على المنبر هذه الآية: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَّنَ أَهْلُهَا أَنَّهمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيُهْلِكَهَا إلا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا}، قال: قد قرأتها، وليست في المصحف. فقال عباس بن عبد الله بن العباس: هكذا يقرؤها ابن عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أبيٌّ بن كعب"[١٠].

قال السيد أحمد محمد شاكر:" وهذا الخبر كما ترى، هالك الإسناد من نواحيه. والقراءة التي فيه إذا صحت من غير هذا الطريق الهالك، فهي قراءة تفسير، كما هو معروف، وكما أشرنا إليه مرارًا في أشباهها. ولا يجل لقارئ أنة يقرأ بمثلها على أنها نص التلاوة، لشذوذها، ولمخالفتها رسم المصحف بالزيادة، بغير حجة يجب التسليم لها"[١١].

قوله تعالى:{أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا} [يونس : ٢٤]، أي:" جاءها أمرنا وقضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات، والزينة إما ليلا وإما نهارًا"[١٢].

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.
[٢] الكشاف:٣٤٠/٢-٣٤١.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣١٦):ص١٩٤١/٦.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٥٩٩):ص٥٧/١٥.
[٥] أخرجه الطبري(١٧٦٠٠):ص٥٧/١٥.
[٦] الكشاف:٣٤٠/٢-٣٤١.
[٧] صفوة التفاسير:٥٤٠/١.
[٨] الكشاف:٣٤١/٢.
[٩] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٧٦٠١):ص٥٧/١٥.
[١١] تفسير الطبري:٥٧/١٥.[كلام المحقق: الهامش:٢]
[١٢]التفسير الميسر:٢١١.

قال السمعاني:" أي: عذابنا ليلا أو نهارا"[١].

قال الزمخشري:" وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم"[٢].

قال الألوسي:" أي: في ليل أو في نهار، ولعل المراد الإشارة إلى أنه لا فرق في إتيان العذاب بين زمن غفلتهم وزمن يقظتهم إذ لا يمنع منه مانع ولا يدفع عنه دافع"[٣].

قال ابن كثير:" { وَظَنَّ أَهْلُهَا } الذين زرعوها وغرسوها، { أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا } أي : على جَذاذها وحصادها فبيناهم كذلك إذ جاءتها صاعقة ، أو ريح بادرة ، فأيبست أوراقها ، وأتلفت ثمارها"[٤].

قوله تعالى:{فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا} [يونس : ٢٤]، أي:" فجعلنا هذه النباتات والأشجار محصودة مقطوعة لا شيء فيها"[٥].

قال الألوسي:" أي: فجعلنا نباتها شبيها بما حصد من أصله"[٦].

قال ابن كثير:" أي : يبسا بعد [تلك] الخضرة والنضارة "[٧].

قال السمعاني:" الحصيد: المحصود، والمعنى ها هنا: هو الاستئصال بالعذاب"[٨].

وفي قوله تعالى:{فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا} [يونس : ٢٤]، وجهان[٩]:

أحدهما : ذاهباً .

الثاني : يابساً .

قوله تعالى:{كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ} [يونس : ٢٤]، أي:" كأن لم تكن تلك الزروع والنباتات قائمة قبل ذلك على وجه الأرض، فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهَون به من دنياكم وزخارفها فيفنيها الله ويهلكها"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك... وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ؛ ولهذا جاء في الحديث : يؤتى بأنعم أهل الدنيا ، فيُغْمَس في النار غَمْسَة ثم يقال له : هل رأيت خيرًا قط ؟ [هل مر بك نعيم قط ؟] فيقول : لا. ويؤتى بأشد الناس عذابًا في الدنيا، فيغمس في النعيم غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا»[١١]"[١٢].

قال الطبري:" يقول: كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتةً قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس، وأصله: من :غَنِيَ فلان بمكان كذا، يَغْنَى به، إذا أقام به، كما قال النابغة الذبياني[١٣]:

غَنِيَتْ بِذَلِكَ إِذْ هُمُ لَكَ جِيرَةٌ مِنْهَا بِعَطْفِ رِسَالَةٍ وَتَوَدُّد

---

[١] تفسير السمعاني:٣٧٦/٢.
[٢] الكشاف:٣٤١/٢.
[٣] روح المعاني:٩٦/٦.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.
[٥]التفسير الميسر:٢١١.
[٦] روح المعاني:٩٦/٦.
[٧] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.
[٨] تفسير السمعاني:٣٧٦/٢.
[٩] انظر: النكت والعيون:٤٣٠/٢.
[١٠]التفسير الميسر:٢١١.
[١١]سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢١).
[١٢] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.
[١٣]ديوانه: ٦٥، من قصيدته المشهورة التي وصف فيها المتجردة، وقبله:
فِي إثْرِ غانيةٍ رَمَتْكَ بِسَهْمِاَ ... فأَصَابَ قَلْبَكَ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَقْصِدِ.

يقول: فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرُنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها "[١].

عن السدي:"{كأن لم تغن بالأمس}، بزينتها"[٢].

قال الزمخشري:" «الأمس» مثل في الوقت القريب، كأنه قيل: كأن لم تغن آنفا"[٣].

قال أبو حيان:" وليس «الأمس» عبارة عن مطلق الوقت، ولا هو مرادف كقوله: آنفا، لأن آنفا معناه الساعة، والمعنى: كأن لم يكن لها وجود فيما مضى من الزمان. ولولا أن قائلا قال في غير القرآن كأن لم يكن لها وجود الساعة لم يصح هذا المعنى، لأنه لا وجود لها الساعة، فكيف تشبه وهي لا وجود لها حقيقة بما لا وجود لها حقيقة؟ إنما يشبه ما انتفى وجوده الآن بما قدر انتفاء وجوده في الزمان الماضي، لسرعة انتقاله من حالة الوجود إلى حالة العدم، فكأن حالة الوجود ما سبقت له"[٤].

وفي قوله تعالى:{كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ} [يونس : ٢٤]، أربعة أوجه من التفسير:

أحدها : كأن لم تعمر بالأمس ، قاله الكلبي[٥].

الثاني : كأن لم تعشْ، قاله قتادة[٦]، ومنه قول لبيد[٧]:

وَغَنِيتُ سَبْتًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ   لَوْ كَانَ لِلنِّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ

الثالث : كأن لم تقم بالأمس ، ومن قولهم غنى فلان بالمكان إذا أقام فيه ، حكاه الماوردي عن عليّ بن عيسى[٨].

الرابع: كأن لم تنعم بالأمس ، قاله قتادة أيضاً[٩].

روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال: "في قراءة أبيّ:«كأن لم تغن بالأمس وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون»"[١٠].

وقرأ الحسن: كأن لم يغن، بالياء على أن الضمير للمضاف المحذوف، الذي هو الزرع.

وعن مروان أنه قرأ على المنبر: «كأن لم تتغن بالأمس»، من قول الأعشى[١١]:

وكنت امرأ زمنا بالعراق   طويل الثواء طويل التغنى[١٢]

---

[١] تفسير الطبري:٥٦/١٥.

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٢٠):ص١٩٤٢/٦.

[٣] الكشاف:٣٤١/٢.

[٤] البحر المحيط:٣٩/٦.

[٥] انظر: النكت والعيون:٤٣٠/٢.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٠٢):ص٥٨/١٥.

[٧]ويروى (بعد مجرى) وعَمَرْتُ كَرْسًا. غنيت: عشت (سبتا): دهرا، (داحس) اسم فرس. ورد البيت في "تهذيب اللغة" (سبت) ٢/ ١٦٠٧، "اللسان" (سبت) ٤/ ١٩١٢، و (عمر) ٥/ ٣١٠، و"حماسة البحتري" ص ١٠٠، "المخصص" ٢/ ٦٤، "الخزانة" ٢/ ٢٥١، "البحر المحيط" ١/ ٢٤٠، وديوان لبيد مع شرحه :ص ٣٥ .

[٨] انظر: النكت والعيون:٤٣١/٢.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٠٢):ص٥٨/١٥.

[١٠] الدر المنثور:٣٥٤/٤.

[١١] انظر: الكشاف:٣٤١/٢، والبحر المحيط في التفسير:٣٩/٦، والدر المصون:١٨٠/٦، وفي تفسير القرطبي:١٤/١، وروايته:« وكنت امرأ زمنا بالعراق ... عفيف المناخ طويل التغن».

[١٢]انظر: الكشاف:٣٤١/٢

قوله تعالى:{كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس : ٢٤]، أي:" وكما بيَّنا لكم -أيها الناس- مَثَّلَ هذه الدنيا وعرَّفناكم بحقيقتها، نبيِّن حججنا وأدلتنا لقوم يتفكرون في آيات الله، ويتدبرون ما ينفعهم في الدنيا والآخرة"[١].

عن السدي:"{كذلك نفصل}، أما {نفصل}: فنبيّن"[٢].

قال الطبري:" يقول: كما بيَّنا لكم أيها الناس، مثل الدنيا وعرّفناكم حكمها وأمرها، كذلك نُبين حججنا وأدلَّتنا لمن تفكَّر واعتبر ونظر. وخصَّ به أهل الفكر، لأنهم أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشُّبَه في الصدور"[٣].

قال الألوسي:" أي: مثل ذلك التفصيل البديع نُفَصِّلُ الْآياتِ أي القرآنية التي من جملتها هذه الآية الجليلة الشأن المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أي نوضحها ونبينها لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ في معانيها ويقفون على حقائقها، وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون، وجوز أن يراد بالآيات ما ذكر في أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكي إيجادا وإعداما فإنها آيات وعلامات يستدل بها المتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا والأول هو الظاهر"[٤].

وفي قوله تعالى:{ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس : ٢٤]، وجهان:

أحدهما:معناه: يتفكرون في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها. قاله ابن عباس[٥].

وروي عن الصعق التميمي قال: "شهدت الحسن وقرأ هذا الآية: {يتفكرون}، قال: هو والله لمن تفكر فيها يعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء وليعلم أن دار الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء"[٦].

وعن قتادة: "{لقوم يتفكرون}، قال: هذا مثل خص به الله فاعقلوا عن الله أمثاله فإن الله يقول: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[٧]"[٨].

والثاني: معناه: لعلهم يطيعون. وهذا قول مجاهد[٩].

قال ابن كثير:" { لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }: فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعًا مع اغترارهم بها ، وتمكنهم بمواعيدها وتَفَلّتها منهم ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض ، في غير ما آية من كتابه العزيز ، فقال في سورة الكهف : { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا } [الكهف : ٤٥] ، وكذا في سورة الزمر[١٠]، والحديد[١١]، يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء"[١].

---

[١]التفسير الميسر:٢١١.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٢١):ص١٩٤٣/٦.
[٣] تفسير الطبري:٥٦/١٥-٥٧.
[٤] روح المعاني:٩٦/٦.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٢٢):ص١٩٤٢/٦.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٢٣):ص١٩٤٢/٦.
[٧][العنكبوت : ٤٣].
[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٢٤):ص١٩٤٢/٦.
[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٢٥):ص١٩٤٢/٦.
[١٠]الآية : ٢١.
[١١]الآية : ٢٠.

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي مجلز رضي الله عنه قال: "مكتوب في سورة يونس عليه السلام إلى جنب هذه الآية {حتى إذا أخذت الأرض زخرفها} إلى {يتفكرون} ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب فمحيت"[٢].

أخرج الطبري عن أنس بن مالك، عن أُبيّ بن كعب، قال: "كنا نرى أن هذا الحديث من القرآن: "لو أن لابن آدم واديين من مال، لتمنى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب" حتى نزلت هذه السورة: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} إلى آخرها"[٣].

الفوائد:

١- بيان الصورة الحقيقية للحياة الدنيا في نضرتها وسرعة زوالها.
٢- التحذير من الاغترار بالدنيا والركون إليها.
٣- التحذير من الذنوب فإنها سبب الشقاء وسلب النعم.
٤- فضيلة التفكر وأهله.

القرآن
{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)} [يونس : ٢٥]
التفسير:
والله يدعوكم إلى جناته التي أعدها لأوليائه، ويهدي مَن يشاء مِن خَلْقه، فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ} [يونس : ٢٥]، أي:" والله يدعوكم إلى جناته التي أعدها لأوليائه"[٤].
وفي تسمية«الجنة» بـ«دار السلام»، وجهان :
أحدهما : لأن السلام هو الله، والجنة داره. ذكره الزجاج[٥]، والطبري[٦].
قال الزجاج:" «السلام»: هو الله جل وعز - فالله يدعو إلى داره، وداره الجنة"[٧].
قال الطبري:" أما «دار السلام»، فهي دار الله التي أعدَّها لأوليائه في الآخرة، جزاءً لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات الله، وهي جنته. و"السلام"، اسم من أسماء الله تعالى"[٨].

عن السدي: "{لهم دار السلام عند ربهم}، الله هو السلام، والدار الجنة»[٩]"[١٠].

وعن قتادة، في قوله: "{والله يدعو إلى دار السلام} [يونس: ٢٥] قال: الله هو السلام، وداره الجنة "[١١].

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.
[٢] الدر المنثور:٣٥٤/٤.
[٣] تفسير الطبري:٥٨٠/٢٤.
[٤] التفسير الميسر:٢١١.
[٥] انظر: معاني القرآن:٢٩١/٢.
[٦] تفسير الطبري: ١١٤/١٢.
[٧] معاني القرآن:١٥/٣.
[٨] تفسير الطبري: ١١٤/١٢.
[٩] تفسير الطبري(١٣٨٨٤):ص١١٤/١٢.
[١٠] تفسير الطبري: ١١٤/١٢.
[١١] أخرجه الطبري:١٥٤/١٢.

عن جابر بن زيد- في قوله: "{السلام}، قال: هو الله، وهو اسم من أسماء الله"[1].

الثاني : لأنها دار السلامة من كل آفة، قاله ابن قتيبة[2]، والزجاج[3].

قال ابن قتيبة:" فـ«السلام»: الله؛ وداره: الجنة. يجوز أن يكون سماها "سلاما": لأن الصائر إليها يسلم فيها من كل ما يكون في الدنيا: من مرض ووصب، وموت وهرم؛ وأشباه ذلك. فهي دار السلام"[4].

قال ابن كثير: "لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة عطبها وزوالها ، رغَّب في الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام أي : من الآفات ، والنقائص والنكبات"[5].

عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنه ، قال : " عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: إني رأيت في المنام كأنَّ جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا! فقال: اسْمَع سمعتْ أُذنك، واعقل عَقَل قلبك، إنما مَثَلك ومَثَل أمتك، كمثل ملك اتخذ دارًا، ثم بنى فيها بيتًا، ثم جعل فيها مأدُبة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيتُ الجنَّة، وأنت يا محمد الرسولُ، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها"[6].

عن أبي الدرداء، قال:" قال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وتجليتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"[7].

عن الحسن قال: "ما من ليلة إلا ينادي مناد يا صاحب الخير هلم ويا صاحب الشر أقصر، فقال رجل للحسن: أتجدها في كتاب الله قال: نعم والله يدعوا إلى دار السلام"[8].

قال قتادة:" ذكر لنا أن في التوراة مكتوبا يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر انته"[9].

قوله تعالى:{وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يونس : ٢٥]، أي:" ويهدي مَن يشاء مِن خَلْقه، فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام"[10].

قال أبو العالية:" يقول: يهديهم للمخرج من الشبهات والضلالات والفتن"[11].

عن مجاهد، في قوله: "{صراط مستقيم}، قال: الحق"[12].

وفي تفسير «الصراط المستقيم»، أربعة اقوال:

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(٧٨٨٨):ص١٣٨٧/٤.

[2] غريب القرآن:٦-٧.

[3] انظر: معاني القرآن:١٥/٣.

[4] غريب القرآن:٦-٧.

[5] تفسير ابن كثير:٢٦٠/٤.

[6] أخرجه الطبري(١٧٦٠٩):ص٦١/١٥-٦٢، وعلقه البخاري في الصحيح برقم (٧٢٨١) ورواه الترمذي في في السنن برقم (٢٨٦٠) من طريق قتيبة عن الليث به ، وقال الترمذي : "هذا حديث مرسل ، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله" قال : "وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن النبي ﷺ بإسناد أصح من هذا" قلت : رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٨١) من طريق يزيد عن سليم بن حيان ، عن سعيد بن أبي ميناء ، عن جابر بن عبد الله بنحوه.

[7] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٢٦):ص١٩٤٢/٦-١٩٤٣.

[8] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٢٧):ص١٩٤٣/٦.

[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٢٨):ص١٩٤٣/٦.

[10] التفسير الميسر:٢١١.

[11] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٣١):ص١٩٤٣/٦.

[12] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٣٢):ص١٩٤٣/٦.

أحدها: أن «الصراط المستقيم: كتاب الله عزّ وجل». رواه علي بن أبي طالب عن رسول الله-ﷺ-[1].

والثاني: أن «الصراط: الإسلام». رواه النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-[2].

والثالث:أن «الصراط المستقيم: هو النبي ﷺ وصاحباه بعده رضي الله عنهما». قاله أبو العالية[3]. قال الحسن:"صدق أبو العالية ونصح"[4].

والرابع: أن الصراط المستقيم: الحق. وهذا قول مجاهد[5].

الفوائد:

١- أن دين الله عزّ وجل دين مستقيم.
٢- أن الله وحده يهدي إلى الطريق القويم.
٣- بيان الصراط المستقيم، وإقامة أسباب الهداية، باطناً وظاهراً، ومن لم تكتمل عنده هذه الأسباب لصغر أو لزوال عقل أو نحو ذلك فهؤلاء رفع عنهم التكليف، ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما في وسعهم ودليل هذه المرتبة قوله تعالى: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[يونس: ٢٥]، فاشتملت هذه الآية الكريمة على هداية البيان والإرشاد في قوله تعالى: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِالسَّلاَمِ}، وعلى الهداية الخاصة وهي هداية التوفيق والإلهام في قوله تعالى:{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [يونس، ١٣].
٤- فضل الله على عباده ورحمته بهم إذ يدعوهم إلى داره لإكرامهم والإنعام عليهم.
٥- أخبر سبحانه أنه عم جميع الخلق بالدعاء إلى دار السلام وهي الجنة، وأخبر أن الهداية منه إلى إجابته خاصة لبعضهم.
٦- أن الهدايةُ هدايتان: هدايةُ الدَّلالة والإرشاد، وهذه حاصلةٌ لكلِّ أحد، وهداية التوفيق، وهي حاصلةٌ لِمَن شاء اللهُ هدايتَه، ومن أدلَّة الهداية الأولى قول الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى : ٥٢]، أي: أنَّك تدعو كلَّ أحد إلى الصراط المستقيم، ومن أدلَّة الهداية الثانية قول الله عزَّ وجلَّ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص : ٥٦]، وقد جمع الله بين الهدايتَين في قوله: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ، فقوله: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ} أي: كلَّ أحد، فحُذف المفعول لإرادة العموم، وهذه هي هداية الدلالة والإرشاد، وقوله: {وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ، أظهرَ المفعولَ لإفادة الخصوص، وهي هداية التوفيق.

القرآن

{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)} [يونس : ٢٦]

التفسير:

---

[1] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٣):ص٧٢١/٣.
[2] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٤):ص٧٢١/٣.
[3] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٥):ص٧٢١/٣.
[4] أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٠٥):ص٧٢١/٣.
[5] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٦):ص٧٢١/٣، و(١٠٣٣٢):ص١٩٤٣/٦.

للمؤمنين الذين أحسنوا عبادة الله فأطاعوه فيما أمر ونهى، الجنةُ، وزيادة عليها، وهي النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة، والمغفرةُ والرضوان، ولا يغشى وجوههم غبار ولا ذلة، كما يلحق أهل النار. هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة ماكثون فيها أبدًا.

قوله تعالى:{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس : ٢٦]، أي:" للمؤمنين الذين أحسنوا عبادة الله فأطاعوه فيما أمر ونهى، الجنةُ، وزيادة عليها، وهي النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة، والمغفرةُ والرضوان"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: للذين أحسنوا عبادَة الله في الدنيا من خلقه، فأطاعوه فيما أمر ونَهَى، [{الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}]"[٢].

عن ابن عباس قوله: "{للذين أحسنوا الحسنى}، يقول: للذين شهدوا أن لا إله إلا الله"[٣].

وفي قوله تعالى:{الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس : ٢٦]، أقوال:

أحدها : أن «الحسنى» الجنة ، و«الزيادة» النظر إلى وجه الله تعالى . وهذا قول أبي بكر الصديق[٤]، وحذيفة بن اليمان[٥]، وأبي موسى الأشعري[٦]، وعامر بن سعد[٧]، وعبدالرحمن بن بن أبي ليلى[٨].

عن أبي موسى الأشعري قال: "إذا كان يومُ القيامة بعث الله إلى أهل الجنة مناديًا ينادي: "هل أنجزكم الله ما وعدكم"! فينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامة، فيقولون: نعم! فيقول: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}، النظرُ إلى وجه الرحمن"[٩].

عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ في قوله: "{للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}، قال: الزيادة، النظرُ إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى"[١٠].

والثاني : أن «الحسنى» واحدة من الحسنات، و«الزيادة» مضاعفتها إلى عشر أمثالها ، قاله ابن عباس[١١]، وروي عن الحسن[١٢]، وعلقمة بن قيس[١٣] نحو ذلك.

عن قتادة قال: "كان الحسن يقول في هذه الآية: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} ، قال: «الزيادة»: بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف"[١٤].

الثالث : أن «الحسنى» حسنة مثل حسنة . و«الزيادة» مغفرة ورضوان ، قاله مجاهد[١٥].

والرابع : أن «الحسنى» الجزاء في الآخرة و«الزيادة» ما أعطوا في الدنيا ، قاله ابن زيد[١٦].

قال ابن زيد: "«الحسنى»: الجنة، «وزيادة»: ما أعطاهم في الدنيا، لا يحاسبهم به يوم القيامة. وقرءوا: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}، [سورة العنكبوت: ٢٧] ، قال: ما آتاه مما يحب في

---

[١] التفسير الميسر:٢١٢.
[٢] تفسير الطبري:٦٢/١٥.
[٣] أخرجه الطبري(١٧٦٤٢):ص٧١/١٥.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٦١٠)-(١٧٦١١):ص٦٣/١٥.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٦١٤):ص٦٤/١٥.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٦١٦):ص٦٤/١٥.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٦١٢):ص٦٣/١٥-٦٤.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٦١٩):ص٦٦/١٥.
[٩] أخرجه الطبري(١٧٦١٦):ص٦٤/١٥.
[١٠] أخرجه الطبري(١٧٦٣١):ص٦٨/١٥.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٣٧):ص٧٠/١٥.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٣٩):ص٧٠/١٥.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٣٨):ص٧٠/١٥.
[١٤] أخرجه الطبري(١٧٦٣٩):ص٧٠/١٥.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٤٠):ص٧٠/١٥.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٤١):ص٧١/١٥.

الدنيا، عجل له أجره فيها"[١].
والخامس : أن «الحسنى» الثواب ، و«الزيادة» الدوام ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[٢].
والسادس : أن «الحسنى» ما يتمنونه ، و«الزيادة» ما يشتهونه. أفاده الماوردي[٣].

والسابع: أن «الزيادة»: غرفة من لؤلؤة واحدةٍ لها أربعة أبواب. قاله علي بن أبي طالب-كرّم الله وجهه-[٤].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وَعَد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إيّاه الجنة، وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها. ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غُرفا من لآلئ، وأن يزيدَهم غفرانا ورضوانًا، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته. وعمّ ربنا جل ثناؤه بقوله: {وزيادة}، الزيادات على {الحسنى}، فلم يخصص منها شيئًا دون شيء، وغير مستنكرٍ من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يُعَمَّ، كما عمَّه عز ذكره"[٥].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : { هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إِلا الإحْسَانُ } [الرحمن : ٦٠]، وقوله : { وَزِيَادَة } هي : تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وزيادة على ذلك –أيضا- ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم ، وما أخفاه لهم من قرة أعين ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه ، لا يستحقونها بعملهم ، بل بفضله ورحمته"[٦].

قوله تعالى:{وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ} [يونس : ٢٦]، أي:" ولا يغشى وجوههم غبار ولا ذلة، كما يلحق أهل النار"[٧].

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: "{ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة}، قال: بعد نظرهم إلى ربِّهم"[٨].

وفي معنى« يَرْهَقُ »، وجهان[٩]:

أحدهما : يعلو .

الثاني : يلحق ، ومنه قيل غلام مراهق إذا لحق بالرجال.

وفي معنى«قَتَرٌ»، وجوه من التفسير:

أحدها : أنه سواد الوجوه ، قاله ابن عباس[١٠]، والسدي[١١].

الثاني : أنه الخزي، قاله مجاهد[١٢].

الثاني : أنه الحزن، حكاه الماوردي عن مجاهد[١٣].

---

[١]أخرجه: تفسير الطبري(١٧٦٤١):ص٧١/١٥.
[٢] انظر: النكت والعيون:٤٣٣/٢.
[٣] انظر: النكت والعيون:٤٣٣/٢.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٣٤):ص٦٩/١٥.
[٥] تفسير الطبري:٧١/١٥.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٦٣/٤.
[٧] التفسير الميسر:٢١٢.
[٨] أخرجه الطبري(١٧٦٤٣):ص٧٣/١٥.
[٩] انظر: النكت والعيون:٤٣٣/٢.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٤٥):ص٧٣/١٥.
[١١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٤٦/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.
[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٤٧):ص١٩٤٦/٦.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٤٣٣/٢.

الثالث : أنه الدخان ومنه قتار اللحم وقتار العود وهو دخانه ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[١].
الرابع : أنه الغبار في محشرهم إلى الله تعالى. قاله الطبري[٢]، ومنه قول الفرزدق[٣]:
مُتَوَّجٌ بِرداءِ المُلْكِ يَتْبَعُهُ   مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّاياتِ وَالْقَتَرَا

قال ابن كثير:{ قَتَرٌ}: " أي : قتام وسواد في عَرَصات المحشر ، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القُتْرة والغُبْرة"[٤].

وفي قوله تعالى:{ وَلَا ذِلَّةٌ} [يونس : ٢٦]، وجهان[٥]:

أحدهما : الهوان .

الثاني : الخيبة .

قال ابن كثير:" {وَلا ذِلَّةٌ}، أي : هوان وصغار ، أي : لا يحصل لهم إهانة في الباطن ، ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في حقهم : { فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا } أي : نضرة في وجوههم ، وسرورًا في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته ، آمين"[٦].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس : ٢٦]، أي:" هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة ماكثون فيها أبدًا"[٧].
قال ابن عباس:" أي: من آمن بما كفرتم وعمل بما نزله من دينه فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له"[٨].
قال الطبري:" يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها، ومن هو فيها ، [و]هم فيها ماكثون أبدًا، لا تبيد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتتنغَّص عليهم لذَّتُهم"[٩].

الفوائد:

١- بيان فضل الحسنة وما تعقبه من نيل الحسنى.
٢- والآية دليل رؤية المؤمن ربه في الجنة، لأن تفسير: «الزيادة»: النظر إلى وجهه الكريم، كذلك فسرها رسول الله -ﷺ- الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده[١٠].
فإن أفضل ما يعطاه أهل الجنة النظر إلى وجه الله الكريم، ويجدر القول بأن مسألة رؤية المؤمنين لربهم عز وجل بالأبصار في الدار الآخرة من أشرف المسائل وأجلها، إذ هي الغاية القصوى، والنهاية العظمى، وأعلى الكرامات، وأفضل العطيات

---

[١] انظر: النكت والعيون:٤٣٣/٢.
[٢] انظر: تفسير الطبري:٧٢/١٥، والنكت والعيون:٤٣٣/٢.
[٣]ديوانه: ٢٩٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٢٧٧، وتفسير الطبري:٧٢/١٥، واللسان (قتر) ، وغيرها، ورواية ديوانه " معتصب برداء الملك "، وهذا بيت من قصيدة مدح فيها بشر بن مروان، وقبله:
كُلُّ امْرِئٍ لِلْخَوْفِ أَمَّنَهُ ... بِشْرُ بْنُ مَرْوَانَ وَالمَذْعُورُ مَنْ ذَعَرَا
فَرْعٌ تَفَرَّعَ فِي الأَعْياصِ مَنْصِبُهُ ... والعامِرَيْنِ، لَهُ العِرنَيْنُ مِنْ مُضَرَا.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٦٣/٤.
[٥] انظر: النكت والعيون:٤٣٣/٢.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٦٣/٤.
[٧] التفسير الميسر:٢١٢.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٤٩):ص١٩٤٦/٦.
[٩] تفسير الطبري:٧٢/١٥.
[١٠] انظر : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ٤٠٢.

التي شمر إليها السابقون، وتنافس فيها المتنافسون، واجتهد في نيلها العابدون وقد تضافرت النصوص من الكتاب العزيز والسنة النبوية الصحيحة على أن المؤمنين يرون الله عز وجل بأبصارهم كما يرون القمر ليلة البدر(١).

والآيات تدل على رؤية الله تعالى كثيرة وهي أنواع، منها(٢):

أـ آيات المزيد:

قال تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس : ٢٦].

قال ﷺ: "إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}"(٣). وقال ﷺ: الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الرحمن، وهذا الحديث متواتر يقطع بصحته(٤).

وقال تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق : ٣٥]، وعن علي وأنس رضي الله عنهما أن تفسير هذه الآية النظر إلى وجه الرحمن(٥).

قال ابن كثير: وقوله تعالى:"ولدينا مزيد" كقوله عز وجل:"للذين أحسنوا الحسنى وزيادة"(٦).

ب- الآيات الصريحة في النظر إلى وجه الله تعالى:

قال تعالى:{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ*إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }[القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

قوله تعالى:{الناضرة}: الحسنة؛ حسنها الله بالنظر إلى ربها عز وجل، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربها ﷻ (٧).

وفي قوله:{إلى ربها ناظرة}: هذا من النظر إلى؛ أي إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة، أي تنظر إليه، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرن إلى ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر (٨).

ت-آيات حرمان الكفار من رؤيته سبحانه:

بين سبحانه ـ في بعض الآيات ـ أنه يحرم الكفار من النظر إليه عقوبة لهم على كفرهم، وهذا يدل بمفهومه أن المؤمنين يرونه سبحانه، إذ لو كان المؤمنون لا يرونه أيضا لما كان لتخصيص الكفار بالحرمان فائدة بل أصبح هذا الكلام من العبث الذي ينزه عنه الشارع، قال

---

(١)أقوال التابعين، عبد العزيز عبد الله :١٠٦٦/ ٣.
(٢) انظر: الإيمان باليوم الآخر، علي محمد محمد الصَّلاَّبي:٣٤٢ وما بعدها.
(٣)مسلم، ك الإيمان، رقم ١٨١.
(٤)نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني ص٢٥٣.
(٥)شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٥١٩/ ٣).
(٦)تفسير ابن كثير :٢٢٨/ ٤.
(٧)أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (١٠٧٤/ ٣).
(٨)فتح القدير للشوكاني :٣٣٦/ ٥.

تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران : ٧٧].

في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون، وقال مالك بن أنس في هذا الآية: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي: لما حجب قوما بالسخط، دل على أن قوما يرونه بالرضا، ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا[١].

وعن أشهب قال: سأل رجل مالكا: هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة؟ فقال مالك: لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة؟ فقال مالك: لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيام لم يعير الله الكفار بالحجاب، فقرأ:"كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون" فقيل له: يا أبا عبد الله فإن قوما يزعمون أن الله لا يرى فقال مالك: السيف السيف"[٢].

ث- آيات العندية:

عن مسروق قال: "سألنا عبد الله عن هذه الآية:{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون}، قال: أما أنا قد سألناه عن ذلك - يعني رسول الله - ﷺ فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئا قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا فقالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا"[٣].

ج- آيات الملاقاة:

- قال تعالى: { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [البقرة : ٢٢٣].

- وقال تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [الأحزاب : ٤٤].

- وقال تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} [هود : ٢٩].

- وقال تعالى: { قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة : ٢٤٩].

وقال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف : ١١٠].

قال ابن مسعود: "من أراد النظر إلى وجه الله خالقه فليعمل عملا صالحا ولا يخبر أحدا"[٤].

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة : ٤٦].

---

(١)تفسير القرطبي (١٧١/ ١٩) بتصرف.
(٢)شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥١٨/ ٣) للألكائي.
(٣)مسلم، ك الإمارة رقم ١٨٨٧ اليوم الآخر في القرآن العظيم ص ٦٤٤.
(٤)حادى الأرواح ص٣٧٢.

قال ابن القيم: وأجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع، اقتضى المعاينة والرؤية(١).

ح- الأحاديث النبوية في الرؤية:

وقد ثبت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها (٢).

وفي نظم المتناثرة من الحديث المتواتر ذكر أن أحاديث الرؤية وردت مرفوعة من طريق ثمانية وعشرين صحابيا ثم سرد أسماءهم(٣).

وقال ابن أبي العز الحنفي: وقد روي أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها (٤)، ومن هذه الأحاديث:

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أناسا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: نعم، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا، قال: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا، قال النبي ﷺ: ما تضارون من رؤية الله عز وجل يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما(٥).
- وعن أبي هريرة أن ناسا قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك(٦).
- جرير بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: "إنكم سترون ربكم عيانا"(٧).

خ- رضوان الله أكبر:

قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ٧٢].

فقوله تعالى: {ورضوان من الله أكبر}، أي: رضا الله عنهم وأكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا "(٨).

القرآن

---

(١)حادي الأرواح:٣٢٨.
(٢)تفسير ابن كثير :٤٥٠/ ٤.
(٣)نظم المتناثر للكتاني ص٢٥٠ حادي الأرواح ص٣٣٧..
(٤)شرح الطحاوية :٢١٧/ ١.
(٥)البخاري رقم ٧٠٠٢.
(٦)البخاري رقم ٧٠٠٠، مسلم رقم ١٨٢.
(٧)البخاري رقم ٦٩٩٨.
(٨)البخاري رقم ٦٥٤٩، مسلم ٢٨٢٩.

{وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)} [يونس : ٢٧]

التفسير:

والذين عملوا السيئات في الدنيا فكفروا وعصَوا الله لهم جزاء أعمالهم السيئة التي عملوها بمثلها من عقاب الله في الآخرة، وتغشاهم ذلَّة وهوان، وليس لهم مِن عذاب الله مِن مانع يمنعهم إذا عاقبهم، كأنما أُلبست وجوههم أجزاء من سواد الليل المظلم. هؤلاء هم أهل النار ماكثون فيها أبدًا.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا} [يونس : ٢٧]، أي:" والذين عملوا السيئات في الدنيا فكفروا وعصَوا الله لهم جزاء أعمالهم السيئة التي عملوها بمثلها من عقاب الله في الآخرة"(١).

قوله تعالى:{وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} [يونس : ٢٧]، أي:" وتغشاهم ذلَّة وهوان"(٢).

قال ابن كثير:" أي : تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها ، كما قال تعالى : { وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ } [الشورى : ٤٥] ، وقال تعالى : { وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَاب } [إبراهيم : ٤٢ - ٤٤]"(٣).

قوله تعالى:{مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ} [يونس : ٢٧]، أي:" وليس لهم مِن عذاب الله مِن مانع يمنعهم إذا عاقبهم"(٤).

قال ابن كثير:" أي : من مانع ولا واق يقيهم العذاب ، كما قال تعالى : { يَقُولُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلا لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ } [القيامة : ١٠ - ١٢]"(٥).

قوله تعالى:{كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} [يونس : ٢٧]، أي:" كأنما أُلبست وجوههم أجزاء من سواد الليل المظلم"(٦).

قال ابن كثير:" إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [آل عمران : ١٠٦ ، ١٠٧] ، وكما قال تعالى : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } [عبس : ٣٨ - ٤٢]. الآية"(٧).

قوله تعالى:{أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس : ٢٧]، أي:" هؤلاء هم أهل النار ماكثون فيها أبدًا"(٨).

الفوائد:

١- بيان سوء السيئة وما تورثه من حسرة وندامة وما توجبه من خسران.
٢- بيان أحوال الكفار يوم القيامة وذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم.

---

(١) التفسير الميسر:٢١٢.
(٢) التفسير الميسر:٢١٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٦٤/٤.
(٤) التفسير الميسر:٢١٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٦٤/٤.
(٦) التفسير الميسر:٢١٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٦٤/٤.
(٨) التفسير الميسر:٢١٢.

٣- يسود الله في الدار الآخرة وجوه أهل النار، وهو سواد شديد، كأنما حلت ظلمة الليل في وجوههم، قال تعالى: {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} [يونس : ٢٧].

ومن أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة:

أ- قوله تعالى: {وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران : ١٠٦]، بين في هذه الآية الكريمة أن من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة الكفر بعد الإيمان، وذلك في قوله: { فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [آل عمران : ١٠٦].

ب- وبيّن في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكذب على الله تعالى وهو قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر : ٦٠].

ت- وبيّن في موضع آخر أن من أسباب ذلك اكتساب السيئات، وهو قوله: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس : ٢٧].

ث- وبيّن في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر والفجور وهو قوله تعالى: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [عبس :٤٠- ٤٢].

وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبر عنه بعبارات مختلفة، وهو الكفر بالله تعالى، وبين في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون، وهو قوله: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [طه : ١٠٢]، وأقبح صورة أن تكون الوجوه سودا والعيون زرقا، ألا ترى الشاعر لما أراد أن يصور علل البخيل في أقبح صورة وأشوهها اقترح لها زرقة العيون، واسوداد الوجوه في قوله[١]:

وَلِلْبخيلِ عَلَى أَمْواله عِلَلٌ زُرْق العُيونِ عَلَيْها أَوْجُه سُودُ

لأنه حريص على أمواله ولا يريد إنفاقها[٢].

القرآن

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)} [يونس : ٢٨]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- يوم نحشر الخلق جميعا للحساب والجزاء، ثم نقول للذين أشركوا بالله: الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله حتى تنظروا ما يُفْعل بكم، فَفَرَّقْنا بين المشركين ومعبوديهم، وتبرَّأ مَن عُبِدُوا مِن دون الله ممن كانوا يعبدونهم، وقالوا للمشركين: ما كنتم إيانا تعبدون في الدنيا.

قوله تعالى:{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [يونس : ٢٨]، أي:" واذكر -أيها الرسول- يوم نحشر الخلق جميعا للحساب والجزاء"[٣].

قال ابن كثير:" أي : أهل الأرض كلهم ، من إنس وجن وبر وفاجر ، كما قال : { وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } [الكهف : ٤٧]"[٤].

---

[١] البيت لبشار بن برد، انظر: المحرر الوجيز:٤٨٧/١، ووالبحر المحيط في التفسير:٢٩٢/٣، والتحرير والتنوير:٨٣/١٥، وغيرها.

[٢] .

(٣) التفسير الميسر:٢١٢.

(٤) تفسير ابن كثير:٢٦٤/٤.

قوله تعالى:{ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ} [يونس : ٢٨]، أي:" ، ثم نقول للذين أشركوا بالله: الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله حتى تنظروا ما يُفْعل بكم"[١].

قال ابن كثير:" أي : الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، كما قال تعالى : { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [يس : ٥٩] ، وقال { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ } [الروم : ١٤] ، وفي الآية الأخرى:{ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ } [الروم : ٤٣] أي : يصيرون صِدعين ، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء ؛ ولهذا قيل : ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا ، وفي الحديث الآخر : «نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس»[٢]"[٣].

قوله تعالى:{فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} [يونس : ٢٨]، أي:" فَفَرَّقْنا بين المشركين ومعبوديهم"[٤].

قوله تعالى:{وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} [يونس : ٢٨]، أي:" وتبرَّأ مَن عُبِدُوا مِن دون الله ممن كانوا يعبدونهم، وقالوا للمشركين: ما كنتم إيانا تعبدون في الدنيا"[٥].

قال ابن كثير:" أنكروا عبادتهم ، وتبرءوا منهم ، كما قال تعالى : { [كَلا] سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } الآية. [مريم : ٨٢]. وقال : { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة : ١٦٦] ، وقال { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } [الأحقاف : ٥ ، ٦]"[٦].

الفوائد:

١- تقرير معتقد البعث والجزاء بعرض صادق وأضح له.
٢- تصوير ما سيكون وسيقع يوم القيامة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة وتنصل المعبودين من جناية هؤلاء العابدين، وإنكارهم أن يكون لهم يد في إضلالهم وشركهم.
٣- أن جلّ شرك المشركين إنما كان بإشراكهم الصالحين بالله تعالى ولذلك نرى أن أكثر آلهتهم إنما كانت من عباد الله الصالحين من الأنبياء والأولياء، أمثال إبراهيم، وإسماعيل، والمسيح، وعزير عليهم السلام، ومريم، وود، وسواع، ويغوث، ويعوق، واللات، ومناة، وهبل وغيرهم.
٤- أن الله عز وجل قد ذكر أوصاف العقلاء لآلهة المشركين في صدد الرد عليهم وعبر عن آلهتهم بصيغ العقلاء؛ فدل ذلك على أنهم إنما كانوا يعبدون الصالحين، ولم يكونوا يقصدون الأحجار والأصنام بالعبادة لذاتها، وتفصيل ذلك على ما ذكره أهل العلم: أن الله تعالى قال في صدد الرد على المشركين مبينًا عجز آلهتهم:

- {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل: ٢٠ - ٢١].
- وقال جل وعلا:{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} [يونس: ٢٨-٢٩].

---

(١) التفسير الميسر:٢١٢.
(٢)رواه أحمد في المسند (٣٤٥/٣) من حديث جابر رضي الله عنه. والكوم : الموضع المشرف العال.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٦٤/٤.
(٤) التفسير الميسر:٢١٢.
(٥) التفسير الميسر:٢١٢.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٦٥/٤.

- وقال سبحانه وتعالى:{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف: ١٩٤].
- وقال عز وجل:{أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ} [الكهف: ١٠٢].
- وقوله تبارك وتعالى:{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} [فاطر: ١٣-١٤].
- وقال جل شأنه: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٥-٦].
- وقال تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء: ٥٧] .

إلى غيرها من الآيات التي فيها ذكر آلهة المشركين بصيغ العقلاء وصفات ذوي العقول؛ فأنت ترى: أن هذه الآيات الكريمات مشتملة على صفات العقلاء؛ لآلهة المشركين والتعبير عنهم بصيغ العقلاء: نحو: الذين، يخلقون، وأموات، وما يشعرون، ويبعثون، ونحشرهم، وقال شركاؤهم، ولغافلين، وعباد أمثالكم وفليستجيبوا، وعبادي، وما يملكون، ولا يسمعوا، و (لو سمعوا) ، وما استجابوا، و (يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) ، و (هم) ، وغافلون، و (إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) ، و (كانوا بعبادتهم كافرين) ، و {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} ، و (يرجون رحمته) ، و (يخافون عذابه) ، ونحو ذلك من الصيغ التي لا تستعمل إلا لذوي العقول عند العرب، وغيرهم والصفات التي لا توجد إلا في العقلاء في اللغة العربية، وغيرها؛ فإن الجمادات من الأصنام والأحجار والأشجار والتماثيل التي لا تعقل لا يقال فيها: (الذين لا يخلقون) ، و (لا يشعرون) ، ولا يملكون، ولا يستجيبون، ولا يسمعون ... ، كما لا يقال فيها: ({أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} ، وعباد أمثالكم، وأعداء، وعبادي، ونحشرهم، وغافلون، وغافلين، وكافرين، ويبعثون، ويبتغون، ويرجون، ويخافون)... وهذه كلها براهين باهرة على أن آلهة المشركين السابقين إنما كانوا عقلاء، وأنهم كانوا من عباد الله تعالى وليسوا جمادات بحتة، ولا أحجار صرفة.

القرآن

{فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)} [يونس : ٢٩]

التفسير:

فكفى بالله شهيدًا بيننا وبينكم، إننا لم نكن نعلم ما كنتم تقولون وتفعلون، ولقد كنَّا عن عبادتكم إيانا غافلين، لا نشعر بها.

قوله تعالى:{فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [يونس : ٢٩]، أي:" فكفى بالله شهيدًا بيننا وبينكم، إننا لم نكن نعلم ما كنتم تقولون وتفعلون"[١].

قوله تعالى:{إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} [يونس : ٢٩]، أي:" ولقد كنَّا عن عبادتكم إيانا غافلين، لا نشعر بها"[٢].

قال ابن كثير:" أي : ما كنا نشعر بها ولا نعلم ، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم ، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا

---

[١] التفسير الميسر:٢١٢.
[٢] التفسير الميسر:٢١٢.

منكم بذلك.
وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، ممن لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنهم شيئًا ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده ، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الحي القيوم ، السميع البصير ، القادر على كل شيء ، العليم بكل شيء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه ، آمرا بعبادته وحده لا شريك له ، ناهيًا عن عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ } [النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء : ٢٥] ، وقال : { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } [الزخرف : ٤٥]. والمشركون أنواع وأقسام كثيرون ، قد ذكرهم الله في كتابه ، وبَيّن أحوالهم وأقوالهم ، ورَد عليهم فيما هم فيه أتم رد"[١].
الفوائد:

١- تبرؤ ما عبد من دون الله من عابديه وسواء كان المعبود ملكا أو إنسانا أو جانا أو شجرا أو حجرا الكل يتبرأ من عابديه ويستشهد الله تعالى عليه.
٢- بيان أسلوب من أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى توحيد الألوهية: وذلك ببيان ما يقع يوم القيامة بين هؤلاء المشركين وآلهتهم من براءة بعضهم من بعض، وتخليهم عن عابديهم وتنكرهم لأتباعهم، في حال هم أحوج ما يكون إلى من يشفع لهم ويدافع عنهم.
٣- أن العبادة حق الله وحده وأنه لا يجوز صرف شيء منها لغيره- سبحانه- فالواجب على أهل العلم أن يبينوا ذلك للناس وأن يشرحوا لهم حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله محمداً - ﷺ - ومن قبله من الرسل.
٤- إثبات اسم من اسماءه تعالى، وهو «الشهيد»:

و«الشهيد»: "هو الذي لا يغيب عنه شيء. يقال: شاهد وشهيد كعالم، وعليم. أي: كأنه الحاضر الشاهد الذي لا يعزب عنه شيء. وقد قال –سبحانه-: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة : ١٨٥]، أي: من حضر منكم في الشهر فليصمه.

ويكون «الشهيد»، بمعنى: العليم. كقوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُو} [آل عمران : ١٨]، قيل: معناه: علم الله.

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى معناه: «بين الله أنه لا إله إلا هو»، وهو أيضا الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر على الظالم المتعدي الذي لا مانع له في الدنيا؛ لينتصف له منه"[٢].

القرآن

{هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)} [يونس : ٣٠]

التفسير:
في ذلك الموقف للحساب تتفقد كل نفس أحوالها وأعمالها التي سلفت وتعاينها، وتجازى بحسبها: إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ورُدَّ الجميع إلى الله الحكم العدل، فأُدخِلَ أهل الجنةِ الجنةَ وأهل النار النار، وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٦٥/٤.
[٢] شأن الدعاء:٧٦.

قوله تعالى:{هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ} [يونس : ٣٠]، أي:" في ذلك الموقف للحساب تتفقد كل نفس أحوالها وأعمالها التي سلفت وتعاينها، وتجازى بحسبها: إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر"[١].

قال ابن كثير:" أي : في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر ، كما قال تعالى : { يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ } [الطارق : ٩] ، وقال تعالى : { يُنَبَّأُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ } [القيامة : ١٣] ، وقال تعالى : { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء : ١٣ ، ١٤]"[٢].

عن الحسين، في قوله: "{ما أسلفت}، قال: عملت"[٣]. وروي عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم نحو ذلك[٤].

وفي قوله تعالى:{هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ} [يونس : ٣٠]، قراءتان[٥]:

إحداهما : «تتلو»، بتاءين، قرأ بها حمزة والكسائي ، وفي تأويلها ثلاثة أوجه[٦]:

أحدها :معناه: تتبع كل نفس ما قدمت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍ. قاله السدي[٧]، ومنه قول الشاعر[٨]:

إنَّ المُريبَ يَتْبَع المُريبا كما رأيت الذِّيبَ يتلو الذِّيبا

وأخرج ابن ابي حاتم عن السدي: "قوله { هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ}، يقول: "مبتغ كل نفس"[٩].

الثاني : تتلو كتاب حسناتها وكتاب سيئاتها ، ومن التلاوة .

والثالث : تعاين كل نفس جزاء ما عملت. قاله ابن زيد[١٠].

قال ابن كثير:" قد قرأ بعضهم :{ هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ } وفسَّرها بعضهم بالقراءة ، وفسّرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر ، وفسّرها بعضهم بحديث : «تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت»[١١]، الحديث"[١٢].

والقراءة الثانية : وهي قراءة الباقين « تَبْلُو » بالباء، وفي تأويلها وجوه[١٣]:

أحدها : تسلم كل نفس. قاله الحسن[١٤].

قال القرطبي:" أي: تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها"[١٥].

الثاني : تختبر كل نفس، قاله مجاهد[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٢.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٦٥/٤.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٦٨):ص١٩٤٩/٦.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٤٩/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[٥] انظر: السبعة في القراءات:٣٢٥، وتفسير الطبري:٨٠/١٥-٨١، والنكت والعيون:٤٣٤/٢.
[٦] انظر: السبعة في القراءات:٣٢٥، وتفسير الطبري:٨٠/١٥-٨١، والنكت والعيون:٤٣٤/٢.
[٧] انظر: النكت والعيون:٤٣٤/٢، وتفسير القرطبي:٣٣٤/٨، والبحر المحيط:٥١/٦.
[٨] البيت من شواهد الماوردي في النكت والعيون:٤٣٤/٢، والقرطبي في تفسيره:٣٣٤/٨، وأبي حيان في البحر:٥١/٦، والسمين الحلبي في الدر المصومن:١٩٣/٦، وغيرها.
[٩] تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٦٧):ص١٩٤٩/٦.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٥٧):ص٨٢/١٥.
[١١] تفسير ابن كثير:٢٦٥/٤-٢٦٦.
[١٢] رواه مسلم في صحيحه برقم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
[١٣] انظر: السبعة في القراءات:٣٢٥، وتفسير الطبري:٨٠/١٥-٨١، والنكت والعيون:٤٣٤/٢، وتفسير القرطبي:٣٣٤/٨.
[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٦٦):ص١٩٤٩/٦.
[١٥] تفسير القرطبي:٣٣٤/٨ .

والثالث: تذوق. ذكره القرطبي[٢].
والرابع: تعلم. قاله الكلبي[٣].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القراء، وهما متقاربتا المعنى. وذلك أن من تبع في الآخرة ما أسلفَ من العمل في الدنيا، هجم به على مَوْرده، فيخبر هنالك ما أسلفَ من صالح أو سيئ في الدنيا، وإنّ مَنْ خَبَر من أسلف في الدنيا من أعماله في الآخرة، فإنما يخبرُ بعد مصيره إلى حيث أحلَّه ما قدم في الدنيا من علمه، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبع ما أسلف من عمله، مختبر له، فبأيتهما قرأ القارئ كما وصفنا، فمصيبٌ الصوابَ في ذلك"[٤].

قوله تعالى:{وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ} [يونس : ٣٠]، أي:" ورُدَّ الجميع إلى الله الحكم العدل، فأُدخِلَ أهل الجنةِ الجنةَ وأهل النار النار"[٥].

قال ابن كثير:" أي : ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ، ففصلها ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار"[٦].

قوله تعالى:{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [يونس : ٣٠]، أي:" وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه"[٧].

قال ابن كثير:" أي : ذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه "[٨].

قال الصابوني:" أي: ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه من أن الأوثان تشفع لهم، وفي الآية تبكيتٌ شديدٌ للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنهم شيئاً"[٩].

عن ابن عباس قوله: "{وضل عنهم ما كانوا يفترون}، هذا في القيامة"[١٠].

وعن ابن عباس -أيضا- في قوله: "{ما كانوا يفترون}، أي: يشركون"[١١].

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: "{وضل عنهم ما كانوا يفترون}، وقال: ما كانوا يدعون معه من الأنداد والآلهة، وذلك جعلوها أندادا مع الله افتراء وكذبا"[١٢].

الفوائد:

١- في عرصات القيامة تعلم كل نفس ما أحضرت، وما قدمت وأخرت وتبلو ما أسلفت فتعرف وأنى لها أن تنتفع بما تعرف؟.
٢- أن هذه الآية الكريمة تدل على أن الله مولى الكافرين، قال تعالى:{ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ}، ونظيره قوله تعالى: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ} [الأنعام: ٦٢] وقد جاء في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك، وهي قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد: ١١]، والجواب عن هذا: أن معنى كونه مولى

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٥٤)-(١٧٦٥٦):ص٨١/١٥.
[٢] انظر: تفسير القرطبي:٣٣٤/٨.
[٣] انظر: تفسير القرطبي:٣٣٤/٨.
[٤] تفسير الطبري:٨٢/١٥.
[٥] التفسير الميسر:٢١٢.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٦٦/٤.
[٧] التفسير الميسر:٢١٢.
[٨] تفسير ابن كثير:٢٦٦/٤.
[٩] صفوة التفاسير:٥٤١/١.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٧٠):ص١٩٥٠/٦ .
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٧٢):ص١٩٥٠/٦ .
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٧٣):ص١٩٥٠/٦ .

الكافرين أنه مالكهم المتصرف فيهم بما شاء، ومعنى كونه مولى المؤمنين دون الكافرين أي ولاية المحبة والتوفيق والنصر، والعلم عند الله تعالى[١].

والحق أن لاية الله تعالى، نوعان:

أ- ولاية عامة: وهي الشاملة لكل أحد، قال الله تعالى: {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [يونس : ٣٠]، فجعل لنفسه سبحانه ولاية على هؤلاء المفترين، فهذه ولاية عامة، فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك.

ب- ولاية خاصة: وهي أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه للمؤمنين، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد : ١١]، وهذا النوع هو المقصود بقول ابن عباس رضي الله عنه.

٣- وفي الآية الرد على من ذهب إلى أن «النفس» ليست جسما ممن ينتمي إلى الإسلام بزعمه، فقول باطل، فإن الله عز وجل قال: {هُنَالك تبلو كل نفس مَا أسلفت}، وقال تعالى : {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [غافر : ١٧]، وقال تعالى: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور : ٢١]، فصح أن النفس هي الفعالة الكاسبة المجزية المخطئة.

القرآن

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)} [يونس : ٣١]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: مَن يرزقكم من السماء، بما يُنزله من المطر، ومن الأرض بما ينبته فيها من أنواع النبات والشجر تأكلون منه أنتم وأنعامكم؟ ومَن يملك ما تتمتعون به أنتم وغيركم من حواسّ السمع والأبصار؟ ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في الكون كلِّه، فيخرج الأحياء والأموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات، وفيما لا تعرفون؟ ومَن يدبِّر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخليقة جميعًا؟ فسوف يجيبونك بأن الذي يفعل ذلك كله هو الله، فقل لهم: أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم معه غيره؟

قوله تعالى:{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [يونس : ٣١]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: مَن يرزقكم من السماء، بما يُنزله من المطر، ومن الأرض بما ينبته فيها من أنواع النبات والشجر تأكلون منه أنتم وأنعامكم؟"[٢].

قال ابن كثير:" يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله، فقال : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ } أي : من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر ، فيشق الأرض شقًا بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها { حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } [عبس : ٢٧ - ٣١] ، أإله مع الله ؟ فسيقولون : الله ، { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ } [الملك : ٢١] ؟"[٣].

قوله تعالى:{أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ} [يونس : ٣١]، أي:" ومَن يملك ما تتمتعون به أنتم وغيركم من حواسّ السمع والأبصار؟"[٤].

قال ابن كثير:" أي : الذي وهبكم هذه القوة السامعة ، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها ، كما قال تعالى : { قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ

---

[١] انظر: دفع إيهام الاضراب ، الشنقيطي:١٠/٨٢.

[٢] التفسير الميسر:٢١٢.

[٣] تفسير ابن كثير:٢٦٦/٤.

[٤] التفسير الميسر:٢١٢.

قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ } [الملك : ٢٣] ، وقال { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ } [الأنعام : ٤٦]"[١].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [يونس : ٣١]، أي:" ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في الكون كلِّه، فيخرج الأحياء والأموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات، وفيما لا تعرفون؟"[٢].

قال ابن كثير:" أي : بقدرته العظيمة ، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك ، وأن الآية عامة في ذلك كله "[٣].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [يونس : ٣١]، أي:" ومَن يدبِّر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخليقة جميعًا؟"[٤].

قال ابن كثير:"أي:من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسْأَلُون ، { يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } [الرحمن : ٢٩] ، فالملك كله العلوي والسفلي ، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان ، فقيرون إليه ، عبيد له ، خاضعون لديه"[٥].

عن مجاهد:"{يدبر الأمر}، قال: يقضيه وحده"[٦].

قوله تعالى:{فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ} [يونس : ٣١]، أي:" فسوف يجيبونك بأن الذي يفعل ذلك كله هو الله"[٧].

قال ابن كثير:" أي : هم يعلمون ذلك ويعترفون به"[٨].

قوله تعالى:{فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس : ٣١]، أي:" فقل لهم: أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم معه غيره؟"[٩].

قال ابن كثير:" أي : أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم ؟"[١٠].

عن الضحاك، في قوله: "{أفلا تتقون}، قال: تتقون النار بالصلوات الخمس"[١١].

وعن مجاهد:"{تتقون}: تستطيعون"[١٢].

الفوائد:

١- ومن فوائد الآية والتي بعدها: إفراد الله بالتدبير: فلا مدبر إلا الله وحده، وأما تدبير الإنسان؛ فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعا.

٢- إقرار الكفار الذين قاتلهم رسول الله بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدب ، فإن الكفار الذين قاتلهم رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم مقِرون بأن اللَّه تعالى هو الخالق المدبِّر، وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام.

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٦٦/٤.
[٢] التفسير الميسر:٢١٢.
[٣] تفسير ابن كثير:٢٦٦/٤.
[٤] التفسير الميسر:٢١٢.
[٥] تفسير ابن كثير:٢٦٦/٤.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٧٤):ص١٩٥٠/٦.
[٧] التفسير الميسر:٢١٢.
[٨] تفسير ابن كثير:٢٦٦/٤-٢٦٧.
[٩] التفسير الميسر:٢١٢.
[١٠] تفسير ابن كثير:٢٦٧/٤.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٧٥):ص١٩٥٠/٦.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٧٦):ص١٩٥١/٦.

والآية الكريمة من الحجج التي أقامها القرآن الكريم على المشركين، استجوابهم عن أمور لا يمكنهم إنكارها، كالرزق والحواس، وأحوال الموت والحياة، وشئون التدبير.

٣- مشركوا العرب كانوا يشركون في الألوهية ويوحدون في الربوبية.

٤- وليس بنافع أن يوحد العبد في الربوبية ويشرك في الألوهية.

٥- أنه دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام[١]:

- الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [الزخرف : ٨٧]، وقال: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس : ٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء : ٢٣]، تجاهل من عارف أنه عبد مربوب؛ بدليل قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء : ١٠٢]، وقوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل : ١٤]، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله، كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف : ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدا.
- الثاني: توحيده جل وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله»، وهي متركبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} .ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر وقوله لذ نبك} الآية، وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل : ٣٦] ، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف : ٤٥]، وقوله: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [الأنبياء : ١٠٨]، فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إن ما أوحى إليه محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.
- النوع الثالث: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:
- الأول: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى : ١١].
- والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما قال بعد قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى : ١١]، مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه : ١١٠].

---

[١] انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليه شرح الصدور في تحريم رفع القبور، الشوكاني:١٦-١٧.

القرآن
{فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢)} [يونس : ٣٢]
التفسير:
فذلكم الله ربكم هو الحق الذي لا ريب فيه، المستَحِق للعبادة وحده لا شريك له، فأي شيء سوى الحق إلا الضلال؟ فكيف تُصْرَفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه؟

قوله تعالى:{فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ} [يونس : ٣٢]، أي:" فذلكم الله ربكم هو الحق الذي لا ريب فيه، المستَحِق للعبادة وحده لا شريك له"[١].
قال ابن كثير:" أي : فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة "[٢].
قوله تعالى:{فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} [يونس : ٣٢]، أي:" ، فأي شيء سوى الحق إلا الضلال؟"[٣].
قال ابن كثير:" أي : فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلا هو ، واحد لا شريك له"[٤].
قوله تعالى:{فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس : ٣٢]، أي:" فكيف تُصْرَفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه؟"[٥].

قال ابن كثير:" أي : فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه ، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء ، والمتصرف في كل شيء ؟"[٦].
عن ابن عباس في قوله: "{فأنى}، قال: كيف"[٧].

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن حرملة بن عبد العزيز قال: "قلت لمالك بن أنس: ما ترى في رجل أمره يعنيني قال: ليس ذلك من الحق قال الله:{فماذا بعد الحق إلا الضلال}.

قال ابن ابي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنبأ أشهب قال: سئل مالك عن شهادة اللعاب بالشطرنج والنرد أترى شهادته جائزة؟ فقال: أما من أتى منها فما أرى شهادتهم طائلة يقول الله عز وجل: {فماذا بعد الحق إلا الضلال}، فهذا كله من الضلال"[٨].

الفوائد:

١- اعتقاد تفرد الله عز وجل بالإلهية.
٢- ليس بعد الحق إلا الضلال فلا واسطة بينهما فمن لم يكن على حق فهو على ضلال.
٣- بيان غناؤه -جلّ وعلا-عن كل موجود: فهو الغني بذاته عن جميع الموجودات، وهي المفتقرة كلها -ابتداء ودوما- إليه.
٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تقدير كلمة (حق) في كلمة التوحيد، والتقدير: «لا إله حق غلا الله»، فكلمة (حق) ضرورية لإخراج المعبودات من دون الله، فاحتاج العلماء إلى تقدير خبر لهذه الجملة، واختلفوا في تقدير الخبر، فمنهم من قال: (لا إله) أي: لا معبود في

[١] التفسير الميسر:٢١٢.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٦٧/٤.
[٣] التفسير الميسر:٢١٢.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٦٧/٤.
[٥] التفسير الميسر:٢١٢.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٦٧/٤.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧٨):ص١٩٥١/٦.
[٨] تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٧٧):ص١٩٥١/٦.

الوجود، ومنهم من قال: (لا إله حق) وهذا التقدير هو الأصوب؛ لأن تقدير (في الوجود) يلزم منه أن يكون كل من قصد بعبادة حقاً، وهذا ليس بصحيح، إنما الذي يراد من هذه العبارة ومن هذه الجملة هو إثبات أن الله هو الإله الحق، ولذلك قال سبحانه وتعالى: {فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} [يونس:٣٢] ، وهذا التقدير أصوب ما قيل في التقديرات، وقد سبق ذكر الدليل على ذلك، فيكون المعنى: لا معبود بحق إلاّ الله تعالى. يعني: لا إله يقصد بشيء من العبادة وهو مستحق لها وأهل لتلك العبادة إلا الله، فإنه هو المستحق للعبادة دون غيره: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج:٦٢] .

القرآن

{كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)} [يونس : ٣٣]

التفسير:

كما كفر هؤلاء المشركون واستمرُّوا على شركهم، حقت كلمة ربك وحكمه وقضاؤه على الذين خرجوا عن طاعة ربهم إلى معصيته وكفروا به أنَّهم لا يصدقون بوحدانية الله، ولا بنبوة نبيِّه محمد ﷺ، ولا يعملون بهديه.

قوله تعالى:{كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [يونس : ٣٣]، أي:" كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق"[١].

قال الزجاج:" أي: مثل أفعالهم جازاهم ربك"[٢].

قال النسفي:" أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك"[٣].

قال ابن كثير:" أي : كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار ، كقوله : { قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [الزمر : ٧١]"[٤].

عن ابن عباس في قوله: "{كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا}، يقول: سبقت كلمة ربك"[٥].

قوله تعالى:{عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا} [يونس : ٣٣]، أي:" على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا"[٦].

قال النسفي:أي:" تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه"[٧].

قوله تعالى:{أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس : ٣٣]، أي:" لأنهم لا يصدّقون بوحدانية الله ورسالة نبيّه، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم"[٨].

قال الزجاج:" أي: حق عليهم أنهم لا يؤمنون، فإنهم لا يؤمنون بدل من كلمة ربك، أعلم الله أنهم بأعمالهم قد منعوا من الإيمان، وجائز أن تكون الكلمة حقت عليهم لأنهم لا يؤمنون، فـ«إنهم لا يؤمنون» بدل من كلمة {ربك} وتكون الكلمة ما وعدوا به من العقاب"[١].

---

[١] صفوة التفاسير:١/٥٤٢.
[٢] معاني القرآن:٣/١٨.
[٣] تفسير النسفي:٢/٢٠.
[٤] تفسير ابن كثير:٤/٢٦٧.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٧٩):ص٦/١٩٥١.
[٦] صفوة التفاسير:١/٥٤٢.
[٧] تفسير النسفي:٢/٢٠.
[٨] صفوة التفاسير:١/٥٤٢.

قال النسفي:قوله: {أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}" بدل من الكلمة أي حق عليهم انتفاء الإيمان أو حق عليهم كلمة الله أن ايمانهم غير كائن أو أراد الكلمة العدة بالعذاب وأنهم لا يؤمنون تعليل أي لأنهم لا يؤمنون"[٢].

عن مجاهد قوله:"{لا يؤمنون}، قال: إذا جاءت بخبر لا يؤمنون"[٣].

الفوائد:

١- التوغل في الشر والفساد يصبح طبعا لصاحبه فلا يخرج منه حتى يهلك به.
٢- أن الفسق أكبر مانع من قبول الحق علماً وعملاً، قال تعالى: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}.
و«الفسق»: هو خروج العبد عن طاعة الله إلى طاعة الشيطان.
والله تعالى لا يزكي من كان هذه حاله؛ بل يكله إلى نفسه الظالمة فتجول في الباطل عناداً وضلالاً، وتكون حركاته كلها شراً وفساداً؛ فالفسق يقرنه الباطل، ويصده عن الحق؛ لأن القلب متى خرج عن الانقياد لله والخضوع؛ فلابد أن ينقاد لكل شيطان مريد: {كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}[الحج:٤].
٣- أن قوله تعالى:{كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} من كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون.
٤- أن استقراء النصوص القرآنية يكشف أن هذه الهداية وما يقابلها من الإضلال ليستا في الإنسان ابتداء وخلقه، بل هما نتائج لمقدمات، ومسببات لأسباب، فكما جعل الله تعالى الطعام سبباً في الغذاء والماء سبباً للري، والسكين ينتج عنه القطع والنار تسبب الحريق، فكذلك جعل أسباباً توصل إلى الهداية وأسباباً تقود إلى الضلال، فالهداية إنما هي ثمار العمل الصالح، والضلال إنما هو نتاج عمل قبيح وإسناد الهداية لله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال والهداية.

القرآن
{قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤)} [يونس : ٣٤]
التفسير:
قل لهم -أيها الرسول-: هل من آلهتكم ومعبوداتكم مَن يبدأ خَلْق أي شيء من غير أصل، ثم يفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه؟ فإنهم لا يقدرون على دعوى ذلك، قل -أيها الرسول-: الله تعالى وحده هو الذي ينشئ الخلق ثم يفنيه ثم يعيده، فكيف تنصرفون عن طريق الحق إلى الباطل، وهو عبادة غير الله؟

قوله تعالى:{قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [يونس : ٣٤]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: هل من آلهتكم ومعبوداتكم مَن يبدأ خَلْق أي شيء من غير أصل، ثم يفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه؟"[٤].
قال ابن كثير:" وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ، { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } أي : من بدأ خلق هذه السموات

---
(١) معاني القرآن:٣/١٨.
(٢) تفسير النسفي:٢/٢٠-٢١.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٨٠):ص٦/١٩٥١.
(٤)التفسير الميسر:٢١٣.

والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ، ثم يعيد الخلق خلقًا جديدًا ؟"[١].

عن مجاهد قوله: "{يبدؤا الخلق ثم يعيده}: يحييه ثم يميته ثم يبديه ثم يحييه"[٢].

قوله تعالى:{قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [يونس : ٣٤]، أي:" قل -أيها الرسول-: الله تعالى وحده هو الذي ينشئ الخلق ثم يفنيه ثم يعيده"[٣].

قال ابن كثير:" هو الذي يفعل هذا ويستقل به ، وحده لا شريك له "[٤].

قوله تعالى:{فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [يونس : ٣٤]، أي:" فكيف تنصرفون عن طريق الحق إلى الباطل، وهو عبادة غير الله؟"[٥].

قال ابن كثير:" أي : فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ؟!"[٦].

عن ابن عباس في قوله: "{أنى يؤفكون}، قال: يكذبون"[٧].

عن الحسن :"{فأنى تؤفكون}، قال: فأنى تصرفون"[٨].

الفوائد:

١- بيان ضعف ما يعبد من دون الله وأنه لا يخلق شيئاً فلا يستحق أن يعبد، قال تعالى:{ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}، وفي هذا الدلالة الواضحة على أن الله تعالى ذكر من الحجج الدالة على توحيده وصرف العبادة إليه وحده لا شريك له: أن غيره لا يخلق شيئاً وأنه ضعيف مربوب لله فوجب ألا يصرف إليه شيء من العبادة.

٢- تقرير الله الخلق وإقرارهم بأن الله هو الخالق وحده، ففي الآية: تقرير التوحيد بإبطال الآلهة المزعومة حيث اعترف عابدوها بأنها لا تبدأ خلقا ولا تعيده بعد موته، ولا تهدي إلى الحق، والله يبدأ الخلق ثم يعيده ويهدي إلى الحق.

القرآن

{قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)} [يونس : ٣٥]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: هل مِن شركائكم مَن يرشد إلى الطريق المستقيم؟ فإنهم لا يقدرون على ذلك، قل لهم: الله وحده يهدي الضال عن الهدى إلى الحق. أيهما أحق بالاتباع: مَن يهدي وحده للحق أم من لا يهتدي لعدم علمه ولضلاله، وهم شركاؤكم الذين لا يهدون ولا يهتدون إلا أن يهدوا؟ فما بالكم كيف سوَّيتم بين الله وخلقه؟ وهذا حكم باطل.

قوله تعالى:{قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} [يونس : ٣٥]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: هل مِن شركائكم مَن يرشد إلى الطريق المستقيم؟"[٩].

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٦٧/٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٨١):ص١٩٥١/٦.
[٣]التفسير الميسر:٢١٣.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٥]التفسير الميسر:٢١٣.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٨٢):ص١٩٥١/٦.
[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٨٣):ص١٩٥٢/٦.
[٩]التفسير الميسر:٢١٣.

قوله تعالى:{قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ} [يونس : ٣٥]، أي:" قل لهم: الله وحده يهدي الضال عن الهدى إلى الحق"[١].

قال ابن كثير:"أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله ، الذي لا إله إلا هو "[٢].

قوله تعالى:{أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى} [يونس : ٣٥]، أي:" أفمن يرشد إلى الحق وهو سبحانه وتعالى أحقُّ بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها؟"[٣].

قال ابن كثير:" أي : أَفَيُتَّبَع العبد الذي يهدي إلى الحق ويُبَصّر بعد العمى ، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى ، لعماه وبكمه ؟ كما قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم أنه قال : { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم : ٤٢] ، وقال لقومه : { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون } [الصافات : ٩٥ ، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات"[٤].

عن مجاهد في قوله: "{أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى}، الأوثان- الله عز وجل يهدي منها ومن غيرها ما شاء"[٥].

قوله تعالى:{فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [يونس : ٣٥]، أي:" فما بالكم كيف سوَّيتم بين الله وخلقه؟"[٦].

قال ابن كثير:" أي : فما بالكم يُذْهَبُ بعقولكم ، كيف سويتم بين الله وبين خَلقه ، وعدلتم هذا بهذا ، وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب ﷻ المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده ، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة"[٧].

قال الصابوني:أي:" ما لكم أيها المشركون تسوّون بين الأصنام وبين ربّ الأرباب، وتحكمون بهذا الباطل الصُراح؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار"[٨].

الفوائد:

١- إبطال الأحكام الفاسدة وعدم إقرارها ووجوب تصحيحها.
٢- أن الله سبحانه يهدى للحق وهو أحق أن يتبع، والمشركون ضالون فيما أشركوا بالله.
٣- أن كل من يدعو للحق أحق أن يتبع سواء أكان إماماً أم غير إمام، ومن دعا إلى الضلال أحق ألا يتبع.

القرآن

{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)} [يونس : ٣٦]

التفسير:

وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين في جعلهم الأصنام آلهة واعتقادهم بأنها تقرّب إلى الله إلا تخرصًا وظنًا، وهو لا يغني من اليقين شيئًا. إن الله عليم بما يفعل هؤلاء المشركون من الكفر والتكذيب.

---

[١] التفسير الميسر:٢١٣.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٦٧/٤.
[٣] صفوة التفاسير:٥٤٢/١.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٦٧/٤-٢٦٨.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٨٤):ص١٩٥٢/٦.
[٦] التفسير الميسر:٢١٣.
[٧] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٨] صفوة التفاسير:٥٤٢/١.

قوله تعالى:{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا} [يونس : ٣٦]، أي:" وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين في جعلهم الأصنام آلهة واعتقادهم بأنها تقرِّب إلى الله إلا تخرصًا وظنًا"[١].

قال ابن كثير:" ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلا ولا برهانًا ، وإنما هو ظن منهم ، أي : توهم وتخيل "[٢].

قوله تعالى:{إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس : ٣٦]، أي:"إن الظن لا يغني من اليقين شيئًا"[٣].

قال ابن كثير:أي:" وذلك لا يغني عنهم شيئا "[٤].

قال الصابوني:" أي: ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات، ظنٌ كاذب لا يغني من اليقين شيئاً، فليس الظنُّ كاليقين"[٥].

وفي قوله تعالى:{إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس : ٣٦]، وجهان[٦]:

أحدهما : أنه منزلة بين اليقين والشك ، وليست يقيناً وليست شكاً .

الثاني : إن الظن ما تردد بين الشك واليقين وكان مرة يقيناً ومرة شكاً .

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس : ٣٦]، أي:" إن الله عليم بما يفعل هؤلاء المشركون من الكفر والتكذيب"[٧].

قال ابن كثير:" تهديد لهم ، ووعيد شديد ؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء "[٨].

الفوائد:

١- لا يقبل الظن في العقائد بل لا بد من العلم اليقيني فيها.
٢- أن إتباع الظن والذي هو مجرد حدس وخرص وأوهام والذي لا ينبني على علم، فإنه ولا شك سبب من أسباب الضلال حسب سنته سبحانه وتعالى، فقد سجل القرآن الكريم في كثير من الآيات على كفار قريش ضلالهم بسبب إتباعهم الظن ـ كسابقيهم من الكافرين ـ وذلك بجعل الأصنام شركاء لله، وبعبادتهم لها وزعمهم أنهم مجبورون في ضلالهم هذا وغيهم.
٣- كراهية القول بالظن والعمل به وفي الحديث :«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[٩].
٤- اثبات اسم من أسمائه تعالى، وهو:«العليم»: أي:" المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[١٠].

القرآن

---

[١] التفسير الميسر:٢١٣.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٣] التفسير الميسر:٢١٣.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٥] صفوة التفاسير:٥٤٣/١.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤٣٥/٢.
[٧] التفسير الميسر:٢١٣.
[٨] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٩] أخرجه مالك (٩٠٧/٢، رقم ١٦١٦) ، وأحمد (٢٨٧/٢، رقم ٧٨٤٥) ، والبخارى (١٩٧٦/٥، رقم ٤٨٤٩) ، ، ومسلم (١٩٨٥/٤، رقم ٢٥٦٣) ، وأبو داود (٢٨٠/٤، رقم ٤٩١٧) ، والترمذى (٣٥٦/٤، رقم ١٩٨٨) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضا: الطبرانى فى الأوسط (٢٢٢/٨، رقم ٨٤٦١) ، والبيهقى (١٨٠/٧، رقم ١٣٨١٣).
[١٠] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧)} [يونس : ٣٧]
التفسير:
وما كان يتهيَّأ لأحد أن يأتي بهذا القرآن مِن عند غير الله، لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق، ولكن الله أنزله مصدِّقا للكتب التي أنزلها على أنبيائه؛ لأن دين الله واحد، وفي هذا القرآن بيان وتفصيل لما شرعه الله لأمة محمد ﷺ، لا شك في أن هذا القرآن موحىً من رب العالمين.

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ} [يونس : ٣٧]، أي:" وما كان يتهيَّأ لأحد أن يأتي بهذا القرآن مِن عند غير الله، لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق"[١].
قال ابن كثير:" أي : مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ، ولا يشبه هذا كلام البشر"[٢].
قوله تعالى:{وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [يونس : ٣٧]، أي:" ولكن الله أنزله مصدِّقا للكتب التي أنزلها على أنبيائه؛ لأن دين الله واحد"[٣].
قال ابن كثير:" أي : من الكتب المتقدمة ، ومهيمنا عليها ، ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل "[٤].
وفي قوله تعالى:{وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [يونس : ٣٧]، ثلاثة وجوه[٥]:
أحدهما : شاهد بصدق ما تقدم من التوراة والإنجيل والزبور .
الثاني : لما بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب .
والثالث: أن يكون معناه ولكن يصدقه الذي بين يديه من الكتب السالفة بما فيها من ذكره فيزول عنه الافتراء. أفاده الماوردي[٦].
قوله تعالى:{وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ} [يونس : ٣٧]، أي:" وفي هذا القرآن بيان وتفصيل لما شرعه الله لأمة محمد ﷺ"[٧].
قال ابن كثير:" أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام "[٨].
قوله تعالى:{لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس : ٣٧]، أي:" لا شك في أن هذا القرآن موحىً من رب العالمين"[٩].
قال ابن كثير: أي:" بيانًا شافيًا كافيًا حقًّا لا مرية فيه من الله رب العالمين ، كما تقدم في حديث الحارث الأعور ، عن علي بن أبي طالب : «فيه خَبَرُ ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم»[١٠]، أي : خَبَر عما سلف وعما سيأتي ، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه"[١١].
الفوائد:

---
[١] التفسير الميسر:٢١٣.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٣] التفسير الميسر:٢١٣.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٥] انظر: النكت والعيون:٤٣٥/٢.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤٣٥/٢.
[٧] التفسير الميسر:٢١٣.
[٨] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.
[٩] التفسير الميسر:٢١٣.
[١٠] مصنف ابن أبى شيبة(٣٠٠٠٧):ص١٢٥/٦، وسنن الدارمي(٣٣٧٥):ص٢٠٩٩/٤، وانظر: جامع الاحاديث(٤٥١٤٦):ص٣٥١/٤١.
[١١] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤.

١- تقرير عقيدة الوحي وإثبات نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى:{ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ}، وقال تعالى:{ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ}[فصلت:٤٢]
٢- من أدلة أن القرآن كلام الله تصديقه للكتب السالفة وعدم التناقض معها إذ هما من مصدر واحد وهو الله رب العالمين.
٣- بيان منزلة القرآن من الكتب المتقدمة، فالقرآن آخر الكتب السماوية وهو خاتمها، وهو أطولها، وأشملها، وهو الحاكم عليها، والقرآن مهيمن مؤتمن وشاهد على ما قبله من الكتب ومصدق لها، يعني: يصدق: ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه، كما قال تبارك وتعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ - وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} [القصص: ٥٢ - ٥٣].

القرآن
{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)} [يونس : ٣٨]
التفسير:
بل أيقولون: إن هذا القرآن افتراه محمد من عند نفسه؟ فإنهم يعلمون أنه بشر مثلهم!! قل لهم -أيها الرسول-: فأتوا أنتم بسورة واحدة من جنس هذا القرآن في نظمه وهدايته، واستعينوا على ذلك بكل مَن قَدَرْتم عليه من دون الله من إنس وجن، إن كنتم صادقين في دعواكم.

قوله تعالى:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [يونس : ٣٨]، أي:" بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه؟"[١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أم يقول هؤلاء المشركون: افترى محمد هذا القرآن من نفسه فاختلقه وافتعله؟"[٢].

عن وهب بن منبه قال: "الكذب هو الفرية وإن رأس الفرية الكذب على الله ثم هو ما بين ذلك حتى يأتي ... كذب وما بين الكفر بالله كفر يأتي كفر النعم"[٣].

قوله تعالى:{قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ} [يونس : ٣٨]، أي:" إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورةٍ مثل هذا القرآن"[٤].

قال الطبري:" قل يا محمد لهم: إن كان كما تقولون إني اختلقته وافتريته، فإنكم مثلي من العَرب، ولساني مثل لسانكم، وكلامي مثل كلامكم، فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن"[٥].

قال الصابوني:" وهو تعجيزٌ لهم وإقامة حجة عليهم"[٦].

قال ابن كثير:" أي : إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله ، وقلتم كذبًا ومَيْنا : "إن هذا من عند محمد" ، فمحمد بشر مثلكم ، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن ، فأتوا أنتم بسورة مثله ، أي: من جنس القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قَدرتم عليه من إنس وجان.. هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ، ولا بسورة من مثله ، لأنه بفصاحته وبلاغته ووَجازته وحَلاوته ، واشتماله على المعاني العزيزة للعزيزة

---

[١] صفوة التفاسير:٥٤٣/١.
[٢] تفسير الطبري:٩١/١٥.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٨٩):ص١٩٥٣/٦.
[٤] صفوة التفاسير:٥٤٣/١.
[٥] تفسير الطبري:٩١/١٥.
[٦] صفوة التفاسير:٥٤٣/١.

النافعة في الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته ، ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين"[١].

وفي «الهاء» في قوله تعالى: {مِثْلِهِ} [يونس : ٣٨]، قولان:

أحدهما: أنه كناية عن القرآن، أي: مثل هذا القرآن. قاله مجاهد[٢]، وقتادة[٣]، واختاره الطبري[٤].

قال قتادة:" مثل هذا القرآن حقا وصدقا لا باطل فيه ولا كذب"[٥].

والثاني: معناه: قل فأتوا بسورة مثل سورته، ثم ألقيت «سورة»، وأضيف «المثل» إلى ما كان مضافًا إليه «السورة»، كما قيل: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢] يراد به: واسأل أهل القرية. وهذا قول بعض نحويي البصرة[٦].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي، أن «السورة» إنما هي سورة من القرآن، وهي قرآن، وإن لم تكن جميع القرآن. فقيل لهم: {فأتوا بسورة مثله}، ولم يقل: «مثلها»، لأن الكناية أخرجت على المعنى- أعني معنى «السورة»- لا على لفظها، لأنها لو أخرجت على لفظها لقيل: «فأتوا بسورة مثلها»"[٧].

قوله تعالى:{وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [يونس : ٣٨]، أي:" وادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه، من الإنس والجن للاستعانة بهم"[٨].

قال الطبري:" يقول: وادعوا، أيها المشركون على أن يأتوا بسورة مثلها مَنْ قدرتم أن تدعوا على ذلك من أوليائكم وشركائكم من عند غير الله، فأجمِعُوا على ذلك واجتهدوا، فإنكم لا تستطيعون أن تأتوا بسورةٍ مثله أبدًا"[٩].

عن ابن عباس :"{وادعوا من استطعتم} من أعوانكم على ما أنتم عليه {إن كنتم صادقين}"[١٠].

عن مجاهد :"{وادعوا}، قال: ناس يشهدون به"[١١].

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس : ٣٨]، أي:" إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه"[١٢].

قال الطبري:" يقول: إن كنتم صادقين في أن محمدًا افتراه، فأتوا بسورة مثله من جميع من يعينكم على الإتيان بها. فإن لم تفعلوا ذلك، فلا شك أنكم كَذَبَةٌ في زعمكم أن محمدًا افتراه، لأن محمدًا لن يَعْدُوَ أن يكون بشرًا مثلكم، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورةٍ مثله، فالواحد منهم عن أن يأتي بجميعه أعجز"[١٣].

قال ابن كثير:" وهذا هو المقام الثالث في التحدي ، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم ، إن كانوا صادقين في دعواهم ، أنه من عند محمد ، فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ، ولا سبيل لهم إليه ، فقال تعالى : { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٦٨/٤-٢٦٩.[ملخصا]
[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٩٠):ص١٩٥٣/٦.
[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٩١):ص١٩٥٣/٦.
[٤] انظر: تفسير الطبري:٩١/١٥.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩١):ص١٩٥٣/٦.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٩١/١٥.
[٧] تفسير الطبري:٩٢/١٥.
[٨] صفوة التفاسير:٥٤٣/١.
[٩] تفسير الطبري:٩٢/١٥.
[١٠] أخره ابن ابي حاتم(١٠٣٩٢):ص١٩٥٣/٦.
[١١] أخره ابن ابي حاتم(١٠٣٩٣):ص١٩٥٣/٦.
[١٢] تفسير الطبري:٩٢/١٥.
[١٣] تفسير الطبري:٩٢/١٥.

الإسراء : ٨٨] ، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه ، فقال في أول سورة هود : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [هود : ١٣] ، ثم تنازل إلى سورة ، فقال في هذه السورة : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } وكذا في سورة البقرة - وهي مدنية - تحداهم بسورة منه ، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدا ، فقال : { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ } الآية : [البقرة : ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته ، وجزالته وطلاوته ، وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادا ، كما عرف السحرة ، لعلمهم بفنون السحر ، أن هذا الذي فعله موسى ، عليه السلام ، لا يصدر إلا عن مُؤَيَّد مُسَدد مرسل من الله ، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى ، عليه السلام ، بُعِث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله ؛ ولهذا جاء في الصحيح ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا»[1]"[2].

الفوائد:

١- بيان الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن الكريم: فمن الإعجاز القرآني ما اشتمل عليه من البلاغة والبيان، والتركيب المعجز، الذي تحدّى به الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك.

فالقرآن هو الحجة البالغة، والآية الباهرة، تحدى الله البشر أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة من سوره، فعجزوا على الرغم من أنه يتكون من حروف وكلمات، والأمة التي أنزل عليها هي أمة الفصاحة والبلاغة، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٣٨]

٢- من أدلة القرآن على أنه وحي الله تحدي الله العرب بالإتيان بسورة واحدة في فصاحته وبلاغته وإعجازه وعجزهم عن ذلك.

القرآن

{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)} [يونس : ٣٩]

التفسير:

بل سارَعوا إلى التكذيب بالقرآن أول ما سمعوه، قبل أن يتدبروا آياته، وكفروا بما لم يحيطوا بعلمه من ذكر البعث والجزاء والجنة والنار وغير ذلك، ولم يأتهم بعدُ حقيقة ما وُعِدوا به في الكتاب. وكما كذَّب المشركون بوعيد الله كذَّبت الأمم التي خلت قبلهم، فانظر -أيها الرسول- كيف كانت عاقبة الظالمين؟ فقد أهلك الله بعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق، وبعضهم بغير ذلك.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٨١) ومسلم في صحيحه برقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] تفسير ابن كثير:٢٦٩/٤.

قوله تعالى:{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} [يونس : ٣٩]، أي:" بل سارَعوا إلى التكذيب بالقرآن أول ما سمعوه، قبل أن يتدبروا آياته، وكفروا بما لم يحيطوا بعلمه من ذكر البعث والجزاء والجنة والنار وغير ذلك"(١).

قال ابن كثير:" يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ، ولم يفهموه ولا عرفوه"(٢).

وفي قوله تعالى:{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} [يونس : ٣٩]، وجهان(٣):

أحدهما : لم يعلموا ما عليهم بتكذيبهم لشكهم فيه .

الثاني : لم يحيطوا بعلم ما فيه من وعد ووعيد لإعراضهم عنه .

قوله تعالى:{وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس : ٣٩]، أي:" ولم يأتهم بعدُ حقيقة ما وُعِدوا به في الكتاب"(٤).

قال ابن كثير:" أي : ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفهًا "(٥).

وفي قوله تعالى:{وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس : ٣٩]، وجهان(٦):

أحدهما : علم ما فيه من البرهان .

الثاني : ما يؤول إليه أمرهم من العقاب .

قوله تعالى:{كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [يونس : ٣٩]، أي:" مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم"(٧).

قوله تعالى:{فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [يونس : ٣٩]، أي:" فانظر -أيها الرسول- كيف كانت عاقبة الظالمين؟ فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين"(٨).

قال ابن كثير:" فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوا ، وكفرا وعنادًا وجهلا فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم"(٩).

عن ابن عباس قوله: "{الظالمين}، فنفاهم الله ظالمين بشركهم"(١٠).

الفوائد:

١- استمرار المشركين في العناد والمجاحدة علته أنهم لم يذوقوا ما توعدهم الله به من العذاب إذ لو ذاقوا لآمنوا ولكن لا ينفعهم حينئذ الإيمان.

٢- أن الواجب على المسلم الإيمان بما صح عن الله ورسوله، واعتقاد ما يدل عليه، وأن لا يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه} ؛ لأن مقتضى الإيمان بالله ورسوله هو التسليم لما جاء عنهما والإيمان به.

٣- أن أهل الجاهلية يجادلون ويخاصمون فيما ليس لهم به علم. والواجب أن الإنسان لا يجادل إلا بعلم، أما ما لا يعلمه فإنه يسكت عنه، قال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس: ٣٩] يعني: وحقيقته التي يؤول إليها. وهذا يتضمن ناحيتين:

- الناحية الأولى: أن الإنسان لا يدخل فيما لا يعلم، ولا ينكر ما لا يعلم، بل يقول: الله أعلم؛ ولهذا يقول الله لنبيه محمد ﷺ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً} [طه: ١١٤] ، فالإنسان لا

---

(١) التفسير الميسر:٢١٣.

(٢) تفسير ابن كثير:٢٦٩/٤.

(٣) انظر: النكت والعيون:٤٣٥/٢-٤٣٦.

(٤) التفسير الميسر:٢١٣.

(٥) تفسير ابن كثير:٢٦٩/٤.

(٦) انظر: النكت والعيون:٤٣٦/٢.

(٧) صفوة التفاسير:٥٤٣/١.

(٨) انظر: التفسير الميسر:٢١٣، وصفوة التفاسير:٥٤٣/١.

(٩) تفسير ابن كثير:٢٦٩/٤.

(١٠)أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٤):ص١٩٥٣/٦ .

يدعي أنه أحاط بالعلم، بل يتقاصر، ويعرف قدر نفسه، ولو كان عنده علم كثير، فما خفي عليه أكثر، والله جل وعلا يقول: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف: ٧٦] حتى ينتهي العلم إلى الله سبحانه وتعالى.

- الناحية الثانية: أنه لا ينكر الشيء الذي يعلمه غيره، فإذا كان عند غيرك علم خفي عليك، فلا تنكر ما عند غيرك، فما أحد من البشر أُعطي العلم كله، ولهذا يقول العلماء: هذه العبارة التي يكررونها دائماً: "من حفظ حجة على من لم يحفظ".

والدهريون والمشركون وسائر أهل الضلال، أنكروا ما أنكروه؛ لجهلهم به، وكونه لا تدركه عقولهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، وبنوا مذاهبهم على القياس الفاسد، فضلوا عن سواء السبيل[١].

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان الفرق بين علم المعنى وعلم التأويل، فقال تعالى: {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله} ففرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله، ومفهومه أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام، وإتيان تأويله نفس وقوع المخبر به، فالخبر له صورة علمية في الذهن، وله حقيقة ثابتة في الخارج، فمعرفة معناه هو معرفة الصورة العلمية في الذهن، وتأويله هو الحقيقة الخارجية ، فإن كان أمرا فتأويله هو نفس الفعل المأمور به، وإن كان خبرا فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع[٢].

القرآن

{وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)} [يونس : ٤٠]

التفسير:

ومِن قومك -أيها الرسول- مَن يصدِّق بالقرآن، ومنهم من لا يصدِّق به حتى يموت على ذلك ويبعث عليه، وربك أعلم بالمفسدين الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد، فيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ} [يونس : ٤٠]، أي:" ومن هؤلاء الذين بعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أُرسلت به"[٣].

قال ابن كثير:" أي : ومن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به "[٤].

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ} [يونس : ٤٠]، أي:" ومنهم من لا يصدِّق به حتى يموت على ذلك ويبعث عليه"[٥].

قال ابن كثير:" بل يموت على ذلك ويبعث عليه "[٦].

قوله تعالى:{وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} [يونس : ٤٠]، أي:" وربك أعلم بالمفسدين الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد، فيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب"[٧].

---

[١] انظر: شرح مسائل الجاهلية:٢٩٣-٢٩٤.[بتصرف بسيط]

[٢] انظر: الإكليل، ابن تيمية:١١-١٨.[ملخصا]

[٣] صفوة التفاسير:٤٥٤/١.

[٤] تفسير ابن كثير:٢٦٩/٤.

[٥] التفسير الميسر:٢١٣.

[٦] تفسير ابن كثير:٢٦٩/٤.

[٧] التفسير الميسر:٢١٣.

قال ابن كثير:" وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله ، وهو العادل الذي لا يجور ، بل يعطي كلا ما يستحقه ، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو"[(١)].

قال الصابوني:أي:"وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله"[(٢)].

عن مجاهد قال: "أن الله لا يخفى عليه الذين يريدون منك الإصلاح والإفساد"[(٣)].

الفوائد:

١- إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك.

٢- ومن الفوائد: بيان مراتب الهداية، وهي:

أ- **الهداية العامة**: هداية كل مخلوق لما يصلح أمور معاشه، وهي أعم المراتب، وهي شاملة لجميع المخلوقات ودليلها قوله تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[طه: ٥٠].

وهذه الهداية تعم جميع المخلوقات، وتعم سائر أمور المعاش من نكاح، وطعام وشراب، وجميع السلوك التي يهدي الله تعالى مخلوقاته لعملها من غير تعليم سابق كهداية النمل إلى تنظيم طرق المعاش وخزن الطعام وغير ذلك مما يحار العقل البشري فيه فسبحان من خلق فسوى ثم قدر فهدى[(٤)].

ب- **هداية الإرشاد والدعوة والبيان**: وهي أخص من التي قبلها حيث إنها مختصة بالمكلفين من الخلق، والمراد بها دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وهي حجة الله على خلقه، فلا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى:{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: ١٦٥].

ت- **هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل**: وهذه لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فمن شاء هدايته اهتدى، ومن شاء ضلاله ضل، وهي أخص مما قبلها إذ هي خاصة للمهتدين من المكلفين، وهي حتمية الوقوع وهي التي نفاها الله تعالى عن رسوله في قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦]، ومنه قوله تعالى: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} [(٥)].

القرآن

{وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)} [يونس : ٤١]

التفسير:

وإن كذَّبك -أيها الرسول- هؤلاء المشركون فقل لهم: لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، فأنتم لا تؤاخَذون بعملي، وأنا لا أؤاخَذ بعملكم.

قوله تعالى:{وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} [يونس : ٤١]، أي:" وإن كذَّبك -أيها الرسول- هؤلاء المشركون فقل لهم: لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم"[(٦)].

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٦٩/٤.
(٢) صفوة التفاسير:٤٥٤/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٩٥):ص١٩٥٤/٦.
(٤) انظر: شفاء العليل:١١٧.
(٥) انظر: العقيدة الإسلامية أحمد جلي:٣٨٢.
(٦) التفسير الميسر:٢١٣.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإن كذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون، وردُّوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القوم، لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، لا يضرني عملكم، ولا يضركم عملي، وإنما يُجازَى كل عامل بعمله"[١].

قال الزمخشري:" وإن كذبوك وإن تموا على تكذيبك[٢] ويئست من إجابتهم، فتبرأ منهم وخلقهم فقد أعذرت، كقوله تعالى فإن عصوك فقل إني بريء"[٣].

قوله تعالى:{أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس : ٤١]، أي:" فأنتم لا تؤاخَذون بعملي، وأنا لا أؤاخَذ بعملكم"[٤].

قال الطبري:أي:"لا تُؤْاخذون بجريرته، لا أوخذ بجريرة عملكم، وهذا كما قال جل ثناؤه: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [سورة الكافرون: ١-٣]"[٥].

قال ابن زيد في قوله: "{وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم} الآية، قال: أمرَه بهذا، ثم نَسَخه وأمرَه بجهادهم"[٦].

الفوائد:

١- تقرير معنى آية { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج : ٤٦].
٢- تعليم رسول الله طريق الحجاج والرد على الخصوم المشركين.
٣- البعد عن الكفار والمشركين، والمخالفة لهم، والبراءة منهم.
٤- الرد على من قال بأن الرسول-ﷺ- رضي بدين المشركين ولا اهل الكتاب، إذ ليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين، وجعلوها منسوخة. بل فيها براءته من دينهم، وبراءتهم من دينه، وأنه لا تضره أعمالهم، ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم. وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ، ولم يرض الرسول بدين المشركين، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط.

ومن زعم أنه رضي بدين الكفار، واحتج بقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {١} لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ {٢} وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {٣} وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ {٤} وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ {٦} [سورة الكافرون: ١-٦] .

فظن هذا الملحد أن قوله {لكم دينكم ولي دين} معناه: أنه رضي بدين الكفار، ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضي بدين الكفار، فهذا من أبين الكذب والافتراء على محمد ﷺ، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه.. ونظير هذه الآية قوله تعالى: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مما أعمل وأنا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ { [سورة يونس: ٤١].

وقوله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ" { [سورة الشورى: ١٥] .

وإذا كان الله سبحانه قد قال: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فإن عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [الشعراء: ٢١٦ - ٢١٧] .

---

[١] تفسير الطبري:٩٤/١٥.
[٢]قوله «وإن تموا على تكذيبك»، أى: مضوا عليه ولم يرجعوا عنه، [أفاده الصحاح].
[٣] الكشاف:٣٤٨/٢.
[٤] التفسير الميسر:٢١٣.
[٥] تفسير الطبري:٩٤/١٥-٩٥.
[٦] أخرجه الطبري(١٧٦٦٢):ص٩٥/١٥.

فبرأه من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة؟[(١)].

٥- الآية دليل على أن قول اللسان يسمى عملا، قال أهل العلم:" وأما عمل اللسان فقوله: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء:١٠٨]، فذكر القول ثم سماه عملاً ثم قال: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس:٤١]، هل كان عمل رسول الله ﷺ معهم إلا دعاؤه إياهم إلى الله، وردهم عليه قوله بالتكذيب وقد أسماها هاهنا عملاً؟!

وقال في موضع ثالث: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} [الصافات:٥١ - ٥٢] إلى {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات:٦١]، فهل يكون التصديق إلا بالقول وقد جعل صاحبها هاهنا عاملاً؟! ثم قال: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} [سبأ:١٣] فأكثر ما يعرف الناس من الشكر أنه الحمد والثناء باللسان، وإن كانت المكافأة قد تدعى شكراً. هذا فيه احتجاج على تسمية قول اللسان عملاً[(٢)].

القرآن

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)} [يونس : ٤٢]

التفسير:

ومِنَ الكفار مَن يسمعون كلامك الحق، وتلاوتك القرآن، ولكنهم لا يهتدون. أفأنت تَقْدر على إسماع الصم؟ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله هدايتهم؛ لأنهم صمٌّ عن سماع الحق، لا يعقلونه.

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} [يونس : ٤٢]، أي:" ومِنَ الكفار مَن يسمعون كلامك الحق، وتلاوتك القرآن، ولكنهم لا يهتدون"[(٣)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ومن هؤلاء المشركين من يستمعون إلى قولك"[(٤)].

قال ابن كثير:" أي : يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان ، وفي هذا كفاية عظيمة ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم"[(٥)].

قال الزمخشري:" معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون"[(٦)].

قال السعدي:" يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول، ولما جاء به، {و} أن {منهم من يستمعون} إلى النبي ﷺ، وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع، ولا مجد على أهله خيرا، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع"[(٧)].

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية :٣٠/٢-٣٢.

(٢)شرح كتاب الإيمان لأبي عبيد، الراجحي:[الدرس(٨)/مرقم آليا].

(٣) التفسير الميسر:٢١٣.

(٤) تفسير الطبري:٩٥/١٥.

(٥) تفسير ابن كثير:٢٧٠/٤.

(٦) الكشاف:٣٤٩/٢.

(٧) تفسير السعدي:٣٦٥.

عن مجاهد قوله: "{ومنهم من يستمعون إليك}، قال: قريش"[1].

قوله تعالى:{أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} [يونس : ٤٢]، أي:" أفأنت تَقْدر على إسماع الصم؟ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله هدايتهم، لأنهم صمٌّ عن سماع الحق، لا يعقلونه"[2].
قال الطبري:" يقول: أفأنت تخلق لهم السمع، ولو كانوا لا سمع لهم يعقلون به، أم أنا؟

وإنما هذا إعلامٌ من الله عبادَه أن التوفيق للإيمان به بيده لا إلى أحد سواه. يقول لنبيه محمد ﷺ: كما أنك لا تقدر أن تسمع، يا محمد، من سلبته السمع، فكذلك لا تقدر أن تفهم أمري ونهيي قلبًا سلبته فهم ذلك، لأني ختمتُ عليه أنه لا يؤمن"[3].
قال ابن كثير:أي:" فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء ، إلا أن يشاء الله "[4].
قال الصابوني: أي:" ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون"[5].
قال الزمخشري:" ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم، لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوى الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر"[6].
قال السعدي:" وهذا الاستفهام، بمعنى النفي المتقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصا إذا كان عقلهم معدوما.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك ممتنع إسماعك إياهم، إسماعا ينتفعون به.

وأما سماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير"[7].

الفوائد:

١- نفي العقل عن من أعرض عن شيء من آيات القرآن، وأن هذا النفي ليس للقدرة ووجود وظيفة التعقل، وإنما هو نفي للانتفاع بها، فالواقع أنهم لم يتعقلوا، وإن كانوا قد هُيئوا بأصل الخلقة لذلك.
٢- ومن الفوائد: " أن العقل في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والأئمة لا يراد به جوهر قائم بنفسه باتفاق المسلمين وإنما يراد به العقل الذي في الإنسان الذي هو عند من يتكلم في الجوهر والعرض من قبيل الأعراض لا من قبيل الجواهر"[8].

القرآن
{وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣)} [يونس : ٤٣]
التفسير:

---
[1] أحخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٧):ص١٩٥٤/٦.
[2] التفسير الميسر:٢١٣.
[3] تفسير الطبري:٩٥/١٥.
[4] تفسير ابن كثير:٢٧٠/٤.
[5] صفوة التفاسير:٥٤٥/١.
[6] الكشاف:٣٤٩/٢.
[7] تفسير السعدي:٣٦٥.
[8] انظر: نقض أصول العقلانيين، الخراشي:٣٧.[مرقم آليا].

ومِنَ الكفار مَن ينظر إليك وإلى أدلة نبوتك الصادقة، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان، أفأنت -أيها الرسول- تقدر على أن تخلق للعمي أبصارًا يهتدون بها؟ فكذلك لا تقدر على هدايتهم إذا كانوا فاقدي البصيرة، وإنما ذلك كلُّه لله وحده.

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ} [يونس : ٤٣]، أي:" ومِنَ الكفار مَن ينظر إليك وإلى أدلة نبوتك الصادقة، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان"(١).

قال الزمخشري:أي:" وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المشركين، مشركي قومِك، من ينظر إليك، يا محمد، ويرى أعلامك وحُججَك على نبوتك، ولكن الله قد سلبه التوفيقَ فلا يهتدي، ولا تقدر أن تهديه، كما لا تقدر أن تحدِث للأعمى بصرًا يهتدي به"(٣).

قال ابن كثير:" أي : ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة ، والسمت الحسن ، والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة ، على نبوءتك لأولي البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار"(٤).

قال السعدي:" ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: {ومنهم من ينظر إليك} فلا يفيده نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئا"(٥).

قوله تعالى:{أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} [يونس : ٤٣]، أي:" أفأنت -أيها الرسول- تقدر على أن تخلق للعمي أبصارًا يهتدون بها؟ فكذلك لا تقدر على هدايتهم إذا كانوا فاقدي البصيرة، وإنما ذلك كلُّه لله وحده"(٦).

قال المراغي:" أي: إنك أيها الرسول الكريم كما لا تقدر على هداية العمى بدلائل البصر الحسية، لا تقدر على هدايتهم بالدلائل العقلية، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التي تدركها"(٧).

قال الزمخشري:أي:" أ تحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى العمى- وهو فقد البصر- فقد البصيرة، لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن(٨). وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعنى: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول. وقوله أفأنت ... دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوبى العقل حديدي السمع والبصر راجحى العقل، إلا هو وحده"(٩).

قال الطبري:" يقول: أفأنت يا محمد، تحدث لهؤلاء الذين ينظرون إليك وإلى أدلتك وحججك، فلا يوفَّقون للتصديق بك أبصارًا، لو كانوا عُمْيًا يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنك لا تطيق ذلك ولا تقدر عليه ولا غيرك، ولا يقدر عليه أحدٌ سواي، فكذلك لا تقدر على أن تبصِّرهم سبيلَ الرشاد أنت ولا أحدٌ غيري، لأن ذلك بيدي وإليّ.

---

(١) التفسير الميسر:٢١٤.
(٢) الكشاف:٣٤٩/٢.
(٣) تفسير الطبري:٩٦/١٥.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٧٠/٤-٢٧١.
(٥) تفسير السعدي:٣٦٥.
(٦) التفسير الميسر:٢١٤.
(٧) تفسير المراغي:١١٢/١١.
(٨)أى: يعمل ظنه. [أفاده الصحاح].
(٩) الكشاف:٣٤٩/٢.

وهذا من الله تعالى ذكره تسليةٌ لنبيه ﷺ عن جماعةٍ ممن كفر به من قومه وأدبر عنه فكذب، وتعزية له عنهم، وأمرٌ برفع طمعه من إنابتهم إلى الإيمان بالله"[١].

قال السعدي:" فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

ودل قوله: {ومنهم من ينظر إليك} الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ، وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة"[٢].

عن ابن عباس: {لا يبصرون}، أي: لا يبصرون الحق"[٣].

الفوائد:

١- أن هداية الدين كهداية الحس لا تكون إلا للمستعد بهداية العقل، وإن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد.
٢- أن هؤلاء المشركين قد انصرفت نفوسهم عن استعمال عقولهم استعمالا نافعا فى الدلائل البصرية والسمعية لإدراك أى مطلب من المطالب الشريفة التي وراء شهواتهم وتقاليدهم.

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)} [يونس : ٤٤]

التفسير:

إن الله لا يظلم الناس شيئًا بزيادة في سيئاتهم أو نقص من حسناتهم، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية ومخالفة أمر الله ونهيه.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} [يونس : ٤٤]، أي:" إن الله لا يظلم الناس شيئًا بزيادة في سيئاتهم أو نقص من حسناتهم"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله لا يفعل بخلقه ما لا يستحقون منه، لا يعاقبهم إلا بمعصيتهم إيّاه، ولا يعذبهم إلا بكفرهم به"[٥].

قال الزمخشري:أي:" إن الله لا يظلم الناس شيئا أى لا ينقصهم شيئا مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب"[٦].

قال السعدي:" فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم"[٧].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس : ٤٤]، أي:" ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية ومخالفة أمر الله ونهي"[٨].

---

[١] تفسير الطبري:١٥/٩٦.
[٢] تفسير السعدي:٣٦٥.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٨):ص١٩٥٤/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢١٤.
[٥] تفسير الطبري:١٥/٩٦.
[٦] الكشاف:٢/٣٩٤.
[٧] تفسير السعدي:٣٦٥.
[٨] التفسير الميسر:٢١٤.

قال الطبري:" يقول: ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، باجترامهم ما يورثها غضبَ الله وسخطه"[1].

قال الزمخشري:أي:" ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب. ويجوز أن يكون وعيدا للمكذبين، يعنى: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سببا فيه"[2].

قال المراغي:" أي: إنهم يظلمون أنفسهم وحدها دون غيرها، لأن عقاب ظلمهم واقع عليها، فهم يجنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين بعدم استعمالها فيما خلقت لأجله من اتباع الحق فى الاعتقاد والهدى فى الأعمال، وذلك هو الصراط المستقيم الموصل لسعادة الدارين"[3].

قال السعدي:" يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم"[4].

عن ابن عباس قوله: "{أنفسهم يظلمون}، قال: يضرون"[5].

الفوائد:

١- انتفاء الظلم عن الله تعالى، وإثباته للإنسان لنفسه.

٢- أن أفعال الله عز وجل كلها خير محض من حيث اتصافه بها وصدورها عنه ليس فيها شر بوجه، فإنه تعالى حكم عدل وجميع أفعاله حكمة وعدل يضع الأشياء مواضعها اللائقة بها كما هي معلومة عنده سبحانه وتعالى، وما كان في نفس المقدور من شر فمن جهة إضافته إلى العبد لما يلحقه من المهالك، وذلك بما كسبت يداه جزاءا وفاقا، كما قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} [الزخرف: ٧٦] وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس: ٤٤].

وذكروا أن من أسباب الظلم:

أ- الفقر: إذ أن سبب الظلم الرئيسي هو الفقر والحاجة، والله هو الغني الحميد ولا يحتاج إلى أحد من خلقه فقد كان ولم يكن قبله شيء قال تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الحج : ٦٤] .

ب- الجهل: والجهل هو معرفة الأشياء على غير حقيقتها أو عدم معرفتها أصالةً، والله -عز وجل- هو العليم الذي لم يُسبق علمه بجهل وقد أحاط بكل شيء علماً وهو علام الغيوب يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [التوبة : ٧٨].

وبالتالي جميع أسباب الظلم ممتنعة على الله سبحانه قال تعالى {إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ}[6].

٣- أن للعباد قدرة على أعمالهم، ولهم مشيئة وإرادة، وأفعالهم تضاف إليهم حقيقة وبحسبها كلفوا وعليها يثابون ويعاقبون، ولم يكلفهم الله إلا وسعهم، وقد أثبت لهم ذلك في الكتاب والسنة ووصفهم به، ولكنهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، ولا يشاءون إلا أن يشاء الله، ولا يفعلون إلا بجعله إياهم فاعلين، كما تقدم في نصوص المشيئة والإرادة

---

[1] تفسير الطبري:١٥/٩٦.

[2] الكشاف:٢/٣٩٤.

[3] تفسير المراغي:١١/١١٢.

[4] تفسير السعدي:٣٦٥.

[5] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٩):ص٦/١٩٥٤.

[6] انظر: شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر، البدراني:٢٥.

والخلق، فكما لم يوجدوا أنفسهم لم يوجدوا أفعالهم، فقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وأفعالهم تابعة لقدرته ومشيئته وإرادته وفعله، إذ هو خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم وأفعالهم، وليس مشيئتهم وإرادتهم وقدرتهم وأفعالهم هي عين مشيئة الله وإرادته وقدرته وأفعاله، كما ليس هم إياه، تعالى الله عن ذلك، بل أفعالهم المخلوقة لله قائمة بهم لائقة بهم مضافة إليهم حقيقة، وهي من آثار أفعال الله القائمة به اللائقة المضافة إليه حقيقة، فالله فاعل حقيقة، والعبد منفعل حقيقة، والله هاد حقيقة، والعبد مهتد حقيقة، ولهذا أضاف كلا من الفعلين إلى من قام به، فقال تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ} [الأعراف: ١٧٨] فإضافة الهداية إلى الله حقيقة وإضافة الاهتداء إلى العبد حقيقة، فكما ليس الهادي هو عين المهتدي، فكذلك ليس الهداية هي عين الاهتداء، وكذلك يضل الله من يشاء حقيقة وذلك العبد يكون ضالا حقيقة، وهكذا جميع تصرف الله في عباده، فمن أضاف الفعل والانفعال إلى العبد كفر، ومن أضافه إلى الله كفر، ومن أضاف الفعل إلى الخالق والانفعال إلى المخلوق كلاهما حقيقة، فهو المؤمن حقيقة[١].

القرآن

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)} [يونس : ٤٥]

التفسير:

ويوم يَحشر الله هؤلاء المشركين يوم البعث والحساب، كأنهم قبل ذلك لم يمكثوا في الحياة الدنيا إلا قدر ساعة من النهار، يعرف بعضهم بعضًا كحالهم في الدنيا، ثم انقطعت تلك المعرفة وانقضت تلك الساعة. قد خسر الذين كفروا وكذَّبوا بلقاء الله وثوابه وعقابه، وما كانوا موفَّقين لإصابة الرشد فيما فعلوا.

قوله تعالى:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ} [يونس : ٤٥]، أي:" ويوم يَحشر الله هؤلاء المشركين يوم البعث والحساب، كأنهم قبل ذلك لم يمكثوا في الحياة الدنيا إلا قدر ساعة من النهار"[٢].

عن ابن عباس قال:" حشرها: الموت"[٣].

قال الزمخشري:" إلا ساعة من النهار يستقربون وقت لبثهم في الدنيا. وقيل في القبور، لهول ما يرون"[٤].

قال السعدي:" يخبر تعالى، عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس"[٥].

قوله تعالى:{يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} [يونس : ٤٥]، أي:" يعرف بعضهم بعضًا كحالهم في الدنيا"[٦].

قال ابن كثير:" أي : يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض ، كما كانوا في الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ } [المؤمنون : ١٠١] ، وقال تعالى : { وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي

---

[١] انظر: أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (الكتاب نشر - أيضا - بعنوان: ٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة الاسلامية):٩٠-٩١.

[٢] التفسير الميسر:٢١٤.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٠٠):ص١٩٥٤/٦.

[٤] الكشاف:٣٩٤/٢.

[٥] تفسير السعدي:٣٦٥.

[٦] التفسير الميسر:٢١٤.

مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلا } [المعارج : ١٠ ، ١٥]"[١].

قال الصابوني:" وهو تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني، وليس تعارف محبة ومودّة"[٢].

قال الزمخشري:" يعرف بعضهم بعضا، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا، وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم. فإن قلت: كأن لم يلبثوا ويتعارفون كيف موقعهما؟ قلت أما الأولى فحال من «هم» أى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. وأما الثانية فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة، لقوله: كأن لم يلبثوا إلا ساعة، لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكرا"[٣].

قال السعدي:" وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا"[٤].

عن الحسن :"{يتعارفون بينهم}، قال: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يكلمه يعني: يوم القيامة"[٥].

قوله تعالى:{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [يونس : ٤٥]، أي:" قد خسر الذين كفروا وكذَّبوا بلقاء الله وثوابه وعقابه، وما كانوا موفَّقين لإصابة الرشد فيما فعلوا"[٦].

قال الزمخشري:" أى: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم. والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر وما كانوا مهتدين للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم!"[٧].

قال ابن كثير:" خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة ، ولا خسارة أعظم من خَسارة من فُرّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة"[٨].

قال السعدي:" ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار"[٩].

عن أبي رزين في قوله: "{قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله}، قال: قد ضلوا قبل ذلك"[١٠].

الفوائد:

١- تقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة.
٢- ومن فوائد البية الكريمة: ظن الميت إذا بعث أنه لم يلبث إلا يسيرا، ويشهد لهذا أيضا:
- قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ} [الأحقاف : ٣٥].
- وقوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}[النازعات:٤٦] .

---

[١] تفسير ابن كثير:٤/٢٧١-٢٧٢.
[٢] صفوة التفاسير:١/٥٤٦.
[٣] الكشاف:٢/٣٩٤.
[٤] تفسير السعدي:٣٦٥.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤٠١):ص٦/١٩٥٤-١٩٥٥.
[٦] التفسير الميسر:٢١٤.
[٧] الكشاف:٢/٣٩٤-٢٩٥. قوله «وضعوا في تجارتهم» في الصحاح: وضع الرجل في تجارته وأوضع- على ما لم يسم فاعله- وضعا فيهما، أى: خسر.
[٨] تفسير ابن كثير:٤/٢٧٢.
[٩] تفسير السعدي:٣٦٥.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٠٢):ص٦/١٩٥٥.

- وقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ(٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[الروم:٥٥-٥٦] .
- وقوله تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا(١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا(١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا}[طه:١٠٢-١٠٤] .

٣- أنه من تأمل في حقيقة الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، ومن ثم نظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، فأحسن النظر فيهما هداه ذلك لإيثار الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، وأكبر عون له في تحقيق ذلك النظر في حال الرسول ﷺ وسيرته هو وأصحابه من نبذهم لها وراء ظهورهم، وصرفهم عنها قلوبهم، واطراحهم لها، فهم لم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها وعدوها سجناً لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوها منها كل محبوب، ولو صلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه، فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم حتى آذن بالرحيل

٤- الإعلان عن خسران منكري البعث يوم القيامة.

القرآن

{وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)} [يونس : ٤٦]

التفسير:

وإمَّا نرينَّك -أيها الرسول- في حياتك بعض الذي نَعِدُهم من العقاب في الدنيا، أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم، فإلينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالتين، ثم الله شهيد على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، لا يخفى عليه شيء منها، فيجازيهم بها جزاءهم الذي يستحقونه.

قوله تعالى:{وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} [يونس : ٤٦]، أي:" وإمَّا نرينَّك -أيها الرسول- في حياتك بعض الذي نَعِدُهم من العقاب في الدنيا، أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم"(١).

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ :{ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ }، أي : ننتقم منهم في حياتك لتقرّ عينُك منهم"(٢).

عن مجاهد قوله: "{وإما نرينك بعض الذي نعدهم}: من العذاب في حياتك"(٣).

قوله تعالى:{فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} [يونس : ٤٦]، أي:" فإلينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالتين

قال ابن كثير:" أي : مصيرهم ومنقَلَبهم" (٤).

قوله تعالى:{ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ} [يونس : ٤٦]، أي:" ثم الله شهيد على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، لا يخفى عليه شيء منها، فيجازيهم بها جزاءهم الذي يستحقونه"(٥).

---

(١) التفسير الميسر:٢١٤.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٧٢/٤.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٠٣):ص١٩٥٥/٦.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٧٢/٤.
(٥) التفسير الميسر:٢١٤.

قال ابن كثير:أي:" والله شهيد على أفعالهم بعدك" [١].

قال الزمخشري:" فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟ قلت: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون.. ويجوز أن يراد: أن الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة، حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم"[٢].

أخرج الطبراني عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال : "عُرِضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة ، أولها وآخرها. فقال رجل : يا رسول الله ، عرض عليك من خُلِق ، فكيف من لم يخلق ؟ فقال : "صُوِّروا لي في الطين ، حتى إني لأعْرَفُ بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه"[٣].

وقرأ ابن أبى عبلة: «ثم»، بالفتح، أى: هنالك[٤].

الفوائد:

١- تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر حتى يؤدي رسالته بإعلامه بأنه سيعذب أعداءه.

٢- إثبات اسم من اسماءه تعالى، وهو «الشهيد»:

و«الشهيد»: "هو الذي لا يغيب عنه شيء. يقال: شاهد وشهيد كعالم، وعليم. أي: كأنه الحاضر الشاهد الذي لا يعزب عنه شيء. وقد قال –سبحانه-: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة : ١٨٥]، أي: من حضر منكم في الشهر فليصمه.

ويكون «الشهيد»، بمعنى: العليم. كقوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [آل عمران : ١٨]، قيل: معناه: علم الله.

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى معناه: «بين الله أنه لا إله إلا هو»، وهو أيضا الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر على الظالم المتعدي الذي لا مانع له في الدنيا؛ لينتصف له منه"[٥].

القرآن

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)} [يونس : ٤٧]

التفسير:

ولكل أمة خَلَتْ قبلكم -أيها الناس- رسول أرسلتُه إليهم، كما أرسلت محمدًا إليكم يدعو إلى دين الله وطاعته، فإذا جاء رسولهم في الآخرة قُضِيَ حينئذ بينهم بالعدل، وهم لا يُظلمون مِن جزاء أعمالهم شيئًا.

قوله تعالى:{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ} [يونس : ٤٧]، أي:" ولكل أمة من الأمم رسولٌ أُرسل لهدايتهم"[٦].

قال الزمخشري:" يبعث إليهم لينبههم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق.. أو لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به "[٧].

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٧٢/٤.
[٢] الكشاف:٣٥٠/٢.
[٣]المعجم الكبير (١٨١/٣).
[٤] انظر:الكشاف:٣٥٠/٢.
[٥] شأن الدعاء:٧٦.
[٦] صفوة التفاسير:٥٤٦/١.
[٧] الكشاف:٣٥٠/٢.

قوله تعالى:{فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ} [يونس : ٤٧]، أي:" فإذا جاء رسولهم في الآخرة قُضِيَ حينئذ بينهم بالعدل"[١].

قال الزمخشري:" {فإذا جاء هم رسولهم}، بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه، {قضي بينهم}، أى: بين النبي ومكذبيه {بالقسط}: بالعدل، فأنجى الرسول وعذب المكذبون، كقوله : {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء : ١٥]، أو ....فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان، كقوله تعالى وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق"[٢].

عن مجاهد:"{ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم}: يوم القيامة"[٣].
وعن مجاهد -أيضا-:"«القسط»: العدل"[٤]. وروي عن السدي نحو ذلك[٥].

قال ابن كثير:" فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضا أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ، ويقضى لهم ، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق»[٦]، فأمته إنما حازت قَصَب السبق لشرف رسولها ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين"[٧].

قوله تعالى:{وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [يونس : ٤٧]، أي:" وهم لا يُظلمون مِن جزاء أعمالهم شيئًا"[٨].

الفوائد:

١- بيان حاجة البشرية إلى الرسالة، ولا تستقيم حياة البشرية ولا تنتظم إلا ببعثة الرسل، عليهم الصلاة والسلام، فالرسالة ضرورية للعباد، لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، فهي روح العالم ونوره وحياته؛ فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟![٩]

ولذلك سمى الله تعالى وحيه إلى نبيه -ﷺ- روحا، وسماه نورا، والإنسان لا يستغني عن الروح؛ فهي سبب الحياة، ولا عن النور؛ فهو سبب الهداية، فقال سبحانه وتعالى:{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: ٥٢، ٥٣] .

وقال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٢] .

---

[١] التفسير الميسر:٢١٤.
[٢] الكشاف:٣٥٠/٢.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٠٤):ص١٩٥٥/٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٠٥):ص١٩٥٥/٦.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٥٥/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[٦] هذا اللفظ في صحيح مسلم برقم (٨٥٦) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وروى البخاري أوله برقم (٨٧٦) (٨٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه..
[٧] تفسير ابن كثير:٢٧٢/٤-٢٧٣.
[٨] التفسير الميسر:٢١٤.
[٩] انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية": ٩/ ٩٣ .

فبعث الله تعالى الرسل تترى، كلما ضلت أمة بعث إليها رسولا، فكثر الرسل والأنبياء، فما من أمة إلا وقد بعث الله فيها نذيرا، يقطع العذر ويقيم الحجة: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤] .

روي عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، كم عدد الأنبياء؟ قال: "مائة ألف وأربعة عشر ألفا"، قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: "ثلاثمائة وخمسة عشر، جما غفيرا"[١].

وهؤلاء الرسل هم الذين يحملون الشرائع للناس، ويبينونها لهم، ويبلغونهم البلاغ المبين، فيعرفون الناس بربهم معرفة صحيحة صادقة، ويضبطون حركتهم الفكرية والعملية بضوابط الوحي الإلهي، إذ لا تستطيع العقول البشرية أن تستقل بإدراك حقائق الأشياء على ما هي عليه ولا تستقل بمعرفة ما تنبغي معرفته من مصالحهم العاجلة والآجلة، ولا تستطيع معرفة أمور الغيب المحجوبة عنها، ولا الأمور الدينية على وجه التفصيل، والرسل هم القدوة الصالحة التي تتأسى بها البشرية، ولهم الأثر الباقي الخالد في الحياة، وهم سبب كل خير[٢].

٢- أنه لم تخل أمة من رسول: وهؤلاء الرسل أرسلهم الله إلى الأمم فى جميع العصور المتطاولة، فلم تخل أمة من رسول يدعوها إلى الله، ويرشدها إلى الحق.

وإذا سألت: قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ} [يونس:٤٧] فمن هو رسول أهل الفترة؟

الجواب: ليس المقصود بأهل الفترة من لم يبعث فيهم رسول بالمرة، فما من أمة إلا جاءها رسول، والفترة التي حصلت من عهد إبراهيم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، وكان المشركون يظنون أنهم على الحنيفية وكانوا ينتسبون إلى إبراهيم، ولهذا فقد كانوا يحجون إلى البيت، وكانوا يطوفون بالحرم، وكانوا يذهبون إلى منى وعرفات ويرمون الجمار، فهم كانوا على طريقة إبراهيم العامة، إلا أنهم بدلوها وحرفوها وأدخلوا الشرك فيها، وأول من جاء بالشرك وعبادة الأصنام إلى العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي الذي جاء بهبل عندما وجد بعض الشاميين يعبدون الأصنام فاشترى منهم صنماً فجاء به إلى مكة وعبدوه، وذكر النبي ﷺ أنه رآه يجر قصبه في نار جهنم والعياذ بالله[٣].

٣- أن الرسول بشر من نفس الأمة، وإن كان من معدن كريم، خصه الله بمواهب عقلية، وروحية، ليستعد لتلقى الوحى عن الله، قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام : ١٢٤]، وقال تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج : ٧٥].

وإنما خص الله الرسول بمزايا وفضائل ليقوى على الاضطلاع بأعباء الرسالة، وليكون مثالا يقتدى به فى أمور الدين والدنيا، ولو لم يتميز رسل الله بهذه الخصائص العقلية والروحية بأن انحطت فطرهم، أو ضعفت عقولهم، لما كانوا أهلا لحمل هداية الله إلى الناس.

---

[١] قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد في "المسند": ٥/ ١٧٨، ١٧٩، وابن حبان ص"٥٢، ٥٣" من "موارد الظمآن"، والحاكم: ٢/ ٥٩٧ وتعقبه الذهبي.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" "١/ ١٥٩": "رواه أحمد والطبراني في "الكبير"، ومداره على علي بن يزيد، وهو ضعيف". وصححه الألباني في تعليقه على "المشكاة": "٣/ ١٥٩٩". وانظر: "الفتاوى الحديثية" لابن حجر الهيثمي، ص١٨٠ .

[٢] انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د. عثمان:٢١.

[٣] انظر: أصول العقيدة، عبد الرحيم بن صمايل العلياني السلمي، [الدرس(٩) مرقم آليا].

٤- يجب الإيمان على التفصيل بمن سمى الله ـ تعالى ـ في كتابه من رسله وأنبيائه ويجب الإيمان إجمالاً بمن لم يسم الله ـ تعالى ـ منهم فإن لله رسلاً وأنبياء لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا هو ـ تعالى ـ.

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [غافر:٧٨] وقال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} ٢ وقال ـ عز شأنه ـ {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ} [يونس:٤٧] والذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم من الأنبياء والمرسلين خمسة وعشرون هم: آدم، ونوح، وإدريس، وصالح، وإبراهيم، وهود، ولوط، ويونس، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، واليسع، وذو الكفل، وداود، وزكريا، وسليمان، وإلياس، ويحيى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد ورد ثمانية عشر منهم في قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} [الأنعام:٨٣-٨٦].

وورد ذكر الباقين في مواضع متفرقة من القرآن الكريم قال تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً} [الأعراف:٦٥] وقال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً} [الأعراف:٧٣] وقال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً} [الأعراف:٨٥] وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً} [آل عمران:٣٣] وقال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الانبياء:٨٥] وقال ـ عز وجل ـ {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح:٢٩] فهؤلاء الأنبياء والرسل يجب الإيمان بهم إيماناً تفصيلياً بحيث لو عرض على إنسان واحد منهم لم ينكر نبوته ولا رسالته إذ من أنكر نبوة واحد منهم أو رسالته فهو كافر بالله العظيم، أما الأنبياء الذين لم يقصصهم الله علينا فالواجب علينا الإيمان بهم إجمالاً. وليس لأحد أن يقول بنبوة أحد أو رسالته طالما أن القرآن لم يذكره في عداد من ورد ذكرهم من الأنبياء والمرسلين ولم يأتنا الإخبار بنبوته عن طريق الرسول ﷺ.

وذكر كثير من العلماء أن أولي العزم من الرسل عددهم خمسة [١] وهم: محمد ﷺ وإبراهيم، وموسى، ونوح وعيسى عليهم أفضل الصلاة والسلام وهؤلاء الرسل جمعهم الله في آيتين من كتابه، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} [الأحزاب:٧].

٥- بيان كيفية الحساب يوم القيامة بأن يأتي الرسول وأمته ثم يجزي الحساب بينهم فينجي الله المؤمنين ويعذب الكافرين.

القرآن

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)} [يونس : ٤٨]

التفسير:

ويقول المشركون من قومك -أيها الرسول-: متى قيام الساعة إن كنت أنت ومَن تبعك من الصادقين فيما تَعِدوننا به؟

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [يونس : ٤٨]، أي:" ويقول المشركون من قومك -أيها الرسول-: متى قيام الساعة"[٢].

---

[١] انظر: تفسير الطبري: ٣٧/٢٦، تفسير ابن كثير ٣٠٧/٦.

[٢] التفسير الميسر:٢١٤.

قال السعدي:أي:" ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: {متى هذا الوعد إن كنتم صادقين}"(١).

في حديث جبريل المشهور قوله عليه السلام للنبي ﷺ: أخبرني عن الساعة؟ قال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل، سأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها وإذا تطاول رعاء البهم فى البنيان فذاك من أشراطها فى خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله {إن الله عنده علم الساعة} [لقمان: ٣٤] الآية "(٢).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "خمس لا يعلمها إلا الله عز وجل: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير" (٣).

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مفاتح الغيب خمس" ثم قرأ: {إن الله عنده علم الساعة} (٤).

وفي الصحيحين أن أعرابيا أتى النبي -ﷺ- فناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد قال له رسول الله ﷺ: "هاؤم" على نحو ما صوته قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: "ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها"؟ قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله: "المرء مع من أحب" فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهدا الحديث(٥).

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس : ٤٨]، أي:" إن كنت أنت ومَن تبعك من الصادقين فيما تَعِدوننا به؟"(٦).

قال قتادة:"قال أصحاب رسول الله ﷺ: إن لنا يوما يوشك أن نستريح فيه وننعم فيه فقال المشركون: {متى هذا الوعد إن كنتم صادقين}، أي: تكذيبا"(٧).

الفوائد:

١- الإيمان بالمعاد وقيام الساعة.

---

(١) تفسير السعدي:٣٦٥.

(٢)حديث أبى هريرة: أخرجه أحمد (٤٢٦/٢، رقم ٩٤٩٧) ، والبخارى (٢٧/١، رقم ٥٠) ، ومسلم (٤٠/١، رقم ١٠) ، وابن ماجه (١٣٤٢/٢، رقم ٤٠٤٤) .
حديث عمر: أخرجه مسلم (٣٦/١، رقم ٨) ، وأبو داود (٢٢٣/٤، رقم ٤٦٩٥) ، والنسائى (٥٢٨/٦، رقم ١١٧٢١) . وأخرجه أيضا: الترمذى (٦/٥، رقم ٢٦١٠) وقال: حسن صحيح.
حديث أبى هريرة وأبى ذر معا: أخرجه النسائى (٥٢٨/٦، رقم ١١٧٢٢).

(٣)رواه أحمد "٥/ ٣٥٣" والبزار "كشف الأستار ٣/ ٦٥" وأخرجه ابن مردويه والروياني والضياء بسند صحيح "الدر المنثور ٦/ ٥٣١" وهو في البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

(٤)رواه البخاري "٨/ ٥١٣" في تفسير سورة لقمان، باب {إن الله عنده علم الساعة.

(٥)رواه أحمد "٤/ ٢٣٩" والترمذي "٥/ ٥٤٥، ٥٤٦/ ح٣٥٣٥ و٣٥٣٦" في الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار. والنسائي "١/ ٨٣ و٨٤" في الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين للمسافر. وأخرجه ابن ماجه مختصرا "١/ ٨٢/ ح٢٢٦" في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. وابن خزيمة "١/ ٩٧/ ح١٩٣" وابن حبان "موارد، ح١٨٦" وأخرجه الشافعي والدارقطني والبيهقي كلهم من حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه، وهو صحيح. قلت: قول المصنف "وفي الصحيحين" وهم منه رحمه الله، فما أخرجاه ولا أحدهما، والذي في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قوله صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب" فقط دون ذكر القصة.

(٦) التفسير الميسر:٢١٤.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤٠٦):ص١٩٥٥/٦.

٢- من فوائد الآية الكريمة والتي بعدها: أن يوم القيامة وعد صادق، وخبر لازم، وأجل لا شك فيه، ومن ذلك أيضا قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ - قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} [سبأ: ٢٩-٣٠] ، {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} [الزخرف: ٨٣]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [لقمان: ٣٣]

٣- أن الساعة التي سأل كفار قريشٍ الرسول عن وقت وقوعها هي يوم القيامة، والساعة في الأصل تطلق على كلِّ وقتٍ من الزَّمن، وغلب إطلاقها على يوم القيامة، وكان كفار قريشٍ يسألون عنها إنكاراً لها، كما قال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [الشورى: ١٨] ، وقال: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الملك: ٢٥] وقوله: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} أي: متى يكون وقوعها.

وقد أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - أن يقول للسائلين {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} [الأعراف: ١٨٧]. أي: قل لهم: إنَّما علمها عند الله، و {إِنَّمَا} أداة حصرٍ، أي: علمها عند الله، فلا يعلمها لا ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ

القرآن

{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)} [يونس : ٤٩]

التفسير:

قل لهم -أيها الرسول-: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًا، ولا أجلب لها نفعًا، إلا ما شاء الله أن يدفع عني مِن ضرٍّ أو يجلب لي من نفع. لكل قوم وقت لانقضاء مدتهم وأجلهم، إذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم، فلا يستأخرون عنه ساعة فيُمْهلون، ولا يتقدم أجلهم عن الوقت المعلوم.

قوله تعالى:{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} [يونس : ٤٩]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًا، ولا أجلب لها نفعًا، إلا ما شاء الله أن يدفع عني مِن ضرٍّ أو يجلب لي من نفع"[١].

قال السعدي:" فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس، وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم، فمن الله تعالى، ينزله عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه، والوقت الذي قدره فيه، الموافق لحكمته الإلهية.

فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فليحذر المكذبون من الاستعجال بالعذاب، فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين"[٢].

عن مجاهد قال: "{لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا}، ضلالة إلا ما شاء الله"[٣].

قوله تعالى:{لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} [يونس : ٤٩]، أي:" لكل قوم وقت لانقضاء مدتهم وأجلهم"[٤].

قوله تعالى:{إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [يونس : ٤٩]، أي:" إذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم، فلا يستأخرون عنه ساعة فيُمْهلون، ولا يتقدم أجلهم عن الوقت المعلوم"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٤.
[٢] تفسير السعدي:٣٦٥.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤٠٧):ص١٩٥٥/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢١٤.

عن سعيد ابن أبي عروبة قال: "كان الحسن يقول: ما حق هؤلاء القوم يقولون: اللهم أطل عمره والله يقول: {إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}"[٢].

الفوائد:

١- لا يملك أحد من الخلق لنفسه فضلا عن غيره ضرا يدفعه ولا نفعا يجلبه إلا بإذن الله تعالى ومشيئته.
٢- أن الله وحده هو المتصرف في الكون.
٣- الآجال محدودة لا تتقدم ولا تتأخر فلذا لا معنى للجبن من العبد.

القرآن

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠)} [يونس : ٥٠]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلا أو نهارًا، فأي شيء تستعجلون أيها المجرمون بنزول العذاب؟

قوله تعالى:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا} [يونس : ٥٠]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلا أو نهارًا"[٣].

قال المراغي:" أي: قل لهم أيها الرسول: أخبرونى عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه إن أتاكم عذا به الذي تستعجلون به فى وقت مبيتكم بالليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو بأمور معاشكم بالنهار"[٤].

قال الزمخشري:" فإن قلت: هلا قيل ليلا أو نهارا؟ قلت: لأنه أريد: إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون، كما يبيت العدو المباغت. والبيات بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم، وكذلك قوله نهارا معناه في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب. ونحوه {بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُون} [الأعراف : ٩٧]، {ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون} [الأعراف : ٩٨]"[٥].

عن مجاهد قوله: "{أرأيتم إن أتاكم عذابه}، قال: فجاءة آمنين"[٦].

قوله تعالى:{مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس : ٥٠]، أي:" فأي شيء تستعجلون أيها المجرمون بنزول العذاب؟"[٧].

قال المراغي:" أي: أيّ نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذابون؟ أعذاب الدنيا أم عذاب يوم القيامة؟ وأيا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة"[٨].

قال الفراء:" إن شئت جعلت {ماذا} استفهاما محضا على جهة التعجب كقوله: ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب؟! وإن شئت عظمت أمر العذاب فقلت: بماذا استعجلوا!"[٩].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٤.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤٠٨):ص١٩٥٥/٦-١٩٥٦.
[٣] التفسير الميسر:٢١٤.
[٤] تفسير المراغي:١١٨/١١.
[٥] الكشاف:٣٥١/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٠٩):ص١٩٥٦/٦.
[٧] التفسير الميسر:٢١٤.
[٨] تفسير المراغي:١١٨/١١.
[٩] معاني القرآن:٤٦٧/١.

قال الزمخشري:" الضمير في {منه}، للعذاب. والمعنى: أن العذاب كله مكروه مر المذاق موجب للنفار، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال. ويجوز أن يكون معناه التعجب، كأنه قيل: أى شيء هول شديد[1] يستعجلون منه، ويجب أن تكون «من» للبيان في هذا الوجه. وقيل: الضمير في {منه} لله تعالى.

فإن قلت: بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط؟ قلت: تعلق ب أرأيتم، لأن المعنى: أخبرونى ماذا يستعجل منه المجرمون، وجواب الشرط محذوف وهو:

تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه. فإن قلت: فهلا قيل: ماذا تستعجلون منه[2].

قلت: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويهلك فزعا من مجيئه وإن أبطأ، فضلا أن يستعجله. ويجوز أن يكون «ماذا يستعجل منه المجرمون» جوابا للشرط، كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟"[3].

وقرئ: «آلان»، بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام[4].

الفوائد:

القرآن

{أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١)} [يونس : ٥١]

التفسير:

أبعدما وقع عذاب الله بكم -أيها المشركون- آمنتم في وقت لا ينفعكم فيه الإيمان؟ وقيل لكم حينئذ: آلآن تؤمنون به، وقد كنتم من قبل تستعجلون به؟

قوله تعالى:{أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ} [يونس : ٥١]، أي:" أبعدما وقع عذاب الله بكم -أيها المشركون- آمنتم في وقت لا ينفعكم فيه الإيمان؟"[5].

قال المراغي:" أي: أيستعجل مجرموكم بالعذاب الذين هم أحق بالخوف منه بدل الإيمان الذي يدفعه عنهم ثم إذا وقع بالفعل آمنتم به حين لا ينفع الإيمان، إذ هو قد صار ضروريا بالمشاهدة والعيان، لا تصديقا للرسول عليه السلام"[6].

قوله تعالى:{آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [يونس : ٥١]، أي:" وقيل لكم حينئذ: آلآن تؤمنون به، وقد كنتم من قبل تستعجلون به؟"[7].

قال الزمخشري:" أى: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون يعنى: وقد كنتم به تكذبون، لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار"[8].

قال المراغي:" أي: وقيل لكم على سبيل التوبيخ آلآن آمنتم به اضطرارا، وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا به واستكبارا"[1].

---

[1] قوله «أى شيء هول شديد»: لعله أى شيء أتى هو لا شديدا.

[2] قال محقق الكشاف:٣٥١/٢: "وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمر. والأخرى: والأخرى: ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة، والله أعلم".

[3] الكشاف:٣٥١/٢.

[4] انظر: الكشاف:٣٥٢/٢.

[5] التفسير الميسر:٢١٤.

[6] تفسير المراغي:١١٨/١١.

[7] التفسير الميسر:٢١٤.

[8] الكشاف:٣٥١/٢-٣٥٢.

قال السعدي:" فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسا إيمانها، كما قال تعالى عن فرعون، لما أدركه الغرق : {قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس : ٩٠]، وأنه يقال له: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس : ٩١]"[٢].
الفوائد:

١- أن الله منجز ما وعدهم به من العذاب، إذا جاء الوقت المحدد لذلك.
٢- لا ينفع الإيمان ولا التوبة عند معاينة العذاب أو ملك الموت.

القرآن
{ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)} [يونس : ٥٢]
التفسير:
ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله: تجرَّعوا عذاب الله الدائم لكم أبدًا، فهل تُعاقَبون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم من معاصي الله؟

قوله تعالى:{ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ} [يونس : ٥٢]، أي:" ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله: تجرَّعوا عذاب الله الدائم لكم أبدًا"[٣].
قال الطبري:أي:" تجرّعوا عذابَ الله الدائم لكم أبدًا، الذي لا فناء له ولا زوال"[٤].
قال المراغي:" أي ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبدا بحيث لا فناء له ولا زوال"[٥].
عن سعيد بن جبير، في قول الله: "{ذوقوا}، يعني: العقوبة"[٦].

قوله تعالى:{هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [يونس : ٥٢]، أي:" فهل تُعاقَبون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم من معاصي الله؟"[٧].
قال الطبري:" يقول: يقال لهم: فانظروا هل تجزون، أي: هل تثابون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم قبل مماتكم من معاصي الله"[٨].
عن أبي العالية قوله: "{تكسبون}، يعني: من الخطيئة"[٩].

الفوائد:

١- أن أهل النار الخالدون فيها الذين لا يرحلون ولا يبيدون - هم الكفرة والمشركون.
وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، خلود "[١٠].

---

[١] تفسير المراغي:١١٨/١١.
[٢] تفسير السعدي:٣٦٦.
[٣] التفسير الميسر:٢١٤.
[٤] تفسير الطبري:١٠٢/١٥.
[٥] تفسير المراغي:١١٨/١١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١٠):ص١٩٥٦/٦.
[٧] التفسير الميسر:٢١٤.
[٨] تفسير الطبري:١٠٢/١٥.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١١):ص١٩٥٦/٦.
[١٠]صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، فتح الباري: (٤٠٦/١١).

٢- تدل قوله تعالى: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} على أن للعباد قدرة على أعمالهم ولهم مشيئة واختيار وإن ذلك كله لا يتم لهم إلا بإذن الله ومشيئته، والله تعالى هو خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم وأقوالهم وأعمالهم، وهو تعالى الذي منحهم إياها وأقدرهم عليها وجعلها قائمة بهم مضافة إليهم حقيقة، وبحسبها كلفوا وعليها يثابون ويعاقبون، ولم يكلفهم الله تعالى إلا وسعهم ولم يحملهم إلا طاقتهم، قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [البقرة : ٢٨٦].

فإن أهل السنة يقولون: أن للعباد مشيئة وقدرة على أعمالهم بمقتضاها يثابون أو يعاقبون ولكن هذه القدرة وتلك المشيئة تهيمن عليهما وتحيط بهما قدرة الله عز وجل ومشيئته ، فلا يقدر العبد على غير ما شاءه الله وأراده في كونه، وليس معنى مشيئة العبد وقدرته على عمله أنه خالق لعمله بل الله عز وجل هو خالق العامل وعمله.

أما أهل الضلال فهم طرفان متناقضان تماما في هذا الأمر وأهل السنة وسط بينهما، فطرف منهم يغالي في إثبات مشيئة العبد وقدرته على عمله حتى جعلوه خالقا لعمله، وقالوا لا قدر، وهؤلاء هم القدرية النفاة الذين أطلقوا مشيئة الإنسان من مشيئة الله عز وجل وجعلوه مستقلا بأمره كله دون الله عز وجل وطرف آخر يسلب العبد مشيئته وقدرته على عمله حتى جعلوه كالريشة في مهب الريح فليس العبد عندهم هو الذي عمل كذا أو اكتسب كذا وإنما الله -تعالى عن قولهم- هو الذي عمل الطاعة أو الحسبة واكتسب المعصية أو السيئة فأضافوا لله الفعل ولانفعال أي أضافوا إليه الخلق والعمل للمخلوق أما أهل السنة فهداهم الله عز وجل فأضافوا الخلق الذي هو فعله تعالى القائم به له عز وجل حقيقة وأضافوا الكفر والإيمان الذي هو عمل العباد القائم بهم وكسبهم إليهم حقيقة، فالله خالق والعبد مخلوق والله هاد أو مضل والعبد مهتد أو ضال، فالفعل، يضاف لله والانفعال يضاف للعبد فالهداية منه تعالى والاهتداء من العبد وهكذا[1].

القرآن

{وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣)} [يونس : ٥٣]

التفسير:

ويستخبرك هؤلاء المشركون من قومك -أيها الرسول- عن العذاب يوم القيامة، أحقٌّ هو؟ قل لهم -أيها الرسول-: نعم وربي إنه لحق لا شك فيه، وما أنتم بمعجزين الله أن يبعثكم ويجازيكم، فأنتم في قبضته وسلطانه.

قوله تعالى:{وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ} [يونس : ٥٣]، أي:" ويستخبرك هؤلاء المشركون من قومك -أيها الرسول- عن العذاب يوم القيامة، أحقٌّ هو؟"[2].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويستخبرك هؤلاء المشركون من قومك، يا محمد، فيقولون لك: أحق ما تقول، وما تعدنا به من عذاب الله في الدار الآخرة جزاءً على ما كنا نكسِب من معاصي الله في الدنيا؟"[3].

قال الزمخشري:أي:" ويستخبرونك فيقولون: «أحق هو»، وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء"[4].

---

[1] انظر: مختصر معارج القبول:٢٨٥-٢٨٧.
[2] التفسير الميسر:٢١٤.
[3] تفسير الطبري:١٠٢/١٥.
[4] الكشاف:٣٥٢/٢.

وقرأ الأعمش: «آلحق هو»، وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل. وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحق، والضمير للعذاب الموعود[1].

قوله تعالى:{قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ} [يونس : ٥٣]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: نعم وربي إنه لحق لا شك فيه"[2].

قال الطبري:أي:" قل لهم يا محمد: «أي وربي إنه لحق»، لا شك فيه"[3].

قال الزمخشري:" و{إي} بمعنى «نعم» في القسم خاصة، كما كان «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة. وسمعتهم يقولون في التصديق: «إيو»، فيصلونه بـ«واو» القسم ولا ينطقون به وحده"[4].

قوله تعالى:{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس : ٥٣]، أي:" وما أنتم بمعجزين الله أن يبعثكم ويجازيكم، فأنتم في قبضته وسلطانه"[5].

قال الزمخشري:"بفائتين العذاب، وهو لا حق بهم لا محالة"[6].

قال الطبري:أي:" وما أنتم بمعجزي الله إذا أراد ذلك بكم، بهربٍ، أو امتناع، بل أنتم في قبضته وسلطانه وملكه، إذ أراد فعل ذلك بكم، فاتقوا الله في أنفسكم"[7].

عن ابن عباس قوله: "{بمعجزين}، قال: بمسابقين"[8].

الفوائد:

١- جواز الحلف بالله إذا أريد تأكيد الخبر.
٢- «إي»: حرف إجابة وتقترن دائما بالقسم نحو :إي والله، إي وربي.
٣- إثبات البعث بعد الموت، والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة كثيرة جدا، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم على وقوع المعاد ووجوده في ثلاث آيات من القرآن

- قال تعالى: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس:٥٣].
- وفي «سبأ»: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سبأ: من الآية٣].
- وفي «التغابن»: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن : ٧]

فهذا قسم فأمر الله عز وجل نبيه أن يقسم على هذه المواضع الثلاث، فدل على أن المقسَم عليه عظيم، لأن إنما يؤكد في المواضع العظيمة، ولا أن يكون كذلك في كل مكان وفي كل زمان، إنما يُنظر كما ذكرنا سابقًا إلى المصلحة العامة.

القرآن

---

[1] انظر: الكشاف:٣٥٢/٢.
[2] التفسير الميسر:٢١٤.
[3] تفسير الطبري:١٠٢/١٥.
[4] الكشاف:٣٥٢/٢.
[5] التفسير الميسر:٢١٤.
[6] الكشاف:٣٥٢/٢.
[7] تفسير الطبري:١٠٢/١٥.
[8] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١٢):ص١٩٥٦/٦.

{وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤)} [يونس : ٥٤]

التفسير:

ولو أن لكل نفس أشركت وكفرت بالله جميع ما في الأرض، وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب لافتدت به، وأخفى الذين ظلموا حسرتهم حين أبصروا عذاب الله واقعا بهم جميعًا، وقضى الله عز وجل بينهم بالعدل، وهم لا يُظلَمون؛ لأن الله تعالى لا يعاقب أحدا إلا بذنبه.

قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ} [يونس : ٥٤]، أي:" ولو أن لكل نفس أشركت وكفرت بالله جميع ما في الأرض، وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب لافتدت به"[١].

قال الزمخشري:أي:" ولو أن لكل نفس ظالمة {ما في الأرض}، أى: ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها على كثرتها، {لافتدت به}: لجعلته فدية لها"[٢].

قال الطبري:" و«ظلمها»، في هذا الموضع، عبادتُها غيرَ من يستحق عبادته، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته"[٣].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "يقال للكافرين يوم القيامة: أرأيت لو كان ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديا به قال: فيقول: نعم قال: فيقول: قد كلفت ما هو أهون من ذلك، قال الله لهم: {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ}[٤]"[٥].

قوله تعالى:{وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} [يونس : ٥٤]، أي:" وأخفى الذين ظلموا حسرتهم حين أبصروا عذاب الله واقعا بهم جميعًا"[٦].

قال الطبري:" يقول: وأخفتْ رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامةَ حين أبصرُوا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم"[٧].

قال الزمخشري:" لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب، كما ترى المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة[٨] ويبقى جامدا مبهوتا. وقيل أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم، حياء منهم وخوفا من توبيخهم. وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سر الشيء، لخالصه. وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة. وقيل: أسروا الندامة: أظهروها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره. وليس هناك تجلد"[٩].

قوله تعالى:{وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ} [يونس : ٥٤]، أي:" وقضى الله عز وجل بينهم بالعدل"[١٠].

قال السعدي:" أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه"[١١].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٥.

[٢] الكشاف:٣٥٢/٢.

[٣] تفسير الطبري:١٠٣/١٥.

[٤] [سورة ص : ٥٦].

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤١٣):ص١٩٥٦/٦.

[٦] التفسير الميسر:٢١٥.

[٧] تفسير الطبري:١٠٣/١٥.

[٨] قوله «لا ينبس بكلمة» أى لا يتكلم. أفاده الصحاح .

[٩] الكشاف:٣٥٢/٢.

[١٠] التفسير الميسر:٢١٥.

[١١] تفسير السعدي:٣٦٦.

قال الطبري:" يقول: وقضى الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل"[1].
قال الزمخشري:" أى: بين الظالمين والمظلومين، دل على ذلك ذكر «الظلم»"[2].
قوله تعالى:{وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [يونس : ٥٤]، أي:" وهم لا يُظلَمون أعمالهم شيئاً؛ لأن الله تعالى لا يعاقب أحدا إلا بذنبه"[3].
قال الطبري:" وذلك أنه لا يعاقب أحدًا منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحدٍ، ولا يعذِّب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج"[4].
عن سعيد بن جبير في قول الله: "{وهم لا يظلمون}، يعني: من أعمالهم فلا ينقص من حسابهم ولا يزاد على سيئاتهم"[5].
الفوائد:

١- عظم عذاب يوم القيامة حتى إن الكافر ليود أن يفتدى منه بما في الأرض جميعا.
٢- بيان حسرة الكفار وندمهم عند رؤيتهم النار.
٣- استعداد الكفار في يوم الدين لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب، فلو كانوا يملكون ما في الأرض لافتدوا به (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ) [يونس: ٥٤] . بل لو كان للكافر ضعف ما في الأرض لافتدى به (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) [الرعد: ١٨] ، بل هو على استعداد أن يبذل ما عنده ولو كان ملء الأرض ذهباً، وعلى احتمال أن كان الأمر كذلك، فإن الله لا يقبل منه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) [آل عمران: ٩١].
وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: " يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنت سألتك ما هو أيسر من ذلك"[6].
ويصل الحال بالكافر في ذلك اليوم أن يتمنى لو دفع بأعز الناس عنده في النار لينجو هو من العذاب (يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ - وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ - وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ - وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ - كَلَّا إِنَّهَا لَظَى) [المعارج: ١١-١٥].

القرآن
{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)} [يونس : ٥٥]
التفسير:
ألا إن كل ما في السموات وما في الأرض ملك لله تعالى، لا شيء من ذلك لأحد سواه. ألا إن لقاء الله تعالى وعذابه للمشركين كائن، ولكن أكثرهم لا يعلمون حقيقة ذلك.

---
[1] تفسير الطبري:١٠٣/١٥.
[2] الكشاف:٣٥٢/٢.
[3] انظر: التفسير الميسر:٢١٥، وصفوة التفاسير:٥٤٧/١.
[4] تفسير الطبري:١٠٣/١٥.
[5] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤١٤):ص١٩٥٦/٦.
[6]صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، فتح الباري: (٤٠٠/١١).

قوله تعالى:{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس : ٥٥]، أي:" ألا إن كل ما في السموات وما في الأرض ملك لله تعالى، لا شيء من ذلك لأحد سواه"(١).

قال الزمخشري:"ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق"(٢).

قال الطبري:" يقول جل ذكره: ألا إنّ كل ما في السموات وكل ما في الأرض من شيء، لله مِلْك، لا شيء فيه لأحدٍ سواه. يقول: فليس لهذا الكافر بالله يومئذٍ شيء يملكه فيفتدي به من عذاب ربّه، وإنما الأشياء كلها للذي إليه عقابه. ولو كانت له الأشياء التي هي في الأرض ثم افتدى بها، لم يقبل منه بدلا من عذابه، فيصرف بها عنه العذاب، فكيف وهو لا شيء له يفتدى به منه، وقد حقَّ عليه عذاب الله؟"(٣).

قال الصابوني:" «أَلاَ» كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السماوات والأرض ملكٌ لله، لا شيء فيها لأحدٍ سواه، هو الخالق وهو المالك"(٤).

قوله تعالى:{أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [يونس : ٥٥]، أي:" ألا إن لقاء الله تعالى وعذابه للمشركين كائن لا محالة"(٥).

قال الطبري:" يعني: أن عذابه الذي أوعد هؤلاء المشركين على كفرهم حقٌّ، فلا عليهم أن لا يستعجلوا به، فإنه بهم واقع لا شك"(٦).

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [يونس : ٥٥]، أي:" ولكن أكثرهم لا يعلمون حقيقة ذلك"(٧).

قال الطبري:" يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقةَ وقوع ذلك بهم، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون"(٨).

قال المراغي:أي:" ولكن أكثر الكفار منكرى البعث والجزاء لا يعلمون أمر الآخرة لغفلتهم عنها وقصور أنظارهم عن الوصول إلى ما يكون فيها"(٩).

قال السعدي:" فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين النقلية والعقلية"(١٠).

عن ابن عباس:"{لا يعلمون}، يقول: لا يعقلون"(١١).

الفوائد:

١- تقرير ربوبية الله تعالى لسائر المخلوقات في العالمين العلوي والسفلي.
٢- أن لله وحده جميع ما فى العوالم العلوية والعوالم الأرضية يتصرف فيها كيف يشاء، ولا يملك أحد من دونه شيئا من التصرف والفداء، فى يوم البعث والجزاء.

القرآن

{هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)} [يونس : ٥٦]

---

(١) التفسير الميسر:٢١٥.
(٢) الكشاف:٣٥٣/٢.
(٣) تفسير الطبري:١٠٣/١٥-١٠٤.
(٤) صفوة التفاسير:٥٤٧/١.
(٥) انظر: التفسير الميسر:٢١٥، وصفوة التفاسير:٥٤٧/١.
(٦) تفسير الطبري:١٠٤/١٥.
(٧) التفسير الميسر:٢١٥.
(٨) تفسير الطبري:١٠٤/١٥.
(٩) تفسير المراغي:١٢١/١١.
(١٠) تفسير السعدي:٣٦٦.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١٥):ص١٩٥٧/٦.

التفسير:
إن الله هو المحيي والمميت لا يتعذَّر عليه إحياء الناس بعد موتهم، كما لا تعجزه إماتتهم إذا أراد ذلك، وهم إليه راجعون بعد موتهم.

قوله تعالى:{هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [يونس : ٥٦]، أي:" هو سبحانه المحيي والمميتُ"[١].
قال السعدي:" أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير، لا شريك له في ذلك"[٢].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله هو المحيي المميت، لا يتعذّر عليه فعلُ ما أراد فعله من إحياء هؤلاء المشركين إذا أراد إحياءهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم إذا أراد ذلك"[٣].
قال المراغي:" أي: إنه تعالى هو المحيي المميت، لا يتعذر عليه فعل ما أراد من الإحياء والإماتة"[٤].
عن محمد بن إسحاق:"{يحيي ويميت}: يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من ذلك من آجالهم بقدرته"[٥].
قوله تعالى:{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يونس : ٥٦]، أي:" وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم"[٦].
قال السعدي:أي:" يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها"[٧].
قال الطبري:أي:" وهم إليه يصيرون بعد مماتهم، فيعاينون ما كانوا به مكذبين من وعيدِ الله وعقابه"[٨].
قال المراغي:"ثم إليه ترجعون حين يحييكم بعد موتكم ويحشركم إليه للحساب والجزاء بأعمالكم"[٩].
الفوائد:

١- أن الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل وحده، كما قال الله تعالى: {هو يحيي ويميت وإليه ترجعون} [يونس:٥٦] ، وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: {وأحيي الموتى بإذن الله} [آل عمران: من الآية٤٩].
٢- توحيد الربوبية: وهو توحيد الله بأفعاله - عز وجل - مثل الخلق والرزق وتدبير الأمور والإحياء والإماتة ونحو ذلك. فلا خالق إلا الله، كما قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: ٦٢] ولا رازق إلا الله، كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦]، ولا مدبِّر إلا الله، كما قال تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ} [السجدة: ٥]، ولا محيي ولا مميت إلا الله، كما قال تعالى: {هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يونس: ٥٦].
وهذا النوع قد أقر به الكفار على زمن رسول الله - ﷺ -، ولم يُدخِلهم في الإسلام، كما قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: ٢٥].
٣- إثبات يوم القيامة، وأنه يوم الجزاء.

---

[١] صفوة التفاسير:٥٤٧/١.
[٢] تفسير السعدي:٣٦٦.
[٣] تفسير الطبري:١٠٤/١٥.
[٤] تفسير المراغي:١٢١/١١.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١٦):ص١٩٥٧/٦.
[٦] صفوة التفاسير:٥٤٧/١.
[٧] تفسير السعدي:٣٦٦.
[٨] تفسير الطبري:١٠٤/١٥.
[٩] تفسير المراغي:١٢١/١١.

القرآن
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)} [يونس : ٥٧]
التفسير:
يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم تذكِّركم عقاب الله وتخوفكم وعيده، وهي القرآن وما اشتمل عليه من الآيات والعظات لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم، وفيه دواء لما في القلوب من الجهل والشرك وسائر الأمراض، ورشد لمن اتبعه من الخلق فينجيه من الهلاك، جعله سبحانه وتعالى نعمة ورحمة للمؤمنين، وخصَّهم بذلك؛ لأنهم المنتفعون بالإيمان، وأما الكافرون فهو عليهم عَمًى.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [يونس : ٥٧]، أي:" يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم تذكِّركم عقاب الله وتخوفكم وعيده"[١].
قال الزمخشري:" أى: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد"[٢].

قال الطبري:" يعني: ذكرى تذكركم عقابَ الله وتخوّفكم وعيده، يقول: من عند ربكم، لم يختلقها محمد ﷺ، ولم يفتعلها أحد، فتقولوا: لا نأمن أن تكون لا صحةَ لها. وإنما يعني بذلك جلّ ثناؤه القرآن، وهو الموعظة من الله"[٣].
عن الشعبي، قوله: "{موعظة}، قال: موعظة من الجهل"[٤].

قوله تعالى:{وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس : ٥٧]، أي:" وفيه دواء لما في القلوب من الجهل والشرك وسائر الأمراض"[٥].
قال الزمخشري:" أى: دواء لما في صدوركم من العقائد الفاسدة"[٦].

قال الطبري:" يقول: ودواءٌ لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهلَ الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خلقه من أراد هدايته به"[٧].

عن مجاهد:"{شفاء}، قال: الشفاء: القرآن"[٨].

عن عبد الله أنه قال :"في القرآن شفاءان: القرآن والعسل. فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء"[٩].
قوله تعالى:{وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس : ٥٧]، أي:" وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان"[١٠].
قال الزمخشري:أي:" ودعاء إلى الحق ورحمة لمن آمن به منكم"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٥.
[٢] الكشاف:٣٥٣/٢.
[٣] تفسير الطبري:١٠٤/١٥-١٠٥.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١٧):ص١٩٥٧/٦.
[٥] التفسير الميسر:٢١٥.
[٦] الكشاف:٣٥٣/٢.
[٧] تفسير الطبري:١٠٥/١٥.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١٩):ص١٩٥٧/٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١٨):ص١٩٥٧/٦.
[١٠] صفوة التفاسير:٥٤٧/١.

قال الطبري:"{ وَهُدًى}: يقول: وهو بيان لحلال الله وحرامه، ودليلٌ على طاعته ومعصيته ، { وَرَحْمَةٌ }، يرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به، لأن من كفر به فهو عليه عمًى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلودُ في لظًى"[٢].

عن سعيد بن جبير:"{هدى}، يعني: تبيانا"[٣].
عن السدي :"{هدى}، قال: نور"[٤].
عن الشعبي:"{هدى}، قال: هدى من الضلالة"[٥].

عباد بن منصور قال:" سألت الحسن عن قوله: {وهدى}، قال: هو القرآن"[٦].

عن أبي العالية، قوله: "{ورحمة}، قال: رحمة القرآن"[٧].

الفوائد:

١- وجوب التمسك بكتاب الله، والنهي الشديد عن مخالفته.
٢- الإشادة بفضل القرآن وعظمته لما يحمله من المواعظ والهدى والرحمة والشفاء.
٣- أن القرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل للاستشفاء به. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه - لم يقاوم الداء أبدا. وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله فهما في كتابه[٨].
٤- جواز التداوي بالقرآن الكريم، فإن والقرآن علاج لأمراض القلوب والأبدان بشرط صحة الإيمان والإخلاص والإقبال على الله حال الاستشفاء به قال ـ تعالى ـ: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ} فالإيمان شرط للراقي والمرقي. قال ـ تعالى ـ: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} ففيه اطمئنان القلوب وهو أكبر شفاء. قال ـ تعالى ـ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}.
٥- هل التداوي بالقرآن الكريم من الطب الشعبي؟
٦- أن التداوي بالقرآن الكريم ليس من الطب الشعبي، بل هو طب شرعي بنص القرآن والسنة لأن الطب الشعبي عبارة عما حصل بالتجربة وحسب الخبرة بل وفي الآونة الأخيرة ربما أطلقوا الطب الشعبي على الشعوذة وما كان محرماً، والقرآن لا يصح أن يوصف بهذا الوصف لأنه كلام الله وأمر بالاستشفاء به واستشفى به رسوله، - ﷺ -، فكيف يوصف بهذا؟!
٧- أن القرآن هو دعوة ربانية موجهة للإنسانية عامة {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ : ٢٨].

---

[١] الكشاف:٣٥٣/٢.
[٢] تفسير الطبري:١٠٥/١٥.
[٣]أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٢٢):ص١٩٥٨/٦ .
[٤]أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٢١):ص١٩٥٨/٦ .
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤١٩):ص١٩٥٧/٦. هكذا مرقم بالمطبوع!
[٦]أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٢٠):ص١٩٥٧/٦ .
[٧]أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٢٣):ص١٩٥٨/٦ .
[٨] انظر: شرح العقيدة الطحاوية، تح: أحمد شاكر:٢٥٤.

إن القرآن علاج القلوب المريضة المزمنة، والنفوس المضطربة الحائرة، والمجتمعات المنحرفة الضالّة عن طريق الحق والصواب قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}، سار المؤمنون على هديه فحققوا السعادة لأنفسهم في الدنيا والآخرة، وفازوا برضوان وجنة النعيم.

إن هذا القرآن فيه تبيان كل شيء للناس لكيلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، وإنه بشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، وتحذير الكافرين والفجرة العصاة المعرضين عن القرآن بأن لهم عذابا أليما.

فالقرآن كله حسن وأحسن منه ما يكشف للقلوب من العجائب لمن يلقي السمع عن طريق الفهم والإستنباط.

تناول القرآن حياة الإنسان من جميع جوانبها منذ نشأته إلى دخوله الجنة أو النار. فهو القوة الفعالة التي اعتمد عليها رسول الله صلى عليه وسلم في هداية الناس.

القرآن معجزة الدهر عجز الناس كلهم على أن يأتوا بمثله أسلوبا وبلاغة وحكمة وتشريعا صالحا لكل زمان ومكان، وإخبارا بالغيب. قال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء : ٨٨].

كان الناس قبل نزول القرآن في غفلة تامة وجهالة شنيعة عن معرفة الخالق إلا ما كان من بعض الأفراد القلائل ...جاء القرآن فعرف الناس دلائل التوحيد، وما يحب لله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته وما يستحيل عليه من أضدادها.

كانت العقول والأفكار مقيدة فلم تستطع أن تفهم ما في هذا الكون من الأسرار والحكم، فجاء القرآن محررا لها من القيود، وأعطى للعقل حريته في النظر والتفكير والتأمل في عجائب هذا الكون.

كان الناس قبل نزول القرآن فرقا وشيعا ومذاهب وأحزابا يعبدون آلهة شتى فقال لهم القرآن {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ} [قريش : ٣] والإسلام هو دين التوحيد في هذا الوجود: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران : ٨٥].

القرآن جاء مصححا لعقيدة التوحيد، وبالنظام الشامل لحياة الناس في كل شأن من شئونهم، بل في كل ما يحتاجون إليه من الغيبيات، وما تدركه حواسهم من المحسوسات سواء إتصلت بالدنيا التي نعيش فيها، أو الحياة الأخرى التي نحن مقبلون عليها.

كلف الله نبيه الكريم بتبليغ هذا الكتاب المقدس للناس فبلغه كما أمر، وطبقه على نفسه أحسن تطبيق، وأقام على أساسه خير أمة، وأفضل مجتمع، وأعدل دولة عرفها الناس في تاريخهم الطويل، فأصبح هذا الكتاب الرباني دستورا للأمة الإسلامية التي احتضنته بكلتا يديها.

وإذا تأمل المسلم هذا الدستور الكامل وجده، يأمر بعد توحيد الله بإقامة العدل بين الناس ومساواتهم في الحقوق والواجبات، ولا تفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح، ويحث على الاتحاد، وعدم الشقاق، ومحو الحقد والحسد من القلوب، والتمسك بهذا الدين المتين لأنه هو الدين الوحيد لجميع الناس.

قال تعالى : {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى : ١٣]، كون هذا الكتاب الرباني أمة عظيمة، وأودع بين يديها الأمانة العظمى أمانة تبليغ الرسالة السماوية إلى الناس كافة، وإلى مشارق الأرض ومغاربها ليكونوا جديرين بعبادة الخالق المعبود.

فإذا الأمة العربية تنطلق من الصحراء بغتة، وتبرز فجأة على مسرح الحياة بعد خفاء مهين، فحملت هذا النور الرباني فبددت به ظلمات الكفر والشرك والجهل المخيم على عقول الناس.

ليت شعري ماذا فضل المسلمون على سائر الأمم في القديم؟ وبماذا فضل دينهم على سائر الأديان؟ فضلتم بمعجزة الدهور، وآية العصور بكتاب الله الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (سورة فصلت) فإن جعلتموه - أيها المسلمون بين أيديكم كان قائدا لكم إلى السعادة والحرية وفي الدار الآخرة إلى مغفرة من الله ورضوانه، وإن جعلتموه وراء ظهوركم رجعتم إلى الجاهلية الجهلاء وتفقدون ما بوأكم به القرآن من العزة والكرامة والسيادة والمنزلة القصوى، ويستولي عليكم الذل والخزي في الدنيا وفي الآخرة تصيرون إلى جهنم وبئس المصير.

كيف لا يكون القرآن هكذا؟ وإنه لكتاب الهدى وسفر السعادة، وقانون الفضيلة، ودستور العدالة في كل زمان ومكان.

لو تدبر المسلمون القرآن وعملوا بما فيه لسيرهم سعداء في أنفسهم وأهليهم، ولو وقفوا تحت رايته لسموا سمو المجد والعلاء، وتبوءوا مكان الشرف والعزة، ولو أنهم حافظوا على أوامره لأضاءت لهم المسالك، ولما اختلفوا على أنفسم حتى أصبحوا هالكا إثر هالك يستعبدهم مالك بعد مالك، ويذيقهم العذاب فاتك بعد فاتك.

فيا معجبين بالمدنية الغربية والتقاليد البشرية فكروا قليلا فإن هذه المدنية التي اعتنقتموها لم تقدر على سعادتكم وإنما يسعدكم اللجوء إلى الدين الحنيف المنزل من السماء، سار المسلمون - في العصر الحاضر- في ركاب المدنية الغربية، ونبذوا أوامر قرآنهم وراء ظهورهم. وأطلع الله رسوله على حالة المؤمنين من بعده من خلال الغيب فشكى إلى ربه بقوله عز وجل: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان : ٣٠] شكى رسول الله - ﷺ - إلى ربه من أن قومه الذين أرسل إليهم بالقرآن ليتلوه عليهم قد صدوا عنه وتركوه وثبتوا على تركه وهجره، وفي شكوى النبي - ﷺ - لربه من هجر أمته للقرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور عند الله وأبغضها إليه، وفيه تهديد ووعيد شديدين لمهاجري القرآن بإنزال العقاب بهم.

نحن المسلمين قد كان منا هجر كبير للقرآن الكريم منذ زمن طويل- وإن كنا به مؤمنين. بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القاطعة فهجرناها، وبين القرآن لنا أصول الأحكام، وأمهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والإعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح العام والخاص فهجرناها، وبين القرآن مكارم الأخلاق ومضارها، وبين السبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس، والسلامة من الخيبة بتدسيتها فهجرنا ذلك كله، وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه، ونبهنا على ما فيه من أسرار الحكمة ومصادر النعمة لننظر كي نستفيد ونعمل فهجرنا ذلك كله، ودعانا القرآن لتدبره وتفهمه والتفكر في آياته، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه فأعرضنا عن ذلك مع أن المسلمين يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (سورة الحجر) وكذلك سنة الرسول - ﷺ - القولية والفعلية تالية للقرآن عاملناها بما عاملناه ...

هذا التفسير مأخوذ من مجالس التذكير للشيخ عبد الحميد بن باديس طيب الله ثراه وجعل الجنة منقلبه ومثواه[١].

٨- أن القرآن الكريم جامع للحكمة العملية والنظرية:

- أما الحكمة العملية: فهي الكاشفة عن محاسن الأعمال وقبائحها، والمرغبة في المحاسن والفضائل، والزاجرة عن القبائح والرذائل.

---

[١] انظر: كتاب التوحيد المسمى بـ «التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد»: عمر العرباوي:١٧-١٩.

- أما الحكمة النظرية: فهي الشفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين والرشاد، ورحمة للمؤمنين نجوا بها من دركات العذاب، وفازوا بها يوم الحساب، أو يقال خرجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران، بمصاعد من درجات الجنان(١).

القرآن

{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)} [يونس : ٥٨]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته، وهو ما جاءهم من الله من الهدى ودين الحق وهو الإسلام، فبذلك فليفرحوا؛ فإن الإسلام الذي دعاهم الله إليه، والقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة.

قوله تعالى:{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} [يونس : ٥٨]، أي:" قل -أيها الرسول- لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته، وهو ما جاءهم من الله من الهدى ودين الحق وهو الإسلام، فبذلك فليفرحوا"(٢).

قال المراغي:" أي: قل لهم ليفرحوا بفضل الله وبرحمته أي إن كان شىء فى الدنيا يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته"(٣).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل} يا محمد لهؤلاء المكذِّبين بك وبما أنزل إليك من عند ربك، {بفضل الله} أيها الناس، الذي تفضل به عليكم، وهو الإسلام، فبيَّنه لكم، ودعاكم إليه ، {وبرحمته} التي رحمكم بها، فأنزلها إليكم، فعلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصَّركم بها معالم دينكم، وذلك القرآن، {فبذلك فليفرحوا}"(٤).

قال الزمخشري:" أصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا. والتكرير للتأكيد والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما. ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا. ويجوز أن يراد: قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته، فبذلك: فبمجيئها فليفرحوا"(٥).

عن محمد بن كعب:"{قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا}، قال: إذا عملت خيرا حمدت الله عليه فافرح فهو خير مما تجمعون من الدنيا"(٦).

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "إني أمرت أن أقرأ عليك القرآن قال أبي: أو سماني لك؟ قال: نعم قال فقرأ: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا}"(٧).

وفي قوله تعالى:{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ} [يونس : ٥٨]، وجوه:

أحدها : أن فضل الله معرفته ، ورحمته توفيقه. ذكره الماوردي(٨).

---

(١) انظر: العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين:١٩٨.
(٢) التفسير الميسر:٢١٥.
(٣) تفسير المراغي:١٢٣/١١.
(٤) تفسير الطبري:١٠٥/١٥.
(٥) الكشاف:٣٥٣/٢.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٣٢):ص١٩٥٩/٦.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٣١):ص١٩٥٩/٦.
(٨) انظر: النكت والعيون:٤٤٢/٢.

الثاني : أن فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام ، قاله ابن عباس[1]، وزيد بن أسلم[2]، والضحاك[3].

وروي عن أبي سعيد الخدري، قال:" {بفضل الله}: القرآن"[4].

الثالث : أن فضل الله الإسلام ، ورحمته القرآن ، قاله ابن عباس[5]، والحسن[6]، ومجاهد[7]، وقتادة[8]، وهلال بن يساف[9].

وروي عن مجاهد: "{وبرحمته}، قال: القرآن"[10].

وقرئ:« فليفرحو»ا، بالتاء وهو الأصل والقياس، وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى[11]. وعنه «لتأخذوا مضاجعكم[12]»[13]، قالها في بعض الغزوات. وفي قراءة أبى: «فافرحوا» هو راجع إلى ذلك[14].

قوله تعالى:{هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس : ٥٨]، أي:" فإن الإسلام الذي دعاهم الله إليه، والقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة"[15].

قال الطبري:" يقول: فإن الإسلام الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خيرٌ مما يجمعون من حُطَام الدنيا وأموالها وكنوزها"[16].

عن الضحاك قوله: "{هو خير مما يجمعون}، قال: خير مما تجمع الكفار من الأموال"[17]. وروي عن الحسن مثله[18].

عن محمد بن كعب:"{فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}، قال: من الدنيا"[19].

عن أيفع بن عبد الكلاعي: "لما قدم خراج العراق إلى عمر خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هو أكثر من ذلك فجعل عمر يقول: الحمد لله، ويقول مولاه: يا أمير

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٨٢):ص١٠٨/١٥.
[2] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٨٣):ص١٠٨/١٥.
[3] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٨٤):ص١٠٨/١٥.
[4] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٦٨):ص١٠٦/١٥، وتفسير ابن ابي حاتم(١٠٤٢٤):ص١٩٥٨/٦.
[5] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٨٠):ص١٠٧/١٥.
[6] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٧٦):ص١٠٧/١٥.
[7] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٧٨):ص١٠٧/١٥.
[8] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٧٥):ص١٠٧/١٥.
[9] انظر: تفسير الطبري(١٧٦٦٩):ص١٠٦/١٥.
[10] أخرجه الطبري(١٧٦٧٨):ص١٠٧/١٥.
[11] انظر: الكشاف:٣٥٣/٢.
[12]قوله «لتأخذوا مضاجعكم» لعل الرواية «مصافكم».
[13]هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي(٣٢٣٥):ص٣٦٨/٥ من حديث معاذ بن جبل قال « احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعا فثوب بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ وتجوز في صلاته، فلما سلم دعا بصوته فقال لنا: «على مصافكم كما أنتم..»الحديث.
[14] انظر: تفسير الكشاف:٣٥٣/٢.
[15] التفسير الميسر:٢١٥.
[16] تفسير الطبري:١٠٥/١٥.
[17] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٣٣):ص١٩٦٠/٦.
[18] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٦٠/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[19] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٣٤):ص١٩٦٠/٦.

المؤمنين، هذا والله من فضل الله ورحمته، فقال عمر: كذبت ليس هذا هو. يقول الله: {بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}، وهذا مما تجمعون"[١].

وقرأ ابن عامر:«خير مما تجمعون»، بالتاء[٢].

لفوائد:

١- يستحب الفرح بالدين ويكره الفرح بالدنيا.
قال السعدي:" وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال [تعالى عن] قوم قارون له: {لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} [القصص : ٧٦] ، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [غافر : ٨٣] "[٣].
٢- إن الفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الرعد : ٣٦]، فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة : ١٢٤].
٣- وفي الآية دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى:{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف : ٣٢].

القرآن

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)} [يونس : ٥٩]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء الجاحدين للوحي: أخبروني عن هذا الرزق الذي خلقه الله لكم من الحيوان والنبات والخيرات فحلَّلتم بعض ذلك لأنفسكم وحرَّمتم بعضه، قل لهم: آلله أذن لكم بذلك، أم تقولون على الله الباطل وتكذبون؟ وإنهم ليقولون على الله الباطل ويكذبون.

قوله تعالى:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ} [يونس : ٥٩]، أي:" أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال"[٤].

قال قتادة:" يقول: رزقا لم أحرمه عليكم فتحرمونه على أنفسكم من نسائكم وأولادكم"[٥].
وأولادكم"[٥].

قوله تعالى:{فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا} [يونس : ٥٩]، أي:" فحرَّمتم بعضه وحلَّلتم بعضه"[٦].

قال ابن عباس:" هم أهل الشرك كانوا يحلون الأنعام ما شاءوا ويحرمون ما شاءوا"[٧].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٣٥):ص١٩٦٠/٦.
[٢]انظر: السبعة في القراءات:٣٢٧-٣٢٨.
[٣] تفسير السعدي:٣٦٦.
[٤] صفوة التفاسير:٥٤٨/١.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٣٦):ص١٩٦٠/٦.
[٦] صفوة التفاسير:٥٤٨/١.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٣٨):ص١٩٦٠/٦.

عن مجاهد، قوله: "{فجعلتم منه حراما وحلالا}: في البحيرة السائبة"[١].

عن الضحاك، في قوله: "{أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا}: هو الذي قال الله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا}[٢]، إلى قوله: {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[٣]"[٤].

قوله تعالى:{قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} [يونس : ٥٩]، أي:" قل لهم يا محمد أخبروني: أحصل إذنٌ من الله لكم بالتحليل والتحريم، فأنتم فيه ممتثلون لأمره، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال؟"[٥].

عن قتادة: "{قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون}: فيما حرم عليكم من ذلك"[٦].

عن ابن عباس، قوله: "{يفترون}، قال: يكذبون"[٧].

عن قتادة، قوله: "{يفترون}، أي: يشركون"[٨].

الفوائد:

١- تقرير الوحي وإثباته للنبي ﷺ.
٢- إن التحريم والتحليل من حق الله تعالى دون سائر خلقه.

قال الإمام ابن القيم: «قال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: لم يكن من أمر الناس ولا مَنْ مضى من سلفنا، ولا أدركتُ أحداً ممن أقتدي به يقول في شيء: «هذا حلال، وهذا حرام» وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا ونرى هذا حسناً، فينبغي هذا، ولا نرى هذا، ورواه عنه عتيق بن يعقوب، وزاد: ولا يقولون حلال ولا حرام، أَمَا سمعت قول الله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ} [يونس: ٥٩] الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ماحرمه الله ورسوله"[٩].

فإن التشريع حق لله تعالى: والمراد بالتشريع: ما ينزِّله الله لعباده من المنهج الذي يسيرون عليه في العقائد والمعاملات وغيرها؛ ومن ذلك التحليل والتحريم، فليس لأحد أن يحل إلا ما أحله الله، ولا يحرم إلا ما حرم الله، قال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [النحل: ١١٦] ، وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} [يونس: ٥٩] .

فقد نهى الله عن التحليل والتحريم؛ بدون دليل من الكتاب والسنة، وأخبر أن ذلك من الكذب على الله، كما أخبر سبحانه أنَّ من أوجَبَ شيئًا أو حرَّمَ شيئًا من غير دليل فقد جعل نفسه شريكًا لله فيما هو من خصائصه، وهو التشريع، قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى: ٢١].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٣٩):ص١٩٦١/٦.
[٢][الأنعام : ١٣٦].
[٣][الأنعام : ١٣٦].
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٤٠):ص١٩٦١/٦.
[٥] صفوة التفاسير:٥٤٨/١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٤٢):ص١٩٦١/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٤٣):ص١٩٦١/٦.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٤٤):ص١٩٦١/٦.
[٩]إعلام الموقعين: ١/ ٤٠.

٣- يستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده. أفاده الشيخ السعدي[١].

٤-

القرآن

{وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)} [يونس : ٦٠]

التفسير:

وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب يوم الحساب، فيضيفون إليه تحريم ما لم يحرمه عليهم من الأرزاق والأقوات، أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم وفِرْيَتِهم عليه؟ أيحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر لهم؟ إن الله لذو فضل على خلقه؛ بتركه معاجلة مَن افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا وإمهاله إياه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على تفضله عليهم بذلك.

قوله تعالى:{وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [يونس : ٦٠]، أي:" وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب يوم الحساب، فيضيفون إليه تحريم ما لم يحرمه عليهم من الأرزاق والأقوات، أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم وفِرْيَتِهم عليه؟ أيحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر لهم؟"[٢].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} [يونس : ٦٠]، أي:" إن الله لذو فضل على خلقه؛ بتركه معاجلة مَن افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا وإمهاله إياه"[٣].

قال السعدي:أي:" كثير، وذو إحسان جزيل"[٤].

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن موسى بن أبي الصباح في قول الله: "{إن الله لذو فضل على الناس}، قال: "إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله فيقومون بين يدي الله ثلاث أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي لماذا عملت: فيقول: يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك فيها فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقا إليها قال: فيقول: عبدي إنما عملت الجنة هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك أعتقك من النار قال: يدخل الجنة هو ومن معه قال: يؤتى بالعبد من الصنف الثاني قال: فيقول: عبدي لماذا عملت فيقول: يا رب خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها، وما أعددت لأهل عذابك فيها ولأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلي وأطبت نهاري خوفا منها فيقول: عبدي إنما عملت خوفا من النار فإني قد أعتقك من النار، ومن فضلي عليك أدخلتك جنتي فيدخل الجنة هو ومن معه الجنة ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول رب حبا لك وشوقا إليك وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقا إليك وحبا لك فيقول تبارك وتعالى: عبدي إنما عملت حبا لي وشوقا إلي فيتجلى له الرب فيقول ها أنا ذا انظر إلي ثم يقول: من فضلي عليك أن أعتقك من النار وأدخلك جنتي وأزيرك ملائكتي وأسلم عليك بنفسي فيدخل هو ومن معه الجنة"[٥].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} [يونس : ٦٠]، أي:" ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على تفضله عليهم بذلك"[٦].

---

[١] انظر: تفسير السعدي:٣٦٧.

[٢] التفسير الميسر:٢١٥.

[٣] التفسير الميسر:٢١٥.

[٤] تفسير السعدي:٣٦٧.

[٥] تفسير ابن ابي حاتم(١٠٤٤٥):ص١٩٦١/٦-١٩٦٢.

[٦] التفسير الميسر:٢١٥.

قال السعدي:" إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته"[١].

عن قتادة، قوله: "{ولكن أكثر الناس لا يشكرون}، وإن المؤمن ليشكر نعم الله عليه وعلى خلقه. قال قتادة: وذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: يا رب شاكر نعمه غيره، ومنهم عليه لا يزيد: ويا رب حامل فقه غير فقيه"[٢].

الفوائد:

١- حرمة الكذب على الله، وإن صاحبه مستوجب للعذاب.
٢- بيان هول العقاب الذي ينتظر المبدلين لشرعه، إذ أنكر الله تعالى على من حرّم ما أحلّ الله أو أحلّ ما حرّم الله، بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها، ولا دليل عليها ثم توعدّهم على ذلك يوم القيامة فقال: " وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة " أي: ما ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟[٣]، فهذا استفهام يراد منه تهويل وتفظيع العقاب الأليم، الذي ينتظر المفترين المتقولين على الله، المبدّلين لشرعه، ولذا نُكّر وأُبهم، فمصيرهم هو أسوأ المصير، وعقابهم هو أوخم العقاب[٤]، وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب، وتنتظمهم جميعاً، فما ظنهم يا تُرى؟ ما الذي يتصورون أن يكون في شأنهم يوم القيامة؟ وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبال الصلدة الجاسية[٥].
٣- ما أعظم نعم الله تعالى على العباد ومع هذا فهم لا يشكرون إلا القليل منهم.

القرآن

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)} [يونس : ٦١]

التفسير:

وما تكون -أيها الرسول- في أمر مِن أمورك وما تتلو من كتاب الله من آيات، وما يعمل أحد من هذه الأمة عملا من خير أو شر إلا كنا عليكم شهودًا مُطَّلِعين عليه، إذ تأخذون في ذلك، وتعملونه، فنحفظه عليكم ونجزيكم به، وما يغيب عن علم ربك -أيها الرسول- من زنة نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر الأشياء ولا أكبرها، إلا في كتاب عند الله واضح جلي، أحاط به علمه وجرى به قلمه.

قوله تعالى:{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ} [يونس : ٦١]، أي:" وما تكون -أيها الرسول- في أمر من الأمور، ولا عملٍ من الأعمال"[٦].

قال الزجاج:" أي: أيّ وقت تكون في شأن من عبادة الله"[٧].

---

[١] تفسير السعدي:٣٦٧.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٤٦):ص١٩٦٢/٦.
[٣]تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٠)، وهجرة القرآن العظيم: ٦٥٨.
[٤]تفسير أبي السعود (٤/ ١٥٧)، وهجرة القرآن العظيم :٦٥٨.
[٥]في ظلال القرآن :٣/ ١٨٠٢.
[٦] صفوة التفاسير:٥٤٨/١.[بتصرف]
[٧] معاني القرآن:٢٦/٣.

وقال ابن ابي زمنين:أي:" من حوائجك للدنيا"[١].

قوله تعالى:{وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ} [يونس : ٦١]، أي:" وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن"[٢].

قال الزجاج:" وما تلوت به - من الشأن من قرآن"[٣].

قال ابن ابي زمنين: خاطب بهذا النبي ﷺ"[٤].

قال السمعاني:" فإن قيل: أيش معنى قوله: {وما تتلو منه} ولم يسبق ذكر القرآن؟
الجواب عنه من وجهين:
أحدهما أن معناه: وما تتلو من الشأن، من قرآن.
والآخر: أنه راجع إلى القرآن أيضا، فأبطن في قوله: {منه} وأظهر في قوله {من قرآن} تفخيما له"[٥].

قوله تعالى:{وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} [يونس : ٦١]، أي:" ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر"[٦].

وقال ابن ابي زمنين:"{ولا تعملون} يعني: العامة"[٧].

قوله تعالى:{إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس : ٦١]، أي:" إلا كنا شاهدين رقباء، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها"[٨].

قال الزجاج:" أي: إذ تنتشرون فيه، يقال: أفاض القوم في الحديث، إذا انتشروا فيه وخاضوا"[٩].

قال ابن كثير:" أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ، ولهذا قال ، عليه السلام لما سأله جبريل عن «الإحسان»، قال:«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١٠]"[١١].

قال ابن ابي زمنين:" يخبرهم أنه شاهد لأعمالهم"[١٢].

عن ابن عباس، قوله: "{إذ تفيضون فيه}، يقول: تفعلون"[١٣].

عن مجاهد قوله: "{إذ تفيضون فيه}: في الحق ما كان"[١٤].

قال السمعاني:" قال ابن الأنباري: إذ تندفعون فيه، و«الإفاضة»: هي الدفع بالكثرة"[١٥].

قال البغوي:" الإفاضة: الدخول في العمل. وقال ابن الأنباري: تندفعون فيه. وقيل: تكثرون فيه. والإفاضة: الدفع بكثرة"[١٦].

---

[١] تفسير ابن ابي زمنين:٢٦٣/٢.
[٢] صفوة التفاسير:٥٤٨/١.
[٣] معاني القرآن:٢٦/٣.
[٤] تفسير ابن ابي زمنين:٢٦٣/٢.
[٥] تفسير السمعاني:٣٩١/٢.
[٦] صفوة التفاسير:٥٤٨/١.
[٧] تفسير ابن ابي زمنين:٢٦٣/٢.
[٨] صفوة التفاسير:٥٤٨/١.
[٩] معاني القرآن:٢٦/٣.
[١٠]رواه مسلم في صحيحه برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب الطويل.
[١١] تفسير ابن كثير:٢٧٧/٤.
[١٢] تفسير ابن ابي زمنين:٢٦٣/٢.
[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٤٨):ص١٩٦٢/٦.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٤٩):ص١٩٦٣/٦.
[١٥] تفسير السمعاني:٣٩١/٢.
[١٦] تفسير البغوي:١٣٩/٤.

قوله تعالى:{وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [يونس : ٦١]، أي:" وما يغيب عن علم ربك -أيها الرسول- من زنة نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء"[١].

عن ابن عباس :"{وما يعزب عن ربك}، قال: ما يغيب عن ربك تبارك وتعالى"[٢].

قال ابن ابي زمنين:" أي: يغيب عن ربك وزن ذرة، {في الأرض ولا في السماء} حتى لا يعلمه ويعلم موضعه"[٣].

قال السمعاني:" والذرة: هي النملة الصغيرة، وقيل: ما يظهر في شعاع الشمس. والأول هو المعروف"[٤].

قال البغوي: " أي: والذرة: هي النملة الحمراء الصغيرة، وقيل: الذر أجزاء الهباء في الكوة وكل جزء منها ذرة ولا يكون لها وزن"[٥].

قوله تعالى:{وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس : ٦١]، أي:" ولا أصغر الأشياء ولا أكبرها، إلا في كتاب عند الله واضح جلي، أحاط به علمه وجرى به قلمه"[٦].
قلمه"[٦].

قال ابن ابي زمنين:أي:" بيّنٌ عند الله - عز وجل"[٧].

عن قتادة، قوله: "{في كتاب مبين}، قال: كل ذلك في كتاب عند الله مبين"[٨].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى نبيه ، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته ، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة ، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، كقوله : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام : ٥٩] ، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله : { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } [الأنعام : ٣٨] ، وقال تعالى : { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [هود : ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء ، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة ، كما قال تعالى : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ } [الشعراء : ٢١٧ - ٢١٩]"[٩].

عن إبراهيم الصنعاني، قال: "كان بعض العلماء إذا اخرج من منزله كتب في يده:{وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه}، الآية"[١٠].

الفوائد:

١- وجوب مراقبة الله تعالى، وحرمه الغفلة في ذلك.

---

[١] التفسير الميسر:٢١٥.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٥٠):ص١٩٦٣/٦.
[٣] تفسير ابن ابي زمنين:٢٦٣/٢.
[٤] تفسير السمعاني:٣٩١/٢.
[٥]تفسير البغوي: ٢/ ٢١٥.
[٦] التفسير الميسر:٢١٥.
[٧] تفسير ابن ابي زمنين:٢٦٣/٢.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٥١):ص١٩٦٣/٦.
[٩] تفسير ابن كثير:٢٧٧/٤.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٤٧):ص١٩٦٢/٦.

٢- إثبات اللوح المحفوظ وتقريره كما صرحت به الآيات والأحاديث.

القرآن

{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)} [يونس : ٦٢]

التفسير:

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا.

قوله تعالى:{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [يونس : ٦٢]، أي:" ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله، لأن الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه.. و«الأولياء» جمع «ولي»، وهو النصير"[٢].

عن سعيد بن جبير: "{لا خوف عليهم}، يعني: في الآخرة"[٣].

وقال الماوردي:يعني:" لا يخافون على ذريتهم فإن الله تعالى يتولاهم"[٤].

وقال مقاتل:" لا خوف عليهم أن يدخلوا جهنم"[٥].

قال السمعاني:" «الخوف»: انزعاج في النفس من توقع مكروه"[٦].

وفي «أَوْلِيَاءَ اللَّهِ»ها هنا، أقوال:

أحدها: أنهم قومٌ يُذْكَرُ الله لرؤيتهم، لما عليهم من سيما الخير والإخبات. قاله ابن عباس[٧]، والمسيب[٨]، وعبد الله بن أبي الهذيل[٩].

وروي عن سعيد بن جبير، قال: "سُئل رسول الله ﷺ عن "أولياء الله"، فقال: الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله"[١٠].

والثاني: هم {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}. قاله الإمام الطبري[١١].

والثالث : هم الراضون بالقضاء ، والصابرون على البلاء ، والشاكرون على النعماء[١٢].

والرابع: هم من توالت أفعالهم على موافقة الحق[١٣].

والخامس: هم المتحابون في الله تعالى.

روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من عباد الله عبادًا يغبطهم الأنبياء والشهداء! قيل: من هم يا رسول الله؟ فلعلنا نحبُّهم! قال: هم قوم تحابُّوا في الله من غير أموالٍ ولا أنساب، وجوههم من نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}"[١٤].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٦.
[٢] تفسير الطبري:١١٨/١٥.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٥٧):ص١٩٦٥/٦.
[٤] النكت والعيون:٤٤١/٢.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٤٣/٢.
[٦] تفسير السمعاني:٣٩٣/٢.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٠٣):ص١١٩/١٥.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٠٦):ص١١٩/١٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٧١٢):ص١٢٠/١٥.
[١٠] أخرجه الطبري(١٧٧٠٨):ص١٢٠/١٥.
[١١] انظر: تفسير الطبري:١٢٢/١٥-١٢٣.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٤٤٠/٢.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٤٤١/٢.
[١٤] أخرجه الطبري(١٧٧١٣):ص١٢١٠/١٥-١٢١.

قوله تعالى:{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس : ٦٢]، أي:" ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا"[١].

قال الطبري:أي:" ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا"[٢].

عن سعيد بن جبير: "{ولا هم يحزنون}، يعني: لا يحزنون للموت"[٣].

وقال الماوردي:يعني:" {ولا هم يحزنون} على دنياهم لأن الله تعالى يعوضهم عنها"[٤].
عنها"[٤].

وقال مقاتل:" {ولا هم يحزنون} أن يخرجوا من الجنة أبدا"[٥].

قال السمعاني:" «الحزن»: هم يقع في القلب لنوع عارض"[٦].

الفوائد:

١- أنه من ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه، والبشارة الكاملة بكل خير، قالت عالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [سورة يونس: ٦٤].
٢- أن ولاية الله تعالى بطاعته وموافقته في محابه ومكارهه فمن آمن إيمانا يرضاه الله، واتقى الله في أداء الفرائض واجتناب المناهي فقد صار ولي الله والله وليه.

القرآن

{الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)} [يونس : ٦٣]

التفسير:

وصفات هؤلاء الأولياء، أنهم الذين صدَّقوا الله واتبعوا رسوله وما جاء به من عند الله، وكانوا يتقون الله بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه.

قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا} [يونس : ٦٣]، أي:" وصفات هؤلاء الأولياء، أنهم الذين صدَّقوا الله واتبعوا رسوله وما جاء به من عند الله"[٧].

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى"[٨].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الذين صدقوا لله ورسوله، وما جاء به من عند الله"[٩].
الله"[٩].

قوله تعالى:{وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس : ٦٣]، أي:" وكانوا يتقون الله بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه"[١٠].

قال الطبري:" وكانوا يتَّقون الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه"[١١].

قال أبو الليث السمرقندي:" ويتقون الشرك والفواحش"[١٢].

قال ابن زيد:" أبى أن يُتَقَبَّل الإيمان إلا بالتقوى"[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٦.
[٢] تفسير الطبري:١١٨/١٥.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٥٧):ص١٩٦٥/٦.
[٤] النكت والعيون:٤٤١/٢.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٤٣/٢.
[٦] تفسير السمعاني:٣٩٣/٢.
[٧] التفسير الميسر:٢١٦.
[٨] بحر العلوم:١٢٣/٢.
[٩] تفسير الطبري:١٢٣/١٥.
[١٠] التفسير الميسر:٢١٦.
[١١] تفسير الطبري:١٢٣/١٥.
[١٢] بحر العلوم:١٢٣/٢.
[١٣] أخرجه الطبري(١٧٧١٦):ص١٢٣/١٥.

الفوائد:

١- بيان الله سبحانه لأولياء الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار.
٢- أن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين، فالمؤمنون أولياء الله، والله تعالى وليهم.
٣- أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في {الذين آمنوا وكانوا يتقون}، فأولياءه هم المؤمنون المتقون، فجعل كل من يؤمن بالله ورسوله ﷺ ويتقي داخلا في سلك الأولياء، فالآية تعمّ وتصدق على أن كل مؤمن متقي فإنه من الأولياء.
٤- أرشد الله تعالى إلى أن الولي هو العالم، وأن العالم هو العامل بعلمه، وهذا يستفاد من قوله: تعالى{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] ، وقوله تعالى:{أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٢، ٦٣] .

القرآن
{لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)} [يونس : ٦٤]

التفسير:
لهؤلاء الأولياء البشارة من الله في الحياة الدنيا بما يسرُّهم، ومنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، وفي الآخرة بالجنة، لا يخلف الله وعده ولا يغيّره، ذلك هو الفوز العظيم؛ لأنه اشتمل على النجاة مِن كل محذور، والظَّفَر بكل مطلوب محبوب.

قوله تعالى:{لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس : ٦٤]، أي:" لهؤلاء الأولياء البشارة من الله في الحياة الدنيا بما يسرُّهم، وفي الآخرة بالجنة"[١].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: البشرى من الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لأولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون"[٢].
وفي قوله تعالى:{لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس : ٦٤]، وجوه:

أحدها : أن البشرى في الحياة الدنيا هي البشارة عند الموت بأن يعلم أين هو من قبل أن يموت ، وفي الآخرة الجنة ، قاله قتادة[٣]، والضحاك[٤]، والزهري[٥].
الثاني : أن البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له ، وفي الآخرة الجنة ، روى ذلك عن رسول الله -ﷺ- أبو الدرداء[٦]، وأبو هريرة[٧]، وعبادة بن الصامت[٨]، وعبد الله بن عمرو بن العاص[٩]، وعبدالله بن عمر[١٠]، وبه قال عروة[١١]، وابن عباس[١٢]، ويحيى بن ابي كثير[١٣]، ومجاهد[١]، وإبراهيم[٢]، وعطاء[٣].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٦.[بتصرف]
[٢] تفسير الطبري:١٢٤/١٥.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٥٧):ص١٤٠/١٥.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٥٨):ص١٤٠/١٥.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٥٧):ص١٤٠/١٥.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٧١٧):ص١٢٤/١٥-١٢٥.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٢٨):ص١٣١/١٥.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٧١٩):ص١٢٦/١٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٢٩):ص١٣١/١٥.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٥٤):ص١٣٩/١٥.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٤٤):ص١٣٧/١٥.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٤٨):ص١٣٨/١٥.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٤٥):ص١٣٧/١٥.

وروي عن أم كرز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ذهبت النبوّة وبقيت المبشّرات"(٤).
والثالث: أن البشرى في الحياة الدنيا الثناء الصالح، وفي الآخرة إعطاؤه كتابه بيمينه. أفاده الماوردي(٥).

والرابع: أن البشرى في الحياة الدنيا: الرؤيا الصالحات، وفي الآخرة إذا خرجوا من قبورهم. وهذا قول مقاتل(٦).

قال الطبري:" وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنّ لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله، كما روي عن النبي ﷺ: «أن الملائكة التي تحضره عند خروج نفسه، تقول لنفسه: اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه»(٧).

ومنها: بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل، كما قال جل ثناؤه: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} الآية، [سورة البقرة: ٢٥] .

وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشره بها، ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عمه جل ثناؤه: أن (لهم البشرى في الحياة الدنيا) ، وأما في الآخرة فالجنة"(٨).

قوله تعالى:{لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ} [يونس : ٦٤]، أي:" لا إخلاف لوعد الله"(٩).

قال الطبري:" معناه: إن الله لا خُلْفَ لوعده، ولا تغيير لقوله عما قال، ولكنه يُمْضي لخلقه مواعيدَه وينجزها لهم"(١٠).

عن نافع قال: "أطال الحجاج الخطبة، فوضع ابن عمر رأسَه في حِجْري، فقال الحجاج: إن ابن الزبير بدّل كتاب الله! فقعد ابن عمر فقال: لا تستطيع أنت ذاك ولا ابن الزبير! لا تبديل لكلمات الله! فقال الحجاج: لقد أوتيت علمًا إن نفعك! قال أيوب: فلما أقبل عليه في خاصّة نفسه سكَتَ"(١١).

وهذا خبر عظيم القدر فيه أخلاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ظاهرة كما علمهم رسولهم، من ترك هيبة الجبابرة، ومن إنكار المنكر من القول والعمل، ومن اليقظة لمعاني الكلام ومقاصد الأعمال، ومن تعليم الناس جهرة أخطاء أمرائهم والولاة عليهم، ومن الصبر على أذى هؤلاء الجبابرة إذا كان الأذى يمسهم في خاصة أنفسهم. فأما إذا كان الأمر أمر الله وأمر رسوله، وأمر الكتاب المنزل بالحق إلى الديانين والجبابرة جميعًا، يأمرهم وينهاهم على

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٧٧٤٧):ص١٣٨/١٥.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٧٧٤٩):ص١٣٨/١٥.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٧٧٥٣):ص١٣٩/١٥.
(٤) أخرجه الطبري(١٧٧٣٢):ص١٣٣/١٥.
(٥) انظر: النكت والعيون:٤٤٢/٢.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٤٣/٢.
(٧)حديث بغير إسناد، لم أستطع أن أجده بلفظه في مكان قريب.
(٨) تفسير الطبري:١٤٠/١٥-١٤١.
(٩) صفوة التفاسير:٥٤٩/١.
(١٠) تفسير الطبري:١٤١/١٥.
(١١) أخرجه الطبري(١٧٧٥٩):ص١٤١/١٥. ورواه الحاكم في المستدرك ٢: ٣٣٩، ٣٤٠، من طريق أبي النعمان، عن إسماعيل بن علية، عن أيوب، بمثله، ليس فيه كلمة أيوب. وقال: " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه "، ووافقه الذهبي.

السواء، فهم لا يخافون جبارًا قد عود سيفه سفح الدماء، ودرب لسانه على اللذع والقرص واللجاجة. فرحم الله أمة كان هؤلاء النبلاء، أئمتها وهداتها![١].

قوله تعالى:{ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس : ٦٤]، أي:" ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والظفر بالمقصود الذي لا يُضاهى"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هذه البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة -وهي الفوز العظيم-، يعني: الظفر بالحاجة والطَّلبة والنجاة من النار"[٣].

الفوائد:

١- البشرى هي ما يكرم الله به برؤيا صالحة يراها الولي أو ترى له.
٢- الأولياء هم أهل الإيمان والتقوى فالكافر والفاجر لا يكون وليا أبدا، إلا إذا آمن الكافر، وبر الفاجر بفعل الصالحات وترك المنهيات.

القرآن

{وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)} [يونس : ٦٥]

التفسير:

ولا يحزنك -أيها الرسول- قول المشركين في ربهم وافتراؤهم عليه وإشراكهم معه الأوثان والأصنام؛ فإن الله تعالى هو المتفرد بالقوة الكاملة والقدرة التامة في الدنيا والآخرة، وهو السميع لأقوالهم، العليم بنياتهم وأفعالهم.

قوله تعالى:{وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} [يونس : ٦٥]، أي:" ولا يحزنك -أيها الرسول- قول المشركين في ربهم وافتراؤهم عليه وإشراكهم معه الأوثان والأصنام"[٤].

قال الزجاج:" أي: لا يحزنك إيعادهم وتكذيبهم وتظاهرهم عليك"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يحزنكَ، يا محمد، قول هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام"[٦].

قال الزمخشري:" {قولهم}: تكذيبهم لك، وتهديدهم، وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك، وسائر ما يتكلمون به في شأنك"[٧].

وقرئ: «ولا يحزنك»، من «أحزنه»[٨].

قوله تعالى:{إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [يونس : ٦٥]، أي:" فإن الله تعالى هو المتفرد بالقوة الكاملة والقدرة التامة في الدنيا والآخرة"[٩].

قال الزجاج:أي:" إن الغلبة لله، فهو ناصرك وناصر دينه"[١٠].

قال البغوي:" يعني: الغلبة والقدرة لله {جميعا} هو ناصرك، وناصر دينك، والمنتقم منهم"[١١].

---

[١] تفسير الطبري:١٤١/١٥،(الهامش:٣) والكلام للمحقق.
[٢] صفوة التفاسير:٥٤٩/١.
[٣] تفسير الطبري:١٤٢/١٥.
[٤] التفسير الميسر:٢١٦.
[٥] معاني القرآن:٢٧/٣.
[٦] تفسير الطبري:١٤٢/١٥.
[٧] الكشاف:٣٥٧/٢.
[٨] انظر: الكشاف:٣٥٧/٢.
[٩] التفسير الميسر:٢١٦.
[١٠] معاني القرآن:٢٧/٣.
[١١] تفسير البغوي:١٤٢/٤.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحدٌ، لأنه لا يُعَازُّه شيء"[١].

وقال سعيد بن المسيب: "إن العزة لله جميعا يعني: أن الله يعز من يشاء، كما قال في آية أخرى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: ٨]، وعزة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلها لله"[٢].

قال الزمخشري:" إن العزة لله استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: مالى لا أحزن؟ فقيل، إن العزة لله جميعا، أى إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعا، لا يملك أحد شيئا منها لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة : ٢١]، {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا} [غافر : ٥١]"[٣].

وقرأ أبو حيوة: «أن العزة»، بالفتح بمعنى: لأن العزة على صريح التعليل. ومن جعله بدلا من {قولهم} ثم أنكره، فالمنكر هو تخريجه، لا ما أنكر من القراءة به[٤].

قوله تعالى:{هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يونس : ٦٥]، أي:" وهو السميع لأقوالهم، العليم بنياتهم وأفعالهم"[٥].

قال الطبري:" يقول: وهو ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه، وذو علم بما يضمرونه في أنفسهم ويعلنونه، مُحْصًى ذلك عليهم كله، وهو لهم بالمرصاد"[٦].

قال الزمخشري:أي:" يسمع ما يقولون. ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه. وهو مكافئهم بذلك"[٧].

الفوائد:

١- على المؤمن الداعي إلى الله تعالى أن لا يحزنه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم حتى لا ينقطع عن دعوته، وليعلم أن العزة لله جميعا وسوف يعزه بها، ويذل أعداءه.
٢- اثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما:«السميع»، «العليم»:
- فـ«السميع»: هو "الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فالسر عنده علانية البعيد عنده قريب"[٨].
وسمعه تعالى نوعان[٩]:

احدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، واحاطته التامة بها.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيصيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم:٣٩]، وقول المصلي «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب.

- ومن أسمائه تعالى: «العليم»:هو المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[١٠].

---

[١] تفسير الطبري:١٤٢/١٥.
[٢] تفسير البغوي:١٤٢/٤.
[٣] الكشاف:٣٥٧/٢.
[٤] انظر: الكشاف:٣٥٧/٢.
[٥] التفسير الميسر:٢١٦.
[٦] تفسير الطبري:١٤٢/١٥.
[٧] الكشاف:٣٥٧/٢.
[٨] توضيح الكافية الشافية:١١٨، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي:٢٠٩.
[٩] انظر: الحق الواضح المبين:٣٥، تفسير اسماء الله الحسنى للسعدي:٢١٠.
[١٠] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

القرآن

{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)} [يونس : ٦٦]

التفسير:

ألا إن لله كل مَن في السموات ومن في الأرض من الملائكة، والإنس، والجن وغير ذلك. وأي شيء يتَّبع مَن يدعو غير الله من الشركاء؟ ما يتَّبعون إلا الشك، وإن هم إلا يكذبون فيما ينسبونه إلى الله.

قوله تعالى:{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} [يونس : ٦٦]، أي:" ألا إن لله كل مَن في السموات ومن في الأرض من الملائكة، والإنس، والجن وغير ذلك"[١].

قال الزمخشري:" {من في السماوات ومن في الأرض}، يعنى: العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان، وإنما خصهم، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم، وهو سبحانه وتعالى، ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكا له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكا، وليدل على أن من اتخذ غيره ربا من ملك أو إنسى فضلا عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر"[٢].

قوله تعالى:{وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ} [يونس : ٦٦]، أي:" وأي شيء يتَّبع مَن يدعو غير الله من الشركاء؟"[٣].

قال الزمخشري:" أى: وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء، لأن شركة الله في الربوبية محال... ويجوز أن يكون {وما يتبع} في معنى الاستفهام، يعنى: وأى شيء يتبعون"[٤].

قال البغوي:" هو استفهام معناه: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ وقيل: وما يتبعون حقيقة، لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا، وليس على ما يظنون"[٥].

وقرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه: «تدعون»، بالتاء، ووجهه أن يحمل {وما يتبع} على الاستفهام، أى: وأى شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين، يعنى: أنهم يتبعون الله ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} [الإسراء : ٥٧، ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبيون من الحق[٦].

قوله تعالى:{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} [يونس : ٦٦]، أي:" ما يتَّبعون إلا الشك"[٧].

قال البغوي:" يظنون أنها تقربهم إلى الله تعالى"[٨].

قال الزمخشري:" إن يتبعون إلا ظنهم أنها شركاء"[٩].

قوله تعالى:{وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس : ٦٦]، أي:" وإن هم إلا يكذبون فيما ينسبونه إلى الله"[١٠].

---

(١) التفسير الميسر:٢١٦.
(٢) الكشاف:٣٥٧/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢١٦.
(٤) الكشاف:٣٥٧/٢.
(٥) تفسير البغوي:١٤٢/٤.
(٦) انظر: الكشاف:٣٥٧/٢-٣٥٨.
(٧) التفسير الميسر:٢١٦.
(٨) تفسير البغوي:١٤٢/٤.
(٩) الكشاف:٣٥٧/٢.
(١٠) التفسير الميسر:٢١٦.

قال البغوي:" يكذبون"[1].
قال الزمخشري:" يحزرون ويقدرون أن تكون شركاء تقديرا باطل"[2].
الفوائد:

١- ما يعبد من دون الله لم يقم عليه عابدوه أي دليل ولا يملكون له حجة وإنما هم مقلدون يتبعون الظنون والأوهام.
٢- أن اتباع الظن والذي هو مجرد حدس وخرص وأوهام والذي لا ينبني على علم، فإنه ولا شك سبب من أسباب الضلال حسب سنته سبحانه وتعالى، فقد سجل القرآن الكريم في كثير من الآيات على كفار قريش ضلالهم بسبب إتباعهم الظن ـ كسابقيهم من الكافرين ـ وذلك بجعل الأصنام شركاء لله، وبعبادتهم لها وزعمهم أنهم مجبورون في ضلالهم هذا وغيهم.
قال سبحانه وتعالى: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس : ٦٦]
وقال تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس : ٣٦].
وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} [الجاثية : ٣٢]
٣- أن الخلق عباد فقراء إلى الله، محتاجون إليه، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، فضلا عن أن يملكوا لغيرهم، ومن الآيات التي تثبت هذه الحقيقة:
١ ـ قوله تعالى: {لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [البقرة: ١٤٢] .

٢ ـ وقوله سبحانه: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [البقرة ٢٨٤، آل عمران: ١٠٩، ١٢٩، النساء: ١٢٦، ١٣١، ١٣٢، النجم: ٣١] .

٣ ـ وقوله عز وجل: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النساء: ١٧٠، يونس: ٥٥، النور: ٦٤] .

٤ ـ وقال جل وعلا: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [البقرة: ٢٥٥، النساء: ١٧١، يونس: ٦٨، إبراهيم: ٢، طه: ٦، الحج: ٦٤، الشورى: ٤، ٥٣] .

٥ ـ وقال سبحانه: {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النحل: ٥٢] .

٦ ـ وقال تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [المائدة: ١٧، ١٨، ١٢٠، النور: ٤٢، الشورى: ٤٩، الجاثية: ٣٧] .

٧ ـ وقال عز وجل: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: ١٠٧، المائدة: ٤٠، الأعراف: ١٥٨، التوبة: ١١٦، الفرقان: ٢، الزمر: ٤٤، الزخرف: ٨٥، الحديد: ٢، ٥،البروج:٩] .

٨ ـ وقال عز وجل: {لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ} [التغابن: ١] .

٩ ـ وقال جل وعلا: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [تبارك: ١] .

١٠ ـ وقال تعالى: {مَلِكِ النَّاسِ} [الناس: ٢] .

[1] تفسير البغوي:١٤٢/٤.
[2] الكشاف:٣٥٧/٢.

١١ - وقال سبحانه: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} [آل عمران: ٢٦] .

١٢ - وقال جل وعلا: {عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٥] .

١٣ - وقال عز وجل: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} [يس: ٨٤] .

١٤ - وقال جل وعلا: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} [المؤمنون: ٨٨- ٨٩] .

١٥ - وقال سبحانه وتعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ} [الأنعام: ١٢] .

١٦ - وقال تعالى: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} [يونس:٦٦] .

١٧ - وقال سبحانه: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنبياء: ١٩] .

١٨ - وقال تعالى: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [المؤمنون: ٨٤-٨٥] .

١٩ - وقال سبحانه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢، الأنعام: ٤٥، يونس: ١٠، الصافات: ١٨٢، الزمر: ٧٥، غافر: ٦٥] .

تنبيه: وصف الله سبحانه بأنه رب العالمين في عدة آيات، انظر: ٢٠-٥٣-[الفاتحة: ٢، البقرة: ١٣١، المائدة: ٢٨، الأنعام: ٤٥، ٧١، ١٦٢، الأعراف: ٥٤، ٦١، ٦٨، ١٠٤، ١٢١، يونس: ١٠، ٣٧، الشعراء: ١٦، ٤٧، ٧٧، ٩٨، ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٦٥، ١٨٠، ١٩٢، النمل: ٨، ٤٤، القصص: ٣٠، السجدة: ٢، ٨٧، الصافات: ٨٧، ١٨٢، الزمر: ٧٥، غافر: ٦٦، فصلت: ٩،الزخرف: ٤٦، الجاثية: ٢٦، الواقعة: ٨٠، الحشر: ١٦، القلم: ٥٢، الحاقة: ٤٣، التكوير: ٢٧، ٢٩، المطففين:٩] .

٥٤ - وقال سبحانه: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الجاثية: ٣٦] .

٥٥ - وقال جل مجده: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ} [الرعد: ١٦] .

٥٦ - وقال سبحانه: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [المؤمنون: ٨٦] .

٥٧ - وقال ﷻ: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الصافات: ٥، ص: ٦٦] ، {رَبِّ} ... [الدخان: ٧، النبأ: ٣٧] ، {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الكهف: ١٤] .

٥٨ - وقال جل وعلا: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الزمر: ٦٣، الشورى: ١٢] .

٥٩ - وقال جل مجده: {وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [آل عمران: ١٨٠، الحديد:١٠] .

٦٠ - وقال سبحانه: {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [الأعراف: ٨٧، يونس: ١٠٩، يوسف: ٨٠] .

٦١ - وقال تعالى: {وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} [هود: ٢٥] .

٦٢ - وقال جل وعلا: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠، ٦٧] .

٦٣ - وقال سبحانه: {وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} [الرعد: ٤١] .

٦٤ - وقال تعالى: {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٧٠، ٨٨] .

٦٥ - وقال جل شأنه: {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [غافر: ١٢] .

٦٦ - وقال عز وجل: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين: ٨] .

٦٧ - وقال سبحانه: {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [المنافقون: ٧] .

٦٨ - وقال جل وعلا: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح: ٤، ٧] .

تنبيه: هذه الآيات وأمثالها كلها تدل على أن الله تعالى: هو الرب المالك المتصرف في الكون وحده لا شريك له سبحانه.

٦٩ - وقال سبحانه: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: ١٨٨] .

٧٠ - وقال تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} [يونس:٤٩] .

٧١ - وقال جل وعلا: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} [الجن: ٢١] .

٧٢ - وقال سبحانه: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} [آل عمران: ١٢٨] .

٧٣ - وقال عز وجل: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} [المائدة:٤١] .

٧٤ - وقال سبحانه: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦] .

٧٥ - وقال جل شأنه: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} [الزمر:١٩] .

٧٦ - وقال سبحانه: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء ٩٠-٩٣] .

٧٧ - وقال جل وعلا: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأنعام: ٥٧-٥٨] .

٧٨ - وقال سبحانه: {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام:٣٥] .

٧٩ - وقال جل وعلا: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام: ١٧] .

٨٠ - وقال عز وجل: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ} [يونس: ١٠٧] .

تنبيه: هذه الآيات وأمثالها تدل دلالة قاطعة على أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا عن أن يملك لغيره، وفضلا عن أن يتصرف في الكون.

٨١ - وقال جل وعلا عن رسوله نوح عليه السلام: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [هود: ٣١] .

٨٢ - وقال سبحانه: {قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} [هود: ٤٣] .

٨٣ - وقال جل وعلا: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود: ٤٥-٤٧] .

٨٤ - وقال عز وجل: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [التحريم: ١٠] .

٨٥ - وقال سبحانه حكاية عن خليله: {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} [الممتحنة: ٤] .

٨٦ - وقال تعالى حكاية عن الكريم ابن الكريم: {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [يوسف: ٦٧] .

٨٧ - وقال جل ثناؤه: {مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} [يوسف: ٦٨] .

٨٨ - وقال جل وعلا: {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي} [المائدة: ٢٥] .

٨٩ - وقال سبحانه: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠] .

٩٠ - وقال سبحانه: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء: ٥٧] .

٩١ - وقال عز وجل: {قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} [الرعد: ١٦] .

٩٢ - وقال سبحانه وتعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} [الفرقان: ٣] .

٩٣ - وقال ﷻ: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢] .

٩٤ - وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ} [العنكبوت: ١٧] .

٩٥ - وقال تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} [فاطر: ١٣-١٤] .

٩٦ - وقال عز من قائل: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: ٨٦] .

٩٧ - وقال جل من قائل: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل: ٢١- ٢٢] .

٩٨ - وقال جل ثناؤه: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: ٧٣] .

٩٩ - وقال سبحانه: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ} [فاطر: ٤٠] .

١٠٠ - وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ....* وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}[الأحقاف: ٤-٥] .

١٠١ - وقال جل ثناؤه: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [فاطر: ٢] .

١٠٢ - وقال جل من قائل: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: ٣١-٣٢] .

١٠٣ - وقال عز من قائل: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} [القصص: ٦٨] .

إلى غير ذلك من الآيات المباركات.

القرآن

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)} [يونس : ٦٧]

التفسير:

هو الذي جعل لكم -أيها الناس- الليل لتسكنوا فيه وتهدؤوا من عناء الحركة في طلب المعاش، وجعل لكم النهار؛ لتبصروا فيه، ولتسعَوْا لطلب رزقكم. إن في اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما فيهما لَدلالةً وحججًا على أن الله وحده هو المستحق للعبادة، لقوم يسمعون هذه الحجج، ويتفكرون فيها.

قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} [يونس : ٦٧]، أي:" هو الذي جعل لكم -أيها الناس- الليل لتسكنوا فيه وتهدؤوا من عناء الحركة في طلب المعاش"(١).

قال مقاتل:" يعني: لتأووا فيه من نصب النهار"(٢).

قال الزمخشري:" ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة، بأنه جعل لهم الليل مظلما ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردد في المعاش"(٣).

عن قتادة في قول الله: {الليل سكنا}: يسكن فيه كل طائر ودابة"(٤).

قوله تعالى:{وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} [يونس : ٦٧]، أي:" وجعل لكم النهار؛ لتبصروا فيه، ولتسعَوْا لطلب رزقكم"(٥).

---

(١) التفسير الميسر:٢١٦.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٣٤٣.
(٣) الكشاف:٢/٣٥٨.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٦٩):ص٦/١٩٦٧.
(٥) التفسير الميسر:٢١٦.

قال قتادة:" أي: منيرا"[1].
قال مقاتل:" ضياء ونورا لتتغلبوا فيه لمعايشكم"[2].
قال الزمخشري:" والنهار مضيئا يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم"[3].
قال مجاهد: "الشمس آية النهار"[4].
قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [يونس : ٦٧]، أي:" إن في اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما فيهما لَدلالةً وحججًا على أن الله وحده هو المستحق للعبادة، لقوم يسمعون هذه الحجج، ويتفكرون فيها"[5].
قال مقاتل:" يعني: في هذا {لآيات}، يعني: لعلامات {لقوم يسمعون} المواعظ"[6].
قال الزمخشري:" لقوم يسمعون سماع معتبر مدكر"[7].
عن سعيد بن جبير، قوله: "{إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله"[8].

الفوائد:

١- مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق والتدبير كافية في إثبات العبادة له ونفيها عما سواه.
٢- نعمة الليل والنهار، لما في ذلك من مصالح للعباد ولأن النهار للعمل وفيه التعب، والليل للنوم وفيه الراحة؛ وذلك لأن الليل إذا تغشى الكائنات وسكنت فيه الأشياء يستريح البدن، فخلقُ الله لهذه الأشياء المتضادة المختلفة مع ما فيها من نعمة جسمية على الكائنات دليلٌ على وحدانيته تعالى؛ لأنه وحده الذي جعل الليل سكنًا أي ساجيًا مظلمًا لتسكن فيه الأشياء
٣- من آيات الله العظيمة الدالة على وجوده ووحدانيته، تعاقب الليل والنهار، وما أودعه الله في الشمس والقمر من النور والإضاءة.

القرآن
{قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)} [يونس : ٦٨]
التفسير:
قال المشركون: اتخذ الله ولدًا، كقولهم: الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله. تقدَّس الله عن ذلك كله وتنزَّه، هو الغني عن كل ما سواه، له كل ما في السموات والأرض، فكيف يكون له ولد ممن خلق وكل شيء مملوك له؟ وليس لديكم دليل على ما تفترونه من الكذب، أتقولون على الله ما لا تعلمون حقيقته وصحته؟

قوله تعالى:{قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [يونس : ٦٨]، أي:" قال المشركون: اتخذ الله ولدًا، كقولهم: الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله"[9].

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٠):ص١٩٦٧/٦.
[2] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٤٣/٢.
[3] الكشاف:٣٥٨/٢.
[4] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٠):ص١٩٦٧/٦.
[5] التفسير الميسر:٢١٦.
[6] تفسير مقاتل بن سليمان:٣٤٣/٢.
[7] الكشاف:٣٥٨/٢.
[8] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧١):ص١٩٦٧/٦.
[9] التفسير الميسر:٢١٦.

قوله تعالى:{سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ} [يونس : ٦٨]، أي:" تقدَّس الله عن ذلك كله وتنزَّه، هو الغني عن كل ما سواه"(١).

قال قتادة: "إذ قالوا عليه البهتان عظم نفسه"(٢).

عن ابن عباس في قوله: "{سبحانه}، يقول: سبحان: عجب"(٣).

قوله تعالى:{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [يونس : ٦٨]، أي:" له كل ما في السموات والأرض فكيف يكون له ولد ممن خلق وكل شيء مملوك له؟"(٤).

عن غالب بن عجرة، ثنا رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: "بلغني أن الله خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا فيها منفعة وقال كان لهم فيها منفعة، ولم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة من بني آدم بتلك الكلمة العظيمة بقولهم: اتخذ الله ولدا فلما تكلموا فيها اقشعرت الأرض وشاك الشجر"(٥).

قوله تعالى:{إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا} [يونس : ٦٨]، أي:" وليس لديكم دليل على ما تفترونه من الكذب"(٦).

عن ابن عباس قال: "كل سلطان في القرآن حجة"(٧). وروي عن عكرمة ومحمد بن كعب كعب وسعيد بن جبير والسدي والضحاك، والنضر بن عدي نحو ذلك(٨).

قوله تعالى:{أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يونس : ٦٨]، أي:" أتقولون على الله ما لا تعلمون حقيقته وصحته؟"(٩).

قال قتادة:" القول الكذب والباطل وقالوا عليه ما لا يعلمون"(١٠).

الفوائد:

١- كفر من ينسب إلى الله تعالى أي نقص كالولد والشريك أو العجز مطلقا.
٢- كل دعوى لا يقيم لها صاحبها برهانا قاطعا وحجة واضحة فلا قيمة لها ولا يحفل بها.

القرآن

{قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩)} [يونس : ٦٩]

التفسير:

قل: إن الذين يفترون على الله الكذب باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه، لا ينالون مطلوبهم في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [يونس : ٦٩]، أي:" قل: إن كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح"(١١).

---

(١) التفسير الميسر:٢١٦.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٢):ص١٩٦٧/٦.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٤):ص١٩٦٨/٦.
(٤) التفسير الميسر:٢١٦.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٣):ص١٩٦٨/٦.
(٦) التفسير الميسر:٢١٦.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٥):ص١٩٦٨/٦.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٦٨/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٩) التفسير الميسر:٢١٦.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٦):ص١٩٦٨/٦.
(١١) صفوة التفاسير:٥٤٩/١.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل} يا محمد، لهم {إن الذين يفترون على الله الكذب}، فيقولون عليه الباطل، ويدّعون له ولدًا {لا يفلحون}، يقول: لا يَبْقَون في الدنيا"[١].

قال الشوكاني:" أي: كل مفتر هذا شأنه، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا. وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد، كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز. والمعنى: أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب"[٢].

قال الزمخشري:" يفترون على الله الكذب بإضافة الولد إليه"[٣].

قال السمعاني: {لَا يُفْلِحُونَ}"أي: لا ينجون"[٤].

قال الثعلبي:{لَا يُفْلِحُونَ}:" قال الكلبي: لا يؤمنون، وقيل: لا ينجون، وقيل: لا يفوزون، وقيل: لا يبقون في الدنيا"[٥].

قال الزجاج:"{ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُون}، هذا وقف التمام، وقوله:{مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس : ٧٠]، مرفوع على معنى ذلك متاع في الدنيا"[٦].

الفوائد:

١- أهل الكذب على الله كالدجالين والسحرة وأهل البدع والخرافات لا يفلحون ونهايتهم الخسران.
٢- أن أكثر ضلال الأمم في صفة الولد، فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله، وأمهاتهن سروات الجن، وقال بها من قبل: الهنادك والبوذيون وغيرهم من يطول المقام بذكرهم. ولهذا كثر في النصوص تنزيه الله عن صفة الولد، والرد على من افتراها بطرق متعددة، منها: التشنيع بأهل هذه الفرية، وتقبيح مقالتهم، ووعيدهم بأعظم العقوبات، قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} [مريم: ٨٨ - ٩١]، وقال: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} [الكهف: ٤، ٥]، وقال: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٦٨ - ٧٠]، فأوعد من كذب عليه بدعوى الولد بعدم الفلاح في الدارين، وذلك باستدراجهم في الدنيا، وتقليل مدة متاعهم فيها، حتى يضطرهم إلى أعظم العقوبات في الآخرة[٧].

القرآن

{مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)} [يونس : ٧٠]

التفسير:

---

[١] تفسير الطبري:١٤٦/١٥.
[٢] فتح القدير:٥٢٤/٢.
[٣] الكشاف:٣٥٨/٢.
[٤] تفسير السمعاني:٣٩٥/٢.
[٥] الكشف والبيان:١٤٠/٥.
[٦] معاني القرآن:٢٧/٣.
[٧]انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٥ ، والعقائد الوثنية في الديانة النصرانية لمحمد التنير :٦٠ - ٧٤.

إنما يتمتعون في الدنيا بكفرهم وكذبهم متاعًا قصيرًا، ثم إذا انقضى أجلهم فإلينا مصيرهم، ثم نذيقهم عذاب جهنم بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم رسل الله، وجحدهم آياته.

قوله تعالى:{مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا} [يونس : ٧٠]، أي:" متاعٌ قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم"(١).

قال القاسمي:" أي: لهم تمتع يسير في الدنيا"(٢).

قال الشوكاني:" ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل في الدنيا.. فيكون {متاع}: خبر مبتدأ محذوف، الجملة: مستأنفة، لبيان أن ما يحصل للمفتري بافترائه ليس بفائدة يعتد بها، بل هو متاع يسير في الدنيا يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها: الكذب على الله"(٣).

عن هشام بن حسان، قال: "سمعت الحسن يقول: متاع الدنيا قليل قال رحم الله عبدا صاحبها على ذلك"(٤).

قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} [يونس : ٧٠]، أي:" ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب"(٥).

قال مقاتل:" في الآخرة"(٦).

قال ابن كثير:" أي : يوم القيامة"(٧).

قال الشوكاني:" ثم يتعقبه-أي المتاع- الموت والرجوع إلى الله"(٨).

قوله تعالى:{ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس : ٧٠]، أي:" ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله"(٩).

قال مقاتل:" بقولهم: إن الملائكة ولد الله"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : الموجع المؤلم، بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله ، فيما ادعوه من الإفك والزور"(١١).

قال القاسمي:" والآية لبيان أن ما يتراءى من فوزهم بالحظوظ الدنيوية، بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح. كأنه قيل: كيف لا يفلحون وهم في غبطة ونعيم؟ فقيل: هو متاع يسير في الدنيا. وليس بفوز بالمطلوب"(١٢).

الفوائد:

١- لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بما يرى عليه أهل الباطل والشر من المتع وسعة الرزق وصحة البدن فإن ذلك متاع الحياة الدنيا، ثم يؤول أمرهم إلى خسران دائم.

القرآن

---

(١) صفوة التفاسير:٥٤٩/١.
(٢) محاسن التأويل:٤٩/٦.
(٣) فتح القدير:٥٢٤/٢.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٧):ص١٩٦٨/٦.
(٥) صفوة التفاسير:٥٥٠/١.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٤/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٨٣/٤.
(٨) فتح القدير:٥٢٤/٢.
(٩) صفوة التفاسير:٥٥٠/١.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٤/٢.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٨٣/٤.
(١٢) محاسن التأويل:٤٩/٦.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١)} [يونس : ٧١]

التفسير:

واقصص -أيها الرسول- على كفار «مكة» خبر نوح -عليه السلام- مع قومه حين قال لهم: إن كان عَظُمَ عليكم مقامي فيكم وتذكيري إياكم بحجج الله وبراهينه فعلى الله اعتمادي وبه ثقتي، فأعدُّوا أمركم، وادعوا شركاءكم، ثم لا تجعلوا أمركم عليكم مستترًا بل ظاهرًا منكشفًا، ثم اقضوا عليَّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ولا تمهلوني ساعة من نهار.[1].

قوله تعالى:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ} [يونس : ٧١]، أي:" واقصص -أيها الرسول- على كفار «مكة» خبر نوح -عليه السلام- مع قومه"[2].

قال الثعلبي:أي:" واتل عليهم اقرأ يا محمد على أهل مكة نبأ خبر نوح"[3].

قال ابن كثير:" يقول تعالى لنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ } أي : أخبرهم واقصص عليهم ، أي : على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك { نَبَأَ نُوحٍ } أي : خبره مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم الله ودَمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك"[4].

عن أنس أن النبي ﷺ قال: "أول نبي أرسل: نوح عليه السلام"[5].

عن قتادة :"أن نوحا بعث من الجزيرة"[6].

قال محمد بن إسحاق:" كان من حديث نوح وحديث قومه فيما قص الله على لسان نبيه ﷺ وما يذكر أهل العلم من التوراة وما حفظ الناس الأحاديث عن عبد الله بن عباس، عن عبيد بن عمير أن الله بعث نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله، وقد فشت في الأرض المعاصي، وكثرت فيها الجبابرة، وعتوا على الله عتوا كبيرا، وكان نوح فيما يذكر أهل العلم حليما صبورا ولم يلق نبي من قومه من البلاء أكثر مما لقي إلا نبي قتل"[7].

قوله تعالى:{إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ} [يونس : ٧١]، أي:" حين قال لهم: إن كان عَظُمَ عليكم طولُ مقامي ولبثي فيكم وتذكيري إياكم بحجج الله وبراهينه"[8].

قال ابن كثير:" أي : عَظُم عليكم ، { مَقَامِي } أي فيكم بين أظهركم ، { وَتَذْكِيرِي } إياكم { بِآيَاتِ اللَّهِ } أي : بحججه وبراهينه "[9].

قال الثعلبي:أي:"{إن كان} عظم وثقل وشق عليكم مقامي، فلو شق مكثي بين أظهركم وتذكيري ووعظي إياكم بآيات الله بحججه وبيناته فعزمتم على قتلي أو طردي"[10].

قوله تعالى:{فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ} [يونس : ٧١]، أي:" على الله وحده اعتمدت، وبه وثقت فلا أبالي بكم"[1].

---

[1] التفسير الميسر:٢١٧.
[2] التفسير الميسر:٢١٧.
[3] الكشف والبيان:١٤١/٥.
[4] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.
[5] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٨):ص١٩٦٨/٦.
[6] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٨):ص١٩٦٨/٦.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٧٩):ص١٩٦٨/٦.
[8] انظر: التفسير الميسر: ٢١٧، وصفوة التفاسير:٥٥٢/١.
[9] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.
[10] الكشف والبيان:١٤١/٥.

قال الثعلبي:أي:" فبالله وثقت"[2].
قال ابن كثير:" أي : فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا! "[3].
قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل المتوكلون"[4].
قوله تعالى:{فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} [يونس : ٧١]، أي:" فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم، ودبّروا ما تريدون لمكيدتي"[5].
قال الثعلبي:أي:" فأعدوا وأبرموا وأحكموا أمركم فاعزموا عليه"[6].
قال ابن كثير:" أي:فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صَنَم ووثن"[7].
عن الحسن، قوله:{فأجمعوا أمركم وشركاءكم}، أي: فليجمعوا أمرهم معكم"[8].
وفي قوله تعالى:{فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} [يونس : ٧١]، وجوه:

أحدها : أحكموا أمركم وادعوا شركاءكم. رواه اسيد عن الأعرج[9].
والثاني: فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم لنصرتكم ، قاله الفراء[10].
والثالث : فاجمعوا أمركم مع شركائكم على تناصركم ، قاله الزجاج[11].
وفي هذا الإجماع ثلاثة وجوه[12]:
أحدهما : أنه الإعداد .
الثاني : أنه العزم .
والثالث: أنه الإحكام. وهذا قول الأعرج[13].
قال الفراء:" و«الإجماع»: الإعداد والعزيمة على الأمر"[14].
قال المؤرخ: "أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه، وأنشد[15]:
يا ليت شعري والمنى لا تنفع   هل أغدون يوما وأمري مجمع"[16]

وقد قرأها الحسن «وشركاؤكم» بالرفع[17]، قال الفراء:"وإنما «الشركاء» هاهنا آلهتهم كأنه أراد: أجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم. ولست أشتهيه لخلافه للكتاب، ولأن المعنى فيه ضعيف لأن الآلهة لا تعمل ولا تجمع"[18].
قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} [يونس : ٧١]، أي:" يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً"[1].

---

[1] صفوة التفاسير:٥٥٢/١.
[2] الكشف والبيان:١٤١/٥ .
[3] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.
[4] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٨٠):ص١٩٦٨/٦.
[5] صفوة التفاسير:٥٥٢/١.
[6] الكشف والبيان:١٤١/٥ .
[7] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.
[8] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٨٢):ص١٩٦٩/٦.
[9] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٤٨١):ص١٩٦٩/٦.
[10] انظر: معاني القرىن:٤٧٣/١.
[11] انظر: معاني القرآن:٢٧/٣-٢٨.
[12] انظر: معاني القرآن للفراء:٤٧٣/١، والنكت والعيون:٤٤٢/٢.
[13] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٤٨١):ص١٩٦٩/٦.
[14] معاني القرآن:٤٧٣/١.
[15] انظر: البي في لسان العرب: ٨/ ٥٧، وتفسير الثعلبي:١٤١/٥.
[16] الكشف والبيان:١٤١/٥ .
[17] انظر: معاني القرآن للفراء:٤٧٣/١.
[18] معاني القرىن:٤٧٣/١.

قال ابن كثير:" أي : ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا ، بل افصلوا حالكم معي"[٢].
قال الطبري:" يقول: ثم لا يكن أمركم عليكم ملتبسًا مشكلا مبهمًا"[٣].
قال الزجاج:" أي: ليكن أمركم ظاهرا منكشفا، كما قال رؤبة[٤]:

بَلْ لَوْ شَهِدْتِ النَّاسَ إِذْ تُكُمُّوا ... بِغُمّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا

غموا بالمكروه، بغمة، أي ما يسترهم، واشتقاق ذلك من الغمامة التي تستر، ويجوز ثم لا يكن أمركم عليكم غمة أي غما"[٥].

وروي عن قتادة: "{أمركم عليكم غمة}، قال: لا يكبر عليكم أمركم"[٦].

وفي قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} [يونس : ٧١]، قولان[٧]:

أحدهما : أن الغمة ضيق الأمر الذي يوجب الغم، لأن الصدر يضيق به، ولا يتبين صاحبه لأمره مَصدرًا يَصْدُرُه يتفرَّج عليه ما بقلبه، ومنه قول خنساء[٨]:

وَذِي كُرْبَةٍ رَاخَى ابْنُ عَمْرٍو خِنَاقَه ... وَغُمَّتَهُ عَنْ وَجْهِهِ فَتَجَلَّتِ

الثاني : أنه المغطى ، من قولهم : قد غم الهلال إذا استتر .

وفي المراد بالأمر ها هنا وجهان[٩]:

أحدهما : من يدعونه من دون الله تعالى .

الثاني : ما هم عليه من عزم .

قوله تعالى:{ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ} [يونس : ٧١]، أي:" ثم أَنْفذوا ما تريدونه في أمري"[١٠].
قال ابن كثير:" فإن كنتم تزعمون أنكم محقون ، فاقضوا إلي "[١١].
قال الطبري:" معناه: ثم امضوا إليّ ما في أنفسكم وافرغوا منه"[١٢].
قال الزمخشري:"{ثم اقضوا إلي} ذلك الأمر الذي تريدون بى، أى: أدوا إلى قطعه وتصحيحه، كقوله تعالى وقضينا إليه ذلك الأمر أو أدوا إلى ما هو حق عليكم عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه"[١٣].
وفي قوله تعالى:{ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ} [يونس : ٧١]، ثلاثة اقوال:
أحدها : ثم انهضوا ، قاله ابن عباس[١٤].
الثاني : ثم اقضوا إليّ ما أنتم قاضون ، قاله قتادة[١].

---

[١] صفوة التفاسير:٥٥٢/١.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.
[٣] تفسير الطبري:١٤٩/١٥.
[٤]ديوانه ٦٣- والطبري ١٥/ ١٥٠ والقرطبي ٨/ ٣٦٤ واللسان (كمم).
[٥]معاني القرآن:٢٨/٣ .
[٦] أخرجه الطبري(١٧٧٦١):ص١٥٠/١٥.
[٧] انظر: تفسير الطبري:١٥٠/١٥، والنكت والعيون:٤٤٣/٢.
[٨]ديوانها: ٢٢، وروايته " ومُخْتَنِقٍ رَاخَى ابنُ عَمْرٍو " من رثائها في أخيها صخر.
[٩] انظر: النكت والعيون:٤٤٣/٢.
[١٠] انظر: التفسير الميسر: ٢١٧، وصفوة التفاسير:٥٥٢/١.
[١١] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.
[١٢] تفسير الطبري:١٥٠/١٥.
[١٣] الكشاف:٣٦٠/٢.
[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٤٨٤):ص١٩٦٩/٦.

الثالث : اقضوا إليّ ما في أنفسكم ، قاله مجاهد[2].

وقرئ: «ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ»، بمعنى: توجَّهوا إليّ حتى تصلوا إليّ، من قولهم: "قد أفْضَى إليّ الوَجَع وشبهه"[3].

قال الزمخشري:"وقرئ: «ثم أفضوا إلى»، بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إلى بشركم. وقيل هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أى: أصحروا به إلى وأبرزوه لي"[4].

قوله تعالى:{وَلَا تُنْظِرُونِ} [يونس : ٧١]، أي:" ولا تؤخروني ساعة من نهار"[5].

قال ابن عباس:" يقول: ولا تؤخرون"[6].

قال الزمخشري:أي:" ولا تمهلوني"[7].

قال ابن كثير:" أي : ولا تؤخروني ساعة واحدة ، أي : مهما قدرتم فافعلوا ، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم ، لأنكم لستم على شيء ، كما قال هود لقومه : { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [هود : ٥٤ - ٥٦]"[8].

قال الطبري:" وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول نبيه نوح عليه السلام لقومه: إنه بنُصرة الله له عليهم واثق، ومن كيدهم وبوائقهم غير خائف، وإعلامٌ منه لهم أن آلهتهم لا تضرّ ولا تنفع، يقول لهم: أمضوا ما تحدّثون أنفسكم به فيَّ، على عزم منكم صحيح، واستعينوا من شايعكم عليّ بآلهتكم التي تدْعون من دون الله، ولا تؤخروا ذلك، فإني قد توكلت على الله، وأنا به واثق أنكم لا تضرونني إلا أن يشاء ربي.

وهذا وإن كان خبرًا من الله تعالى عن نوح، فإنه حثٌّ من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على التأسّي به، وتعريفٌ منه سبيلَ الرشاد فيما قلَّده من الرسالة والبلاغ عنه"[9].

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت: أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه، يعنى: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي. وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا. وأما الثاني ففيه وجهان:

أحدهما:أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعنى: ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة: أى غما وهما. والغم والغمة، كالكرب والكربة.

والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره، ومنها قوله عليه السلام «ولا غمة في فرائض الله»[10] أى لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعنى: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهروننى به"[1].

---

[1] انظر: الطبري(١٧٧٦٢):ص١٥٠/١٥.

[2] انظر: الطبري(١٧٧٦٣):ص١٥٠/١٥.

[3] انظر: تفسير الطبري:١٥١/١٥.

[4] الكشاف:٣٦٠/٢.

[5] انظر: التفسير الميسر: ٢١٧، وصفوة التفاسير:٥٥٢/١.

[6] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٨٧):ص١٩٧٠/٦، وذكره الطبري بتمامه:١٥١/١٥.

[7] الكشاف:٣٦٠/٢.

[8] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.

[9] تفسير الطبري:١٥١/١٥-١٥٢.

[10] هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأقيال، وفيه: «ولا يوصم في الدين ولا غمة في فرائض الله» وقال: الغمة السترة، أى لا تستر في فرائض الله، بل ظاهر بها.[تفسير الكشاف:٣٦٠/٢]

الفوائد:

١- تسلية الدعاة بمثل موقف نوح العظيم إذ قال لقومه: أجمعوا أمركم ونفذوا ما تريدون إني توكلت على الله.
٢- ثمرة التوكل شجاعة واطمئنان نفس وصبر وتحمل مع مضاء عزيمة.

القرآن
{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)} [يونس : ٧٢]
التفسير:
فإن أعرضتم عن دعوتي فإنني لم أسألكم أجرًا؛ لأن ثوابي عند ربي وأجري عليه سبحانه، وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المنقادين لحكمه.

قوله تعالى:{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ} [يونس : ٧٢]، أي:" فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري فليس لأني طلبت منكم أجراص حتى تمتنعوا، بل لشقاوتكم وضلالكم"[٢].
قال الزمخشري:" فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي فما سألتكم من أجر فما كان عندي ما ينفركم عنى وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم"[٣].
قال السمعاني:" معناه: فإن أعرضتم فما سألتكم من ثواب على تبليغ الرسالة"[٤].
قال ابن كثير:" أي : كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ، { فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ } أي : لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا "[٥].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل نبيه نوح عليه السلام لقومه: (فإن توليتم) ، أيها القوم، عني بعد دعائي إياكم، وتبليغ رسالة ربي إليكم، مدبرين، فأعرضتم عمّا دعوتكم إليه من الحقّ، والإقرار بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وترك إشراك الآلهة في عبادته، فتضيعٌ منكم وتفريطٌ في واجب حق الله عليكم، لا بسبب من قبلي، فإني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرًا، ولا عوضًا أعتاضه منكم بإجابتكم إياي إلى ما دعوتكم إليه من الحق والهدى، ولا طلبت منكم عليه ثوابًا ولا جزاء"[٦].
عن ابن عباس قال: "قل لهم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرا، يقول: عرضا من الدنيا"[٧].
قوله تعالى:{إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ} [يونس : ٧٢]، أي:" ما أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض الدنيا"[٨].
قال الزمخشري:" وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أى: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا"[٩].
قال السمعاني:" أي: إن ثوابي إلا على الله"[١٠].

---

[١] الكشاف:٣٦٠/٢.
[٢] صفوة التفاسير:٥٥٢/١.
[٣] الكشاف:٣٦٠/٢.
[٤] تفسير السمعاني:٣٩٧/٢.
[٥] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.
[٦] تفسير الطبري:١٥٢/١٥.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٨٨):ص١٩٧٠/٦.
[٨] صفوة التفاسير:٥٥٢/١.
[٩] الكشاف:٣٦٠/٢.
[١٠] تفسير السمعاني:٣٩٧/٢.

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي، لا عليكم، أيها القوم، ولا على غيركم"[1].

عن مجاهد :"{إن أجري}، يقول: جزائي"[2].

قوله تعالى:{وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس : ٧٢]، أي:" وأمرت أن أكون من المنقادين لحكمه"[3].

قال السمعاني:" أي: من الموحدين. ومنهم من قال: معنى قوله: {من المسلمين} أي: من المستسلمين لأمر الله"[4].

قال الطبري: أي:" وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة، المنقادين لأمره ونهيه، المذللين له، ومن أجل ذلك أدعوكم إليه، وبأمره آمركم بترك عبادة الأوثان"[5].

عن ابن عباس قوله: "{المسلمين}، يقول: موحدين"[6].

قال الزمخشري:أي: من" الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأمور به. والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير"[7].

قال ابن كثير:" أي : وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين جميعالأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم ، كما قال تعالى : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } [المائدة : ٤٨]. قال ابن عباس : سبيلا وسنة. فهذا نوح يقول : { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [النمل : ٩١] ، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة : ١٣١ ، ١٣٢] ، وقال يوسف : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [يوسف : ١٠١]. وَقَالَ مُوسَى { يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } [يونس : ٨٤]. وقالت السحرة : { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } [الأعراف : ١٢٦]. وقالت بلقيس : { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [النمل : ٤٤]. وقال الله تعالى : { إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا } [المائدة : ٤٤] ، وقال تعالى : { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ } [المائدة : ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر : { قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] أي : من هذه الأمة ؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه : «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات ، ديننا واحد»[8]، أي : وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت شرائعنا ، وذلك معنى قوله : «أولاد علات»، وهم : الإخوة من أمهات شتى والأب واحد"[9].

الفوائد:

---

[1] تفسير الطبري:١٥٢/١٥.

[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٨٩):ص١٩٧٠/٦.

[3] التفسير الميسر:٢١٧.

[4] تفسير السمعاني:٣٩٧/٢.

[5] تفسير الطبري:١٥٢/١٥.

[6] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٠):ص١٩٧٠/٦.

[7] الكشاف:٣٦٠/٢.

[8] رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[9] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤-٢٨٥.

١- أن دعوة الله لا ينبغي أن يأخذ الداعي عليها أجرا إلا للضرورة.
٢- أنه ليس بين دين الأنبياء تفاوت في أصل الدين والعقيدة قال ﷺ: «أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء إخوة، أبناء علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد» [(١)]، فدين الأنبياء والمرسلين جميعاً "الإسلام".
٣- أن الإسلام منه ما هو عام ومنه ما هو خاص، فالإسلام العام يتناول كل شريعة بعث الله بها نبيا من الأنبياء، كما أنه يطلق على كل أمة اتبعت نبيها المبعوث إليها، قال تعالى عن نوح - عليه السلام -: {فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين} [يونس: ٧٢].
وقال عن إبراهيم - عليه السلام -: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} [البقرة: ١٣٠ - ١٣١].
وقال عن موسى - عليه السلام -: {وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} [يونس: ٨٤].
أما الإسلام الخاص فهو الذي بعث الله به نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء والمرسلين، المتضمن لشريعة القرآن، وهو الذي عليه أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -، ولا يقبل الله من أحد دينا سواه، قال تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} [المائدة: ٣][(٢)].
٤- أنه بالإسلام بعث الله جميع النبيين، قال تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥] ، وقال: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ} [آل عمران: ١٩] ، وقال نوح: {يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٧١، ٧٢] ، وقد أخبر أنه لم ينج من العذاب إلا المؤمنين فقال: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ} [هود: ٤٠] ، وقال: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ} [هود: ٣٦] وقال نوح: {وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ} [هود: ٢٩] . وكذلك أخبر عن إبراهيم أن دينه الإسلام فقال تعالى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٠: ١٣٢] ، وقال: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [النساء: ١٢٥] ، وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ١١٢] ، كما علقه بالإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٦٢] .
وهذا يدل على أن الإسلام الذي هو إخلاص الدين لله، مع الإحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به، هو والإيمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان، فإن الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب، وانتفاء العقاب، فإن انتفاء الخوف علة تقتضي

[(١)] رواه البخاري ٦ / ٣٥٣ و ٣٥٤ في الأنبياء، باب قول الله تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها أهلها مكانا شرقيا} ، ومسلم رقم (٢٣٦٥) في الفضائل، باب فضل عيسى صلى الله عليه وسلم، وأبو داود رقم (٤٦٧٥) في السنة، باب التخيير بين الأنبياء عليهم السلام.
[(٢)] انظر: التدمرية :١٦٩ - ١٧٤، والجواب الصحيح :٣/ ٧٤ - ٨١.

انتفاء ما يخافه؛ ولهذا قال: {وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} لم يقل: لا يخافون، فهم لا خوف عليهم وإن كانوا يخافون الله، ونفى عنهم أن يحزنوا؛ لأن الحزن إنما يكون على ماض، فهم لا يحزنون بحال لا في القبر ولا في عَرَصَات القيامة، بخلاف الخوف فإنه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولا خوف عليهم في الباطن، كما قال تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٢، ٦٣] .

وأما الإسلام المطلق المجرد، فليس في كتاب الله تعليق دخول الجنة به، كما في كتاب الله تعليق دخول الجنة بالإيمان المطلق المجرد، كقوله: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [الحديد: ١٢] ، وقال: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} [يونس: ٢] . وقد وصف الخليل ومن اتبعه بالإيمان كقوله: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} [العنكبوت: ٢٦] ، ووصفه بذلك فقال: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام: ٨١: ٨٣] ، ووصفه بأعلى طبقات الإيمان، وهو أفضل البرية بعد محمد ﷺ. والخليل إنما دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [البقرة: ١٢٦] ، وقال: {وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} [البقرة: ١٢٨] {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤] بعد قوله: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} [يونس: ٨٣] ، وقال: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٧] ، وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمسلمين في قوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩] .

وقد وصف الله السحرة بالإسلام والإيمان معاً، فقالوا: {آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١٢١، ١٢٢] ، وقالوا: {وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا} [الأعراف: ١٢٦] ، وقالوا: {إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٥١] وقالوا: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: ١٢٦] ، ووصف الله أنبياء بني إسرائيل بالإسلام في قوله: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ} [المائدة: ٤٤] ، والأنبياء كلهم مؤمنون، ووصف الحواريين بالإيمان والإسلام فقال تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة: ١١١] و {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٥٢] .

وحقيقة الفرق: أن الإسلام دين. والدين مصدر دان يدين ديناً: إذا خضع وذل، و [دين الإسلام] الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه. فمن عبده، وعبد معه إلهاً آخر، لم يكن مسلماً، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً، والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبودية له، هكذا قال أهل اللغة: أسلم الرجل إذا استسلم، فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح.

وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب، والأصل فيه التصديق، والعمل تابع له[1].

القرآن

---

[1] انظر: الإيمان، ابن تيمية: ٢٠٤-٢٠٧.

{فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)} [يونس : ٧٣]

التفسير:

فكذب نوحًا قومُه فيما أخبرهم به عن الله، فنجَّيناه هو ومن معه في السفينة، وجعلناهم يَخْلُفون المكذبين في الأرض، وأغرقنا الذين جحدوا حججنا، فتأمل -أيها الرسول- كيف كان عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم عذاب الله وبأسه؟

قوله تعالى:{فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ} [يونس : ٧٣]، أي:" فكذب نوحًا قومُه فيما أخبرهم به عن الله، فنجَّيناه هو ومن معه في السفينة"[١].

قال القرطبي:"{ فَكَذَّبُوهُ}، يعني: نوحا، {فنجيناه ومن معه}، أي: من المؤمنين، {في الفلك}، أي: السفينة"[٢].

قال الزمخشري:" فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم في أولها، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان"[٣].

عن أبي مالك:"{في الفلك}، قال: سفينة نوح حمل فيها من كل زوجين اثنين"[٤].

عن ابن عباس أنه قال: "كان في سفينة نوح ثمانون رجلا أحدهم كان لسانه عربيا"[٥].

وعن ابن عباس أيضا:" أول ما حمل نوح في الفلك من الدواب الذرة، وآخر ما حمل الحمار قلت: أدخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهق فلا يستطيع حتى قال نوح ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك، قال كلمة زلت على لسانه"[٦].

قوله تعالى:{وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ} [يونس : ٧٣]، أي:" وجعلناهم يَخْلُفون المكذبين في الأرض"[٧].

قال ابن كثير:" أي : في الأرض "[٨].

قال الزمخشري:" يخلفون الهالكين بالغرق"[٩].

قال القرطبي:" أي: سكان الأرض وخلفا ممن غرق"[١٠].

قال السدي:" فأهلك القرون فاستخلفنا فيها بعدهم"[١١].

عن ابن زيد في قوله: {هو الذي جعلكم خلائف الأرض}، قال: يستخلف في الأرض قوما بعد قوم"[١٢].

قوله تعالى:{وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [يونس : ٧٣]، أي:" وأغرقنا الذين جحدوا حججنا"[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٧.

[٢] تفسير القرطبي:٣٦٥/٨.

[٣] الكشاف:٣٦٠/٢.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٣):ص١٩٧١/٦.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩١):ص١٩٧٠/٦.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٢):ص١٩٧٠/٦-١٩٧١.

[٧] التفسير الميسر:٢١٧.

[٨] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.

[٩] الكشاف:٣٦٠/٢.

[١٠] تفسير القرطبي:٣٦٥/٨.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٤):ص١٩٧١/٦.

[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٥):ص١٩٧١/٦.

[١٣] التفسير الميسر:٢١٧.

قوله تعالى:{فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} [يونس : ٧٣]، أي:" فتأمل -أيها الرسول- كيف كان عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم عذاب الله وبأسه؟"[١].

قال القرطبي:" يعني: آخر أمر الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا"[٢].
قال الزمخشري:" تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله، وتسلية له"[٣].
قال ابن كثير:" أي : يا محمد كيف أنجينا المؤمنين ، وأهلكنا المكذبين"[٤].

عبد الرحمن بن سلمة أبو زهير عن رجل من أصحابه قال: "بلغني أن قوم نوح عاشوا في ذلك الغرق أربعين يوما"[٥].

قال محمد بن إسحاق:" فلقد غرقت الأرض وما فيها وانتهى الماء إلى ما انتهى إليه وما جاور الماء ركبته وداب الماء حين أرسله الله خمسين ومائة يوم كما يزعم أهل التوراة فكان بين أن أرسل الله الطوفان وبين أن غاص ستة أشهر وعشر ليال ولما أراد الله أن يكف ذلك أرسل الله ريحا على وجه الماء، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر فكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه فلم تجد لرجليها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها فمكث سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت إليه حين أمست وفي فيها ورقة زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث فيها سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع فعلم نوح أن الأرض قد برزت"[٦].

الفوائد:

١- بيان سوء عاقبة المكذبين بعد إنذارهم وتحذيرهم.
٢- بيان الصراط المستقيم، وإقامة أسباب الهداية، باطنا وظاهرا، ومن لم تكتمل عنده هذه الأسباب لصغر أو لزوال عقل أو نحو ذلك فهؤلاء رفع عنهم التكليف، ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما في وسعهم.
٣- أن هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل، لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فمن شاء هدايته اهتدى، ومن شاء ضلاله ضل.
٤- أن في الآية نفي هداية التوفيق عن هؤلاء الكفار لظلمهم، وهذا كما في قوله تعالى: { {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت : ١٧]، فهداهم في الهداية الأولى هداية البيان والإرشاد فأعرضوا عنها لم يقبلوها فعاقبهم الله تعالى بالضلال جزاء إعراضهم وردهم الحق[٧].

القرآن

---

[١] التفسير الميسر:٢١٧.
[٢] تفسير القرطبي:٣٦٥/٨.
[٣] الكشاف:٣٦٠/٢.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٨٤/٤.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٦):ص١٩٧١/٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٧):ص١٩٧١/٦-١٩٧٢.
[٧] انظر: أصول الاعتقاد في سورة يونس:٥١٠.

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)} [يونس : ٧٤]

التفسير:

ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى أقوامهم (هودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا وغيرَهم) فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الدالة على رسالته، وعلى صحة ما دعاهم إليه، فما كانوا ليصدِّقوا ويعملوا بما كذَّب به قوم نوح ومَن سبقهم من الأمم الخالية. وكما ختم الله على قلوب هؤلاء الأقوام فلم يؤمنوا، كذلك يختم على قلوب مَن شابههم ممن بعدهم من الذين تجاوزوا حدود الله، وخالفوا ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته عقوبة لهم على معاصيهم.

قوله تعالى:{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ} [يونس : ٧٤]، أي:" ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى أقوامهم «هودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا وغيرَهم»"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم"[٢].

قال القرطبي:" {ثم بعثنا من بعده}، أي: من بعد نوح، {رسلا إلى قومهم}، كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغير هم"[٣].

قال أبي بن كعب:" كان في علمه يوم أقروا به من يصدق به ومن يكذب به فكان عيسى عليه السلام من تلك الأزواج التي أخذ عليها العهد والميثاق في زمان آدم"[٤].

قوله تعالى:{فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [يونس : ٧٤]، أي:" فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الدالة على رسالته، وعلى صحة ما دعاهم إليه"[٥].

قال الطبري:" فأتوهم ببينات من الحجج والأدلّة على صدقهم، وأنهم لله رسل، وأن ما يدعونهم إليه حقّ"[٦].

قال القرطبي:" أي: بالمعجزات"[٧].

قوله تعالى:{فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ} [يونس : ٧٤]، أي:" فما كانوا ليصدِّقوا ويعملوا بما كذَّب به قوم نوح ومَن سبقهم من الأمم الخالية"[٨].

قال الطبري:" يقول: فما كانوا ليصدّقوا بما جاءتهم به رسلهم بما كذب به قوم نوح ومن قبلَهم من الأمم الخالية من قبلهم"[٩].

قال القرطبي:" التقدير: بما كذب به قوم نوح من قبل. وقيل:" بما كذبوا به من قبل" أي من قبل يوم الذر، فإنه كان فيهم من كذب بقلبه وإن قال الجميع: بلى. قال النحاس: «ومن أحسن ما قيل في هذا أنه لقوم بأعيانهم»[١٠]، مثل:{أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} [البقرة: ٦]"[١١].

عن مجاهد، قوله: "{بما كذبوا به من قبل}، قول الله: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ}[١]"[٢].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٧.

[٢] تفسير الطبري:١٥٤/١٥.

[٣] تفسير القرطبي:٣٦٥/٨.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٨):ص١٩٧٢/٦.

[٥] التفسير الميسر:٢١٧.

[٦] تفسير الطبري:١٥٤/١٥.

[٧] تفسير القرطبي:٣٦٥/٨.

[٨] التفسير الميسر:٢١٧.

[٩] تفسير الطبري:١٥٤/١٥.

[١٠] انظر: معاني القرآن:٥٩/٣، وفيه يقول:" قال مجاهد هذا مثل قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقال غيره هذا مخصوص به أقوام بأعيانهم خبر الله جل وعلا أنهم لا يؤمنون وأما قول من قال معنى فما كانوا ليؤمنوا ليحكم لهم بالإيمان فلا يصح في اللغة ويدل على بطلانه أن بعده كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين فدل بهذا على أنه قد طبع على قلوبهم هذا قول أبي إسحاق".

[١١] تفسير القرطبي:٣٦٥/٨.

عن السدي، قوله: "{فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل}، قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق آمنوا كرها"[٣].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} [يونس : ٧٤]، أي:" وكما ختم الله على قلوب هؤلاء الأقوام فلم يؤمنوا، كذلك يختم على قلوب مَن شابههم ممن بعدهم من الذين تجاوزوا حدود الله، وخالفوا ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته عقوبة لهم على معاصيهم"[٤].

قال القرطبي:" أي نختم. {على قلوب المعتدين}، أي: المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا. وهذا يرد على القدرية قولهم كما تقدم"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبَلون من أنبياء الله نصيحتَهم، ولا يستجيبون لدعائهم إيّاهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب واكتسبوا من الآثام ، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربّه فتجاوز ما أمره به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربَّهم من هؤلاء الآخرين من بعدهم"[٦].

عن سعيد المقبري في قول الله: "{وطبع}: ختم على قلوبهم"[٧].

عن قتادة، قوله: "{وطبع على قلوبهم}، أي: بأعمالهم"[٨].

الفوائد:

١- بيان سنة الله في البشر وهي أن التوغل في الشر والفساد والظلم يوجب الختم على القلوب فيحرم العبد الإيمان والهداية.
٢-
٣-

القرآن

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥)} [يونس : ٧٥]

التفسير:

ثم بعثنا مِن بعد أولئك الرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وأشراف قومه بالمعجزات الدالة على صدقهما، فاستكبروا عن قَبول الحق، وكانوا قومًا مشركين مجرمين مكذبين.

قوله تعالى:{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا} [يونس : ٧٥]، أي:" ثم بعثنا مِن بعد أولئك الرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وأشراف قومه بالمعجزات الدالة على صدقهما"[٩].

قال القرطبي:" {ثم بعثنا من بعدهم}، أي: من بعد الرسل والأمم، {موسى وهارون إلى فرعون وملائه}، أي: أشراف قومه"[١].

---

[١][الأنعام : ٢٨].
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٤٩٩):ص١٩٧٢/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٠):ص١٩٧٢/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢١٧.
[٥] تفسير القرطبي:٣٦٥/٨.
[٦] تفسير الطبري:١٥٤/١٥.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠١):ص١٩٧٢/٦.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٢):ص١٩٧٢/٦.
[٩] التفسير الميسر:٢١٧.

قال ابن كثير:" يقول تعالى :{ثُمَّ بَعَثْنَا} من بعد تلك الرسل { مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ } أي : قومه، { بِآيَاتِنَا } أي : حجَجنا وبراهيننا "[٢].

قال الزمخشري:" { بآياتنا}: بالآيات التسع"[٣].

قال مجاهد:" كان فرعون فارسيا من أهل إصطخر"[٤].

عن ابن لهيعة :"أن فرعون كان من أبناء سحرة"[٥].

عن محمد بن المنكدر قال: "عاش فرعون ثلاثمائة سنة، مائتان وعشرون لم ير فيها ما يقذي عينه، ودعى موسى ثمانين سنة"[٦].

قوله تعالى:{ فَاسْتَكْبَرُوا} [يونس : ٧٥]، أي:" فاستكبروا عن قَبول الحق"[٧].

قال ابن كثير:" أي : استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له "[٨].

قال الزمخشري:" فاستكبروا عن قبولها، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن تقبلها"[٩].

قوله تعالى:{ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} [يونس : ٧٥]، أي:" وكانوا قومًا مشركين مجرمين مكذبين"[١٠].

قال القرطبي:" أي: مشركين"[١١].

قال الزمخشري:"كفارا ذوى آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردها"[١٢].

الفوائد:

١- ذم الاستبكار وأنه سبب كثير من الإجرام.

٢- ومن الفوائد: أن «البعث» في كلام العرب علي وجهين[١٣]:

- أحدهما: الإرسال كقول الله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ} [الأعراف: ١٠٣]، معناه أرسلنا.
- والثاني: الإحياء من الله للموتى، ومنه قوله جل وعز: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ٥٦]، أي أحييناكم.

القرآن

{فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦)} [يونس : ٧٦]

التفسير:

فلما أتى فرعونَ وقومَه الحقُّ الذي جاء به موسى قالوا: إن الذي جاء به موسى من الآيات إنما هو سحر ظاهر.

---

[١] تفسير القرطبي:٣٦٦/٨.

[٢] تفسير ابن كثير:٢٨٥/٤.

[٣] الكشاف:٣٦١/٢.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٤):ص١٩٧٣/٦.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٥):ص١٩٧٣/٦.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٣):ص١٩٧٢/٦.

[٧] التفسير الميسر:٢١٧.

[٨] تفسير ابن كثير:٢٨٥/٤.

[٩] الكشاف:٣٦١/٢.

[١٠] التفسير الميسر:٢١٧.

[١١] تفسير القرطبي:٣٦٦/٨.

[١٢] الكشاف:٣٦١/٢.

[١٣] انظر: تهذيب اللغة، مادة: (بعث):ص(٢/ ٣٣٤).

قوله تعالى:{فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا} [يونس : ٧٦]، أي:" فلما أتى فرعونَ وقومَه الحقُّ الذي جاء به موسى"[١].
قال الزمخشري:أي:" فلما عرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله، لا من قبل موسى وهرون"[٢].
قال السدي: "لما جاءهم رسول من عند الله عارضوه وحاصروه"[٣].

قوله تعالى:{قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ} [يونس : ٧٦]، أي:" قالوا: إن الذي جاء به موسى من الآيات إنما هو سحر ظاهر"[٤].
قال الزمخشري:" قالوا لحبهم الشهوات إن هذا لسحر مبين وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويها وباطلا"[٥].
قال القرطبي:" حملوا المعجزات على السحر"[٦].
قال ابن كثير:" كأنهم - قبَّحهم الله - أقسموا على ذلك ، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ، كما قال تعالى : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [النمل : ١٤]"[٧].

القرآن
{قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧)} [يونس : ٧٧]
التفسير:
قال لهم موسى متعجبًا مِن قولهم: أتقولون للحق لما جاءكم: إنه سحر مبين؟ انظروا وَصْفَ ما جاءكم وما اشتمل عليه تجدوه الحق. ولا يفلح الساحرون، ولا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله تعالى:{قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ} [يونس : ٧٧]، أي:" قال لهم موسى متعجبًا مِن قولهم: أتقولون للحق لما جاءكم: إنه سحر مبين؟"[٨].
قال ابن كثير:" { قَالَ } لهم { مُوسَى } منكرا عليهم:{ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ..}"[٩].
قال مقاتل:" اليد والعصا لما جاءكم"[١٠].
قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: أيكون مثل هذا سحرا؟ فليس ذلك بسحر، ولكن ذلك علامة النبوة"[١١].
قال البغوي:" تقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم سحر أسحر هذا، فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه"[١٢].
قوله تعالى:{أَسِحْرٌ هَذَا} [يونس : ٧٧]، أي:" أسحرٌ هذا الذي جئتكم به؟"[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٧.
[٢] الكشاف:٣٦١/٢.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٦):ص١٩٧٣/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢١٧.
[٥] الكشاف:٣٦١/٢.
[٦] تفسير القرطبي:٣٦٦/٨.
[٧] تفسير ابن كثير:٢٨٥/٤.
[٨] التفسير الميسر:٢١٧.
[٩] تفسير ابن كثير:٢٨٥/٤.
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٥/٢.
[١١] بحر العلوم:١٢٧/٢.
[١٢] تفسير البغوي:١٤٤/٤.
[١٣] صفوة التفاسير:٥٥٢/١.

قوله تعالى:{وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} [يونس : ٧٧]، أي:" والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون"[١].

قال الطبري:" يقول: ولا ينجح الساحرون ولا يَبْقون"[٢].

قال مقاتل:" أى: الدنيا والآخرة"[٣].

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: الدنيا والآخرة. ويقال: لا ظفر لهم"[٤].

قال القرطبي:" أي: لا يفلح من أتى به"[٥].

قال الزمخشري:" فإن قلت: هم قطعوا بقولهم إن هذا لسحر مبين على أنه سح، فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟ قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله أتقولون للحق أتعيبونه وتطعنون فيه. وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه، من قولهم: فلا يخاف القالة، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه، ونحو القول: «الذكر»، في قوله {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُم} [الأنبياء : ٦٠]، ثم قال: {أسحر هذا}، فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه، وأن يحذف مفعول {أتقولون} وهو ما دل عليه قولهم : {إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِين} [يونس : ٧٦]، كأنه قيل. أتقولون ما تقولون، يعنى قولهم: {إن هذا لسحر مبين}، ثم قيل: {أسحر هذا}؟ وأن يكون جملة قوله {أسحر هذا ولا يفلح الساحرون} حكاية لكلامهم، كأنهم قالوا: أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون كما قال موسى للسحرة: {مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ} [يونس : ٨١]"[٦].

من فوائد الآيتين: [٧٦-٧٧]:

١- تقرير أن السحر صاحبه لا يفلح أبدا ولا يفوز بمطلوب ولا ينجو من مرهوب.
٢- إن الأنماط البشرية التي عارضت الأنبياء والمُرسلين فيما مضى هي نفس النماذج البشرية التي عارضت مبادئ الإصلاح ورفضت الدعوات الإصلاحية في العصور التالية على يد ورثة الأنبياء من الدعاة والمصلحين. وهؤلاء المعارضون للوحي صنفان من الناس:

أ- أهل الأهواء وأصحاب العصبيات المختلفة.

لقد ساق القرآن الكريم أمثلة ونماذج من الصنف الأول الذين آثروا اتباع الهوى والتعصب له، على دعوة الحق والانصياع لما جاء به الوحي، وحين تستقرئ ما قصه القرآن عن هذه النماذج وعن الأسباب التي عارضوا الرسل من أجلها تجد بينهم شبه اتفاق على هذه الأسباب التي جسدها القرآن في متابعة الآباء وتقليدهم.

قال تعالى حاكيا عن قوم هود: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ فرفعوا لواء المُعارضة في وجه هذه الدعوة الصادقة، وقالوا لنبي الله هود: {أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف: ٧٠] .

وكذلك كان موقف أهل مدين من نبي الله شعيب، قال تعالى: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ، وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [هود: ٨٤-٨٦] . فماذا كان موقفهم من هذه الدعوة الإصلاحية؟ لقد رفعوا لواء المُعاندة والمُعارضة: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

---

[١] صفوة التفاسير:٥٥٢/١-٥٥٣.

[٢] تفسير الطبري:١٥٦/١٥.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٥/٢.

[٤] بحر العلوم:١٢٧/٢.

[٥] تفسير القرطبي:٣٦٦/٨.

[٦] الكشاف:٣٦١/٢-٣٦٢

آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود: ٨٧] . {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود: ٩١] .

وكذلك فعل أهل ثمود مع نبي الله صالح، قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ، قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [هود: ٦١، ٦٢] .

وكذلك فعل بنو إسرائيل مع نبي الله موسى، قال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ، فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ، قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ، قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٧٥-٧٨] .

وهكذا تكررت هذه المواقف من نبي إلى نبي، ومن أمة إلى أمة، ونجد السبب واحدا، إنه الإلف والتعود والتعصب لما ورثوه عن جيل الآباء والأجداد، من عادات وعقائد وقعوا أسرى لها دون أن يتساءلوا حولها ليعرفوا موقعها من الصواب والخطأ، والحق والباطل.

وإنما كفاهم أنها مواريث الآباء ومُقدسات الأجداد، وكان موقفهم من دعوة الرسل هو الرفض والمُعاندة. وقالوا لرسلهم: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [إبراهيم: ١٠] .

وقالوا لنبي الله شعيب: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} .

وقالوا: {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٨٨-٩٠] .

وقالوا لرسلهم: {لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [إبراهيم: ١٣] . إنها نفس القضية تتكرر مع جميع الأنبياء؛ التشبث بالمواريث والتقاليد والتعصب لها، ومحاربة كل دعوة إصلاحية جديدة تحمل معها رياح التغيير والإقلاع عن هذه المواريث.

ب- أصحاب الملك والسلطان في كل عصر.

أما النمط الثاني من المُعارضين للوحي فهم أصحاب الملك والسلطان والرياسات الموجودون في فئات كثيرة من أبناء المُجتمعات البشرية، وهؤلاء تجدهم في كل عصر، وفي كل طبقة اجتماعية مُعينة، وتجدهم بين أصحاب الحرف كما تجدهم في طبقة المُشتغلين بالعلم، ولكن أشدهم وطأة وأكثرهم بطشا أصحاب السلطان السياسي من الحُكام المستبدين بشعوبهم، والذين لا يرضيهم من الشعوب إلا أن يكونوا قطيعا من الغنم.

ولقد وجدنا القرآن الكريم يقص علينا سلوك هذا النمط من الناس مجسدا في سيرة فرعون مع نبي الله موسى، وكيف زين له أتباعه سوء عمله فرآه حسنا، فادعى الألوهية، وقال لقومه: ما علمت لكم من إله غيري، وقال لهم: أنا ربكم الأعلى.

وحين يقص القرآن علينا هذه المواقف المتعددة، فإنه يختمها ببيان العواقب الوخيمة التي آلت إليها مصائر هذه الأمم الماضية؛ لنأخذ منها العبرة ونعي دروس التاريخ، فقال سبحانه في حق قوم نوح:{فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} [يونس: ٧٣] .

وقال في سورة الشعراء: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١١٩-١٢١] .

وقال في حق قوم عاد: {قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٧١، ٧٢] .

وقال في سورة الحاقة: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} [الحاقة: ٦-٨] .

وقال في الشعراء: {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٣٩] .

وقال في حق قوم ثمود: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ، فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: ٧٥-٧٨] . وقال في سورة الحاقة: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} [الحاقة: ٥] .

وقال في حق قوم لوط: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف: ٨٢-٨٤] .

وقال في سورة العنكبوت: {وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [العنكبوت: ٣٣-٣٥] .

وقال في سورة الشعراء: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٧٠-١٧٤] .

وقال سبحانه وتعالى عن مصير هؤلاء جميعًا: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٠] .
وتأمل معي هذه الخاتمة في كل موقف: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} ، أو قوله: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} أو {عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} أو {عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

وهذه كلها تنبيهات وإشارات لكي تعي الأمة الإسلامية الدروس، وتأخذ العبرة من التاريخ[1].

القرآن

{قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)} [يونس : ٧٨]

التفسير:

---

[1] انظر: الوحي والإنسان:١٧-٢٥.

قال فرعون وملؤه لموسى: أجئتنا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة غير الله، وتكون لكما أنت وهارون العظمة والسلطان في أرض «مصر» ؟ وما نحن لكما بمقرِّين بأنكما رسولان أُرسلتما إلينا؛ لنعبد الله وحده لا شريك له.

قوله تعالى:{قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [يونس : ٧٨]، أي:" قال فرعون وملؤه لموسى: أجئتنا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة غير الله"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال فرعون وملأه لموسى: {أجئتنا لتلفتنا}، يقول: لتصرفنا وتلوينا {عمّا وجدنا عليه آباءنا}، من قبل مجيئك، من الدين"[٢].

وفي قوله تعالى:{قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [يونس : ٧٨]، ثلاثة وجوه:

أحدها : لتلوينا ، قاله قتادة[٣].

الثاني : لتصدنا عن بلهتنا، قاله السدي[٤].

الثالث : لتصرفنا، من قولهم لفته لفتاً إذا صرفه ومنه: لفت عنقه، أي: لواها ، قاله عليّ بن عيسى[٥]، والزجاج[٦].

قال الزجاج:" أي: لتصرفنا وتعدلنا، يقال: لفته عن الأمر ألفته لفتا إذا عدلته عنه، ومن هذا قولهم: التفت إليه، أي: عدل وجهه إليه"[٧].

قوله تعالى:{وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} [يونس : ٧٨]، أي:" وتكون لكما أنت وهارون العظمة والسلطان في أرض «مصر»؟"[٨].

قال الطبري:"«الْكِبْرِيَاءُ»: يعني العظمة، وهي "الفعلياء" من "الكبر". ومنه قول ابن الرِّقاع[٩]:

سُؤْدَدًا غَيْرَ فَاحِش لا يُدَا   نِيهِ تِجِبَّارَةٌ وَلا كِبْرِياءُ[١٠]

وفي قوله تعالى:{وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} [يونس : ٧٨]، أربعة وجوه:

أحدها : الملك والسلطان في الأرض، قاله مجاهد[١١].

وقال ابن قتيبة:" أي: الملك والشرف"[١٢].

قال الزجاج:" «الكبرياء»: الملك، وإنما سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا"[١٣].

الثاني : العظمة، حكاه الأعمش عن مجاهد[١٤].

الثالث : العلو، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[١٥].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٧.
[٢] تفسير الطبري:١٥٧/١٥.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٦٥):ص١٥٧/١٥.
[٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥٠٨):ص١٩٧٣/٦.
[٥] انظر: النكت والعيون:٤٤٥/٢.
[٦] انظر: معاني القرآن:٢٩/٣.
[٧] معاني القرآن:٢٩/٣.
[٨] التفسير الميسر:٢١٧.
[٩] البيت من شواهد الطبري في تفسيره:١٥٧/١٥-١٥٨، ولم أجده في مكان آخر.
[١٠] تفسير الطبري:١٥٧/١٥-١٥٨.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٦٦)، و(١٧٧٦٧):ص١٥٨/١٥.
[١٢] غريب القرآن:١٩٨.
[١٣] معاني القرآن:٢٩/٣.
[١٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥١٠):ص١٩٧٣/٦.
[١٥] انظر: النكت والعيون:٤٤٥/٢.

الرابع : الطاعة ، قاله الضحاك[1].

قال الطبري:" وهذه الأقوال كلها متقاربات المعاني، وذلك أن الملك سلطان، والطاعة ملك، غير أن معنى «الكبرياء»، هو ما ثبت في كلام العرب، ثم يكون ذلك عظمة بملك وسلطان وغير ذلك"[2].

قوله تعالى:{وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} [يونس : ٧٨]، أي:" وما نحن لكما بمقرّين بأنكما رسولان أُرسلتما إلينا؛ لنعبد الله وحده لا شريك له"[3].

قال الطبري:" يقول: {وما نحن لكما} يا موسى وهارون بمقرِّين بأنكما رسولان أرسلتما إلينا"[4].

عن سعيد بن جبير، قوله: "{بمؤمنين}، قال: بمصدقين"[5].

الفوائد:

١- الدعوة إلى التجرد من التقاليد الموروثة، لقد كانت التقاليد والعادات الموروثة تتحكم في عقائد الجاهلية، ومن أجل ذلك تعرضت العقائد للانحراف، وانهارت أمام القيم والأخلاق، واختلت الموازين والأعراف، فكان الواقع يرفض كل المسلمات والبدهيات، ولا يقبل سوى ما كان عليه الآباء والأجداد.

ولذلك فقد ناقش القرآن الكريم هذه القضية مناقشة جادة، وعالجها معالجة شافية، كعادته في معالجة القضايا ذات الأهمية البالغة، وبين أن هذه القضية لم تكن حديثة المولد والنشأة، ولكنها قديمة التاريخ، عميقة الجذور، فلم يكن العرب الذين واجههم نبينا محمد ﷺ هم أول من قال هذه المقالة، بل لقد رددها الذين استحبوا العمى على الهدى من الأمم السابقة.

لقد قالها قوم نوح عليه السلام: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون : ٢٤].

وقالها قوم هود عليه السلام: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف:٧٠].

وقالها قوم صالح عليه السلام: {قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [هود:٦٢].

وقالها قوم إبراهيم عليه السلام، لما قال لهم: {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأنبياء:٥٢-٥٤].

ولما قال لهم: {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [الشعراء:٧٢-٧٤].

وقالها قوم شعيب - عليه السلام -: {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود:٨٧].

وقيلت لموسى عليه السلام: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} [يونس:٧٨].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٦٩):ص١٥٨/١٥.
[2] تفسير الطبري:١٥٩/١٥.
[3] التفسير الميسر:٢١٧.
[4] تفسير الطبري:١٥٩/١٥.
[5] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥١١):ص١٩٧٣/٦.

وقد بين القرآن الكريم أن تلك المقالة قد قيلت لكافة الأنبياء قبل محمد ﷺ، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} [زخرف:٢٣].

وقص علينا ربنا تعالى قول الأقوام السابقين لرسلهم: {قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} [إبراهيم:١٠].

وأخيراً قالها مشركو مكة للنبي الخاتم محمد ﷺ، قال تعالى: {قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [البقرة:١٧٠]، و{قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [المائدة:١٠٤]، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [لقمان:٢١].

فهذا سندهم الوحيد، وهو دليلهم الفريد، إنه التقليد الجامد الذي لا يقوم على علم، ولا يعتمد على برهان، بل ولا حتى على تفكير أو روية، إن هذا الموقف إنّما هو استجابة لدعوة إبليس، فهل هم مصرون على السير في هذا الطريق، وراء تقليد الآباء حتى دخول نار جهنم؟

إنّها لمسة مزعجة، موقظة منبهة، ولكن لمن ألقى السمع وهو شهيد[١].

٢- أن الاتهامات الكاذبة من شأن أهل الباطل والظلم والفساد.
٣- أن كل من دعا إلى الحق رماه من كان على المسلك الجاهلي أن قصده من الدعوة طلب الرئاسة والجاه، من غير أن ينظروا إلى ما دعا إليه، وما قام عليه من البراهين.

القرآن

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩)} [يونس : ٧٩]

التفسير:

وقال فرعون: جيئوني بكل ساحر متقن للسحر.[٢].

قوله تعالى:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [يونس : ٧٩]، أي:" وقال فرعون: ائتوني بكل ساحر ماهر، عليمٍ بفنون السحر"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقال فرعون لقومه: ائتوني بكل من يسحر من السحرة، عليم بالسحر"[٤].

قال القرطبي:" إنما قاله لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر"[٥].

قال ابن عباس:" فحشر له كل ساحر متعالم"[٦].

الفوائد:

١- تذكير هذه الأمة بما جرى للأمم السابقة قبلها لأنبيائهم ومَن أُرسل إليهم.
٢- للسحر طرق يتعلم بها وله علماء به وتعلمه حرام واستعماله حرام.

القرآن

{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠)} [يونس : ٨٠]

التفسير:

---

[١] انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي:٤٧٨/١ وما بعدها.
[٢] التفسير الميسر:٢١٨.
[٣] صفوة التفاسير:٥٥٣/١.[بتصرف]
[٤] تفسير الطبري:١٥٩/١٥.
[٥] تفسير القرطبي:٣٦٧/٨.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥١٢):ص١٩٧٤/٦.

فلما جاء السحرة فرعون قال لهم موسى: ألقوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيِّكم.

قوله تعالى:{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ} [يونس : ٨٠]، أي:" فأتوه بالسحرة، فلما جاءوا"[١].
قوله تعالى:{قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ} [يونس : ٨٠]، أي:" قال لهم موسى: ألقوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيِّكم"[٢].
قال القرطبي:" أي: اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم"[٣].
قال ابن عباس:" اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ونتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعني بذلك موسى وهارون، صلى الله عليهما وسلم استهزاء بهما قالوا: يا موسى لقدرتهم بسحرهم إما أن تلقي وإما (أن) نكون نحن الملقين قال: {ألقوا ... فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون}، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق العصا"[٤].

القرآن
{فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١)} [يونس : ٨١]
التفسير:
فلما ألقَوا حبالهم وعصيَّهم قال لهم موسى: إنَّ الذي جئتم به وألقيتموه هو السحر، إن الله سيُذْهب ما جئتم به وسيُبطله، إن الله لا يصلح عمل مَن سعى في أرض الله بما يكرهه، وأفسد فيها بمعصيته.

قوله تعالى:{فَلَمَّا أَلْقَوْا} [يونس : ٨١]، أي:" فلما ألقَوا حبالهم وعصيَّهم"[٥].
قوله تعالى:{قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ} [يونس : ٨١]، أي:" قال لهم موسى: إنَّ الذي جئتم به وألقيتموه هو السحر، إن الله سيُذْهب ما جئتم به وسيُبطله"[٦].
قال الواحدي:" {سيبطله}: سيهلكه"[٧].
قال السمعاني:" أي: سيذهبه"[٨].
قال الاخفش:" يقول: الذي جئتم به السحر، وقال بعضهم {آلسحر}، بالاستفهام"[٩].
قال الزجاج:" أي قال موسى: الذي جئتم به السحر، ويقرأ ما جئتم به، آلسحر. والمعنى: أي شيء جئتم به آلسحر. هوعلى جهة التوبيخ لهم"[١٠].

قال القرطبي:" تكون{ما} في موضع رفع بالابتداء، والخبر{جئتم به}، والتقدير: أي شي جئتم به، على التوبيخ والتصغير لما جاءوا به من السحر"[١١].
قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «آلسحر» بالمد على الاستفهام، وقرأ الآخرون بلا مد، يدل عليه قراءة ابن مسعود «ما جئتم به سحر» بغير الألف واللام[١].

---

[١] صفوة التفاسير:٥٥٣/١.
[٢] التفسير الميسر:٢١٨.
[٣] تفسير القرطبي:٣٦٧/٨.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥١٣):ص١٩٧٤/٦.
[٥] التفسير الميسر:٢١٨.
[٦] التفسير الميسر:٢١٨.
[٧] الوجيز:٥٠٥.
[٨] تفسير السمعاني:٣٩٨/٢.
[٩] معاني القرآن:٣٧٧/١.
[١٠] معاني القرآن:٣٠/٣.
[١١] تفسير القرطبي:٣٦٧/٨.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس : ٨١]، أي:" إن الله لا يصلح عمل مَن سعى في أرض الله بما يكرهه، وأفسد فيها بمعصيته"[٢].

قال الواحدي:أي:" لا يجعله ينفعهم"[٣].

قال السمعاني:" وفي القصص أنهم كانوا سبعين ألفا، مع كل واحد منهم حبل وعصا، فألقوا تلك الحبال والعصي، فجعلت تخيل في أعين الناس كأنها ثعابين وحيات"[٤].

قال القرطبي:" قال ابن عباس: من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية. {ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين}، لم يضره كيد ساحر. ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر"[٥].

عن ليث، قال :"بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي في سورة يونس: {فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)}[٦]، والآية الأخرى: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٧] إلى انتهاء أربع آيات، وقوله: { إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[٨]"[٩].

من فوائد الآيتين[٨١-٨٢]:

١- أن عاقبة الفساد وعمل أصحابه الخراب والدمار.
٢- ذم الله عز وجل السحر وأهله في كتابه الكريم، وبين بطلان عملهم، وأنهم لا خلاق لهم في الآخرة.
٣- أن عمل الساحر ما يثبت بل يبطل، قال تعالى: {مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ}، وأما معجزة الأنبياء فلها حقيقة كما جرى بين موسى والسحرة فإنهم مع كثرتهم قيل أنهم سبعون ألفاً وألقوا ما ألقوا من الكيد أمر الله موسى أن يلقي عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون.

القرآن

{وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)} [يونس : ٨٢]

التفسير:

ويثبِّت الله الحق الذي جئتكم به من عنده فيُعليه على باطلكم بكلماته وأمره، ولو كره المجرمون أصحاب المعاصي مِن آل فرعون.

قوله تعالى:{وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} [يونس : ٨٢]، أي:" ويثبِّت الله الحق الذي جئتكم به من عنده فيُعليه على باطلكم بكلماته وأمره"[١٠].

قال مقاتل:" يقول يحق الله الدين بالتوحيد والظفر لنبيه- ﷺ-"[١١].

---

[١] انظر: تفسير البغوي:١٤٥/٤.
[٢] التفسير الميسر:٢١٨.
[٣] الوجيز:٥٠٥.
[٤] تفسير السمعاني:٣٩٨/٢.
[٥] تفسير القرطبي:٣٦٧/٨.
[٦][يونس : ٨١ - ٨٢].
[٧][الأعراف : ١١٨].
[٨][طه : ٦٩].
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥١٤):ص١٩٧٤/٦.
[١٠] التفسير الميسر:٢١٨.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٥/٢.

قال القرطبي:" أي: يبينه ويوضحه. {بكلماته}، أي: بكلامه وحججه وبراهينه. وقيل: بعداته بالنصر"[١].

قال الطبري:" يقول: ويثبت الله الحق الذي جئتكم به من عنده، فيعليه على باطلكم، ويصححه {بكلماته}، يعني: بأمره"[٢].

قوله تعالى:{وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [يونس : ٨٢]، أي:" ولو كره ذلك المجرمون أصحاب المعاصي مِن آل فرعون"[٣].

قال القرطبي:يعني:"من آل فرعون"[٤].

قال الطبري:" يعني الذين اكتسبوا الإثم بربِّهم، بمعصيتهم إياه"[٥].

عن ابن عباس في قوله: "{المجرمون}، قال: الكفار"[٦].

قال ابن عطية:" المجرم: المجترم الراكب للخطر"[٧].

الفوائد:

١- تسلية الرسول ﷺ حيث أراه كيف انتصر موسى بالمعجزات ومع ذلك لم يتابعه إلا القليل من قومه.
٢- عد الله سبحانه وتعالى أن ينصر دينه ويعلي كلمته.

القرآن

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)} [يونس : ٨٣]

التفسير:

فما آمن لموسى عليه السلام مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا ذرية من قومه من بني إسرائيل، وهم خائفون من فرعون وملئه أن يفتنوهم بالعذاب، فيصدُّوهم عن دينهم، وإن فرعون لَجبار مستكبر في الأرض، وإنه لمن المتجاوزين الحد في الكفر والفساد.

قوله تعالى:{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ} [يونس : ٨٣]، أي:" فما آمن لموسى عليه السلام مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا ذرية من قومه من بني إسرائيل"[٨].

قال ابن قتيبة:" وهم أشراف أصحابه"[٩].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فلم يؤمن لموسى، مع ما أتاهم به من الحجج والأدلّة {إلا ذرية من قومه} خائفين من فرعون وملئهم"[١٠].

قال الفراء:" وإنما قال :{وملئهم} وفرعون واحد، لأن الملك إذا ذكر بخوف أو بسفر أو قدوم من سفر ذهب الوهم إليه وإلى من معه ألا ترى أنك تقول: قدم الخليفة فكثر الناس، تريد: بمن معه، وقدم فغلت الأسعار لأنك تنوي بقدومه قدوم من معه. وقد يكون أن تريد بفرعون آل

---

[١] تفسير القرطبي:٣٦٩/٨.
[٢] تفسير الطبري:١٦٣/١٥.
[٣] التفسير الميسر:٢١٨.[بتصرف]
[٤] تفسير القرطبي:٣٦٩/٨.
[٥] تفسير الطبري:١٦٣/١٥.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥١٥):ص١٩٧٤/٦.
[٧] المحرر الوجيز:١٣٦/٣.
[٨] التفسير الميسر:٢١٨.
[٩] غريب القرآن:١٩٨.
[١٠] تفسير الطبري:١٦٣/١٥.

فرعون وتحذف الآل فيجوز كما قال: {وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢]، تريد: «أهل القرية» والله أعلم. ومن ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنّ} [الطلاق : ١]"[١].

قال ابن عطية:" وقال الفراء: «المعنى على خوف من آل فرعون وملئهم وهو من باب وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف: ٨٢]» [٢].

وهذا التنظير غير جيد لأن إسقاط المضاف في قوله :{وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢]، هو سائغ بسبب ما يعقل من أن «اسأل القرية» لا تسأل، ففي الظاهر دليل على ما أضمر، وأما هاهنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إلى إضمار، إما أنه ربما احتج أن الضمير المجموع في مَلَائِهِمْ يقتضي ذلك والخوف إنما يكون من الأفعال والأحداث التي للجثة ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإيجاز أضيف إلى الأشخاص"[٣].

وفي قوله تعالى:{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ} [يونس : ٨٣]، خمسة وجوه:
أحدها : أن الذرية القليل ، قاله ابن عباس[٤]، والضحاك[٥].

قال الضحاك:" «الذرية»: القليل، كما قال الله تعالى: {كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [سورة الأنعام: ١٣٣]" [٦].

الثاني : أنهم الغلمان من بني إسرائيل لأن فرعون كان يذبحهم فأسرعوا إلى الإيمان بموسى ، قاله زيد بن أسلم[٧].

قال زيد بن أسلم:" كان فرعون يذبح الغلمان فلما كان من أمر موسى عليه السلام ما كان حين ضرب موسى بالعصا، وهو قاعد عبد عنده أخرجه ثم قطر عن قتل ذرية بني إسرائيل وعرف أنه هو الذي كان يقتل في سببه ذرية بني إسرائيل فنشئت ناشئة فيما بين ذلك إلى أن جاء موسى من مدين حين بعثه الله عز وجل رسولا وهي الذرية التي قال الله: {فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون}"[٨].

الثالث : أنهم أولاد الزمن، لأنهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسل إليهم موسى عليه السلام. قاله مجاهد[٩]، والأعمش[١٠].

قال الزجاج:" قيل إنه مكث يدعو الآباء فلم يؤمنوا، وآمنت طائفة من أولادهم"[١١].

الرابع : أن «الذرية» أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. قاله ابن عباس[١٢].

وقد روي عن ابن عباس:" قوله: {ذرية من قومه}، يقول: بني إسرائيل"[١٣].

والخامس: أنهم قوم أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط. قاله الفراء[١٤].

قال الفراء:" فسر المفسرون «الذرية»: القليل. وكانوا- فيما بلغنا- سبعين أهل بيت، وإنما سموا «الذرية»، لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم كن من بنى إسرائيل، فسموا الذرية

---

[١] معاني القرآن:١/٤٧-٤٧٦.
[٢] معاني القرآن:١/٤٧٧.
[٣] المحرر الوجيز:٣/١٣٧.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٧٤):ص١٥/١٦٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٧٥):ص١٥/١٦٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٧٧٧٥):ص١٥/١٦٣.
[٧] انظر:تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥١٨):ص٦/١٩٧٥.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥١٨):ص٦/١٩٧٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٧٦)-(١٧٧٧٩):ص١٥/١٦٤.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٨٠):ص١٥/١٦٤.
[١١] معاني القرآن:٣/٣٠.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٨١):ص١٥/١٦٤.
[١٣] أخرجه الطبري(١٧٧٨٢):ص١٥/١٦٥.
[١٤] انظر: معاني القرآن:١/٤٧٦.

كما قيل لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن فسموا ذراريهم الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم"[١].

والسادس: أن ذرية قوم موسى نساؤهم وولدانهم. أفاده الماوردي[٢].
قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال عندي بتأويل الآية، القولُ الذي ذكرته عن مجاهد، وهو أن «الذرية»، في هذا الموضع أريد بها ذُرّية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أن يقرُّوا بنبوته لطول الزمان، فأدركت ذريّتهم، فآمن منهم من ذكر الله، بموسى.

وإنما قلت: "هذا القولُ أولى بالصواب في ذلك"، لأنه لم يجر في هذه الآية ذكرٌ لغير موسى، فَلأن تكون "الهاء"، في قوله: "من قومه"، من ذكر موسى لقربها من ذكره، أولى من أن تكون من ذكر فرعون، لبعد ذكره منها، إذ لم يكن بخلاف ذلك دليلٌ، من خبرٍ ولا نظرٍ.

وبعدُ، فإن في قوله: {على خوف من فرعون وملئهم}، الدليلُ الواضح على أن الهاء في قوله: {إلا ذرية من قومه}، من ذكر موسى، لا من ذكر فرعون، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام، "على خوف منه"، ولم يكن {على خوف من فرعون}"[٣].

قوله تعالى:{عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ} [يونس : ٨٣]، أي:" على تخوف وحذر من فرعون وملأه أن يعذبهم ويصرفهم عن دينهم"[٤].
قال الطبري:" يعني: وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوهم"[٥].
قال مقاتل:" يعني :ومن معه الأشراف من قومه، {أن يفتنهم}، يعنى: أن يقتلهم"[٦].

قال الأخفش:" يعني: ملأ الذرية"[٧].

قال ابن قتيبة:" {أن يفتنهم} أي: يقتلهم ويعذبهم"[٨].
قال الزجاج:" «الملأ» من القوم: الرؤساء الذين يرجع إلى قولهم"[٩].

قوله تعالى:{وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ} [يونس : ٨٣]، أي:" وإن فرعون لَجبار مستكبر في الأرض"[١٠].
قال ابن زيد:" يقول: تجبر في الأرض"[١١].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإن فرعون لجبّارٌ مستكبر على الله في أرضه"[١٢].
قوله تعالى:{وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [يونس : ٨٣]، أي:" وإنه لمن المتجاوزين الحد في الكفر والفساد"[١٣].

---

(١) معاني القرآن:٤٧٦/١.
(٢) انظر: النكت والعيون:٤٤٥/٢.
(٣) تفسير الطبري:١٦٥/١٥.
(٤) صفوة التفاسير:٥٥٣/١.
(٥) تفسير الطبري:١٦٥/١٥.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٥/٢.
(٧) معاني القرآن:٣٧٧/١.
(٨) غريب القرآن:١٩٨.
(٩) معاني القرآن:٣٠/٣.
(١٠) التفسير الميسر:٢١٨.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥١٩):ص١٩٧٥/٦.
(١٢) تفسير الطبري:١٦٧/١٥.
(١٣) التفسير الميسر:٢١٨.

قال الطبري: أي:"وإنه لمن المتجاوزين الحقّ إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به، وجحودُه وحدانية الله، وادّعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حِلِّها"[١].

الفوائد:

١- التنديد بالعلو في الأرض والإسراف في الشر والفساد وبأهلهما.
٢- إن العظيم والتجبر والاستطالة على الناس، فكل ذلك حرام قبيح مذموم.

القرآن

{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)} [يونس : ٨٤]

التفسير:

وقال موسى: يا قومي إن صدقتم بالله -جلَّ وعلا- وامتثلتم شرعه فثقوا به، وسلِّموا لأمره، وعلى الله توكلوا إن كنتم مذعنين له بالطاعة.

قوله تعالى:{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ} [يونس : ٨٤]، أي:" وقال موسى: يا قومي إن صدقتم بالله -جلَّ وعلا- وامتثلتم شرعه"[٢].

قوله تعالى:{فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا} [يونس : ٨٤]، أي:" فعلى الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرّ"[٣].

قال مقاتل:" يعنى: احترزوا"[٤].

قال الطبري:" يقول: فبه فثقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه"[٥].

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: ثقوا بالله وذلك حين قالوا له: {أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} [الأعراف: ١٢٩]"[٦].

قال محمد بن إسحاق:" يعني: على الله توكلوا، أي: أرضى به من العباد"[٧].

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس : ٨٤]، أي:" إن كنتم مستسلمين لحكم الله منقادين لشرعه"[٨].

قال الطبري:" يقول: إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكلوا"[٩].

قال مقاتل:" يعني: إن كنتم مقرين بالتوحيد"[١٠].

الفوائد:

١- وجوب التوكل على الله تعالى لتحمل عبء الدعوة إلى الله تعالى والقيام بطاعته.
٢- أنه من الأدلة الموجبة لاتّباع المنهج والأسلوب الصحيحين: تحاشي ما يَصْرِف الناس عن الهداية، قال تعالى:{ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، ومنه قوله تعالى: {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا}[الممتحنة:٦٠.]

---

[١] تفسير الطبري:١٦٧/١٥.
[٢] التفسير الميسر:٢١٨.
[٣] صفوة التفاسير:٥٥٣/١.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٦/٢.
[٥]تفسير الطبري:١٦٨/١٥ .
[٦]بحر العلوم:١٢٨/٢ .
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٢٠):ص١٩٧٥/٦.
[٨] صفوة التفاسير:٥٥٣/١.
[٩]تفسير الطبري:١٦٨/١٥ .
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٦/٢.

القرآن

{فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥)} [يونس : ٨٥]

التفسير:

فقال قوم موسى له: على الله وحده لا شريك له اعتمدنا، وإليه فوَّضنا أمرنا، ربنا لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أو يُفتن الكفارُ بنصرهم، فيقولوا: لو كانوا على حق لما غُلبوا.

قوله تعالى:{فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} [يونس : ٨٥]، أي:" فقال قوم موسى له: على الله وحده لا شريك له اعتمدنا، وإليه فوَّضنا أمرنا"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فقال قوم يا موسى لموسى: {على الله توكلنا}، أي به وثقنا، وإليه فوَّضنا أمرنا"[٢].

قال أبو الليث السمرقندي:" فلما قال لهم هذا موسى عليه السلام فقالوا :{على الله توكلنا}، يعني: فوضنا أمرنا إليه"[٣].

قال الزمخشري:" فقالوا :{على الله توكلنا}، إنما قالوا ذلك، لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص"[٤].

قوله تعالى:{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [يونس : ٨٥]، أي:" ربنا لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أو يُفتن الكفارُ بنصرهم، فيقولوا: لو كانوا على حق لما غُلبوا"[٥].

قال أبو الليث السمرقندي:" يقول: بلية وعبرة للقوم الظالمين. يعني: لا تنصرهم علينا"[٦].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه مخبرًا عن قوم موسى أنهم دعوا ربهم فقالوا: يا ربنا لا تختبر هؤلاء القوم الكافرين، ولا تمتحنهم بنا! ، يعنون قوم فرعون"[٧].

قال البغوي:" أي: لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بأيديهم، فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا"[٨].

قال الزمخشري:" أى: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا. أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا"[٩].

وفي قوله تعالى:{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [يونس : ٨٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها : لا تسلطهم علينا فيفتنوننا ، قاله مجاهد[١٠]، وابن زيد[١١].

الثاني: لا تسلطهم علينا فيفتتنون بنا لظنهم أنهم على حق ، قاله أبو الضحى[١]، وأبو مجلز[٢]، وبه قال ابن قتيبة[٣].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٨.

[٢] تفسير الطبري:١٦٨/١٥.

[٣]بحر العلوم:١٢٨/٢ .

[٤] الكشاف:٣٦٤/٢.

[٥] التفسير الميسر:٢١٨.

[٦]بحر العلوم:١٢٨/٢ .

[٧] تفسير الطبري:١٦٨/١٥.

[٨] تفسير البغوي:١٤٦/٤.

[٩] الكشاف:٣٦٤/٢.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٨٦)-(١٧٧٩١):ص١٦٩/١٥-١٧٠.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٩٢):ص١٧٠/١٥.

والثالث: لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة. حكاه ابن عطية عن طائفة، وقال:"وفي هذا التأويل قلق"[٤].

قال ابن قتيبة:" الفتنة: العبرة، كقوله: {رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٨٥] وفي موضع آخر: {لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [الممتحنة: ٥] أي: يعتبرون أمرهم بأمرنا، فإذا رأونا في ضرّ وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة ورخاء- ظنّوا أنهم على حق، ونحن على باطل.

وكذلك قوله: فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ [الأنعام: ٥٣]"[٥].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن القوم رغبوا إلى الله في أن يُجيرهم من أن يكونوا محنة لقوم فرعون وبلاءً، وكلُّ ما كان من أمر كان لهم مصدَّة عن اتباع موسى والإقرار به، وبما جاءهم به، فإنه لا شك أنه كان لهم "فتنة"، وكان من أعظم الأمور لهم إبعادًا من الإيمان بالله ورسوله. وكذلك من المصدَّة كان لهم عن الإيمان: أن لو كان قوم موسى عاجلتهم من الله محنةٌ في أنفسهم، من بلية تنزل بهم، فاستعاذ القوم بالله من كل معنى يكون صادًّا لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم"[٦].

الفوائد:

١- أن التوكل على الله عبادة عظيمة له سبحانه والتوكل عليه يجب أن يكون في كل شيء ومن توكل عليه تعالى حق التوكل لا يخيب في أي مسعى يسعاه في دنياه وآخرته ... ولكن يجب أن يكون مرافقاً للعمل والأخذ بالأسباب فإن من يتكل على الله في دخول الجنة ولا يعمل لها عقيدة وعبادة وعملاً فلن يدخلها! وكذلك في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة فيجب لكل عمله على أن لا نعتقد أن أعمالنا هي التي تفضي إلينا بالنجاح وحدها بل بتوفيق الله تعالى ورحمته.
٢- أن سوء حال المؤمنين من ضعف أو فقر تجعلهم موضعا لافتتان الكفار بهم، باعتقاد أنهم خير منهم.

القرآن

{وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)} [يونس : ٨٦]

التفسير:

ونجِّنا برحمتك من القوم الكافرين فرعون وملئه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة.

قوله تعالى:{وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [يونس : ٨٦]، أي:" وخلِّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ونجّنا يا ربنا برحمتك، فخلّصنا من أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون، لأنهم كان يستعبدونهم ويستعملونهم في الأشياء القَذِرة من خدمتهم"[٨].

قال أبو الليث السمرقندي:" {ونجنا برحمتك}، يعني: بنعمتك، {من القوم الكافرين}، يعني: فرعون وقومه"[٩].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٨٥):ص١٦٩/١٥.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٨٣):ص١٦٩/١٥.
[٣] انظر: تأويل مشكل القرآن:٢٦١.
[٤] المحرر الوجيز:١٣٨/٣.
[٥] تأويل مشكل القرآن:٢٦١.
[٦] تفسير الطبري:١٥/١٧٠-١٧١.
[٧] صفوة التفاسير:٥٥٣/١.
[٨] تفسير الطبري:١٧١/١٥.
[٩]بحر العلوم:١٢٨/٢ .

قال البيضاوي: {ونجنا برحمتك من القوم الكافرين}، أي: "من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولا لتجاب دعوته"[١].

الفوائد:

١- مشروعية الدعاء والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته.
٢- التوسل برحمة الله وفضله.

القرآن

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)} [يونس : ٨٧]

التفسير:

وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون أن اتخذا لقومكما بيوتًا في «مصر» تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها، واجعلوا بيوتكم أماكن تصلُّون فيها عند الخوف، وأدُّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها. وبشِّر المؤمنين المطيعين لله بالنصر المؤزر، والثواب الجزيل منه سبحانه وتعالى.

قوله تعالى:{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا} [يونس : ٨٧]، أي:" وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون أن اتخذا لقومكما بيوتًا في «مصر» تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذا لقومكما بمصر بيوتًا، يقال منه: "تبوَّأ فلان لنفسه بيتًا"، إذا اتخذه. وكذلك تبوَّأ مصْحفًا"، إذا اتخذه، "وبوأته أنا بيتًا": إذا اتخذته له"[٣].

وفي قوله {بِمِصْرَ}[يونس : ٨٧]، قولان :
أحدهما : أنها الإسكندرية ، وهو قول مجاهد[٤].
الثاني : أنه البلد المسمى مصر ، قاله الضحاك[٥].

قوله تعالى:{وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} [يونس : ٨٧]، أي:" واجعلوا بيوتكم أماكن تصلُّون فيها عند الخوف"[٦].

قال الطبري:" يقول: واجعلوا بيوتكم مساجدَ تصلُّون فيها"[٧].

قال ابن قتيبة:" أي: نحو القبلة. ويقال: اجعلوها مساجد"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} [يونس : ٨٧]، أربعة أقوال:
أحدها : واجعلوها مساجد تصلون فيها، لأنهم كانوا يخافون فرعون أن يصلّوا في كنائسهم ومساجدهم ، قاله ابن عباس[٩]، ومجاهد[١]، وأبو مالك[٢]، والربيع بن انس[٣]، والضحاك[٤]، والضحاك[٤]، وابن زيد[٥]، وإبراهيم النخعي[٦].

---

[١] تفسير البيضاوي:١٢٢/٣.
[٢] التفسير الميسر:٢١٨.
[٣] تفسير الطبري:١٧١/١٥.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٢٦):ص١٩٧٦/٦.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٢٨):ص١٩٧٦/٦.
[٦] التفسير الميسر:٢١٨.
[٧] تفسير الطبري:١٧١/١٥.
[٨] غريب القرآن:١٩٨.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٩٣)-(١٧٧٩٥):ص١٧٢/١٥.

الثاني : واجعلوا مساجدكم قِبل الكعبة ، وهذا مروي عن ابن عباس[٧]، ومجاهد[٨]، وقتادة[٩]، والضحاك[١٠].
الثالث : واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلة لكم في الصلاة فهي قبلة اليهود إلى اليوم. حكاه الماوردي عن ابن بحر[١١].
الرابع : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً ، قاله ابن عباس[١٢]، وسعيد بن جبير[١٣].
قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قدمنا بيانه، وذلك أن الأغلب من معاني "البيوت" - وإن كانت المساجد بيوتًا -البيوت المسكونة، إذا ذكرت باسمها المطلق دون المساجد. لأن "المساجد" لها اسم هي به معروفة، خاصٌّ لها، وذلك "المساجد"، فأمّا "البيوت" المطلقة بغير وصلها بشيء، ولا إضافتها إلى شيء، فالبيوت المسكونة، وكذلك "القبلة" الأغلب من استعمال الناس إيّاها في قبل المساجد وللصلوات.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز توجيه معاني كلام الله إلا إلى الأغلب من وجوهها المستعمل بين أهل اللسان الذي نزل به، دون الخفيّ المجهول، ما لم تأت دلالة تدل على غير ذلك ولم يكن على قوله: {واجعلوا بيوتكم قبلة} ، دلالةٌ تقطع العذرَ بأن معناه غير الظاهر المستعمل في كلام العرب، لم يجز لنا توجيهه إلى غير الظاهر الذي وصفنا، وكذلك القول في قوله {قبلة}"[١٤].

قوله تعالى:{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [يونس : ٨٧]، أي:" وأدُّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها"[١٥].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها"[١٦].
وروي عن مقاتل بن حيان:" قوله لأهل الكتاب: {وأقيموا الصلاة}، أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ"[١٧].
عن الحسن في قوله: وأقيموا الصلاة قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة"[١٨]. وروي عن عطاء وقتادة نحو ذلك[١٩].

قوله تعالى:{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس : ٨٧]، أي:" وبشِّر المؤمنين المطيعين لله بالنصر المؤزر، والثواب الجزيل منه سبحانه وتعالى"[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٩٩)، و(١٧٨٠٠):ص١٧٢/١٥-١٧٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٠١):ص١٧٣/١٥.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٠٢):ص١٧٣/١٥.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٠٤):ص١٧٣/١٥.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٠٦):ص١٧٣/١٥.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٧٩٦):ص١٧٢/١٥.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٠٧)-(١٧٨٠٩):ص١٧٤/١٥.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٨١٠)-(١٧٨١٤):ص١٧٤/١٥-١٧٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٨١٥):ص١٧٥/١٥.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٨١٧):ص١٧٥/١٥.
[١١] انظر: النكت والعيون:٤٤٨/٢.
[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٣٢):ص١٩٧٧/٦.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٨١٨):ص١٧٥/١٥.
[١٤] .تفسير الطبري:١٧٥/١٥-١٧٦
[١٥] التفسير الميسر:٢١٨.
[١٦] تفسير الطبري:١٧٦/١٥.
[١٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٣٥):ص١٩٧٨/٦.
[١٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٣٤):ص١٩٧٧/٦.
[١٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٧٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام: وبشر مقيمي الصلاة المطيعي الله، يا محمد، المؤمنين بالثواب الجزيل منه"(٢).

عن سعيد بن جبير، قوله: "{وبشر المؤمنين}، قال: بشرهم بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة"(٣).

الفوائد:

١- اتخاذ المساجد في المنازل للصلاة فيها عند الخوف.
٢- وجوب إقام الصلاة.
٣- بشرى الله تعالى للمؤمنين والمقيمين للصلاة بحسن العاقبة في الدارين.

القرآن

{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)} [يونس : ٨٨]

التفسير:

وقال موسى: ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه زينة من متاع الدنيا؛ فلم يشكروا لك، وإنما استعانوا بها على الإضلال عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم، فلا ينتفعوا بها، واختم على قلوبهم حتى لا تنشرح للإيمان، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الشديد الموجع.

قوله تعالى:{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس : ٨٨]، أي:" قال موسى: يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم، زينةً من متاع الدنيا وأثاثها، وأنواعاً كثيرة من المال"(٤).

قوله تعالى:{رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ} [يونس : ٨٨]، أي:" آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك"(٥).

قوله تعالى:{رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} [يونس : ٨٨]، أي:" ربنا اطمس على أموالهم، فلا ينتفعوا بها"(٦).

قال ابن قتيبة:" أي: أهلكها. وهو من قولك: طمس الطريق: إذا عفا ودرس"(٧).

قال الطبري:" هذا دعاء من موسى، دعا الله على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها، وذلك نحو قوله: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} [سورة النساء: ٤٧] . يعني به: من قبل أن نغيرها عن هيئتها التي هي بها، يقال منه: "طَمَسْت عينَه أَطْمِسْها وأطمُسُها طَمْسًا وطُمُوسا". وقد تستعمل العرب "الطمس" في العفوّ والدثور، وفي الاندقاق والدروس، كما قال كعب بن زهير(٨):

---

(١) التفسير الميسر:٢١٨.
(٢) تفسير الطبري:١٧٦/١٥.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٣٦):ص١٩٧٨/٦.
(٤) صفوة التفاسير:٥٥٣/١.
(٥) صفوة التفاسير:٥٥٣/١-٥٥٤.
(٦) التفسير الميسر:٢١٨.
(٧) غريب القرآن:١٩٨.
(٨)ديوانه: ٩. من قصيدته المشهورة. نضح الرجل بالعرق نضحا، فض به حتى سال سيلانًا. ونضاحة: شديدة النضح. والذفرى: الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن، وهو من الناس والحيوان جميعا: العظم الشاخص خلف الأذن. وسيلان عرقها هناك، ممدوح في الإبل. والطامس: الدارس الذي أمحى أثره. والأعلام: أعلام الطريق، تبنى في جادة الطريق ليستدل بها عليه إذا ضل الضال. وأرض مجهولة: إذا كان لا أعلام فيها ولا

مِنْ كُلِّ نَضَّاحَةِ الذِّفْرَى إِذَا عَرِقَتْ   عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلامِ مَجْهُول"[1].

وفي قوله تعالى:{رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} [يونس : ٨٨]، وجهان:

أحدهما: معناه: اجعل اموالهم حجارة. قاله الربيع بن انس[2]، ابو العالية[3]، وسفيان[4]، والضحاك[5]، وأبو صالح[6]، وابن زيد[7].

قال الضحاك:" جعلها الله حجارةً منقوشة على هيئة ما كانت"[8].

قال قتادة:" بلغنا أن زروعهم تحوَّلت حجارة"[9].

وعن القرظي:" اجعل سُكّرهم حجارة"[10].

قال ابن زيد:" قد فعل ذلك، وقد أصابهم ذلك، طمَس على أموالهم، فصارت حجارةً، ذهبهم ودراهمهم وعَدَسهم، وكلُّ شيء"[11].

والثاني: أن معناه: أهلكها. قاله ابن عباس[12]، ومجاهد[13].

عن ابن عباس:" {ربنا اطمس على أموالهم}، يقول: دمِّر عليهم وأهلك أموالهم"[14].

قوله تعالى:{وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [يونس : ٨٨]، أي:" واختم على قلوبهم حتى لا تنشرح للإيمان"[15].

قال الطبري:" يعني: واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان"[16].

قال أبو عبيدة:" مجازه هاهنا كمجاز «اشدد الباب» ، ألا نرى بعده: {فَلا يُؤْمِنُوا} جزم، لأنه دعاء عليهم، أي: فلا يؤمننّ"[17].

وفي قوله تعالى:{وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [يونس : ٨٨]، وجوه:

أحدها : بالضلالة ليهلكوا كفاراً فينالهم عذاب الآخرة ، قاله مجاهد[18].

وروي عن الضحاك:" أهلكهم كفارًا"[19].

الثاني : بإعمائها عن الرشد[1].

جبال، فلا يهتدي فيها السائر. يقول: إذا نزلت هذه المجاهل، عرفت حينئذ قوتها وشدتها وصبرها على العطش والسير في الفلوات.

[1] تفسير الطبري:١٧٩/١٥.

[2] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٢٣):ص١٨٠/١٥.

[3] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٢٢):ص١٨٠/١٥.

[4] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٢٦):ص١٨٠/١٥.

[5] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٢٩):ص١٨٠/١٥-١٨١.

[6] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٢٧):ص١٨٠/١٥.

[7] انظر: الطبري(١٧٨٣٠):ص١٨١/١٥.

[8] أخرجه الطبري(١٧٨٢٩):ص١٨٠/١٥-١٨١.

[9] أخرجه الطبري(١٧٨٢٤):ص١٨٠/١٥.

[10] أخرجه الطبري(١٧٨٢٠):ص١٧٩/١٥.

[11] أخرجه الطبري(١٧٨٣٠):ص١٨١/١٥.

[12] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٣٤):ص١٨١/١٥.

[13] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٣١):ص١٨١/١٥.

[14] أخرجه الطبري(١٧٨٣٤):ص١٨١/١٥.

[15] التفسير الميسر:٢١٨.

[16] تفسير الطبري:١٨١/١٥.

[17] مجاز القرىن:٢٨١/١.

[18] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٣٧)-(١٧٨٣٩):ص١٨٢/١٥.

[19] أخرجه الطبري(١٧٨٤٠):ص١٨٢/١٥.

الثالث : بالموت ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[٢].
الرابع : اجعلها قاسية. قاله ابن قتيبة[٣].
والخامس: معناه: اختم على قلوبهم، حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان. وهذا معنى قول ابن عباس[٤]، وبه قال الفراء[٥]، والطبري[٦].

قال ابن عباس:" فاستجاب الله له، وحال بين فرعون وبين الإيمان حتى أدركه الغرق، فلم ينفعه الإيمان"[٧].

قوله تعالى:{فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس : ٨٨]، أي:" فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الشديد الموجع"[٨].

قال الطبري:" معناه: فلا يصدقوا بتوحيد الله ويقرُّوا بوحدانيته، حتى يروا العذاب الموجع[٩].

قال الفراء:" قوله: فلا يؤمنوا. كل ذلك دعاء، كأنه قال اللهم فلا «٥» يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وإن شئت جعلت {فلا يؤمنوا} جوابا لمسئلة موسى عليه السلام إياه، لأن المسألة خرجت على لفظ الأمر، فتجعل {فلا يؤمنوا} في موضع نصب على الجواب، فيكون كقول الشاعر[١٠]:

يا ناق سيري عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

وليس الجواب يسهل في الدعاء لأنه ليس بشرط "[١١].

عن ابن عباس:" {فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم}، قال: الغرق"[١٢].

عن مجاهد: "{فلا يؤمنوا}، بالله فيما يرون من الآيات، {حتى يروا العذابَ الأليم}"[١٣].

عن المنقري: "{فلا يؤمنوا}، يقول: دعا عليهم"[١٤].

الفوائد:

١- مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم.

---

[١] انظر: النكت والعيون:٤٤٩/٢.
[٢] انظر: النكت والعيون:٤٤٨/٢.
[٣] انظر: غريب القرآن:١٩٨.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٣٥):ص١٨١/١٥.
[٥] انظر: معاني القرآن:٤٧٧/١.
[٦] تفسير الطبري:١٨١/١٥.
[٧] أخرجه الطبري(١٧٨٣٥):ص١٨١/١٥.
[٨] التفسير الميسر:٢١٨.
[٩] تفسير الطبري:١٨٢/١٥.
[١٠]الرجز لأبي النجم في الكتاب ٣/ ٣٤، والدر ٣/ ٥٢، والرد على النحاة ١٢٣، وشرح التصريح ٢/ ٢٣٩، ولسان العرب (نفخ) ، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٨٧، وهمع الهوامع ٢/ ١٠، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٤/ ١٨٢، ورصف المباني ٣٨١، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٧٠، وشرح الأشموني ٢/ ٣٠٢، وشرح ابن عقيل ص ٥٧٠، وشرح قطر الندى ٧١، وشرح المفصل ٧/ ٢٦، واللمع في العربية ٢١٠، والمقتضب ٢/ ١٤، وهمع الهوامع ١/ ١٨٢. يمدح فيها سليمان بن عبد الملك. و«العنق» ضرب من سير الإبل.
[١١] معاني القرآن:٤٧٧/١-٤٧٨.
[١٢] أخرجه الطبري(١٧٨٤٦):ص١٨٤/١٥.
[١٣] أخرجه الطبري(١٧٨٤١):ص١٨٢/١٥.
[١٤] أخرجه الطبري(١٧٨٤٥):ص١٨٣/١٥.

٢- كثرة المال وأنواع الزينة، والانغماس في ذلك والتلهي به يسبب الضلال لصاحبه.
٣- الذين بلغوا حدا من الشر والفساد فطبع على قلوبهم لا يموتون إلا على الكفر فيخسرون.

القرآن

{قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)} [يونس : ٨٩]

التفسير:

قال الله تعالى لهما: قد أجيبت دعوتكما في فرعون وملئه وأموالهم -وكان موسى يدعو، وهارون يؤمِّن على دعائه، فمن هنا نسبت الدعوة إلى الاثنين- فاستقيما على دينكما، واستمرَّا على دعوتكما فرعون وقومه إلى توحيد الله وطاعته، ولا تسلكا طريق مَن لا يعلم حقيقة وعدي ووعيدي.

قوله تعالى:{قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا} [يونس : ٨٩]، أي:" قال الله تعالى لهما: قد أجيبت دعوتكما في فرعون وملئه وأموالهم"(١).

قال الطبري:" وهذا خبر من الله عن إجابته لموسى ﷺ وهارون دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم. يقول جل ثناؤه: {قال} الله لهما: {قد أجيبت دعوتكما}، في فرعون وملئه وأموالهم.

فإن قال قائل: وكيف نسبت "الإجابة" إلى اثنين و"الدعاء"، إنما كان من واحد؟

قيل: إن الداعي وإن كان واحدًا، فإن الثاني كان مؤمِّنًا، وهو هارون، فلذلك نسبت الإجابة إليهما، لأن المؤمّن داعٍ... وقد زعم بعض أهل العربية، أن العرب تخاطب الواحد خطاب الاثنين، وأنشد في ذلك(٢):

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لا تُعْجَلانَا   بِنزعِ أُصُولِهِ وَاجْتَزَّ شِيحَا"(٣)

قال الزجاج:" يروى في التفسير أن موسى دعا، وأن هارون أمن على دعائه، وفي الآية دليل أنهما دعوا جميعا لأن قوله: {قد أجيبت دعوتكما} يدل أن الدعوة منهما جميعا، والمؤمن على دعاء الداعي داع أيضا لأن قوله «آمين» تأويله: استجب فهو سائل كسؤال الداعي"(٤).

قال عكرمة:" كان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فذلك قوله: {قد أجيبت دعواتكما}"(٥).

عن ابي صالح: "{قد أجيبت دعوتكما} قال: دعا موسى، وأمن هارون"(٦). وروي عن الربيع بن انس مثله(٧).

عن محمد بن كعب قال: "دعا موسى، وأمَّن هارون"(٨). وروي عن ابي العالية مثله(٩).

قال ابن زيد:" كان هارون يقول: آمين فقال الله: {قد أجيبت دعوتكما}، فصار التأمين دعوة صار شريكه فيها"(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:٢١٩.
(٢) البيت لمضرس بن ربعي الأسدي، انظر: الصاحبي: ١٨٦، ابن يعيش ١٠: ٤٩، واللسان (جزز).
(٣) تفسير الطبري:١٨٥/١٥.
(٤) معاني القرآن:٣١/٣.
(٥) أخرجه الطبري(١٧٨٤٧):ص١٨٥/١٥.
(٦) أخرجه الطبري(١٧٨٤٨):ص١٨٦/١٥.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٥٢):ص١٨٦/١٥.
(٨) أخرجه الطبري(١٧٨٤٩):ص١٨٦/١٥.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٥١):ص١٨٦/١٥.
(١٠) أخرجه الطبري(١٧٨٥٥):ص١٨٧/١٥.

قوله تعالى:{فَاسْتَقِيمَا} [يونس : ٨٩]، أي:" فاستقيما على دينكما، واستمرَّا على دعوتكما فرعون وقومه إلى توحيد الله وطاعته"[١].

قال الطبري:" وأما قوله: {فاستقيما}، فإنه أمرٌ من الله تعالى لموسى وهارون بالاستقامة والثبات على أمرهما، من دعاء فرعون وقومه إلى الإجابة إلى توحيد الله وطاعته، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذي أخبرهما أنه أجَابَهما فيه"[٢].

قال الفراء:" أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة. ويقال: إنه كان بينهما أربعون سنة"[٣].

قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة"[٤].

وفي قوله تعالى:{فَاسْتَقِيمَا} [يونس : ٨٩]، وجهان:

أحدهما : فامضيا لأمري فخرجا في قومهم ، قاله ابن عباس[٥]، السدي[٦].

عن ابن عباس: "{فاستقيما}: فامضيا لأمري، وهي الاستقامة"[٧].

قال أسباط: "فزعم السدي أن موسى هو الذي دعا وأمن هارون فذلك حين يقول الله: {قد أجيبت دعوتكما فاستقيما} فخرجا في قومهم"[٨].

الثاني : فاستقيما في دعوتكما على فرعون وقومه ، وحكاه علي بن عيسى[٩].

قال الماوردي :"وقيل : إنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن لأن دعاءه موجب لحلول الانتقام وقد يجوز أن يكون فيهم من يتوب"[١٠].

قوله تعالى:{وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [يونس : ٨٩]، أي:" ولا تسلكا طريق مَن لا يعلم حقيقة وعدي ووعيدي"[١١].

قال الطبري:" يقول: ولا تسلكانّ طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، فإن وعْدي لا خلف له، وإن وعيدي نازلٌ بفرعون وعذابي واقع به وبقومه"[١٢].

قال مقاتل:" يعني: طريق الذين لا يعلمون بأن الله وحده لا شريك له- يعني أهل مصر "[١٣].

الفوائد:

١- المؤمن داع فهو شريك في الدعاء فلذا أهل المسجد يؤمنون على دعاء الإمام في الخطبة فتحصل الإجابة للجميع، ومن هنا يخطيء الذين يطوفون أو يزورون إذ يدعون بدعاء المطوف ولا يؤمنون.

٢- حرمة إتباع طرق أهل الضلال، وتقليد الجهال وتقليدهم والسير وراءهم، قال تعالى: {فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [يونس: ٨٩]، وقوله تعالى: {وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٤٢]، وقال تبارك وتعالى: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا

---

[١] التفسير الميسر:٢١٩.

[٢] تفسير الطبري:١٨٧/١٥.

[٣] معاني القرآن:٤٧٨/١.

[٤] أخرجه الطبري(١٧٨٥٦):ص١٨٧/١٥.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٥٦):ص١٨٧/١٥.

[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٥٤):ص١٩٨٠/٦.

[٧] أخرجه الطبري(١٧٨٥٦):ص١٨٧/١٥.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٥٤):ص١٩٨٠/٦.

[٩] انظر: النكت والعيون:٤٤٨/٢.

[١٠] النكت والعيون:٤٤٨/٢.

[١١] التفسير الميسر:٢١٩.

[١٢] تفسير الطبري:١٨٨/١٥.

[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٧/٢.

تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا } [النساء: ١١٥] .

فكل ذلك يدل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابهتهم أمر مشروع، وفي الحديث قوله ﷺ " من تشبه بقوم فهو منهم "[١].

القرآن

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)} [يونس : ٩٠]

التفسير:

وقطَعْنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه، فأتبعهم فرعون وجنوده ظلمًا وعدوانًا، فسلكوا البحر وراءهم، حتى إذا أحاط بفرعون الغرق قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل، وأنا من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة.

قوله تعالى:{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ} [يونس : ٩٠]، أي:" وقطَعْنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه"[٣].

قال البيضاوي:" أي: جوزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم"[٤].

وقرئ «جوزنا» وهو من فعل المرادف لفاعل كـ«ضعف وضاعف»[٥].

قوله تعالى:{فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا} [يونس : ٩٠]، أي:" فأتبعهم فرعون وجنوده ظلمًا وعدوانًا، فسلكوا البحر وراءهم"[٦].

قال الطبري:" يقول: فتَبعهم فرعون {وجنوده}، {بغيًا}على موسى وهارون ومن معهما من قومهما من بني إسرائيل، {وعدْوًا}، يقول: واعتداء عليهم"[٧].

قال البيضاوي:" فأتبعهم فأدركهم يقال تبعته حتى أتبعته. فرعون وجنوده، {بغيا وعدوا}، باغين وعادين، أو للبغي والعدو"[٨].

قال القرطبي:" يقال: تبع وأتبع بمعنى واحد، إذا لحقه وأدركه. و«اتبع» -بالتشديد- إذا سار خلفه. وقال الأصمعي: «أتبعه» -بقطع الألف- إذا لحقه وأدركه، و«اتبعه» -بوصل الألف- إذا اتبع أثره، أدركه أو لم يدركه. وكذلك قال أبو زيد، وقيل:«اتبعه» -بوصل الألف- في الأمر اقتدى به. وأتبعه -بقطع الألف- خيرا أو شرا، هذا قول أبي عمرو. وقد قيل هما بمعنى واحد... فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا، وتبعه فرعون مصبحا في ألفي ألف وستمائة ألف، { بَغْيًا وَعَدْوًا}، أي: في حال بغي واعتداء وظلم"[٩].

---

[١] سنن أبي داود كتاب اللباس (٣١٤/٤ ح ٤٠٣١) ومسند أحمد (١٤٢/٧ ح ٥١١٤) وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح وقال الألباني: صحيح انظر صحيح الجامع (٢٧٠/٥ ح ٦٠٢٥).

[٢] التفسير الميسر:٢١٩.

[٣] تفسير الطبري:١٨٨/١٥.

[٤] تفسير البيضاوي:١٢٢/٢.

[٥] انظر: تفسير البيضاوي:١٢٢/٢.

[٦] التفسير الميسر:٢١٩.

[٧] تفسير الطبري:١٨٨/١٥.

[٨] تفسير البيضاوي:١٢٢/٢-١٢٣.

[٩] تفسير القرطبي:٣٧٧/٨.

وقرأ قتادة:«فاتبعهم» بوصل الألف[1]، وقرئ «وعدوا»[2].

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ} [يونس : ٩٠]، أي:" حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك"[3].
قال القرطبي:" أي: ناله ووصله"[4].

قال الطبري:" يقول: حتى إذا أحاط به الغرق -وفي الكلام متروك، قد ترك ذكره لدلالة ما ظهر من الكلام عليه، وذلك: "فأتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعدوًا فيه"= فغرقناه {حتى إذا أدركه الغرق}"[5].

قوله تعالى:{قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ} [يونس : ٩٠]، أي:" قال: أقررتُ وصدقتُ بأنه أنه لا إله إلا الذي آمنت وأقرت به بنو إسرائيل"[6].
قال القرطبي:" أي صدقت بأنه {لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل}، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف، أي آمنت فقلت إنه، والإيمان لا ينفع حينئذ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس، وأما بعدها وبعد المخالطة فلا تقبل"[7].

وقرأ الكوفيون: «آمَنْتُ إِنَّهُ» بكسر الألف من «إنه» على ابتداء الخبر[8].

قوله تعالى:{وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس : ٩٠]، أي:" وأنا من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة"[9].
عن ابن عباس: "أن النبي ﷺ قال: لما أغرق الله فرعون قال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل}، فقال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حَالِ البحر وأدَسِّيه في فيه، مخافة أن تدركه الرحمة"[10].
عن عبد الله بن شداد قال: "اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف، وهم اثنان وسبعون، وخرجوا مع موسى من مصر حين خرجوا وهم ست مائة ألف، فلما أدركهم فرعون فرأوه قالوا: يا موسى أين المخرجُ؟ فقد أدركنا، قد كنا نلقى من فرعون البلاء؟ فأوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرْق كالطود العظيم، ويبس لهم البحرُ، وكشف الله عن وجه الأرض، وخرج فرعون على فرس حِصان أدهَم على لونه من الدُّهم ثمان مائة ألف سوى ألوانها من الدوابّ، وكانت تحت جبريل عليه السلام فرسٌ ودِيق ليس فيها أنثى غيرها، وميكائيل يسوقهم، لا يشذُّ رجل منهم إلا ضمّه إلى الناس. فلما خرج آخر بني إسرائيل، دنا منه جبريل ولَصِق به، فوجد الحصان ريح الأنثى، فلم يملك فرعون من أمره شيئًا، وقال: أقدموا، فليس القومُ أحقُّ بالبحر منكم! ثم أتبعهم فرعون، حتى إذا همّ أوّلهم أن يخرجوا، ارتطم ونادى فيها: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} ، ونودي: {آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين}"[11].

---

[1] انظر: تفسير القرطبي:٨٣٧٧.
[2] انظر: تفسير البيضاوي:١٢٣/٣.
[3] صفوة التفاسير:٥٥٥/١.
[4] تفسير القرطبي:٣٧٧/٨.
[5] تفسير الطبري:١٨٩/١٥.
[6] انظر: التفسير الميسر:٢١٩، وصفوة التفاسير:٥٥٥/١.
[7] تفسير القرطبي:٣٧٧/٨.
[8] انظر: تفسير الطبري:١٨٩/١٥.
[9] التفسير الميسر:٢١٩.
[10] أخرجه الطبري(١٧٨٦١):ص١٩٢/١٥.
[11] أخرجه الطبري(١٧٨٥٧):ص١٩٠/١٥.

قال القرطبي:" يقال: إن فرعون هاب دخول البحر وكان على حصان أدهم ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى، فجاء جبريل على فرس وديق أي شهي[١]- في صورة هامان وقال وقال له: تقدم، ثم خاض البحر فتبعها حصان فرعون، وميكائيل يسوقهم لا يشذ منهم أحد، فلما صار آخرهم في البحر وهم أولهم أن يخرج انطبق عليهم البحر، وألجم فرعون الغرق فقال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، فدس جبريل في فمه حال البحر. وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»[٢]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. حال البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه، أرضه، قاله أهل اللغة. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه ذكر: «أن جبريل جعل يدس في في فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال عون بن عبد الله: بلغني أن جبريل قال للنبي ﷺ: ما ولد إبليس أبغض إلي من فرعون، فإنه لما أدركه الغرق قال:" آمنت" الآية، فخشيت أن يقولها فيرحم، فأخذت تربة أو طينة فحشوتها في فيه. وقيل: إنما فعل هذا به عقوبة له على عظيم ما كان يأتي. وقال كعب الأحبار: أمسك الله نيل مصر عن الجري في زمانه. فقالت له القبط: إن كنت ربنا فأجر لنا الماء، فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا يقفون على درجاتهم وقفز «٢» حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثيابا له أخرى وسجد وتضرع لله تعالى فأجرى الله له الماء، فأتاه جبريل وهو وحده في هيئة مستفت وقال: ما يقول الأمير في رجل له عبد قد نشأ في نعمته لا سند له غيره، فكفر نعمه وجحد حقه وادعى السيادة دونه، فكتب فرعون: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريان جزاؤه أن يغرق في البحر، فأخذه جبريل ومر فلما أدركه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس مسندا، وكان هذا في يوم عاشوراء"[٣].

الفوائد:

١- بيان إكرام الله تعالى لبني إسرائيل.
٢- أكمل الأديان وأفضلها الإسلام ولهذا أهل اليقين يسألون الله تعالى أن يتوفاهم مسلمين ولما أيقن فرعون بالهلاك زعم أنه من المسلمين.
٣- فضل لا إله إلا الله فقد ورد أن جبريل كان يحول بين فرعون وبين أن يقول: لا إله إلا الله فينجو فلم يقلها فغرق وكان من الهالكين.

القرآن

{آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)} [يونس : ٩١]

التفسير:

آلآن يا فرعون، وقد نزل بك الموت تقرُّ لله بالعبودية، وقد عصيته قبل نزول عذابه بك، وكنت من المفسدين الصادين عن سبيله!! فلا تنفعك التوبة ساعة الاحتضار ومشاهدة الموت والعذاب.

قوله تعالى: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس : ٩١]، أي:" الآن تؤمن حين يئست من الحياة، وقد عصيت الله قبل نزول نقمته بك، وكنتَ من الغالين في الضلال والإضلال والصدِّ عن دين الله؟"[٤].

---

[١] أي تشتهي الفحل.
[٢] سبق تخريجه انظر: تفسير الطبري(١٧٨٦١):ص١٩٢/١٥.
[٣] تفسير القرطبي:٣٧٧/٨-٣٧٨.
[٤] صفوة التفاسير:٥٥٦/١.

قال ابن قتيبة:" أي أفي هذا الوقت وفي هذا الأوان تتوب وقد عصيت قبل؟"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره، معرِّفًا فرعون قبح صَنيعه أيّام حياته وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديه في طغيانه، ومعصيته ربه، حين فزع إليه في حال حلول سَخطه به ونزول عقابه، مستجيرًا به من عذابه الواقع به، لما ناداه وقد علته أمواج البحر، وغشيته كرَبُ الموت: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} له، المنقادين بالذلة له، المعترفين بالعبودية، الآن تقرُّ لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهة، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادِّين عن سبيله؟ فهلا وأنت في مَهَلٍ، وباب التوبة لك منفتح، أقررت بما أنت به الآن مقرٌّ؟"[٢].

قال الزمخشري:أي:" أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك... {من المفسدين}، من الضالين المضلين عن الإيمان، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعنى حين أوشك أن يغرق. وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه. والذي يحكى أنه حين قال آمنت أخذ جبريل من حال البحر[٣] فدسه في فيه، فللغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه"[٤].

عن قتادة، قوله: "{آلآن وقد عصيت قبل}، أي: لو كان هذا في الرخاء وكنت من المفسدين"[٥].

قال السدي: "فبعث الله ميكائيل يعيره، فقال: {آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين}"[٦].

عن ميمون بن مهران قال: "خطب الضحاك بن قيس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال:{آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين}، قال الله: {آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين}"[٧].

الفوائد:

١- أن من شروط التوبة ان تكون قبل نزول العذاب، فلا تقبل التوبة عند معاينة العذاب وفي الحديث " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"[٨].

٢- أن توبة فرعون هي توبة الكاذبين، لأنه آمن بعد نزول العذاب فما نفعه.

القرآن

---

[١] تاويل مشكل القرآن:١٨٠.

[٢] تفسير الطبري:١٩٤/١٥.

[٣]قوله «من حال البحر فدسه» أى طينه الأسود. أفاده الصحاح.

[٤] الكشاف:٣٦٧/٢.[بتصرف]

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٦٦):ص١٩٨٣/٦.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٦٧):ص١٩٨٣/٦.

[٧] أخرجه الطبري(١٧٨٦٤):ص١٩٣/١٥.

[٨]حديث ابن عمر: أخرجه أحمد (١٥٣/٢، رقم ٦٤٠٨) ، والترمذى (٥٤٧/٥، رقم ٣٥٣٧) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (١٤٢٠/٢، رقم ٤٢٥٣) ، وابن حبان (٣٩٤/٢، رقم ٦٢٨) ، والحاكم (٢٨٦/٤، رقم ٧٦٥٩) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٩٥/٥، رقم ٧٠٦٣) . وأخرجه أيضا: عبد بن حميد (ص ٢٦٧، رقم ٨٤٧) ، وأبو يعلى (٨١/١٠، رقم ٥٧١٧) ، والبغوى فى الجعديات (٤٨٩/١، رقم ٣٤٠٤) .

حديث عبادة بن الصامت: أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٣٠٢/٤) .

حديث أبى أيوب بشير بن كعب: أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٣٠٢/٤) .

حديث الحسن: أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٣٠٢/٤) بلاغا.

ومن غريب الحديث: "يغرغر": من الغرغرة أى ما لم تبلغ الروح الحلقوم.

{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)} [يونس : ٩٢]

التفسير:

فاليوم نجعلك على مرتفع من الأرض ببدنك، ينظر إليك من كذَّب بهلاكك؛ لتكون لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك. وإن كثيرًا من الناس عن حججنا وأدلتنا لَغافلون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون.

قوله تعالى:{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ} [يونس : ٩٢]، أي:" فاليوم نجعلك على مرتفع من الأرض ببدنك، ينظر إليك من كذَّب بهلاكك"[١].

قال أبو عبيدة:" مجازه: نلقيك على نجوة، أي ارتفاع ليصر علما أنه قد غرق"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نَجْوةٍ من الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكًا من كذّب بهلاكك... و«النجوة»: الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض، ومنه قوله أوس بن حجر[٣]:

فَمَنْ بِعَقْوَتِهِ كَمَنْ بِنْجْوَتِهِ وَالمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحِ"[٤]

وفي قوله تعالى:{بِبَدَنِكَ} [يونس : ٩٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: يعني: بجسدك من غير روح، قاله ابن عباس[٥]، والحسن[٦]، ومجاهد[٧]، وقتادة[٨]، وعبدالله بن شداد[٩]، وابن قتيبة[١٠].

قال ابن عباس:" لما جاوز موسى البحرَ بجميع من معه، التقى البحرُ عليهم - يعني على فرعون وقومه - فأغرقهم، فقال أصحاب موسى: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق، ولا نؤمن بهلاكه! فدعا ربّه فأخرجه فنبذه البحر، حتى استيقنوا بهلاكه"[١١].

الثاني : بدرعك، وكان له درع من حديد يعرف بها ، قاله أبو صخر[١٢].

والثالث: أنه "شيء كان فرعون يلبسه يقال له: «البدن»". رواه المفضل بن أبي موسى ابن سالم عن أبيه[١٣].

عن قيس بن عباد وغيره قال: "قالت بنو إسرائيل لموسى: إنه لم يمت فرعون! قال: فأخرجه الله إليهم ينظرون إليه مثل الثور الأحمر"[١٤].

---

(١) التفسير الميسر:٢١٩.

(٢) مجاز القرآن:٢٨١/١.

(٣)ديوانه، قصيدة: ٤، بيت: ١٥، يصف السحاب والمطر بالشدة، يغشي كل مكان وكل أحد. " عقوة الدار "، ساحتها وما حولها. و" المستكن "، الذي اختبأ في كن. و "القرواح "، البارز الذي ليس يستره من السماء والشمس شيء.

(٢) في المخطوطة: " اللهث "، والذي في المطبوعة هو الصواب إلا أن ضبطه بكسر اللام وسكون الهاء. و " اللهب " المهواة بين الجبلين، وهو الصدع الذي صدع في البحر، وانظر قوله تعالى: {فكان كل فرق كالطود العظيم}.

(٤) تفسير الطبري:١٩٤/١٥.

(٥) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٧٣):ص١٩٦/١٥.

(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٧٠):ص١٩٨٤/٦.

(٧) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٧١)-(١٧٨٧٣):ص١٩٦/١٥.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٧٥):ص١٩٦/١٥.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٧٠):ص١٩٦/١٥.

(١٠) انظر: غريب القرآن:١٩٩.

(١١) أخرجه الطبري(١٧٨٧٣):ص١٩٦/١٥.

(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٧١):ص١٩٨٤/٦.

(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٧٢):ص١٩٨٤/٦.

(١٤) أخرجه الطبري(١٧٨٦٨):ص١٩٥/١٥.

وقرأ يزيد اليزيدي: «نُنَجّيكَ» بالحاء غير معجمة وحكاها علقمة عن ابن مسعود[١].

قال مقاتل:" وذلك أنه لما غرق القوم قالت بنو إسرائيل: إنهم لم يغرقوا فأوحى الله إلى البحر فطفا بهم على وجهه فنظروا إلى فرعون على الماء فمنذ يومئذ إلى يوم القيامة تطفوا الغرقى على الماء"[٢].

قال ابن عباس:" إن فرعون لم يغرق وكان نجاه عبرة لم يكن نجاه عافية ثم أوحى إلى البحر أن الفظ ما فيك فلفظهم على الراجل حتى رآهم من قال: إن فرعون لم يغرق وأصحابه وكان البحر لا يلفظ غريقا يبقى في بطنه حتى يأكله السمك فليس يقبل البحر غريقا إلى يوم القيامة"[٣].

قوله تعالى:{لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [يونس : ٩٢]، أي:" لتكون لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك"[٤].

قال السدي:" لبني إسرائيل آية"[٥].

وقال مقاتل:" يعني: لمن بعدك إلى يوم القيامة آية يعني علما"[٦].

قال أبو عبيدة:" أي: علامة، ومجاز خلفك: بعدك"[٧].

قال الطبري:" يقول: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك،، فينزجرون عن معصية الله، والكفر به والسعي في أرضه بالفساد"[٨].

قال قتادة:" قال: لما أغرق الله فرعون لم تصدِّق طائفة من الناس بذلك، فأخرجه الله آيةً وعظةً"[٩].

قوله تعالى:{وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس : ٩٢]، أي:" وإن كثيرًا من الناس عن حججنا وأدلتنا لَغافلون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون"[١٠].

قال الطبري:" يعني: عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة والألوهة لنا خالصةٌ لساهون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها"[١١].

عن سعيد بن جبير، قوله: "{آياتنا}، يعني: القرآن"[١٢].

الفوائد:

١- تقرير حقيقة وهي أن أكثر الناس في هذه الحياة غافلون عما يراد بهم ولهم ولم ينتبهوا حتى يهلكوا.

٢-

القرآن

{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)} [يونس : ٩٣]

التفسير:

---

[١] انظر: النكت والعيون:٤٤٩/٢.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٨/٢.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٧٣):ص١٩٨٤/٦.

[٤] التفسير الميسر:٢١٩.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٧٥):ص١٩٨٤/٦.

[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٨/٢.

[٧] مجاز القرآن:٢٨١/١.

[٨] تفسير الطبري:١٩٤/١٥.

[٩] أخرجه الطبري(١٧٨٧٦):ص١٩٦/١٥.

[١٠] التفسير الميسر:٢١٩.

[١١] تفسير الطبري:١٩٨/١٥.

[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٧٧):ص١٩٨٥/٦.

ولقد أنزلنا بني إسرائيل منزلا صالحًا مختارًا في بلاد «الشام» و «مصر» ، ورزقناهم الرزق الحلال الطيب من خيرات الأرض المباركة، فما اختلفوا في أمر دينهم إلا مِن بعد ما جاءهم العلم الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ومن ذلك ما اشتملت عليه التوراة من الإخبار بنبوة محمد ﷺ. إن ربك -أيها الرسول- يقضي بينهم يوم القيامة، ويَفْصِل فيما كانوا يختلفون فيه من أمرك، فيدخل المكذبين النار والمؤمنين الجنة.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [يونس : ٩٣]، أي:" ولقد أنزلنا بني إسرائيل منزلا صالحًا مختارًا في بلاد «الشام» و «مصر»"[١].

وفي قوله تعالى:{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [يونس : ٩٣]، قولان:

أحدهما : أنه الشام وبيت المقدس ، قاله قتادة[٢].

الثاني : أنه مصر والشام : قاله الضحاك[٣].

وروي عن ابن زيد:" {ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق}، الشام. وقرأ: {إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء: ٧١]"[٤].

وفي قوله :{ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [يونس : ٩٣]،، ثلاثة وجوه[٥] :

أحدها : أنه كالصدق في الفضل .

والثاني : أنه تصدق به عليهم .

والثالث: أنه وعدهم إياه فكان وَعْدُه وعْد صدق. أفاده الماوردي[٦].

قوله تعالى:{وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [يونس : ٩٣]، أي:" ورزقناهم الرزق الحلال الطيب من خيرات الأرض المباركة"[٧].

قال الطبري:" يقول: ورزقنا بني إسرائيل من حلال الرزق وهو «الطيب»"[٨].

قال مقاتل بن حيان "الطيبات: ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق"[٩].

قوله تعالى:{فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} [يونس : ٩٣]، أي:" فما اختلفوا في أمر دينهم إلا مِن بعد ما جاءهم العلم الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ومن ذلك ما اشتملت عليه التوراة من الإخبار بنبوة محمد ﷺ"[١٠].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين. وذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد النبيّ ﷺ مجمعين على نبوّة محمدٍ والإقرار به وبمبعثه، غير مختلفين فيه بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبًا عندهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم وآمن به بعضهم، والمؤمنون به منهم كانوا عددًا قليلا. فذلك قوله: فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه نبيًّا لله، فوضع «العلم» مكان «المعلوم»"[١١].

وفي قوله تعالى:{حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} [يونس : ٩٣]، قولان:

---

[١] التفسير الميسر:٢١٩.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٨٣):ص١٩٩/١٥.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٨٨٢):ص١٩٨/١٥.
[٤] اخرجه الطبري(١٧٨٨٤):ص١٩٩/١٥.
[٥] انظر: النكت والعيون:٤٤٩/٢.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤٥٠/٢.
[٧] التفسير الميسر:٢١٩.
[٨] تفسير الطبري:١٩٩/١٥.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٨١):ص١٩٨٥/٦.
[١٠] التفسير الميسر:٢١٩.
[١١] تفسير الطبري:١٩٩/١٥.

أحدهما : حتى جاءهم محمد -ﷺ- الذي كانوا يعلمون أنه نبي ، وتقديره حتى جاءهم المعلوم ، قاله ابن بحر(١)، وابن جرير الطبري(٢).
والثاني : حتى جاءهم القرآن ، قاله ابن زيد(٣).
قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس : ٩٣]، أي:" إن ربك -أيها الرسول- يقضي بينهم يوم القيامة، ويَفْصِل فيما كانوا يختلفون فيه من أمرك، فيدخل المكذبين النار والمؤمنين الجنة"(٤).
الفوائد:

١- بيان إكرام الله تعالى لبني إسرائيل.
٢- الرزق الطيب هو ما كان حلالا لا ما كان حراما.
٣- إذا أراد الله هلاك أمة اختلف بسبب العلم الذي هو في الأصل سبب الوحدة الوئام.
٤- حرمة الاختلاف في الدين إذ كان يؤدي إلى الانقسام والتعادي والتحارب.
٥- يوم القيامة هو يوم الفصل الذي يقضي الله تعالى فيه بين المختلفين بحكمه العادل.

القرآن
{فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤)} [يونس : ٩٤]
التفسير:
فإن كنت -أيها الرسول- في ريب من حقيقة ما أخبرناك به فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك من أهل التوراة والإنجيل، فإن ذلك ثابت في كتبهم، لقد جاءك الحق اليقين من ربك بأنك رسول الله، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك، ويجدون صفتك في كتبهم، ولكنهم ينكرون ذلك مع علمهم به، فلا تكوننَّ من الشاكِّين في صحة ذلك وحقيقته. والمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعًا لمعذرتهم.

قوله تعالى:{فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ} [يونس : ٩٤]، أي:" فإن كنت -أيها الرسول- في ريب من حقيقة ما أخبرناك به"(٥).
قال الصابوني:" هذا على سبيل الفرض والتقدير: أي إن فرض أنك شككت فاسأل"(٦).
قوله تعالى:{فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [يونس : ٩٤]، أي:" فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك من أهل التوراة والإنجيل، فإن ذلك ثابت في كتبهم"(٧).
قال ابن عباس:" لم يشك رسول الله ولم يسأل"(٨).
قال الحسن:" لم يشك ﷺ ولم يسأل"(٩).
قال سعيد بن جبير:" ما شك وما سأل"(١٠).
وفي قوله تعالى:{فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [يونس : ٩٤]، وجهان:
أحدهما : أنه أراد مَنْ منهم مثل عبد الله بن سلام، قاله ابن زيد(١).

(١) انظر: النكت والعيون:٤٥٠/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري:١٩٩/١٥.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٨٥):ص١٩٩/١٥.
(٤) التفسير الميسر:٢١٩.
(٥) التفسير الميسر:٢١٩.
(٦) صفوة التفاسير:٥٥٦/١.
(٧) التفسير الميسر:٢١٩.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٨٣):ص١٩٨٦/٦.
(٩) أخرجه الطبري(١٧٨٩٢):ص٢٠٢/١٥.
(١٠) أخرجه الطبري(١٧٨٩١):ص٢٠٢/١٥.

الثاني : أنه عنى أهل التقوى وأهل الإيمان ممن أدرك النبي ﷺ، قاله الضحاك[٢].
واخرج ابن ابي حاتم بسنده عن أبي زميل سماك الحنفي، ثنا ابن عباس:" وقلت له: إني أجد في نفسي شيئا لا أستطيع أن أتكلم به قال: لعله شك أو شيء مما شك قلت: نعم قال: ما نجى من هذا أحد حتى نزل على النبي ﷺ: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك}، ثم قال: إذا وجدت من ذلك فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن"[٣].
وربما كان تساؤلا عن بدء الخلق، وأين كان الله قبل بدء الخلق، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -:" إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟ فإذا أحس أحدكم بشيء من ذلك فليقل: آمنت بالله عز وجل وبرسله "[٤].

وعن عائشة، أن رسول الله - ﷺ - قال:" إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله، فيقول: فمن خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم، فليقرأ: آمنت بالله ورسله، فإن ذلك يذهب عنه "[٥].

وعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:" يوشك الناس أن يسألوا نبيهم حتى يقول قائلهم: هذا الله خالق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقل: {الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا} [الإخلاص:٢] أحد، ثم ليتفل عن يساره، وليستعذ بالله من الشيطان " [٦].

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله - ﷺ -:"لا يزال الناس يسألون يقولون: ما كذا ما كذا، حتى يقولوا: الله خالق الناس، فمن خلق الله؟ فعند ذلك يضلون"[٧].

فإن قيل : فهل كان النبي -ﷺ- شاكاً ؟ قيل قد روي عن النبي -ﷺ- أنه قال : «لاَ أَشُكُ وَلاَ أَسْأَلُ»[٨].
وفي معنى الكلام ثلاثة وجوه[٩]:
أحدها : أنه خطاب للنبي -ﷺ- والمراد به غيره من أمته ، كما قال تعالى :{يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ} الآية [الطلاق : ١]. اختاره ابن قتيبة[١٠]، والزجاج[١١]، والجصاص[١٢]، وغيرهم.
قال الجصاص:" لم يرد به النبي ﷺ لأنه لم يشك قط"[١٣].
قال الزجاج:" هذه آية قد كثر سؤال الناس عنها وخوضهم فيها جدا، وفي السورة ما

يدل على بيانها وكشف حقيقتها: والمعنى أن الله - جل وعز - خاطب النبي - ﷺ – وذلك الخطاب شامل للخلق فالمعنى: إن كنتم في شك فاسألوا، والدليل على ذلك قوله في آخر السورة:

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٨٥):ص١٩٨٦/٦.
[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٨٤):ص١٩٨٦/٦.
[٣] تفسير ابن ابي حاتم(١٠٥٨٢):ص١٩٨٥/٦.
[٤]الدعاء للطبراني (ص:٣٧٩) (١٢٦٨) والإيمان لابن منده (١/ ٤٧٨) (٣٥٣) صحيح.
[٥]مسند أحمد ط الرسالة (٤٣/ ٢٧١) (٢٦٢٠٣) صحيح.
[٦]السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٩٤) (٦٥٣) صحيح.
[٧]السنة لابن أبي عاصم ٢٨٧ (١/ ٢٩٣) (٦٤٧) صحيح.
[٨] أخرجه الطبري(١٧٨٩٣)، و(١٧٨٩٤):ص٢٠٢/١٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري:٢٠٢/١٥-٢٠٣، و معاني القرآن للزجاج:٣٢/٣-٣٣، والنكت والعيون:٤٥١/٢.
[١٠] انظر: تأويل مشكل القرآن:٥٥.
[١١] انظر: معاني القرآن:٣٢/٣-٣٣.
[١٢] انظر: أحكام القرآن:٣٥٩/٣.
[١٣] أحكام القرآن:٣٥٩/٣.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} [يونس : ١٠٤]، فأعلم الله - جل وعز - أن نبيه - ﷺ - ليس في شك، وأمره أن يتلو عليهم ذلك، ويروى عن الحسن أنه قال: لم يسأل ولم يشد، فهذا بين جدا، والدليل على أن المخاطبة للنبي مخاطبة للناس قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِن} [الطلاق : ١]، فقال: {طلقتم} ولفظ أول الخطاب للنبي - ﷺ – وحده فهذا أحسن الأقوال"(١).

قال ابن قتيبة:" فإن المخاطبة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمراد غيره من الشّكاك، لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلّها، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره. والجواب عن هذا مستقصى في «باب الكناية والتعريض» فكرهت إعادته في هذا الموضع"(٢).
والثاني : أنه خطاب ورد على عادة العرب في توليد القبول والتنبيه على أسباب الطاعة . كقول الرجل لابنه : إن كنت ابني فبرّني ، ولعبده إن كنت مملوكي فامتثل أمري ، ولا يدل ذلك على شك الولد في أنه ابن أبيه ولا أن العبد شاك في أنه ملك لسيده.

ومن ذلك قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [المائدة: ١١٦] ، وقد علم جل ثناؤه أن عيسى لم يقل ذلك(٣).
والثالث: أن تكون «أن» في معنى «ما»، فيكون المعنى: ما كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرأون، أي لسنا نأمرك لأنك شاك، ولكن لتزداد، كما قال إبراهيم: {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة : ٢٦٠]، فالزيادة في التثبيت ليست مما يبطل صحة القصد. ذكره الزجاج(٤).

وذكر الفخر الرازي وجوها اخرى. ارجع غليه إن شئت(٥).

---

(١) معاني القرآن:٣٢/٣-٣٣.
(٢) تأويل مشكل القرآن:٥٥.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٢٠٣/١٥.
(٤) انظر: معاني القرآن:٣٣/٣.
(٥)قال الإمام فخر الدين الرازي ما نصه:
اختلف المفسرون: في أن المخاطب بهذا الخطاب من هو؟ فقيل النبي عليه الصلاة والسلام.
وقيل غيره، أما من قال بالأول: فاختلفوا على وجوه.
الوجه الأول: أن الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر، والمراد غيره كقوله تعالى: {يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين} [الأحزاب: ١] وكقوله: {لئن أشركت ليحبطن عملك} [الزمر: ٦٥] وكقوله: {ياعيسى ابن مريم أءنت قلت للناس} [المائدة: ١١٦] ومن الأمثلة المشهورة: إياك أعني واسمعي يا جاره.
والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه: الأول: قوله تعالى في آخر السورة {يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى} [يونس: ١٠٤] فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح.
الثاني: أن الرسول لو كان شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية.
والثالث: أن بتقدير أن يكون شاكا في نبوة نفسه، فكيف يزول ذلك الشك بأخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم في الأكثر كفار، وإن حصل فيهم من كان مؤمنا إلا أن قوله ليس بحجة لا سيما وقد تقرر أن ما في أيديهم من التوراة والإنجيل، فالكل مصحف محرف، فثبت أن الحق هو أن الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد هو الأمة، ومثل هذا معتاد، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص، فإنه لا يوجه خطابه عليهم، بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الأمير الذي جعله أميرا عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيرا في قلوبهم.
الوجه الثاني: أنه تعالى علم أن الرسول لم يشك في ذلك، إلا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام، فإنه يصرح ويقول: «يا رب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفيني ما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة»

قال الطبري:"لم يكن ﷺ شاكًّا في حقيقة خبر الله وصحته، والله تعالى ذكره بذلك من أمره كان عالمًا، ولكنه جل ثناؤه خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضًا، إذْ كان القرآن بلسانهم نزل"(١).

فإن قيل: إن كثيرا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته، والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

ونظيره قوله تعالى للملائكة: {أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون} [سبأ: ٤٠] والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا: {سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن} [سبأ: ٤١] وكما قال لعيسى عليه السلام: {أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} [المائدة: ١١٦] والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذا ههنا.

الوجه الثالث: هو أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان من البشر، وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة في قلبه من الجائزات، وتلك الخواطر لا تندفع إلا بإيراد الدلائل وتقرير البينات، فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس، ونظيره قوله تعالى: {فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك} [هود: ١٢] وأقول تمام التقرير في هذا الباب إن قوله: {فإن كنت في شك} فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا إشعار فيها ألبتة بأن الشرط وقع أو لم يقع.

ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع، بل ليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط، والدليل عليه أنك إذا قلت إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين، فهو كلام حق، لأن معناه أن كون الخمسة زوجا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين، ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا ههنا هذه الآية، تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا، فأما إن هذا الشك وقع أو لم يقع، فليس في الآية دلالة عليه، والفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر، ولهذا السبب أكثر الله في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة.

والوجه الرابع: في تقرير هذا المعنى أن تقول: المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الإيمان، وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى، بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات، وذلك الاستحياء صار مانعا لهم عن قبول الإيمان فقال تعالى: {فإن كنت في شك} من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل، يعني أولى الناس بأن لا يشك في نبوته هو نفسه، ثم مع هذا إن طلب هو من نفسه دليلا على نبوة نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فإنه ليس فيه عيب ولا يحصل بسببه نقصان، فإذا لم يستقبح منه ذلك في حق نفسه فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى، فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الحياء عنهم في تكثير المناظرات.

الوجه الخامس: أن يكون التقدير أنك لست شاكا ألبتة ولو كنت شاكا لكان لك طرق كثيرة في إزالة ذلك الشك كقوله تعالى: {لو كان فيهما الهة إلا الله لفسدتا} [الأنبياء: ٢٢] والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعا، لزم منه المحال الفلاني فكذا ههنا.

ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع إلى التوراة والإنجيل لتعرف بهما أن هذا الشك زائل وهذه الشبهة باطلة.

الوجه السادس: قال الزجاج: إن الله خاطب الرسول في قوله: {فإن كنت في شك} وهو شامل للخلق وهو كقوله: {يأيها النبى إذا طلقتم النساء} [الطلاق: ١] قال: وهذا أحسن الأقاويل، قال القاضي: هذا بعيد لأنه متى كان الرسول داخلا تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال، سواء أريد معه غيره أو لم يرد وإن جاز أن يراد هو مع غيره، فما الذي يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر، ثم قال: ومثل هذا التأويل يدل على قلة التحصيل.

الوجه السابع: هو أن لفظ {إن} في قوله: {إن كنت فى شك} للنفي أي ما كنت في شك قبل يعني لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك لكن لتزداد يقينا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى يقينا.

وأما الوجه الثاني: وهو أن يقال هذا الخطاب ليس مع الرسول فتقريره أن الناس في زمانه كانوا فرقا ثلاثة، المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون في أمره الشاكون فيه، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وإنما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع، كما في قوله: {يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك} [الانفطار: ٦، ٧] و {يا أيها الإنسان إنك كادح} [الانشقاق: ٦] وقوله: {فإذا مس الإنسان ضر} [الزمر: ٤٩] ولم يرد في جميع هذه الآيات إنسانا بعينه، بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: {ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين}. اهـ [مفاتيح الغيب ١٧ / ١٢٨ – ١٣٠].

(١) تفسير الطبري:٢٠٣/١٥.

فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

أحدها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم.

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ "عبد الله بن سلام" [وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه، ومن بعده و"كعب الأحبار" وغيرهما.

والثاني: ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه.

فإذا كان موجودا في التوراة، ما يوافق القرآن ويصدقه، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

والثالث: ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيرا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

والرابع: أنه ليس أكثر أهل الكتاب، رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعا واختيارا، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب.

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسما لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي، ترويجا لملكهم، وتمويها لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة[١].

قوله تعالى:{لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [يونس : ٩٤]، أي:" لقد جاءك الحق اليقين من ربك بأنك رسول الله"[٢].

قال أبو الليث:" يعني: القرآن"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بأنك لله رسولٌ، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحّة ذلك، ويجدون نعتك عندهم في كتبهم"[٤].

قوله تعالى:{فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس : ٩٤]، أي:" فلا تكوننَّ من الشاكِّين في صحة ذلك وحقيقته"[٥].

قال أبو العالية:" يقول: فلا تكونن في شك من ذلك"[٦].

قال أبو الليث:" يعني: من الشاكين"[١].

---

(١) انظر: تفسير السعدي:٣٧٣.

(٢) التفسير الميسر:٢١٩.

(٣) بحر العلوم:١٣٢/٢.

(٤) تفسير الطبري:٢٠٣/١٥.

(٥) التفسير الميسر:٢١٩.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٥٨٦):ص١٩٨٦/٦.

قال الطبري:" يقول: فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته، ولو قال قائل: إن هذه الآية خوطب بها النبي ﷺ، والمراد بها بعضُ من لم يكن صحَّت، بصيرته بنبوته ﷺ، ممن كان قد أظهر الإيمان بلسانه، تنبيها له على موضع تعرف حقيقة أمره الذي يزيل اللبس عن قلبه، كما قال جل ثناؤه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [سورة الأحزاب: ١] ، كان قولا غيرَ مدفوعةٍ صحته"[٢].

الفوائد:

١- تقرير نبوة الرسول ﷺ.
٢- سؤال من لا يعلم من يعلم.
٣- أن عرضت له شبهة وجب عليه أن يبادر إلى إزالتها بالنظر بنفسه، أو بسؤال غيره من أهل العلم.

القرآن

{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥)} [يونس : ٩٥]

التفسير:

ولا تكونن -أيها الرسول- من الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته فتكون من الخاسرين الذين سخِطَ الله عليهم ونالوا عقابه.

قوله تعالى:{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} [يونس : ٩٥]، أي:" ولا تكونن -أيها الرسول- من الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته"[٣].

قال مقاتل:" ثم حذر النبي- ﷺ- وأوعز إليه حين قالوا: إنما يلقنه الري على لسانه، فقال: ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله يعنى: القرآن كما كذب به كفار مكة"[٤].

قال أبو الليث:{ بِآيَاتِ اللَّهِ}" يعني: بالكتاب وبالرسل"[٥].

وعن السدي، قوله: "{بآيات الله}، أما بآيات محمد ﷺ"[٦].

قوله تعالى:{فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [يونس : ٩٥]، أي:" فتكون من الخاسرين الذين سخِطَ الله عليهم ونالوا عقابه"[٧].

قال أبو الليث:" يعني: من المغبونين"[٨].

الفوائد:

١- التكذيب بآيات الله كفر وصاحبه من الخاسرين.
٢- أن الكفر والتكذيب بآيات الله سبب في تحقق الله في الإضلال، فأن من أعطاه الهدى اهتدى ومن أضله فلا يهتدي فصح يقينا أن بوقوع الهدى له من الله تعالى وهو التوفيق يفعل العبد ما يكون به مهتديا وأن بوقوع الأضلال من الله تعالى وهو الخذلان وخلق ضلال العبد يفعل المرء ما يكون به ضالا.

القرآن

---

[١] بحر العلوم:١٣٢/٢.
[٢] تفسير الطبري:٢٠٣/١٥.
[٣] التفسير الميسر:٢١٩.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٤٩/٢.
[٥] بحر العلوم:١٣٢/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٨٧):ص١٩٨٦/٦.
[٧] التفسير الميسر:٢١٩.
[٨] بحر العلوم:١٣٢/٢.

{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)} [يونس : ٩٦]

التفسير:

إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك -أيها الرسول- بطردهم من رحمته وعذابه لهم، لا يؤمنون بحجج الله، ولا يقرُّون بوحدانيته، ولا يعملون بشرعه.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [يونس : ٩٦]، أي:" إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك -أيها الرسول- بطردهم من رحمته وعذابه لهم"[١].

قال أبو الليث: يعني "بالسخط، وقدر عليهم الكفر"[٢].

قال البيضاوي:أي:" ثبتت عليهم. كلمت ربك بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب"[٣].

قال ابن عباس:"{حقت عليهم كلمت ربك}، يقول: سبقت كلمة ربك"[٤].

قرأ نافع، وابن عامر: «كلمات ربك»، وقرأ الباقون: «كلمت ربك»[٥].

قوله تعالى:{لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس : ٩٦]، أي:" لا يؤمنون بحجج الله، ولا يقرُّون بوحدانيته، ولا يعملون بشرعه"[٦].

قال أبو الليث:" يعني: لا يصدقون بالقرآن أنه من الله تعالى"[٧].

قال البيضاوي:" إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه"[٨].

قال قتادة:" حق عليهم سخط الله بما عصوه"[٩].

الفوائد:

١- تقرير عقيدة القضاء والقدر، وإن الشقي من شقي في كتاب المقادير والسعيد من سعد فيه.
٢- أن أن الكفر سبب في تحقق الله في الإضلال.

القرآن

{وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)} [يونس : ٩٧]

التفسير:

ولو جاءتهم كل موعظة وعبرة حتى يعاينوا العذاب الموجع، فحينئذ يؤمنون، ولا ينفعهم إيمانهم.

قوله تعالى:{وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} [يونس : ٩٧]، أي:" لا يصدقون ولا يؤمنون أبداً ولو جاءتهم كل موعظة وعبرة"[١٠].

قال أبو الليث:" يعني: علامة"[١١].

قال البيضاوي:" فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود"[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٩.
[٢] بحر العلوم:١٣٢/٢.
[٣] تفسير البيضاوي:١٢٤/٣.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٨٨):ص١٩٨٦/٦.
[٥] انظر: بحر العلوم:١٣٢/٢.
[٦] التفسير الميسر:٢١٩.
[٧] بحر العلوم:١٣٢/٢.
[٨] تفسير البيضاوي:١٢٤/٣.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٨٩):ص١٩٨٦/٦.
[١٠] انظر: التفسير الميسر:٢١٩، وصفوة التفاسير:٥٥٦/١.
[١١] بحر العلوم:١٣٢/٢.
[١٢] تفسير البيضاوي:١٢٤/٣.

قوله تعالى:{حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس : ٩٧]، أي:" حتى يعاينوا العذاب الموجع، فحينئذ يؤمنون، ولا ينفعهم إيمانهم"[١].

قال القرطبي:" فحينئذ يؤمنون ولا ينفعهم"[٢].

قال البيضاوي:" وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون"[٣].

قال أبو الليث:" يعني: الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة"[٤].

قال المراغي:" وليس المراد أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة واستقلال العقل فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل، والهدى والضلال لرسوخهم فى الكفر، واطمئنانهم به بالتقليد"[٥].

الفوائد:

١- عدم قبول توبة من عاين العذاب في الدنيا بأن رأى ملك الموت وفي الآخرة بعد أن يبعث ويشاهد أهوال القيامة.
٢- في الآية الرد على القدرية الذين قالوا: من اراد أن يؤمن آمن لأن الحول والقوة والاختيار بيده.

القرآن

{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)} [يونس : ٩٨]

التفسير:

لم ينفع الإيمان أهل قرية آمنوا عند معاينة العذاب إلا أهل قرية يونس بن مَتَّى، فإنهم لمَّا أيقنوا أن العذاب نازل بهم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحا، فلمَّا تبيَّن منهم الصدق في توبتهم كشف الله عنهم عذاب الخزي بعد أن اقترب منهم، وتركهم في الدنيا يستمتعون إلى وقت إنهاء آجالهم.

قوله تعالى:{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ} [يونس : ٩٨]، أي:" فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها، تابتْ عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت غير قوم يونس"[٦].

عن عطاء:" {فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها}، إذا نزل بها بأس الله ولم نفعل ذلك بقرية إلا قرية يونس"[٧].

عن أبي العالية:{ {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا}" يقول: فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها"[٨].

عن مجاهد، قوله: "{فلولا كانت قرية آمنت}، قال: فلم تكن قرية آمنت"[٩].

عن ابن كثير: "{فلولا كانت قرية آمنت}، أي: فلم تكن قرية آمنت إلا قوم يونس ويوسف"[١٠].

---

[١] التفسير الميسر:٢١٩.
[٢] تفسير القرطبي:٣٨٣/٨.
[٣] تفسير البيضاوي:١٢٤/٣.
[٤] بحر العلوم:١٣٢/٢.
[٥] تفسير المراغي:١٠٢/١١.
[٦] صفوة التفاسير:٥٥٦/١-٥٥٧.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٠٠):ص١٩٨٨/٦.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩٠):ص١٩٨٧/٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩١):ص١٩٨٧/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩٢):ص١٩٨٧/٦.

قال السدي :" كان يونس بن متى عليه السلام من أنبياء الله عز وجل بعثه الله إلى قرية يقال لها نينوى على شاطئ دجلة"[١].

قال محمد بن إسحاق:" وكان من حديث يونس بن متى فيها بلغني أن الله تبارك وتعالى بعثه إلى أهل قرية أهل نينوى، وهي من بلاد الموصل"[٢].

قوله تعالى:{لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس : ٩٨]، أي:" لمَّا أيقنوا أن العذاب نازل بهم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحا، فلمَّا تبيَّن منهم الصدق في توبتهم كشف الله عنهم عذاب الخزي بعد أن اقترب منهم"[٣].

قال سعيد بن جبير:" غشى قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب بالقبر"[٤].

عن معروف الموصلي:" أن سحابة غشيتهم تنضح عليهم شرر النار"[٥].

قال قتادة:" كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل"[٦].

قال ابن عباس:" بعثه الله إلى أهل قرية فردوا عليه ما جاءهم به فامتنعوا منه فلما فعلوا ذلك أوصى الله إليه إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا، فاخرج من بين أظهرهم فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم فقالوا: ارمقوه فإن هو خرج من بين أظهركم فهو والله كأين ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وعدوا العذاب في صبيحتها اندلج فرأه القوم فحذروا فخرجوا من القرية إلى براز بين أراضيهم وفرقوا بين كل دابة وولدها ثم عجوا إلى الله وأنابوا واستقالوا فأقاله، وتنظر يونس الخبر عن القرية وأهلها حتى مر به مار فقال: ما فعل أهل القرية قال: فعلوا أن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض ثم فرقوا بين كل ذات والد وولدها ثم عجوا إلى الله وتابوا إليه فقبل منهم وأخر عنهم العذاب"[٧].

وفي قوله تعالى:{لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس : ٩٨]، وجهان[٨]:

أحدهما : أنهم تابوا قبل أن يروا العذاب فلذلك قبل توبتهم ، ولو رأوه لم يقبلها كما لم يقبل من فرعون إيمانه لما أدركه الغرق .

الثاني : أنه تعالى خصهم بقبول التوبة بعد رؤية العذاب ، قال قتادة : كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل.

قال قتادة:" لم تكن قرية آمنت من الأمم قبل قوم يونس كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس فاستثنى الله قوم يونس"[٩].

عبد الله بن مسعود :"أن يونس النبي ﷺ وعد قومه العذاب وأخبر أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام ففرقوا بين كل والدة وولدها ثم خرجوا وصاروا إلى الله واستغفروا فكشف الله عنهم العذاب"[١٠].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩٣):ص١٩٨٧/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩٤):ص١٩٨٧/٦.
[٣] التفسير الميسر:٢٢٠.
[٤]أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٦٠٣):ص١٩٨٩/٦ .
[٥]أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٦٠٤):ص١٩٨٩/٦ .
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٠٥):ص١٩٨٩/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٠١):ص١٩٨٨/٦-١٩٨٩.
[٨] انظر: النكت والعيون:٤٥١/٢-٤٥٢.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩٨):ص١٩٨٨/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩٧):ص١٩٨٨/٦.

قال ابن ابي حاتم:" وذكر لنا أن قوم يونس كانوا ببعض أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم، فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشي من كل بهيمة وولدها فعجوا إلى الله أربعين صباحا فلما عرف الله عز وجل منهم الصدق بقلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم، لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل"[١].

عن أبي الجلد قال: "إن العذاب لما هبط على قوم يونس جعل يحور على رءوسهم مثل قطع الليل المظلم فمشى ذو العقول منهم إلى شيخ من علمائهم فقالوا: إنا قد نزل بنا ما ترى فعلمنا دعاء ندعو الله به عسى أن يرفع عنا عقوبته قال: قولوا يا حي، يا حي ويا حي محي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت فكشف عنهم العذاب"[٢].

قوله تعالى:{وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس : ٩٨]، أي:" وتركهم في الدنيا يستمتعون إلى وقت إنهاء آجالهم"[٣].

قال عكرمة:" الحين: الذي لا يدرك"[٤].

قال ابن عباس:" «الحين» حينان: فحين يعرف، وحين لا يعرف، فأما الذي لا يعرف: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}[٥]"[٦].

وفي قوله تعالى:{وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس : ٩٨]، وجهان:

أحدهما : إلى أجلهم ، قاله السدي[٧].

الثاني : إلى أن يصيرهم إلى الجنة أو النار ، قاله ابن عباس[٨].

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : "إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء يرد القدر وذلك في كتاب الله: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ}، الآية"[٩].

وروي عن علي-أيضا- قال: "تيب على قوم يونس يوم عاشوراء"[١٠].

الفوائد:

١- من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده دعوته إياهم إلى الإيمان به وحضهم عليه.
٢- قبول التوبة قبل معاينة العذاب، ورؤية العلامات لا تمنع من التربة، إذ لا بد من أن تكون التوبة قبل معاينة العذاب وقبل نزول العذاب، فإذا عاين العذاب ونزل العذاب فلا ينفع الإيمان ولا تنفع التوبة، ولم يستثن الله إلا أمة واحدة هي قوم يونس، فهؤلاء نفعهم أيمانهم عند رؤية العذاب.
٣- أن الحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين فى الدنيا قبل الآخرة، وتتمثل هذه الحياة فى ولاية الله للمؤمن، وهدايته له، ونصره على أعدائه، وحفظه مما يبيت له، وأخذه بيده كلما عثر أو زلت به قدم؛ فضلا عما يفيضه عليه من متاع مادى، يكون عونا له على قطع مرحلة الحياة فى يسر.

القرآن

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)} [يونس : ٩٩]

---

[١] تفسير ابن ابي حاتم:١٩٨٨/٦.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٦٠٢):ص١٩٨٩/٦.
[٣] التفسير الميسر:٢٢٠.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٠٨):ص١٩٩٠/٦.
[٥][ص : ٨٨].
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٠٩):ص١٩٩٠/٦.
[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦١٠):ص١٩٩٠/٦.
[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦٠٧):ص١٩٨٩/٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩٥):ص١٩٨٧/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٩٦):ص١٩٨٨/٦.

التفسير:
ولو شاء ربك -أيها الرسول- الإيمان لأهل الأرض كلهم لآمنوا جميعًا بما جئتهم به، ولكن له حكمة في ذلك؛ فإنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء وَفْق حكمته، وليس في استطاعتك أن تُكْره الناس على الإيمان.

قوله تعالى:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يونس : ٩٩]، أي:" لو أراد الله لآمن الناس جميعاً، ولكنْ لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار، لا إيمان الإكراه والاضطرار"[١].

قال البيضاوي:" بحيث لا يشذ منهم أحد. جميعا مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، وهو دليل على القدرية في أنه تعالى لم يشأ إيمانهم أجمعين، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة، والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر"[٢].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ } - يا محمد - لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به ، فآمنوا كلّهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود : ١١٨ ، ١١٩] ، وقال تعالى : { أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا } [الرعد : ٣١]"[٣].

قوله تعالى:{أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس : ٩٩]، أي:" أفأنت يا محمد تُكره الناس على الإيمان، وتضطرهم إلى الدخول في دينك؟ ليس ذلك إليك"[٤].

قال السعدي:" أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك"[٥].

قال البيضاوي:" {أفأنت تكره الناس} بما لم يشأ الله منهم. حتى يكونوا مؤمنين وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلا عن الحث والتحريض عليه إذ روي أنه كان حريصا على إيمان قومه شديد الاهتمام به فنزلت"[٦].

قال ابن كثير:" أي : تلزمهم وتلجئهم { حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } أي : ليس ذلك عليك ولا إليك ، بل [إلى] (٤) الله { يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر : ٨] ، { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [البقرة : ٢٧٢] ، { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : ٣] ، { إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } [القصص : ٥٦] ، { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [الرعد : ٤٠] ، { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ } [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد ، الهادي من يشاء ، المضل لمن يشاء ، لعلمه وحكمته وعدله"[٧].

قال الصابوني:" والآية تسليةٌ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترويحٌ لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن عباس: كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصاً على إيمان جميع

---

[١] صفوة التفاسير:٥٥٧/١.
[٢] تفسير البيضاوي:١٢٤/٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٢٩٨/٤.
[٤] صفوة التفاسير:٥٥٧/١.
[٥] تفسير السعدي:٣٧٤.
[٦] تفسير البيضاوي:١٢٤/٣.
[٧] تفسير ابن كثير:٢٩٨/٤.

الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكّر الأول، ولا يضلُّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول"[1].

عن سعيد بن جبير:" {مؤمنين}، يقول: مصدقين"[2].

الفوائد:

١- إرادة الله الكونية التي يكون بها الأشياء لا تتخلف أبدا، وإرادته الشرعية التكليفية جائزة التخلف.

٢- أن الله تعالى يعلم ما في نفس كل عبد، فإذا علم منه صدق الطلب للهداية، والإنصاف في سماع الحق وتمييزه؛ وحرصه على ذلك؛ فإنه تعالى يهديه كما في قوله تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيْهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ} [الأنفال:٢٣]، وهذه الهداية هي فضل ورحمة جعلها الله تعالى على نفسه.

وأما المعرض عن سماع وتدبر الآيات؛ المستكبر عن الحق؛ فإن الله تعالى يطمس على قلبه فلا يشرح صدره للإسلام، كما في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِيْنَ لَا يَعْقِلُوْنَ}]يونس:١٠٠]، وكما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوْسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُوْنَنِي وَقَدْ تَعْلَمُوْنَ أَنِّي رَسُوْلُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوْبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِيْنَ} [الصَّف:٥].

فلا يجد المعرض ما يجد المؤمن من حلاوة الطاعات، ومحبة العبادة، والتعلق بالله تعالى، والفرح بذكر الله، والاطمئنان إلى السنة النبوية، والانشراح إليها.

وتأمل قوله تعالى : {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ} [الأنعام:١٢٥].

القرآن

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)} [يونس : ١٠٠]

التفسير:

وما كان لنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه وتوفيقه، فلا تُجهد نفسك في ذلك، فإن أمرهم إلى الله. ويجعل الله العذاب والخزي على الذين لا يعقلون أمره ونهيه.

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [يونس : ١٠٠]، أي:" وما كان لنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه وتوفيقه، فلا تُجهد نفسك في ذلك، فإن أمرهم إلى الله"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه: وما كان لنفس خلقتُها من سبيل إلى تصديقك، يا محمد، إلا بأن آذن لها في ذلك، فلا تجهدنّ نفسك في طلب هداها، وبلِّغها وعيدَ الله، وعرّفها ما أمرك ربك بتعريفها، ثم خلِّها، فإن هداها بيد خالقها"[4].

وفي قوله تعالى:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [يونس : ١٠٠]، وجوه:

أحدها : معناه إلا بأمر الله تعالى ، قاله الحسن[5].

الثاني : إلا بقضاء الله. قاله سفيان[6].

---

[1] صفوة التفاسير:٥٥٧/١.

[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦١١):ص١٩٩٠/٦.

[3] التفسير الميسر:٢٢٠.

[4] تفسير الطبري:٢١٣/١٥.

[5] انظر: النكت والعيون:٤٥٢/٢.

[6] انظر: تفسير الطبري(١٧٩١٠):ص٢١٤/١٥.

والثالث: إلا بمعونة الله[1].
والرابع : إلا بإعلام الله سبل الهدى والضلالات[2].
قوله تعالى:{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [يونس : ١٠٠]، أي:" ويجعل الله العذاب والخزي على الذين لا يعقلون أمره ونهيه"[3].
قال ابن كثير:" وهو الخبال والضلال { عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ } ،أي : حججَ الله وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك ، في هداية من هدى ، وإضلال من ضل "[4].

وفي قوله تعالى:{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [يونس : ١٠٠]، خمسة أوجه من التفسير:
أحدها : أن الرجس السخط ، قاله ابن عباس[5].

الثاني : أنه العذاب والغضب، قاله الفراء[6].
الثالث : أنه الإثم ، قاله سعيد بن جبير[7].
الرابع : أنه ما لا خير فيه ، قاله مجاهد[8].
الخامس : أنه الشيطان ، قاله قتادة[9].
وعن ابن زيد:" { رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}[10]، قال: الرجس: الشر من عمل الشيطان"[11].

الفوائد:

١- لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه فلذا لا ينبغي للداعي أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم ولم يؤمنوا لأن الله تعالى كتب عذابهم أزلا وقضى به.
٢-

القرآن
{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)} [يونس : ١٠١]
التفسير:
قل -أيها الرسول- لقومك: تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من آيات الله البينات، ولكن الآيات والعبر والرسل المنذرة عباد الله عقابه، لا تنفع قومًا لا يؤمنون بشيء من ذلك؛ لإعراضهم وعنادهم.

قوله تعالى:{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس : ١٠١]، أي:" قل -أيها الرسول- لقومك: تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من آيات الله البينات"[12].

---

[1] انظر: النكت والعيون:٤٥٢/٢.
[2] انظر: النكت والعيون:٤٥٢/٢.
[3] التفسير الميسر:٢٢٠.
[4] تفسير ابن كثير:٢٩٨/٤.
[5] انظر: تفسير الطبري(١٧٩١١):ص٢١٤/١٥، وتفسير ابن ابي حاتم(١٠٦١٢):ص١٩٩٠/٦.
[6] انظر: معاني القرآن:٤٨٠/١.
[7] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦١٣):ص١٩٩٠/٦.
[8] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦١٣):ص١٩٩٠/٦. هكذا مرقوم بالمطبوع!
[9] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦١٤):ص١٩٩٠/٦.
[10] [المائدة : ٩٠].
[11] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦١٥):ص١٩٩١/٦.
[12] التفسير الميسر:٢٢٠.

قال القرطبي:" أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال "[١].

قال ابن كثير:" يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب ، مما في السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، واختلافهما ، وإيلاج أحدهما في الآخر ، حتى يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يقصر هذا ويطول هذا ، وارتفاع السماء واتساعها ، وحسنها وزينتها ، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير ، وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج ، وهو مع هذا [مسخر] مذلل للسالكين ، يحمل سفنهم ، ويجري بها برفق بتسخير القدير له ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه"[٢].

قوله تعالى:{وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس : ١٠١]، أي:" ولكن الآيات والعبر والرسل المنذرة عباد الله عقابه، لا تنفع قومًا لا يؤمنون بشيء من ذلك؛ لإعراضهم وعنادهم"[٣].

قال القرطبي:" {وما تغني}، «ما» نفي، أي ولن تغني. وقيل: استفهامية، التقدير أي شي تغني. {الآيات}، أي: الدلالات. {والنذر}، أي: الرسل، جمع نذير، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. (عن قوم لا يؤمنون) أي عمن سبق له في علم الله أنه لا يؤمن"[٤].

قال ابن كثير:" وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية ، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها ، عن قوم لا يؤمنون ، كما قال : { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الألِيمَ } [يونس : ٩٦ ، ٦٩]"[٥].

عن مجاهد، قوله: "{لا يؤمنون}، قال: أوجب عليهم أنهم لا يؤمنون"[٦].

الفوائد:

١- ذم الله للتقليد وأهله وقد أمر بالنظر الصحيح وحض على فعله، وكفى شرفا بهذا الدين ودليلا على صحته عند العقلاء العاقلين أنه حرم التقليد الذي يجر إلى الإلباس والتجهيل والتفنيد واستنهض العقول للنظر وأوضح لها مسالك العبر وأوجب عليها النظر الصحيح المفضى إلى العلم.
٢- أن أسباب زيادة الإيمان أربعة[٧]:
- الأول: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ فإنه كما ازداد الإنسان معرفة بالله وأسمائه وصفاته؛ ازداد إيمانه.
- الثاني: النظر في آيات الله الكونية والشرعية: قال الله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)} [الغاشية: ١٧ - ٢٠]. وقال تعالى: {قُلِ

---

[١] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٩٩/٤.
[٣] التفسير الميسر:٢٢٠.
[٤] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[٥] تفسير ابن كثير:٢٩٩/٤.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦١٦):ص١٩٩١/٦.
[٧] انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين:٢٣٤/٢-٢٣٥.

انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١].

وكلما ازداد الإنسان علمًا بما أودع الله تعالى في الكون من عجائب المخلوقات ومن الحكم البالغات؛ ازداد إيمانًا بالله عز وجل، وكذلك النظر في آيات الله الشرعية يزيد الإنسان إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنك إذا نظرت إلى الآيات الشرعية، وهي الأحكام التي جاءت بها الرسل؛ وجدت فيها ما يبهر العقول من الحكم البالغة والأسرار العظيمة التي تعرف بها أن هذه الشريعة نزلت من عند الله، وأنها مبنية على العدل والرحمة، فتزداد بذلك إيمانًا.

- الثالث: كثرة الطاعات وإحسانها، لأن الأعمال داخلة في الإيمان، وإذا كانت داخلة فيه؛ لزم من ذلك أن يزيد بكثرتها.

-السبب الرابع: ترك المعصية تقربًا إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن الإنسان يزداد بذلك إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ.

٣- لا تنفع الموعظة مهما بولغ فيها عبدا كتب أزلا أنه من أهل النار.

القرآن

{فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢)} [يونس : ١٠٢]

التفسير:

فهل ينتظر هؤلاء إلا يومًا يعاينون فيه عذاب الله مثل أيام أسلافهم المكذبين الذين مَضَوا قبلهم؟ قل لهم -أيها الرسول-: فانتظروا عقاب الله إني معكم من المنتظرين عقابكم.

قوله تعالى:{فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ} [يونس : ١٠٢]، أي:" فهل ينتظر هؤلاء إلا يومًا يعاينون فيه عذاب الله مثل أيام أسلافهم المكذبين الذين مَضَوا قبلهم؟"[١].

قال ابن كثير:أي:" فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم "[٢].

قال السعدي:" أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله، بعد وضوحها، {إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم} أي: من الهلاك والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم وسنة الله جارية في الأولين والآخرين"[٣].

قال قتادة:" أي: مثل قوم نوح وعاد وثمود"[٤].

قال القرطبي:" الأيام هنا بمعنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم. قال قتادة: يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغير هم. والعرب تسمي العذاب أياما والنعم أياما، كقوله تعالى: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ} [إبراهيم : ٥]. وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام"[٥].

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٠.
[٢] تفسير ابن كثير:٢٩٩/٤.
[٣] تفسير السعدي:٣٧٤.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦١٧):ص١٩٩١/٦.
[٥] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.

قوله تعالى:{قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} [يونس : ١٠٢]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: فانتظروا عقاب الله إني معكم من المنتظرين عقابكم"[١].

قال القرطبي:" أي تربصوا، وهذا تهديد ووعيد. {إني معكم من المنتظرين}، أي: المتربصين لموعد ربي"[٢].

قال الربيع:" خوفهم عذابه وعقوبته ونقمته"[٣].

الفوائد:

١- ما ينتظر الظلمة في كل زمان ومكان إلا ما حل بمن ظلم من قبلهم من الخزي والعذاب.
٢- أن العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسل وأتباعهم.

القرآن

{ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)} [يونس : ١٠٣]

التفسير:

ثم ننجِّي رسلنا والذين آمنوا معهم، وكما نجينا أولئك ننجِّيك -أيها الرسول- ومن آمن بك تفضلا منَّا ورحمة.

قوله تعالى:{ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} [يونس : ١٠٣]، أي:" ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين نُنجّي رسلنا والذين آمنوا معهم"[٤].

قال ابن كثير: "أي : ونهلك المكذبين بالرسل "[٥].

قال القرطبي:" أي: من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذابا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين، و«ثم» معناه ثم اعلموا أنا ننجي رسلنا"[٦].

عن الربيع بن أنس قال: "ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا فقال: {ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين}"[٧].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس : ١٠٣]، أي:" وكما نجينا أولئك ننجِّيك -أيها الرسول- ومن آمن بك تفضلاً منًّا ورحمة"[٨].

قال القرطبي:" أي: واجبا علينا، لأنه أخبر ولا خلف في خبره"[٩].

قال ابن كثير: " حقا : أوجبه تعالى على نفسه الكريمة : كقوله { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الأنعام : ١٢] كما جاء في الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي»[١٠]"[١١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٠.
[٢] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦١٨):ص١٩٩١/٦.
[٤] انظر: التفسير الميسر:٢٢٠، وصفوة التفاسير:٥٥٧/١.
[٥] تفسير ابن كثير:٢٩٩/٤.
[٦] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦١٩):ص١٩٩١/٦.
[٨] التفسير الميسر:٢٢٠.
[٩] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[١٠]صحيح البخاري برقم (٧٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
[١١] تفسير ابن كثير:٢٩٩/٤.

وقرأ يعقوب.«ثم ننجي» مخففا. وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب.«ننجي المؤمنين» مخففا، وشدد الباقون، وهما لغتان فصيحتان: أنجى ينجي إنجاء، ونجى ينجي تنجية بمعنى واحد[1].

الفوائد:

١- بيان فضل الإسلام.
٢- أن جميع الرسل بعثوا بالدعوة لتوحيد الألوهية وإفراد الله بالعبادة وترك عبادة الطواغيت والأصنام.
٣- أن وعد الله تعالى ثابت لأوليائه بإنجائهم من الهلاك عند إهلاكه الظلمة المشركين.

القرآن

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)} [يونس : ١٠٤]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم إليه، وهو الإسلام ومن ثباتي واستقامتي عليه، وترجون تحويلي عنه، فإني لا أعبد في حال من الأحوال أحدًا من الذين تعبدونهم مما اتخذتم من الأصنام والأوثان، ولكن أعبد الله وحده الذي يميتكم ويقبض أرواحكم، وأُمِرْت أن أكون من المصدِّقين به العاملين بشرعه.

قوله تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي} [يونس : ١٠٤]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم إليه، وهو الإسلام ومن ثباتي واستقامتي عليه، وترجون تحويلي عنه"[2].

قال القرطبي:" يريد كفار مكة. {إن كنتم في شك من ديني}، أي: في ريب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه"[3].

قوله تعالى:{فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [يونس : ١٠٤]، أي:" فإني لا أعبد في حال من الأحوال أحدًا من الذين تعبدونهم مما اتخذتم من الأصنام والأوثان"[4].

قال القرطبي:أي:" من الأوثان التي لا تعقل"[5].

عن قتادة، قوله: "{من دون الله}، قال: الوثن"[6].

قوله تعالى:{وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} [يونس : ١٠٤]، أي:" ولكن أعبد الله وحده الذي يميتكم ويقبض أرواحكم"[7].

قال القرطبي:" أي: يميتكم ويقبض أرواحكم"[8].

عن عكرمة قوله: "{يتوفاكم}، قال: يتوفى الأنفس"[9].

---

[1] انظر: تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[2] التفسير الميسر:٢٢٠.
[3] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[4] التفسير الميسر:٢٢٠.
[5] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[6] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٢١):ص١٩٩١/٦.
[7] التفسير الميسر:٢٢٠.
[8] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٢٢):ص١٩٩٢/٦.

قوله تعالى:{وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس : ١٠٤]، أي:" وأُمِرْت أن أكون من المصدِّقين به العاملين بشرعه"[١].

قال القرطبي:" أي: المصدقين بآيات ربهم"[٢].

الفوائد:

١- بيان فضل الإسلام، فمن فوائد فضل الإسلام:

أ- أن هذا الدين هو الذي لا يقبل الله من الناس سواه، قال عز وجل: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} [يونس:١٠٤] فقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي} [يونس:١٠٤] دل على أن هذا الدين هو الذي يقبله الله، وأنه الذي لا شك فيه، ولا يمكن أن يتطرق الشك إلى شيء من هذا الدين.

ب- أن من فضل الإسلام أنه يحقق التوحيد الخالص، قال الله تعالى: {فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [يونس:١٠٤] فهو يحقق التوحيد الخالص، وينفي الشرك، ويحقق العبادة الحقة والتوحيد والدين الذي رضيه الله للعباد، وهذا كله من فضائل هذا الدين.

ورد في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى: ثم قال من يعمل من صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: ما لنا أكثر عملا وأقل أجرا؟ قال: هل نقصتكم من حقكم شيئا؟ قالوا: لا. قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء"[٣].

٢- ومن فوائد الآية: أنه على المؤمن أن لا يترك الحق مهما شك وشكك فيه الناس.

القرآن

{وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)} [يونس : ١٠٥]

التفسير:

وأن أقم -أيها الرسول- نفسك على دين الإسلام مستقيمًا عليه غير مائل عنه إلى يهودية ولا نصرانية ولا عبادة غيره، ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد، فتكون من الهالكين. وهذا وإن كان خطابًا للرسول صلى الله عليه وسلَّم فإنه موجَّه لعموم الأمة.

قوله تعالى:{وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} [يونس : ١٠٥]، أي:" وأن أقم -أيها الرسول- نفسك على دين الإسلام مستقيمًا عليه غير مائل عنه إلى يهودية ولا نصرانية ولا عبادة غيره"[٤].

قال الطبري: أي:" أقم نفسك على دين الإسلام، {حنيفًا}مستقيمًا عليه، غير معوَجّ عنه إلى يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ، ولا عبادة وثن"[٥].

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٠.

[٢] تفسير القرطبي:٣٨٧/٨.

[٣] أخرجه البخاري: الإجارة (٢٢٦٨) ، والترمذي: الأمثال (٢٨٧١) ، وأحمد (٦/٢، ١١١/٢، ١٢١/٢، ١٢٩/٢).

[٤] التفسير الميسر:٢٢٠.

[٥] تفسير الطبري:٢١٧/١٥.

قال القرطبي:" {أن} عطف على {أن أكون}، أي: قيل لي: كن من المؤمنين وأقم وجهك، قال ابن عباس: عملك، وقيل: نفسك، أي استقم بإقبالك على ما أمرت به من الدين. {حنيفا}، أي: قويما به مائلا عن كل دين"[1].

وقوله تعالى:«حَنِيفًا»، لأهل اللغة فيه قولان[2]:
الأول: أن الحنيف هو المستقيم.
قال الطبري: "«الحنيف»، فإنه المستقيم من كل شيء، ومنه قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم، والمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف[3].
الثاني: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال.
واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى:{حَنِيفًا}[يونس : ١٠٥]، على أقوال:
أحدها: معناه: حاجا، والحنيفية حج البيت. وهذا قول ابن عباس[4]، والحسن[5]، ومجاهد[6]، وعطية[7]، وكثير بن زياد[8]، وعبدالله بن قاسم[9]، والضحاك[10]، والسدي[11].
والثاني: متبعا، أي: اتباع الحق، قاله مجاهد[12]، والربيع بن أنس[13].
والثالث: سابقاً إلى الطاعة ، مأخوذ من الحنف في الرجلين وهو أن تسبق إحداهما الأخرى. ذكره الماوردي[14].
والرابع: مخلصا. قاله عطاء[15]. و«الحنيف» على قولهم : المخلص دينه لله وحده[16]، قاله السدي[17]، ومقاتل بن سليمان[18]، وخصيف[19].
والخامس: مستقسما. قاله محمد بن كعب[20]، وروي عن عيسى بن جارية[21] مثله.
والسادس: مؤمنا بالرسل ككلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة[22].
قال القفال: "وبالجملة فـ«الحنيف»: لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب الديانات، وأصله من إبراهيم عليه السلام"[23].

---

[1] تفسير القرطبي:٨/٣٨٧-٣٨٨.
[2]انظر: مفاتيح الغيب: ٤/٧١.
[3] انظر: تفسير الطبري: ٣/١٠٤.
[4] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٧):ص٣/١٠٦، وابن أبي حاتم(١٢٩١):ص١/٢٤١، و(٣٦٥٠):ص٢/٦٧٣.
[5] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٥٠):ص٢/٦٧٣، وتفسير الطبري(٢٠٩١):ص٣/١٠٤.
[6] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٤):ص٣/١٠٦.
[7] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٢)، و(٢٠٩٣):ص٣/١٠٤-١٠٥.
[8] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٥):ص٣/١٠٦.
[9] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٨):ص٣/١٠٦.
[10] انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص١/٢٤١، و(٣٦٥٠):ص٢/٦٧٣.
[11]انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص١/٢٤١، و(٣٦٥٠):ص٢/٦٧٣.
[12] انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٩):ص٣/١٠٦، وابن أبي حاتم(١٢٩٢):ص١/٢٤١.
[13]انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩٢):ص١/٢٤١.
[14] انظر: النكت والعيون:٢/٤٥٤.
[15] انظر: النكت والعيون:٢/٤٥٤.
[16] انظر: تفسير الطبري: ٣/١٠٦.
[17] انظر: تفسير الطبري(٢١٠٠):ص٣/١٠٧.
[18] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١/١٤١.
[19] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٥):ص١/٢٤٢.
[20] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٣):ص١/٢٤٢.
[21] انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٤٢.
[22] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٤):ص١/٢٤٢.
[23] مفاتيح الغيب: ٤/٧١.

قوله تعالى:{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يونس : ١٠٥]، أي:" ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد، فتكون من الهالكين"[١].

قال الطبري: "يقول: ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه الآلهةَ والأندادَ، فتكون من الهالكين"[٢].

الفوائد:

١- تحريم الشرك ووجوب تركه وترك أهله.
٢- أن تحقيق معنى الشهادة أن يعبد الإنسان ربه حتى يجتنب عبادة غير الله من جهة، وينفي استحقاق أي مخلوق لأي نوع من أنواع العبادة من دون الله، وهذا أمر متفق عليه ولا جدال فيه.

القرآن

{وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)} [يونس : ١٠٦]

التفسير:

ولا تَدْعُ -أيها الرسول- من دون الله شيئًا من الأوثان والأصنام؛ لأنها لا تنفع ولا تضرُّ، فإن فعَلْت ذلك ودعوتها من دون الله فإنك إذًا من المشركين بالله، الظالمين لأنفسهم بالشرك والمعصية. وهذا وإن كان خطابًا للرسول صلى الله عليه وسلَّم فإنه موجَّه لعموم الأمة.

قوله تعالى:{وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} [يونس : ١٠٦]، أي:" ولا تَدْعُ -أيها الرسول- من دون الله شيئًا من الأوثان والأصنام؛ لأنها لا تنفع ولا تضرُّ"[٣].

قال القرطبي:" {ولا تدع}، أي: لا تعبد. و{من دون الله ما لا ينفعك} إن عبدته. {ولا يضرك} إن عصيته"[٤].

قال البيضاوي:" {ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك} بنفسه إن دعوته أو خذلته"[٥].

قال ابن عطية:" معناه قيل لي: وَلا تَدْعُ فهو عطف على أَقِمْ، وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا فأحرى أن يتحرز من ذلك غيره، وما لا ينفع ولا يضر هو الأصنام والأوثان"[٦].

قوله تعالى:{فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} [يونس : ١٠٦]، أي:" فإن عبدتَ تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله"[٧].

قال البيضاوي:" جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء"[٨].

قال القرطبي:" أي: عبد ت غير الله. {فإنك إذا من الظالمين}، أي: الواضعين العبادة في غير موضعها"[٩].

عن مقاتل بن حيان، قوله: "{الظالمين}، يعني: المشركين"[١٠].

قال ابن عطية: «الظالم»: الذي يضع الشيء في غير موضعه"[١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٢٠.
(٢) تفسير الطبري:٢١٧/١٥.
(٣) التفسير الميسر:٢٢٠.
(٤) تفسير القرطبي:٣٨٨/٨.
(٥) تفسيرالبيضاوي:٣١٢٦.
(٦) المحرر الوجيز:١٤٧/٣.
(٧) صفوة التفاسير:٥٥٨/١.
(٨) تفسيرالبيضاوي:٣١٢٦.
(٩) تفسير القرطبي:٣٨٨/٨.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٢٥):ص١٩٩٢/٦.

الفوائد:

١- أن النفع والضر من الله وحده.
٢- أن دعاء غير الله مهما كان المدعو فهو محرم فلا يحل أبدا.

القرآن

{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)} [يونس : ١٠٧]

التفسير:

وإن يصبك الله -أيها الرسول- بشدة أو بلاء فلا كاشف لذلك إلا هو جلَّ وعلا وإن يُرِدْك برخاء أو نعمة لا يمنعه عنك أحد، يصيب الله عز وجل بالسراء والضراء من يشاء من عباده، وهو الغفور لذنوب مَن تاب، الرحيم بمن آمن به وأطاعه.

قوله تعالى:{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} [يونس : ١٠٧]، أي:" وإن يصبك الله -أيها الرسول- بشدة أو بلاء فلا كاشف لذلك إلا هو جلَّ وعلا"[٢].

قال البيضاوي:" وإن يصبك به. فلا كاشف له يرفعه. إلا هو إلا الله"[٣].

قال ابن كثير:" قوله:{ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ } إلى آخرها ، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة وحده ، لا شريك له"[٤].

قوله تعالى:{وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس : ١٠٧]، أي:" وإن يُرِدْك برخاء أو نعمة لا يمنعه عنك أحد"[٥].

قال البيضاوي:أي:" فلا دافع. لفضله الذي أرادك به، ولعله ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده"[٦].

قوله تعالى:{يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [يونس : ١٠٧]، أي:" يصيب الله عز وجل بالسراء والضراء من يشاء من عباده"[٧].

قال ابن عطية: " مقصد هذه الآية أن الحول والقوة لله، ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أنفسهم، و «الضر» لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان كان ذلك في ماله أو في بدنه، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأصنام، لكن كل مميز أدنى ميز يعرف يقينا أنها لا تكشف ضرّا ولا تجلب نفعا. وقوله وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ لفظ تام العموم، وخصص النبي ﷺ الفقه بالذكر في قوله «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[٨] وهو على جهة التشريف للفقه"[١].

---

[١] المحرر الوجيز:١٤٧/٣.
[٢] التفسير الميسر:٢٢١.
[٣] تفسيرالبيضاوي:٣١٢٦.
[٤] تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤.
[٥] التفسير الميسر:٢٢١.
[٦] تفسيرالبيضاوي:٣١٢٦.
[٧] التفسير الميسر:٢٢١.
[٨]حديث معاوية: أخرجه أحمد (٩٦/٤، رقم ١٦٩٢٤) ، والبخارى (٣٩/١، رقم ٧١) ، ومسلم (٧١٨/٢، رقم ١٠٣٧) ، وابن حبان (٢٩١/١، رقم ٨٩) . وأخرجه أيضا: الدارمى (٨٥/١، رقم ٢٢٤) .
حديث ابن عباس: أخرجه أحمد (٣٠٦/١، رقم ٢٧٩١) ، والدارمى (٨٥/١، رقم ٢٢٥) ، والترمذى (٢٨/٥، رقم ٢٦٤٥) وقال: حسن صحيح.
حديث ابن عمر: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣٢٢/٣، رقم ٣٢٨٨) عن ابن عمر عن عمر.
حديث أبى هريرة: أخرجه ابن ماجه (٨٠/١، رقم ٢٢٠) ، والطبرانى فى الأوسط (٣١٩/٥، رقم ٥٤٢٤)
حديث عبد الملك بن مروان: أخرجه ابن عساكر (٣١٠/١٣).

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : "اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات رحمة الله ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم"(٢).

قوله تعالى:{وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس : ١٠٧]، أي:" وهو الغفور لذنوب مَن تاب، الرحيم بمن آمن به وأطاعه"(٣).

قال القرطبي:" {الغفور}، لذنوب عباده وخطاياهم، {الرحيم}، بأوليائه في الآخرة"(٤).

قال ابن كثير:" أي : لمن تاب إليه وتوكل عليه ، ولو من أيّ ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه "(٥).

عن سعيد بن جبير، قوله: "{الغفور}، يعني: غفور الذنوب، {الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين"(٦).

قال ابن عطية: " قوله تعالى: وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ترجية وبسط ووعد ما"(٧).

الفوائد:

١- لا يؤمن عبد حتى يوقن أن ما أراده الله له من خير أو شر لا يستطيع أحد دفعه ولا تحويله بحال من الأحوال، وهو معنى حديث: "ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك"(٨).

٢- -ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة(٩).

والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»(١٠)، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى

---

(١) المحرر الوجيز:١٤٧/٣.

(٢) رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢٨/٨) "المخطوط"، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١١٢١) من طريق عبد الله بن وهب به ، ورواه ابن عبد البر في التمهيد (٣٣٩/٥) والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١١٢٢) من طريق عمرو بن الربيع بن طاق عن يحيى بن أيوب به نحوه ورمز له السيوطي بالضعف في الجامع.

(٣) التفسير الميسر:٢٢١.

(٤) تفسير القرطبي:٣٨٨/٨.

(٥) تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٢٧):ص١٩٩٢/٦.

(٧) المحرر الوجيز:١٤٧/٣.

(٨)حديث زيد بن ثابت: أخرجه أحمد (١٨٥/٥، رقم ٢١٦٥١) .
حديث أبى بن كعب وزيد وحذيفة وابن مسعود: أخرجه أحمد (١٨٢/٥، رقم ٢١٦٢٩) ، وعبد بن حميد (١٠٩/١، رقم ٢٤٧) ، وأبو داود (٢٢٥/٤، رقم ٤٦٩٩) ، وابن ماجه (٢٩/١، رقم ٧٧) ، وابن حبان (٥٠٥/٢، ٢٧٢٧) ، والطبرانى (١٦٠/٥، رقم ٤٩٤٠) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٠٣/١، رقم ١٨٢).
والحديث تمامه« ١٨٩٢٥- لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم ولو أنفقت مثل أحد ذهبا فى سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار».

(٩) انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

(١٠)قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].
وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره فيعيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو

«الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"[١].

- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٢].

القرآن

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨)} [يونس : ١٠٨]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: قد جاءكم رسول الله بالقرآن الذي فيه بيان هدايتكم، فمن اهتدى بهدي الله فإنما ثمرة عمله راجعة إليه، ومن انحرف عن الحق وأصرَّ على الضلال فإنما ضلاله وضرره على نفسه، وما أنا موكَّل بكم حتى تكونوا مؤمنين، إنما أنا رسول مبلِّغ أبلِّغكم ما أُرْسِلْت به.

قوله تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ} [يونس : ١٠٨]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: قد جاءكم رسول الله بالقرآن الذي فيه بيان هدايتكم"[٣].

قال القرطبي:" أي: القرآن. وقيل: الرسول ﷺ"[٤].

قال البيضاوي:أي:" رسوله أو القرآن، ولم يبق لكم عذر"[٥].

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرا لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك"[٦].

عن محمد بن إسحاق :"{الحق من ربكم}، قال: ما جاءك من الخير"[٧].

قوله تعالى:{فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} [يونس : ١٠٨]، أي:" فمن اهتدى بهدي الله فإنما ثمرة عمله راجعة إليه"[٨].

قال القرطبي:" أي: صدق محمدا وآمن بما جاء به، {فإنما يهتدي لنفسه}، أي: لخلاص نفسه"[٩].

قال البيضاوي:" فمن اهتدى بالإيمان والمتابعة. فإنما يهتدي لنفسه، لأن نفعه لها"[١٠].

قال ابن كثير:أي:" فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه"[١١].

قوله تعالى:{وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [يونس : ١٠٨]، أي:" ومن انحرف عن الحق وأصرَّ على الضلال فإنما ضلاله وضرره على نفسه"[١٢].

قال القرطبي:" أي: ترك الرسول والقرآن واتبع الأصنام والأوثان، {فإنما يضل عليها}، أي: وبال ذلك على نفسه"[١٣].

فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:٥٢/١-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].

[١] شأن الدعاء:٦٥/١.

[٢] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

[٣] التفسير الميسر:٢٢١.

[٤] تفسير القرطبي:٣٨٨/٨.

[٥] تفسير البيضاوي:١٢٦/٣.

[٦] تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤-٣٠١.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٢٨):ص١٩٩٢/٦.

[٨] التفسير الميسر:٢٢١.

[٩] تفسير القرطبي:٣٨٨/٨-٣٨٩.

[١٠] تفسير البيضاوي:١٢٦/٣.

[١١] تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤.

[١٢] التفسير الميسر:٢٢١.

[١٣] تفسير القرطبي:٣٨٩/٨.

قال البيضاوي:" ومن ضل بالكفر بهما. فإنما يضل عليها، لأن وبال الضلال عليها"[1].
عليها"[1].
قال ابن كثير:أي:" ومن ضل عنه، فإنما يرجع وبال ذلك عليه "[2].
قوله تعالى:{وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [يونس : ١٠٨]، أي:" وما أنا موكَّل بكم حتى تكونوا مؤمنين، إنما أنا رسول مبلِّغ أبلِّغكم ما أُرْسِلْت به"[3].
قال القرطبي:" أي: بحفيظ أحفظ أعمالكم إنما أنا رسول"[4].
قال البيضاوي:أي:" بحفيظ موكول إلى أمركم، وإنما أنا بشير ونذير"[5].
قال ابن كثير:"أي:وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى "[6].
قال السدي:" أما «الوكيل»: فالحفيظ"[7].
قال ابن عباس: "نسختها آية السيف"[8].
الفوائد:

١- تقرير أن القرآن والرسول حق والإسلام حق.
٢- تقرير مبدأ أن المرء يشقى ويسعد بكسبه لا بسكب غيره.

القرآن
{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)} [يونس : ١٠٩]
التفسير:
واتبع -أيها الرسول- وحي الله الذي يوحيه إليك فاعمل به، واصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أذى من آذاك في تبليغ رسالته، حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره، وهو -عزَّ وجل- خير الحاكمين؛ فإن حكمه مشتمل على العدل التام.

قوله تعالى:{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [يونس : ١٠٩]، أي:" واتبع -أيها الرسول- وحي الله الذي يوحيه إليك فاعمل به"[9].
قال البيضاوي:أي:" بالامتثال والتبليغ"[10].
قال ابن كثير:" أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه"[11].
قوله تعالى:{وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ} [يونس : ١٠٩]، أي:"واصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أذى من آذاك في تبليغ رسالته، حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره"[12].
قال ابن كثير: أي:"واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، {حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ}، أي: يفتح بينك وبينهم "[13].

---

[1] تفسير البيضاوي:١٢٦/٣.
[2] تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤.
[3] التفسير الميسر:٢٢١.
[4] تفسير القرطبي:٣٨٩/٨.
[5] تفسير البيضاوي:١٢٦/٣.
[6] تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٢٩):ص١٩٩٣/٦.
[8] تفسير القرطبي:٣٨٩/٨.
[9] التفسير الميسر:٢٢١.
[10] تفسير البيضاوي:١٢٦/٣.
[11] تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤.
[12] التفسير الميسر:٢٢١.
[13] تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤.

قال البيضاوي:أي:" واصبر على دعوتهم وتحمل أذيتهم. حتى يحكم الله بالنصرة أو بالأمر بالقتال"(١).

قال القرطبي:" قيل: نسخ بآية القتال: وقيل: ليس منسوخا، ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية. وقال ابن عباس: لما نزلت جمع النبي ﷺ الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثرة (٢) فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»(٣). وعن أنس بمثل ذلك، ثم ثم قال أنس: فلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما أمره الله تعالى، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان(٤):

ألا أبلغ معاوية بن حرب	أمير المؤمنين نثا كلامي
بأنا صابرون ومنظروكم	إلى يوم التغابن والخصام"(٥)

قوله تعالى:{وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يونس : ١٠٩]، أي:" وهو -عزَّ وجل- خير الحاكمين؛ فإن حكمه مشتمل على العدل التام"(٦).

قال القرطبي:" ابتداء وخبر، لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق"(٧).

قال ابن كثير:" أي : خير الفاتحين بعدله وحكمته"(٨).

قال البيضاوي:" إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر"(٩).

عن أصبغ بن الفرج قال: "سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله: {وهو خير الحاكمين}، قال: هذا منسوخ حتى يحكم الله بجهادهم وأمره بالغلظة عليهم"(١٠).

الفوائد:

١- وجوب اتباع الوحي الإلهي الذي تضمنه القرآن والسنة الصحيحة.
٢- فضيلة الصبر وانتظار الفرج من الله تعالى.

---

(١) تفسير البيضاوي:١٢٦/٣.

(٢)أي يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء.

(٣)حديث أنس عن أسيد بن حضير: أخرجه ابن أبى شيبة (٣٠٦/٦، رقم ٣١٦٦٩) ، وأحمد (٣٥١/٤، رقم ١٩١١٥) ، والبخارى (١٣٨١/٣، رقم ٣٥٨١) ، ومسلم (١٤٧٤/٣، رقم ١٨٤٥) ، والترمذى (٤٨٢/٤، رقم ٢١٨٩) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٢٢٤/٨، رقم ٥٣٨٣) .
حديث أنس: أخرجه الطيالسى (ص ٢٦٥، رقم ١٩٦٩) ، وأحمد (١١١/٣، رقم ١٢١٠٦) ، والبخارى (٨٣٧/٢، رقم ٢٢٤٧) ، ومسلم (٧٣٣/٢، رقم ١٥٠٩) .
حديث البراء: أخرجه أحمد (٢٩٢/٤، رقم ١٨٦٠٨).

(٤)المصنف لعبد الرزاق: ١١/ ٦١، ح ١٩٩٠٩، وتفسير الثعلبي:١٥٥/٥، وتفسير القرطبي: ٨/ ٣٨٩.
وذلك حين دخل معاوية بن أبى سفيان بن حرب المدينة، فتلقته الأنصار وتخلف أبو قتادة، ثم دخل عليه فقال له: مالك تخلفت؟ فقال: لم يكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ستلقون بعدي أثرة. قال معاوية، فماذا قال؟ قال: فاصبروا حتى تلقوني. قال: فاصبروا. قال: إذا نصبر. والثناء يقال للخير، وقد يقال الشر. والنثا: خاص بالشر. وروى «نثا كلامى» ومنظروكم: ممهلوكم. أى أنت وقومك. والتغابن: ظهور الغبن العمال في تجارات الأعمال. والخصام: المخاصمة والمجادلة، أى إلى يوم القيامة.

(٥) تفسير القرطبي:٣٨٩/٨.

(٦) التفسير الميسر:٢٢١.

(٧) تفسير القرطبي:٣٨٩/٨.

(٨) تفسير ابن كثير:٣٠٠/٤.

(٩) تفسير البيضاوي:١٢٦/٣.

(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٣٠):ص١٩٩٣/٦.

٣- ومن اسمائه تعالى: «الحكم»: و"هو الذي سلم له الحكم، ورد إليه فيه الأمر. كقوله تعالى: {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨]، وقوله: {أَنْتَ تَحْكُمُ بين عِبَادكَ فِيْمَا كانوا فِيهِ يَخْتَلِفُوْنَ} [الزمر: ٤٦].

وقيل: للحاكم حاكم؛ لمنعه الناس عن التظالم، وردعه إياهم. يقال: حكمت الرجل عن الفساد: إذا منعته منه. وكذلك: أحكمته -بالألف- أنشدني أبو عمر قال: أنشدني أبو العباس لجرير[١]:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم   إني أخاف عليكم أن أغضبا

ومن هذا قيل: حكمة اللجام، وذلك لمنعها الدابة من التمرد والذهاب في غير جهة القصد"[٢].

وقال النبي - ﷺ -: "إن الله هو الحكمُ وإليه الحكم"[٣].

وقد قال تعالى في الآية موضع التفسير:{وإليه الحكم}، أي: إليه الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص:٨٨]. وقال: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الانعام:٥٧]، وفيه الدليل على المنع من التسمي بأسماء الله المختصة به، والمنع مما يوهم عدم الاحترام لها كالتكني بأبي الحكم ونحوه.

وقد ورد عده في الأسماء الحسنى مقرونًا بالعدل، "هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم.. ويقال: عدلت الشيء أعدله عدلا: إذا قومته. ومنه الاعتدال في الأمور، وهو الاستقامة فيها"[٤].

«آخر تفسير سورة يونس، والحمد لله وحده»

---

[١] ديوانه ١/ ٤٦٦ مع بيت آخر هو:
أبني حنيفة إنني إن أهجكم...أدع اليمامة لاتواري أرنبا.

[٢] شان الدعاء:٦١.

[٣] أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح، برقم ٤٩٥٥، والنسائي في كتاب آداب القضاة، القضاة، باب إذا حكَّموا رجلاً فقضى بينهم، برقم ٥٣٨٤، والحاكم، ١/ ٢٣، والطبراني في الكبير، ٢٢/ ١٧٩، ١٨٠، ورقم ٤٦٦، ٤٧٠، وابن حبان كما في الموارد، ٦/ ٢١٤، برقم ١٩٣٧، وإسناده جيد. انظر: فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد، لابن عبد الوهاب، بتحقيق عبد القادر الأرنؤوط، ص٥١٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم ١٨٤٥.

[٤] شأن الدعاء:٦٢.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة «هود»

سورة «هود»: هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة «يونس»[١]، وعدد آياتها (١٢٢) مائة واثنتان وعشرون عند الشَّاميّين، و(١٢١) مائة وإحدى وعشرون عند المكيّين والبصريّين، و(١٢٣) ومائة ثلاث وعشرون عند الكوفيّين، عدد كلماتها (١٩١١) ألف وتسعمائة وإحدى عشرة كلمة، وحروفها (٧٦٠٥) سبعة آلاف وستمائة وخمس، والآيات المختلف فيها سبع: { بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [هود : ٥٤]، { فِي قَوْمِ لُوطٍ} [هود : ٧٤]، {مِنْ سِجِّيل} [هود : ٨٢]؛ {مَنْضُودٍ} [هود : ٨٢]، {إِنَّا عَامِلُون} [هود : ١٢١]، {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [هود : ٨٦]، {مُخْتَلِفِينَ} [هود : ١١٨][٢].

مجموع فواصل آياته (ق ص د ت ل ن ظ م ط ب ر ز د) يجمعها قولك: «قصدْت لنظم طبرْ زَد»[٣].

أسماء السورة:

اسمها التوقيفي: سورة «هو»:

سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة: «سورة هود»، ولا يعرف لها اسم غير ذلك.

وهو توفيقي من رسول الله-ﷺ-، كما روي عنه في احاديث عدية، منها:

- عن ابن عباس قال: قال أبو بكر الصدِّيق - رضي الله عنه -: يا رسول الله قد شِبتَ! قال: قال رسول الله: "شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت"[٤].
- وعن عبدالله بن رباح، ان النبي-ﷺ-، قال:"اقرءوا هود يوم الجمعة"[١].

---

[١] انظر: الكشاف: ٣٧٧/٢.

[٢]انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٤٦.

[٣]انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٤٦.

[٤] سوف ياتي تخريجه في فضائل السورة.

كما روي عن السلف، فعن الاحنف قال:" صليت خلف عمر-رضي الله عنه- الغداة، فقرأ بـ«يونس» و«هود»، وغيرهما"[٢].

ووجه تسميتها بسورة«هود»، لاشتمالها على قصّة هود - عليه السّلام - وتفاصيلها[٣]، إذ تكرر اسمه فيها خمس مرات[٤]، ولأن ما حكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها، ولأن عادا وصفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله تعالى: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} [هود : ٦٠].

وذكر ابن عاشور:"إنها أضيفت إلى السورة تمييزا لها عن باقي السور ذوات الافتتاح بـ«الر»[٥].

وقال السخاوي:"وإنما سميت به دون ذكر فيها من الانبياء لخفة اسمه"[٦]، وهذا القول فيه نظر، وإنما الأقرب منه إلى الصواب هو لتكرار اسم هود-عليه السلام- في السورة دون غيره من الأنبياء.

مكية السورة ومدنيتها:

اختلف أهل التفسير في مكان نزول السورة على أقوال:

أحدها: أنها مكّيّة كلها. روى ذلك ابن أبي طلحة عن ابن عباس[٧]، وابن الزبير[٨]، وبه قال الحسن[٩]، وعكرمة[١٠]، ومجاهد[١١]، وعطاء[١٢]، وجابر بن زيد[١٣]، وقتادة[١٤]. وعليه جمهور المفسرين[١٥].

قال الفيروزآبادي:" هذه السّورة مكّيّة بالإجماع"[١٦].

والثاني: أنها مكية إلا قوله تعالى:{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود : ١١٤]؛ فإنها مدنية. وهذا القول منسوب إلى ابن عباس[١٧]، وقتادة[١٨]، وبه قال السمعاني[١]، والبغوي[٢].

---

[١] سوف ياتي تخريجه في فضائل السورة.

[٢] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلوات، باب"مايقرأ في صلاة الفجر":ص٣٥٣/١

[٣]انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٤٦.

[٤] انظر: الآيات: [٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩]. كما أنه ورد اسم«هود» في بعض سور القرآن، مثل سورة:الأعراف، الآية:٦٥، والشعراء، الآية:١٢٤.

[٥] التحرير والتنوير:٣١١/١١.

[٦] جمال القراء:٣٦/١.

[٧] انظر: زاد المسير: ١٥٥/٢، وتفسير الخازي:٤٧٠/٢، وأورده السيوطي في الدر المنثور:٣٩٦/٤، وأورده السيوطي في الدر المنثور:٣٩٦/٤، وعزاه إلى النحاس-في تاريخه- وابي الشيخ وابن مردوية.

[٨] أورده السيوطي في الدر المنثور:٣٩٦/٤، وعزاه إلى ابن مردوية..

[٩] انظر: زاد المسير: ١٥٥/٢، وتفسير القرطبي:١/٩.

[١٠] انظر: زاد المسير: ١٥٥/٢، وتفسير القرطبي:١/٩، وتفسير الخازي:٤٧٠/٢.

[١١] انظر: زاد المسير: ١٥٥/٢ ، وتفسير الخازي:٤٧٠/٢.

[١٢] انظر: تفسير القرطبي:١/٩.

[١٣] انظر: زاد المسير:١٥٥/٢، وتفسير القرطبي:١/٩، وتفسير الخازي:٤٧٠/٢.

[١٤] انظر: زاد المسير: ١٥٥/٢، وتفسير الخازي:٤٧٠/٢.

(١٥) انظر: بحر العلوم:١٣٧/٢، وتفسير ابن كثير:٣٠٢/٤، وتفسير ابن ابي زمنين:٢٧٧/٢، والكشف والبيان:١٥٦/٥، و دَرْجُ الدُّرر في تَفِسِير الآيِ والسُّوَر:٩٦١/٣، والبصائر:٢٤٦/١، وتفسير البيضاوي:١٢٧/٣، وغيرها.

[١٦] البصائر:٢٤٦/١.

[١٧] انظر: تفسير القرطبي:١/٩، وتفسير الخازن:٤٧٠/٢.

[١٨] انظر: تفسير القرطبي:١/٩، وتفسير الخازن:٤٧٠/٢.

والثالث: أنها مكية ماعدا الآيات: (١٢ ، ١٧ ، ١١٤)[٣]، فمدنية. قاله مقاتل[٤]، وبه قال الزمخشري[٥]، الفخر الرازي[٦]، وابن عاشور[٧].

مناسبة سورة«هود» مع سورة «يونس»:

٤- ختمت سورة «يونس» بالحث على اتباع الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد -ﷺ- ولزومه، والصبر على ما يتعرضون له من الأذى وجزاء صبرهم الجنة، فقال تعالى، في سورة«يونس»: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يونس : ١٠٩]، ثم قال تعالى في بداية سورة«هود»: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)} [هود : ١]، إذ ابتدات بوصف الكتاب الذي أنزله على نبينا محمد-ﷺ- وانه من عند الله تعالى، وأنه محكم آياته لا نقص فيه ولا خلل، فهو كامل، لأنه صادر من عند الله الخبير بأحوال عباده وما يحتاج إليه[٨].

٥- ذكر في سورة«يونس» قصص بعض الأنبياء-عليه السلام- مجملو، وفصلت في سورة«هود».

٦- ورد في خاتمة سورة«يونس» الحث على وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، ونبذ الشرك والمشركين، فقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)} [يونس : ١٠٤ - ١٠٧].

وافتتحت سورة«هود» ببيان الوحي وإحكام القرآن ودعوته إلى عبادة الله والتوبة إليه والإيمان بالبعث والمعاد والثواب والعقاب والحساب وحاجة المشركين في ذلك وتحديهم بالقرآن، وذكر في قصص بعض الانبياء كنوح وإبراهيم وهود وصالح ولوط وشعيب-عليهم السلام-، قال تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)} [هود : ١ - ٤].

أغراض السورة ومقاصدها:

وسوة«هود»-كباقي السور القرآنية- لها مقاصد عظيمة وجليلة، فمن أشهر تلك المقاصد:

١- وصف القرآن الكريم بـ (الإحكام)، و(التفصيل)، في حالتي البشارة والنذارة. وهذا يقتضي وضع كل شيء في مكانه الأنسب والأقوم، وإنفاذه على الوجه الأفضل والأحكم .

---

[١] انظر: تفسير السمعاني:٤١١/٢.

[٢] انظر: تفسير البغوي:١٥٦/٤.

[٣]أما استثناء الآية(١١٤)، فقد نقل القرطبي (٩/ ١) عن ابن عباس وقتادة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٥٥) عن ابن عباس فقط، وهذه الآية المستثناة أسباب نزولها في المدينة. والله أعلم.

[٤] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٠/٢.

[٥] انظر: الكشاف:٣٧٧/٢.

[٦] انظر: مفاتيح الغيب:٣١٢/١٧.

[٧] انظر: التحرير والتنوير:١٤٨/٣.

[٨] انظر: نظم الدرر:٤٩٨/٣.

٢- العناية بكل دابة في الأرض، والقدرة على كل شيء من البعث وغيره. وهذا يقتضي العلم بكل معلوم، ويلزم منه تفرده سبحانه بالمُلك .

٣- اعتمدت السورة أسلوب الدعوة بالترهيب؛ ولذلك جاءت آياتها متضمنة للوعيد والتغليظ والتهديد، كما في قوله: {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢)} [هود : ٢]، وقوله عز وجل: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)} [هود : ٣ - ٤] ، وأظهر ما جاء هذا المقصد في قصة قوم هود حين قال الله تعالى: {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)} [هود : ٥٩ - ٦٠]

٤- اشتملت السورة على أصول عقائد الإسلام من التوحيد، والبعث، والجزاء، والعمل الصالح، وإثبات نبوة محمد ﷺ، وقصص الرسل عليهم السلام .

٥- بينت سنن الله في الأمم، كبيان عاقبة الظالمين، والمفسدين في الأرض. وأن سبب الظلم والإجرام الموجب لهلاك الأمم، هو اتباع أكثرهم لما أترفوا فيه من أسباب النعيم والشهوات واللذات. وأن المترفين هم مفسدوا الأمم ومهلكوها. ويؤيد هذا أن كل ما نشاهده من الفساد في عصرنا، إنما مرده إلى الافتتان بالترف، واتباع ما يقتضيه الإتراف، من فسوق وطغيان وإفراط وإسراف.

٦- تحدثت عن صفات النفس وأخلاقها من الفضائل والرذائل، التي هي مصادر الأعمال من الخير والشر، والحسنات والسيئات، والصلاح والفساد. وبينت فضائل الرسل والمؤمنين التي يجب التأسي بها، ومساوئ الكفار التي يجب تطهير الأنفس منها .

٧- دأب المفسدين في عداوة المصلحين ورثة الأنبياء، وأشدهم كيداً لهم أهل الحسد والبدع، من لابسي لباس العلماء، وأعوان الملوك والأمراء .

٨- الظلم والطغيان والركون إلى الظالمين عاقبته وخيمة، وكل ذلك يودي بصاحبه إلى المهالك .

٩- بيان أن القصد من القصص القرآني تثبيت قلب النبي ﷺ، وهذا يستدعي أيضاً تثبيت قلب من سار على هديه، وسلك نهجه في الدعوة إلى الله.

١٠- أكدت السورة فضيلة (الصبر)، فقد ذُكر (الصبر) في هذه السورة في ثلاثة مواضع، فـ (الصبر) هو الخُلق الذي يستعان به على جميع الأعمال الفردية والجماعية في الشدة والرخاء، والسراء والضراء.

١١- دعت السورة إلى (الاستقامة) كما أمر الله تعالى، وهذا يستدعي النهي عن الفساد في الأرض، ويلزم منه الأمر بالصلاح فيها.

١٢- بيَّن الله سبحانه لعباده ما يُكفِّر سيئاتهم أفراداً، وهو فعل الحسنات التي تمحو السيئات، وبيَّن لهم ما هو منجاة للأمة والأفراد من الهلاك في الدنيا قبل الآخرة، وهو وجود طائفة راشدة فيها، تنهاها عن الفساد في الأرض بالظلم، ، والفسوق وارتكاب الفواحش والمنكرات.

١٣- بيَّن سبحانه أنه سنته في الأمم، أنه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود : ١١٧]، أي: وأهلها مصلحون في أعمالهم وأحكامهم، وهذا هو الأساس الأعظم لبقاء الأمم وموتها، وعزتها وذلها. وعبر عن (الأمم) بـ{القرى}، وهي عواصم مُلكها؛ لأنها مأوى الزعماء والرؤساء الحاكمين، الذين تفسد الأمم بفسادهم، وتصلح بصلاحهم.

١٤- أوضحت السورة أن أخذ الله{القرى} الظالمة عند استحقاقهم للعذاب في المستقبل، سيكون على نحو أخذه لها في الماضي، أليماً شديداً، لا هوادة فيه، ولا رحمة، ولا محاباة.

١٥-أفادت قصة نوح مع ابنه أن محبة الأولاد فطرة إنسانية ، وغريزة مركوزة في النفس البشرية ، وحقوقهم على الوالدين مقررة في الشرع بما يحدد دواعي هذه الغريزة، ويقف بها دون الغلو المفضي إلى عصيان الله سبحانه، أو هضم حقوق عباده.
١٦-بيان أن سنن الله تعالى في اختلاف الأمم في (الدين) كاختلافهم في التكوين والعقول والفهوم، فهو سنة كونية.
١٧-تلك أهم المقاصد التي تضمنتها سورة هود، ويبقى ورائها مقاصد أُخر، لا تخفى على من تأمل هذه السورة، ووقف معها وقفة تدبر[١].

فضائل السورة:

وردت عدة أحاديث في فضائل هذه السورة، منها:

- عن عبد الله بن عمرو، قال: "أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: «اقرأ ثلاثا من ذوات الر»، فقال: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: «فاقرأ ثلاثا من ذوات حاميم»، فقال مثل مقالته، فقال: «اقرأ ثلاثا من المسبحات»، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فأقرأه النبي -ﷺ- «إذا زلزلت الأرض» حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبدا، ثم أدبر الرجل، فقال النبي ﷺ: «أفلح الرويجل» مرتين"[٢].
- عن ابن عباس قال: قال أبو بكر الصدِّيق - رضي الله عنه -: يا رسول الله قد شِبتَ! قال: قال رسول الله: "شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت"[٣].

قال القرطبي:" قال أبو عبد الله: فالفزع يورث الشيب وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة منبع، ومنه يعرق، فإذا انتشف الفزع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر وابيض، كما ترى الزرع الأخضر بسقاية، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيض، وإنما يبيض شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبس جلده، فالنفس تذهل بوعيد الله، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل، وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول

---

[١] انظر:مقاصد سورة «هود»، موقع إسلام ويب.

[٢] أخرجه أبو داود في"باب تحزيب القرآن"(١٣٩٩):ص٥٧/٢. والبيهقي في الشعب، في تعظيم القرىن، فصل"في فضائل السور والآيات"(٢٥١٢):ص٤٩٦/٢، والنسائي في عمل اليوم والليلة(٧٢١):ص٢١٦-٢١٧.
وقوله: من ذوات (الر)، أي: من السور التي تبدأ بهذه الأحرف الثلاثة التي تقرأ مقطعة: ألف، لام، را، والذي في القرآن منها خمس سور: يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر.
وقوله من ذوات {حم}، أي: من السور التي تبدأ بهذين الحرفين: حا، ميم، وهي في القرآن سبع سور: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.
وقوله: من المسبحات، أي: السور التي أولها سَبَّح ويُسَبحُ وسَبح، وهي الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى.
وحكم الألباني«ضعيف»، انظر: «ضعيف أبي داود» (٢٤٧).
[تعليق شعيب الأرنؤوط]
إسناده صحيح، عيسى بن هلال الصدفي، روى عنه غير واحد وذكره المؤلف في الثقات، وهو صدوق كما قال الحافظ في التقريب(ص٤٤١)، وقال الحاكم:"حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بقوله:«بل صحيح»، أي: فقط من غير أن يكون على شرط الشيخين(٥٨٠/٢)، وأورده الفسوي في تاريخه: ٢/ ٥١٥ - ٥١٦ في ثقات التابعين من أهل مصر، وباقي رجاله ثقات من رجال الصحيح.

[٣] أخرجه الترمذي وحسنه فى (كتاب التفسير- سورة الواقعة) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٤٣) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي فى الدلائل (١/ ٣٥٧) والبغوي فى شرح السنة (١٤/ ٣٧٢) وفى التفسير، كلهم من حديث ابن عباس رضى الله عنه.
ورواه أيضا الطبراني في الكبير (١٠٠٩١)، وعبد الله ابن الإمام أحمد في "زوائد الزهد" (٩)، والمروزي في "مسند أبي بكر" (٣٠ - ٣٢)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٣٦)، وابن عساكر (٤/ ١٧٢،١٧٣) والحديث غير ثابت وعلله أكثر الأئمة، وانظر علل الدارقطني (١/ ١٩٣ - ٢١١)، والنكت على ابن الصلاح لابن حجر (٢/ ٧٧٤ - ٧٧٦)، وصحح الحديث الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- في السلسلة الصحيحة (٩٥٥).

الذي جاء به، فمنه تشيب. وقال الله تعالى: { يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [المزمل : ١٧]، فإنما شابوا من الفزع. وأما سورة«هود» فلما ذكر الأمم، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لحق لهم، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف «٤» بهم في تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه. وأما أخواتها فما أشبهها من السور، مثل: {الْحَاقَّةُ} [الحاقة : ١]، و {سَأَلَ سَائِلٌ} [المعارج : ١]، و {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير : ١]، و {الْقَارِعَةُ} [القارعة : ١]، ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس، وتشيب منه الرؤوس.

قلت-الإمام القرطبي-: وقد قيل: إن الذي شيب النبي ﷺ من سورة «هود»، قول: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [هود : ١١٢]، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال يزيد بن أبان: رأيت رسول الله ﷺ في منامي فقرأت عليه سورة" هود" فلما ختمتها قال: «يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء»"[١].

- وعن عبدالله بن رباح، ان النبي-ﷺ-، قال:"اقرءوا هود يوم الجمعة"[٢].

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

القرآن

{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)} [هود : ١]

التفسير:

(الر) سبق الكلام على اللاحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة.

هذا الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ أُحكمت آياته من الخلل والباطل، ثم بُيِّنت بالأمر والنهي وبيان الحلال والحرام من عند الله، الحكيم بتدبير الأمور، الخبير بما تؤول إليه عواقبها.

قوله تعالى:{الر} [هود : ١]، "الله أعلم بمراده"[١].

---

[١] تفسير القرطبي:١/٩-٢.

[٢]أخرجه الدارمى (٥٤٥/٢، رقم ٣٤٠٤) ، وأبو داود فى المراسيل (١٠٣/١، رقم ٥٩) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٧٢/٢، رقم ٢٤٣٨) . وعزاه أيضا: لأبى الشيخ وابن مردويه المصنف فى الدر المنثور (٣٩٦/٤) ، والشوكانى فى فتح القدير (٤٧٩/٢) . قال المناوى (٦٧/٢) : قال الحافظ ابن حجر: "حديث مرسل وسنده صحيح".

والحديث اسناده ضعيف لاجل غرسال عبدالله بن رباح، وفي الدارمي رواية اخرى من حديث عبدالله ابن رباح عن كعب مرسلا، قال النبي-ﷺ-:«اقرءوا سورة هود يوم الجمعة»، والحديث ضعفة الالباني، انظر: ضعيف الجامع:١٥١.

قوله تعالى:{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} [هود : ١]، أي:" هذا الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ أُحكمت آياته من الخلل والباطل"[٢].

قال الطبري:" يعني: هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، وهو القرآن"[٣].

قوله تعالى:{ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود : ١]، أي:" بُيِّنت بالأمر والنهي وبيان الحلال والحرام من عند الله، الحكيم بتدبير الأمور، الخبير بما تؤول إليه عواقبها"[٤].

عن محمد بن جعفر بن الزبير قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في عذره وحجته إلى عباده"[٥].

عن أبي العالية قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في أمره"[٦].

عن قتادة، قوله: "{من لدن حكيم خبير}، يقول: من عند حكيم خبير"[٧].

قال الطبري: "قوله: {من لدن حكيم خبير}، فإن معناه: {حكيم} بتدبير الأشياء وتقديرها، {خبير} بما تؤول إليه عواقبُها"[٨].

وقيل:" {حكيم} بما أنزل ، {خبير} بمن يتقبل"[٩].

وفي قوله تعالى:{أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} [هود : ١]، وجوه من التفسير:

أحدها : أحكمت آياته بالأمر والنهي ثم فصلت بالثواب والعقاب ، قاله الحسن[١٠].

الثاني : أحكمت آياته بالثواب والعقاب ثم فصلت بالأمر والنهي. وهذا مروي عن الحسن أيضا[١١].

الثاني: أحكمت آياته من الباطل ثم فصلت بالحلال والحرام والطاعة والمعصية ، وهذا قول قتادة[١٢].

الثالث : أحكمت آياته بأن جعلت آيات هذه السورة كلها محكمة ثم فصلت بأن فسرت ، وهذا معنى قول مجاهد[١٣].

الرابع : أحكمت آياته للمعتبرين ، وفصلت آياته للمتقين[١٤].

الخامس : أحكمت آياته في القلوب ، وفصلت أحكامه على الأبدان[١٥].

والسادس: ما رواه أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال:" سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قرأ: {الر كتاب أحكمت آياته}، قال: هي كلها محكمة يعني: سورة هود"[١٦]، "يعني: قوله: {فصلت}، قال: ثم ذكر محمدا ﷺ فحكم فيها بينه وبين من خالفه، وقرأ: مثل الفريقين الآية كلها ثم ذكر قوم نوح فقال وعذبهم بعد طول نظره ثم هود وقرأ: نجينا هودا والذين آمنوا

---

[١] تفسير الجلالين:٦٤، وقد تقدم الكلام على الأحرف المقطعة في سورة البقرة، والصحيح في ذلك أن يقال: الله أعلم بمراده.

[٢] التفسير الميسر:٢٢١.

[٣] تفسير الطبري:٢٢٤/١٥.

[٤] التفسير الميسر:٢٢١.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٣٣):ص١٩٩٦/٦.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٣٥):ص١٩٩٦/٦.

[٧] أخرجه الطبري(١٧٩٢٧):ص٢٢٨/١٥.

[٨] تفسير الطبري:٢٢٨/١٦.

[٩] انظر: النكت والعيون:٤٥٦/٢.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٩١٥)-(١٧٩١٧):ص٢٢٥/١٥-٢٢٦.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٩١٨):ص٢٢٦/١٥.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٩١٩):ص٢٢٦/١٥.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٢١)-(١٧٩٢٦):ص٢٢٧/١٥-٢٢٨.

[١٤] انظر: النكت والعيون:٤٥٦/٢.

[١٥] انظر: النكت والعيون:٤٥٦/٢.

[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٣٧):ص١٩٩٥/٦. هكذا مرقم بالمطبوع!

معه برحمة منا فكان هذا تفصيل ذلك وكان أوله محكما قال: وكان أبي يقول ذلك -يعني: زيد بن أسلم-"[١].

قال الطبري: الصواب:" قولُ من قال: معناه: أحكم الله آياته من الدَّخَل والخَلَل والباطل، ثم فصَّلها بالأمر والنهي، وذلك أن «إحكام الشيء» إصلاحه وإتقانه، و«إحكام آيات القرآن»، إحكامها من خلل يكون فيها، أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قِبَله، وأما «تفصيل آياته» فإنه تمييز بعضها من بعض، بالبيان عما فيها من حلال وحرام، وأمرٍ ونهي"[٢].

الفوائد:

١- أن القرآن الكريم محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل، منظمة بنظم محكم اللفظ والمعنى، لا تناقض فيها ولا اضطراب، مفصلة تفصيلا تاما شاملا جميع الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها، فهي كاملة الصورة والمعنى، محققة للمصالح البشرية في الدنيا والآخرة. وقوله: الذي خلقكم والذين من قبلكم دليل على وجود الصانع الخالق.

١- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما: «الحكيم»، و«الخبير»:

- فـ«الحكيم»: "هو المحكم لخلق الأشياء.قال تعالى:{آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١].

فدل على أن المراد بـ«الحكيم» هنا، الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[٣].

- و«الخبير»: أي:"العالم العارف بما كان وما يكون"[٤].

قال الخطابي:"هو العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته، كقوله تعالى: { فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْرَاً } [الفرقان:٥٩]. يقال فلان بهذا الأمر خبير؛ وله به خبر، وهو أخبر به من فلان؛ أي: أعلم. إلا أن الخبر في صفة المخلوقين إنما يستعمل في نوع العلم الذي يدخلة الاختبار، ويتوصل إليه بالامتحان، والاجتهاد، دون النوع المعلوم ببدائه العقول.

وعلم الله -سبحانه- سواء فيما غمض من الأشياء و فيما لطف، وفيما تجلى به منه وظهر. وإنما تختلف مدارك علوم الآدميين الذين يتوصلون إليها بمقدمات من حس، وبمعاناة من نظر، وفكر؛ ولذلك قيل لهم: ليس الخبر كالمعاينة، وتعالى الله عن هذه الصفات علوا كبيرا"[٥].

والفرق بين « العلم»، و«الخبر»: "أن الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها؛ ففيه معنى زائد على العلم"[٦].

القرآن

{أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢)} [هود : ٢]

التفسير:

وإنزال القرآن وبيان أحكامه وتفصيلها وإحكامها؛ لأجل أن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له. إنني لكم -أيها الناس- من عند الله نذير ينذركم عقابه، وبشير يبشِّركم بثوابه.

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٣٢):ص١٩٩٥/٦. هكذا مرقم بالمطبوع!
[٢] تفسير الطبري٢٢٧/١٥.
[٣] انظر: شأن الدعاء، للخطابي:٧٣-٧٤.
[٤] جامع الأصول:١٧٣/٤.
[٥] شأن الدعاء:٦٣.
[٦] الفروق، ابو هلال العسكري:٧٤.

قوله تعالى:{أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} [هود : ٢]، أي:" وإنزال القرآن وبيان أحكامه وتفصيلها وإحكامها؛ لأجل أن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له"[١].

وفي قوله تعالى:{أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} [هود : ٢]، وجهان[٢]:

أحدهما : أن كتبت في الكتاب:{أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ}.

الثاني : أنه أمر رسوله أن يقول للناس:{أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ}.

قوله تعالى:{إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} [هود : ٢]، أي:" إنني لكم -أيها الناس- من عند الله نذير ينذركم عقابه، وبشير يبشّركم بثوابه"[٣].

عن ابن عباس قال: "{نذير} من النار، {وبشير}، قال: مبشر بالجنة"[٤].

عن ابن عباس قال: "قال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[٥].

الفوائد:

١- دعوة القرآن صريحة تتجه نحو تحقيق العبودية للخالق المنعم المتفضل، وتخصيصه وإفراده بالعبادة، دون أي أحد سواه، فالآية مشتملة على الأمر بعبادة الله، ومنع عبادة غير الله.
٢- وظيفة الرسول ﷺ هي الإنذار والتخويف لمن عصاه بالعذاب، والتبشير بالرضوان والجنة لمن أطاعه.

القرآن

{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)} [هود : ٣]

التفسير:

واسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، ثم ارجعوا إليه نادمين يمتعْكم في دنياكم متاعًا حسنًا بالحياة الطيبة فيها، إلى أن يحين أجلكم، ويُعطِ كل ذي فضل من علم وعمل جزاء فضله كاملا لا نقص فيه، وإن تعرضوا عمَّا أدعوكم إليه فإني أخشى عليكم عذاب يوم شديد، وهو يوم القيامة.

قوله تعالى:{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود : ٣]، أي:" واسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، ثم ارجعوا إليه نادمين"[٦].

عن عبد الصمد بن يزيد، قال: "سمعت الفضل يقول: قول العبد: أستغفر الله قال: تفسيره: اقبلني"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود : ٣]، ثلاثة وجوه[٨]:

أحدهما : استغفروه من سالف ذنوبكم ثم توبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض العلماء : "الإستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين"[٩].

---

[١] التفسير الميسر:٢٢١.
[٢] انظر: النكت والعيون:٤٥٦/٢.
[٣] التفسير الميسر:٢٢١.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٣٧):ص١٩٩٦/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٣٦):ص١٩٩٦/٦.
[٦] التفسير الميسر:٢٢١.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٣٨):ص١٩٩٦/٦.
[٨] انظر: النكت والعيون:٤٥٦/٢.
[٩] انظر: النكت والعيون:٤٥٦/٢، وتفسير القرطبي:٣/٩.

الثاني : أنه قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب إليها ، فالمغفرة أولٌ في الطلب وآخر في السبب.
الثالث : أن المعنى استغفروه من الصغائر وتوبوا إليه من الكبائر. أفاده الماوردي[١].
قوله تعالى:{يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [هود : ٣]، أي:" يمتعْكم في دنياكم متاعًا حسنًا بالحياة الطيبة فيها، إلى أن يحين أجلكم"[٢].
عن ابن مسعود[٣]، وابن عباس[٤]، ومرة الهمذاني[٥]:"{يمتعكم متاعا حسنا}، قال: يمتعكم في الدنيا".

قال البغوي:أي:" يعيشكم عيشا حسنا في خفض ودعة وأمن وسعة"[٦].

وقوله تعالى:{يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا} [هود : ٣]، يعني في الدنيا، وفيه ثلاثة وجوه[٧]:
أحدها : أنه الحلال الكافي .
الثاني : أنه الذي لا كد فيه ولا طلب .
الثالث : أنه المقترن بالصحة والعافية .
عن قتادة :"{يمتعكم متاعا حسنا}، فأنتم في ذلك المتاع، فخذوه بطاعة الله ومعرفة حقه فإن الله منعم يحب الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد من الله، وذلك قضاؤه الذي قضاه"[٨].
وفي قوله تعالى:{إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [هود : ٣]، ثلاثة وجوه:
أحدها : إلى يوم القيامة ، قاله سعيد بن جبير[٩]، و عكرمة[١٠]، وعطية[١١]، وعطاء الخراساني[١٢]، والسدي[١٣]، والربيع بن أنس[١٤].

وروي عن ابن عباس، قوله: "{أجل مسمى}، قال أجل الساعة"[١٥].

وروي عن خالد بن مهران أنه قال: "أجل البعث"[١٦].

الثاني : إلى يوم الموت، قاله ابن عباس[١٧]، واختاره البغوي[١٨].
وروي عن الحسن:" ما بين أن يخلق إلى أن يموت"[١٩].

الثالث : إلى وقت لا يعلمه إلا الله تعالى ، وهو مروي عن ابن عباس أيضا[١].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٤٥٦/٢.
[٢] التفسير الميسر:٢٢١.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٦٤٠):ص١٩٩٦/٦.
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٦٣٩) ، و(١٠٦٤٠):ص١٩٩٦/٦.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٦٤٠):ص١٩٩٦/٦.
[٦] تفسير البغوي:١٦٠/٤.
[٧] انظر: تفسير البغوي:١٦٠/٤، والنكت والعيون:٤٥٦/٢.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٤١):ص١٩٩٧/٦.
[٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٦٤٢):ص١٩٩٧/٦.
[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٩٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[١١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٩٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٩٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٩٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٩٩٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٤٣):ص١٩٩٧/٦.
[١٦] تفسير ابن ابي حاتم:١٩٩٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[١٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦٤٤):ص١٩٩٧/٦.
[١٨] انظر: تفسير البغوي:١٦٠/٤.
[١٩] تفسير ابن ابي حاتم:١٩٩٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد

وروي عن قتادة:" أجل حياتك إلى أن تموت وأجل موتك إلى أن تبعث فأنت بين أجلين من الله"[٢].

قوله تعالى:{وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود : ٣]، أي:" ويُعطِ كل ذي فضل من علم وعمل جزاء فضله كاملا لا نقص فيه"[٣].

قال البغوي:" أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة"[٤].

قالالطبري:" يعني: يثيب كل من تفضَّل بفضل ماله أو قوته أو معروفه على غيره محتسبًا بذلك، مريدًا به وجه الله أجزلَ ثوابه وفضله في الآخرة"[٥].

وفي قوله تعالى:{وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود : ٣]، وجهان:

أحدهما : يهديه إلى العمل الصالح، قاله ابن عباس[٦].

نقل البغوي عن ابن عباس:" من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، ثم يدخل الجنة بعد"[٧].

الثاني : يجازيه عليه في الآخرة ، على قول قتادة[٨].

والثالث: يجازيه عليه في الدنيا، وهذا معنى قول مجاهد [٩].

عن مجاهد :"{ويؤت كل ذي فضل فضله}: ما احتسب به من مال أو عمل بيده أو رجله أو كلامه، وما تطول به من أمره كله"[١٠].

و عن ابن مسعود، في قوله: "{ويؤت كل ذي فضل فضله} ، قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات. وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هلك من غلب آحادُه أعشارَه!!"[١١].

قوله تعالى:{وَإِنْ تَوَلَّوْا} [هود : ٣]، أي:" وإن تعرضوا عمَّا أدعوكم إليه"[١٢].

قال الطبري:" قول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتُهم إليه، من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة الآلهة، وامتنعوا من الاستغفار لله والتوبة إليه، فأدبروا مُوَلِّين عن ذلك"[١٣].

قال ابن عباس:" يعني: الكفار، عن النبي ﷺ وهذه في المؤمنين"[١٤].

قوله تعالى:{فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود : ٣]، أي:" فإني أخشى عليكم عذاب يوم شديد، وهو يوم القيامة"[١٥].

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦٤٦):ص١٩٩٧/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٤٥):ص١٩٩٧/٦.
[٣] التفسير الميسر:٢٢١.
[٤] تفسير البغوي:١٦٠/٤.
[٥] تفسير الطبري:٢٣٠/١٥.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤٥٧/٢.
[٧] تفسير البغوي:١٦٠/٤.
[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦٤٧):ص١٩٩٧/٦.
[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦٤٨):ص١٩٩٧/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٤٨):ص١٩٩٧/٦.
[١١] أخرجه الطبري(١٧٩٣٧):ص٢٣١/١٥.
[١٢] التفسير الميسر:٢٢١.
[١٣] تفسير الطبري:٢٣١/١٥-٢٣٢.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٤٩):ص١٩٩٨/٦.
[١٥] التفسير الميسر:٢٢١.

قال الطبري:يقول:" (فإني) ، أيها القوم، {أخاف عليكم عذاب يوم كبير}، شأنُه عظيمٍ هَوْلُه، وذلك يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون"[١].

قال الماوردي:" فيه إضمار وتقدير : فقل لهم إني أخاف عليكم عذاب يوم كبير يعني يوم القيامة وصفه بذلك لكبر الأمور التي هي فيه"[٢].

عن ابن عباس، في قوله: "{عذاب}، يقول: نكال"[٣].

الفوائد:

١- واجب الإنسان الاستغفار، أي طلب المغفرة من الشرك والذنوب، والتوبة والإنابة إلى الله بالطاعة والعبادة، فمعنى قوله توبوا ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال بعض الصلحاء: "الإستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين"[٤].

٢- إن ثمرة الاستغفار والتوبة وهو الفضل الإلهي على الإنسان المؤمن الطائع أمر عظيم واسع شامل الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تمتيع إلى نهاية العمر المقدر بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، وعدم الاستئصال بالعذاب كما فعل بمن أهلك من الأمم السابقة، فالمتاع الحسن: وقاية من كل مكروه وأمر مخوف، واستمتاع بطيبات الحياة. وفي الآخرة إيتاء كل ذي عمل من الأعمال الصالحة جزاء عمله. ودلت الآية على أن لكل إنسان أجلا واحدا فقط.

القرآن

{إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)} [هود : ٤]

التفسير:

إلى الله رجوعكم بعد موتكم جميعًا فاحذروا عقابه، وهو سبحانه قادر على بعثكم وحشركم وجزائكم.

قوله تعالى:{إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ} [هود : ٤]، أي:" إلى الله رجوعكم بعد موتكم"[٥].

عن أبي العالية قوله: "{إلى الله مرجعكم}، قال: يرجعون إليه بعد الحياة"[٦].

عن الضحاك قوله: "{إلى الله مرجعكم}، قال: البر والفاجر"[٧].

قوله تعالى:{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [هود : ٤]، أي:" وهو سبحانه قادر على بعثكم وحشركم وجزائكم"[٨].

قال محمد بن إسحاق:" أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير"[٩].

الفوائد:

١- مرجع أو معاد الخلائق جميعا بعد الموت إلى الله تعالى القادر على كل شيء من ثواب وعقاب. وهذا ترهيب بعد الترغيب السابق.

---

[١] تفسير الطبري:٢٣٢/١٥.
[٢] النكت والعيون:٤٥٧/٢.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٥٠):ص١٩٩٨/٦.
[٤] انظر: النكت والعيون:٤٥٦/٢، وتفسير القرطبي:٣/٩.
[٥] التفسير الميسر:٢٢١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٥٢):ص١٩٩٨/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٥١):ص١٩٩٨/٦.
[٨] التفسير الميسر:٢٢١.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٥٣):ص١٩٩٨/٦.

٢- ومن اسمائه تعالى:«القدير»: إذ "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"[١].

روي البيهقي عن عبد العزيز قال الحليمي، قال: "و«القدير»: التام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه"[٢].

القرآن

{أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)} [هود : ٥]

التفسير:

إن هؤلاء المشركين يضمرون في صدورهم الكفر؛ ظنًا منهم أنه يخفى على الله ما تضمره نفوسهم، ألا يعلمون حين يغطُّون أجسادهم بثيابهم أن الله لا يخفى عليه سِرُّهم وعلانيتهم؟ إنه عليم بكل ما تُكِنُّه صدورهم من النيات والضمائر والسرائر.

سبب النزول:

قال ابن عباس : "نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق الثقفي "[٣].

قوله تعالى:{أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} [هود : ٥]، أي:" إن هؤلاء المشركين يضمرون في صدورهم الكفر؛ ظنًا منهم أنه يخفى على الله ما تضمره نفوسهم"[٤].

قال أبو رزين:" كان أحدهم يحنى ظهره، ويستغشي بثوبه"[٥].

قال ابن زيد:" هذا حين يناجي بعضهم بعضًا"[٦].

عن ابن عباس قوله: "{يثنون صدورهم}، يقول: يكنُّون"[٧].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس:" يقول: يكتمون ما في قلوبهم"[٨].

وفي قوله تعالى:{أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} [هود : ٥]، أقوال:

أحدها : يثنون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله تعالى ، قاله مجاهد[٩].

الثاني : يثنونها على عداوة النبي -ﷺ- ليخفوها عنه ، قاله الفراء[١٠] والزجاج[١١].

قال الطبري:" وقال آخرون: إنما هذا إخبارٌ من الله نبيَّه ﷺ عن المنافقين الذين كانوا يضمرون له العداوة والبغضاء، ويبدون له المحبة والمودة، أنهم معه وعلى دينه. يقول جل ثناؤه: ألا إنهم يطوون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله، ثم أخبر جل ثناؤه أنه لا يخفى عليه سرائرهم وعلانيتهم"[١٢].

الثالث : يثنونها على ما أضمروه من حديث النفس ليخفوه عن الناس ، قاله الحسن[١٣].

---

[١] شأن الدعاء للخطابي:٨٥.
[٢] الاسما والصفات:١١١/٢.
[٣] انظر: النكت والعيون:٤٥٨/٢.
[٤] التفسير الميسر:٢٢١.
[٥] أخرجه الطبري(١٧٩٤٧):ص٢٣٥/١٥.
[٦] أخرجه الطبري(١٧٩٥٠):ص٢٣٦/١٥.
[٧] أخرجه الطبري(١٧٩٥٥):ص٢٣٧/١٥.
[٨] أخرجه الطبري(١٧٩٥٦):ص٢٣٧/١٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٤١)-(١٧٩٤٥):ص٢٣٤/١٥.
[١٠] انظر: معاني القرآن:٣/٢.
[١١] انظر: معاني القرآن:٣٨/٣.
[١٢] تفسير الطبري:٢٣٥/١٥-٢٣٦.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٤٥٧/٢.

الرابع : أن المنافقين كانوا إذا مرّوا بالنبي -ﷺ- غطوا رؤوسهم وثنوا صدورهم ليستخفوا منه فلا يعرفهم ، قاله عبد الله بن شداد[1].
الخامس : أنهم كانوا يفعلون ذلك لئلا يسمعوا كتاب الله. وهذا قول قتادة[2].
قال قتادة:"كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله، قال تعالى: {ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون}، وذلك أخفى ما يكون ابن آدم، إذا حنى صدره واستغشى بثوبه، وأضمر همَّه في نفسه، فإن الله لا يخفى ذلك عليه"[3].
والسادس: أن رجلاً قال إذا أغلقت بابي وضربت ستري وتغشيت ثوبي وثنيت صدري فمن يعلم بي ؟ فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون.
وروي عن ابن أبي مليكة قال: "سمعت ابن عباس يقرأ «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ»، قال: كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا بثيابهم، كراهة أن يُفْضُوا بفروجهم إلى السماء"[4].
وعن محمد بن عباد بن جعفر، قال: سمعت ابن عباس يقرؤها: «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ»، قال: سألته عنها فقال: كان ناس يستحيون أن يتخلَّوا فيُفْضُوا إلى السماء، وأن يصيبوا فيُفضُوا إلى السماء"[5].
وروي عن الضحاك قوله: "{ألا انهم يثنون صدورهم} يقول:«تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ»"[6].

وروي عن عكرمة: "أن ابن عباس قرأ «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ»، وقال ابن عباس: «تثنوني صدورهم»، الشكُّ في الله، وعمل السيئات ، {يستغشون ثيابهم}، يستكبر، أو يستكنّ من الله، والله يراه، يعلم ما يسرُّون وما يعلنون"[7].
قوله تعالى:{أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [هود : ٥]، أي:" ألا يعلمون حين يغطُّون أجسادهم بثيابهم أن الله لا يخفى عليه سِرُّهم وعلانيتهم؟"[8].
عن ابن عباس: "{ألا حين يستغشون ثيابهم}، يقول: يغطون رءوسهم"[9].
عن قتادة: "{يستغشون ثيابهم}، قال: أخفى ما يكون الإنسان إذا أسرَّ في نفسه شيئًا وتغطَّى بثوبه، فذلك أخفى ما يكون، والله يطلع على ما في نفوسهم، والله يعلم ما يسرُّون وما يعلنون"[10].

عن السدي:" أما {يستغشون ثيابهم}، فيلبسون ثيابهم استغثوا بها على رءوسهم"[11].

قال الطبري:" يعني: يتغشَّون ثيابهم، يتغطونها ويلبسون، يقال منه: استغشى ثوبه وتغشّاه، قال الله: {وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ} [سورة نوح: ٧] ، وقالت الخنساء[12]:

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٣٨)-(١٧٩٤٠):ص١٥/٢٣٣-٢٣٤.
[2] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٤٨)، و(١٧٩٤٩):ص١٥/٢٣٥.
[3] أخرجه الطبري(١٧٩٤٨):ص٦/٢٣٥.
[4] أخرجه الطبري(١٧٩٥١):ص١٥/٢٣٦.
[5] أخرجه الطبري(١٧٩٥٢):ص١٥/٢٣٦.
[6] أخرجه الطبري(١٧٩٥٧):ص١٥/٢٣٧. قال الطبري: (١٥/٢٣٨)" وهذا التأويل الذي تأوّله الضحاك على مذهب قراءة ابن عباس، إلا أن الذي حدثنا، هكذا ذكر القراءة في الرواية".
[7] أخرجه الطبري(١٧٩٥٣):ص١٥/٢٣٧.
[8] التفسير الميسر:٢٢١.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٧٩٥٨):ص١٥/٢٣٩.
[10] أخرجه الطبري(١٧٩٤٩):ص١٥/٢٣٥.
[11] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٧٠):ص٦/٢٠٠٠.
[12]ديوانها: ١٠٩، من شعرها في مراثي أخيها صخر، تقول قبله: إِنِّي أَرِقْتُ فبِتُّ اللَّيْلَ سَاهِرَةً ... كَأَنَّمَا كُحِلَتْ عَيْنِي بِعُوَّارِ
" العوار " القذى. وقولها: " أرعى النجوم "، تراقبها، من غلبة الهم عليها ليلا، فهي ساهرة تأنس بتطويح

أَرْعَى النُّجُومَ وَمَا كُلِّفْتُ رِعْيَتِهَا   وَتَارَةً أَتَغَشَّى فَضْلَ أَطْمَارِي"[1]

قال الصابوني:" وكأن الآية تقول: لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وزواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم"[2].

وفي المراد بقوله تعالى:{حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ} [هود : ٥]، أربعة أقوال[3]:

أحدها : الليل يقصدون فيه إخفاء أسرارهم فيما يثنون صدورهم عليه . والله تعالى لا يخفى عليه ما يسرونه في الليل ولا ما يخفونه في صدروهم ، فكنى عن الليل باستغشاء ثيابهم لأنهم يتغطون بظلمته كما يتغطون إذا استغشوا ثيابهم .

الثاني : أن قوماً من الكفار كانوا لشدة بغضتهم لرسول الله -ﷺ- يستغشون ثيابهم يغطون بها وجوههم ويصمون بها آذنهم حتى لا يروا شخصه ولا يسمعوا كلامه ، وهو معنى قول قتادة[4].

الثالث : أن قوماً من المنافقين كانوا يظهرون لرسول الله -ﷺ- بألسنتهم أنهم على طاعته ومحبته ، وتشتمل قلوبهم على بغضه ومعصيته ، فجعل ما تشتمل عليه قلوبهم كالمستغشي بثيابه .

الرابع : أن قوماً من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبين الله تعالى أن المنسك ما اشتملت قلوبهم عليه من معتقد وما أظهروه من قول وعمل .

وفي قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [هود : ٥]، ثلاثة وجوه[5]:

أحدها : ما يسرون في قلوبهم وما يعلنون بأفواههم .

الثاني : ما يسرون من الإيمان وما يعلنون من العبادات .

الثالث : ما يسرون من عمل الليل وما يعلنون من عمل النهار ، قاله ابن عباس[6].

وروي عن الحسن:"{يعلم ما يسرون وما يعلنون}، قال: في ظلمة الليل وفي أجواف بيوتهم"[7].

قوله تعالى:{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [هود : ٥]، أي:" إنه عليم بكل ما تُكِنُّه صدورهم من النيات والضمائر والسرائر"[8].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بكل ما أخفته صدور خلقه، من إيمان وكفر، وحق وباطل، وخير وشر، وما تستجنُّه مما لم تُجِنُّه بعد... فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون في صُدُوركم الشكّ في شيء من توحيده أو أمره أو نهيه، أو فيما ألزمكم الإيمان به والتصديق، فتهلكوا باعتقادكم ذلك"[9].

قال السعدي:" أي: بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار، التي لم ينطقوا بها، سرا ولا جهرا، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه"[10].

عن محمد بن إسحاق :" والله عليم بذات الصدور، أي: لا يخفى عليه ما في صدورهم بما استخفوا به منكم"[1].

البصر في السماوات. و " الأطمار "، أخلاق الثياب. تقول: طال حدادها وحزنها، فلا تبالي أن يكون لها جديد، فهي في خلقان ثيابها، فإذا طال سهرها وغلبها ما غلبها، تغطت بأطمارها فعل الحزين، وبكت أو انطوت على أحزانها.

[1] تفسير الطبري:٢٣٨/١٥.

[2] صفوة التفاسير:٦/٢.

[3] انظر: النكت والعيون:٤٥٨/٢.

[4] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٤٨)، و(١٧٩٤٩):ص٢٣٥/١٥.

[5] انظر: النكت والعيون:٤٥٨/٢.

[6] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٦٧١):ص٢٠٠٠/٦.

[7] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٦٧٢):ص٢٠٠١/٦.

[8] التفسير الميسر:٢٢١.

[9] تفسير الطبري:٢٣٩/١٥.

[10] تفسير السعدي:٣٧٦.

وعن الحسن:"{إنه عليم بذات الصدور}،: يعلم تلك الساعة"[٢].

الفوائد:

١- بيان جهل المشركين، وشدة ضلالهم، أنهم {يثنون صدورهم} أي: يميلونها {ليستخفوا} من الله، فتقع صدورهم [ص:٣٧٧] حاجبة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم[٣].

٢- ومن اسمائه تعالى: «العليم»، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ ،فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٤].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[٥].

القرآن

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)} [هود : ٦]

التفسير:

لقد تكفَّل الله برزق جميع ما دبَّ على وجه الأرض، تفضلا منه، ويعلم مكان استقراره في حياته وبعد موته، ويعلم الموضع الذي يموت فيه، كل ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك.

قوله تعالى:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود : ٦]، أي:" ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفَّل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً"[٦].

عن ابن عباس، قوله: "{وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}، يعني: كل دابة"[٧].

قال الضحاك:" يعني: كلّ دابة، والناسُ منهم"[٨].

عن مجاهد :"{وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}، ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا، ولكن ما كان من رزق لها فمن الله"[١].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٧٣):ص٢٠٠١/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٧٤):ص٢٠٠١/٦.
[٣] انظر: تفسير السعدي:٣٧٦.
[٤] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.
[٥] شأن الدعاء:٥٧.
[٦] صفوة التفاسير:٦/٢.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٧٥):ص٢٠٠١/٦.
[٨] أخرجه الطبري(١٧٩٦١):ص٢٤١/١٥.

قوله تعالى:{وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود : ٦]، أي:" ويعلم مكان استقراره في حياته وبعد موته، ويعلم الموضع الذي يموت فيه"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود : ٦]، وجوه:

أحدها : مستقرها حيث تأوي ، ومستودعها حيث تموت. قاله ابن عباس[٣].

وعن الربيع بن أنس، قال: "{مستقرها}، أيام حياتها، و{مستودعها}: حيث تموت، ومن حيث تبعث"[٤].

الثاني : مستقرها في الرحم ، ومستودعها في الصلب ، قاله ابن عباس[٥]، وسعيد بن جبير[٦]، ومجاهد[٧]، والضحاك[٨].

وروي عن ابن عباس قال: "المستقر: ما كان في أرحام النساء"[٩]، وروي عن ابن مسعود وقيس بن أبي حاتم وأبي عبد الرحمن السلمي وعطاء ومجاهد والنخعي والضحاك وقتادة والسدي وعطاء الخراساني نحو ذلك[١٠].

وعن ابن عباس :"{ومستودع}، قال: ما كان في أصلاب الرجال"[١١]. وروي، عن قيس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبي عبد الرحمن السلمي وعطاء بن أبي رباح وإبراهيم النخعي ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك[١٢].

وعن إبراهيم بن محمد بن الحنفية، قال: "المستودع: في أرحام النساء"[١٣]. وهو أحد قولي عطاء بن أبي رباح وقول زيد بن علي ابن الحسين[١٤].

الثالث : «المستقر»، في الرحم، و«المستودع»، حيث تموت. قاله عبدالله بن مسعود[١٥].

والرابع: مستقرها في الدنيا ، ومستودعها في الآخرة.

روي عن عبد الله بن مسعود:"{مستقرها}، في الدنيا"[١٦].

عن ابن عباس :{يعلم مستقرها}، قال: مستقرها في الأرض"[١٧].

والخامس: أن مستقرها في الآخرة من جنة أو نار ، ومستودعها في القلب من كفر أو إيمان. أفاده الماوردي[١].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٧٦):ص٦/٢٠٠١.

[٢] التفسير الميسر:٢٢٢.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٦٢):ص١٥/٢٤١، وتفسير ابن ابي حاتم(١٠٦٧٧):ص٦/٢٠٠١، و(١٠٦٨٦):ص٦/٢٠٠٣.

[٤] أخرجه الطبري(١٧٩٧٠):ص١٥/٢٤٣، وتفسير ابن ابي حاتم(١٠٦٨٧):ص٦/٢٠٠٣.أخرج الجزء الأخير من كلامه.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٦٦):ص١٥/٢٤٢.

[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٦٨٥):ص٦/٢٠٠٢-٢٠٠٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٦٥):ص١٥/٢٤٢.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٦٧):ص١٥/٢٤٢.

[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٧٩):ص٦/٢٠٠٢.

[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٦/٢٠٠٢. حكاه دون ذكر الإسناد.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٨٨):ص٦/٢٠٠٣.

[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٦/٢٠٠٣. حكاه دون ذكر الإسناد.

[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٩١):ص٦/٢٠٠٣-٢٠٠٤.

[١٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٦/٢٠٠٤.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٦٨):ص١٥/٢٤٢.

[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٨٠):ص٦/٢٠٠٢.

[١٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٨١):ص٦/٢٠٠٢.

قال الطبري:" قوله: {ويعلم مستقرها}، حيث تستقر فيه، وذلك مأواها الذي تأوي إليه ليلا أو نهارًا ، {ومستودعها}الموضع الذي يودعها، إما بموتها، فيه، أو دفنها... لأن الله جل ثناؤه أخبر أن ما رزقت الدواب من رزق فمنه، فأولى أن يتبع ذلك أن يعلم مثواها ومستقرها دون الخبر عن علمه بما تضمنته الأصلاب والأرحام "(٢).

قوله تعالى:{كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود : ٦]، أي:" ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك"(٣).

عن قتادة، قوله: "{في كتاب مبين}، قال: كل ذلك في كتاب، عند الله مبين"(٤).

قال الطبري:أي: " عدد كل دابة، ومبلغ أرزاقها، وقدر قرارها في مستقرها، ومدة لبثها في مستودعها. كل ذلك في كتاب عند الله مثبت مكتوب {مبين}، يبين لمن قرأه أن ذلك مثبت مكتوب قبل أن يخلقها ويوجدها، وهذا إخبارٌ من الله جل ثناؤه الذين كانوا يثنون صدورهم ليستخفوا منه، أنه قد علم الأشياء كلها، وأثبتها في كتاب عنده قبل أن يخلقها ويوجدها، يقول لهم تعالى ذكره: فمن كان قد علم ذلك منهم قبل أن يوجدهم، فكيف يخفى عليه ما تنطوي عليه نفوسهم إذا ثنوا به صدورهم، واستغشوا عليه ثيابهم؟"(٥).

الفوائد:

١- أن كل شيء من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك فالله خالقه، وكل دابة على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها(٦).

٢- أن الله تعالى ضمن الرزق للخلق، فالله تعالى هو "الرزاق لجميع المخلوقات، فما من موجود في العالم العلوي والعالم السفلي إلا متمتع برزقه مغمور بكرمه"(٧).

ورزقه نوعان:

أحدهما: الرزق النافع الذي لا تبعة فيه وهو موصل للعبد إلى أعلى الغايات، وهو الذي على يد الرسول ﷺ بهدايته وإرشاده، وهو نوعان أيضا: رزق القلوب بالعلوم النافعة والإيمان الصحيح، فإن القلوب لا تصلح وتفلح ولا تشبع حتى يحصل لها العلم بالحقائق النافعة والعقائد الصائبة، ثم التخلق بالأخلاق الجميلة، والتنزه عن الأخلاق الرذيلة، وما جاء به الرسول كفيل بالأمرين على أكمل وجه بلا طريق لها إلا من طريقه.

والنوع الثاني: أن يغني الله عبده بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه.

والأول هو المقصود الأعظم وهذا وسيلة إليه ومعين له فإذا رزق الله العبد العلم النافع والإيمان الصحيح والرزق الحلال والقناعة بما أعطاه الله منه، فقد تمت أموره واستقامت أحواله الدينية والبدنية وهذا النوع من الرزق هو الذي مدحته النصوص النبوية واشتملت عليه الأدعية النافعة.

وأما النوع الثاني، وهو إيصال الباري جميع الأقوات التي تتغذي بها المخلوقات برها وفاجرها المكلفون وغيرهم فهذا قد يكون من الحرام كما يكون من الحلال، وهذا فصل النزاع في مسألة هل الحرام يسمى رزقاً أم لا، فإن أريد النوع الأول وهو الرزق المطلق الذي لا تبعة فيه فلا يدخل فيه الحرام فإن العبد إذا سأل ربه أن يرزقه فلا يريد

---

(١) انظر: النكت والعيون:٤٥٩/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٤١/١٥، ٢٤٣.
(٣) التفسير الميسر:٢٢٢.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٦٩٢):ص٢٠٠٤/٦.
(٥) تفسير الطبري:٢٤٣/١٥.
(٦) انظر: الاعتصام للشاطبي:٢٥٥/٣.
(٧) توضيح الكافية الشافية :١٢٨.

به إلا الرزق النافع في الدين، والبدن وهو النوع الأول، وإن أريد به مطلق الرزق -وهو النوع الثاني - فهو داخل فيه، فما من دابة على الأرض إلا على الله رزقها.
ومثل هذا يقال في النعمة والرحمة ونحوها[1].

٣- أن الله تعالى سمى الإنسان «دابة» في قوله: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}، وليس الإنسان يسمى دابة في العرف حتى لو حلف حالف: ليركبن دابة، لم يجزه ركوب إنسان ولا غيره سوى الدابة المعروفة، فإذا أطلق اللفظ عن القرائن حمل على العرفية، وإذا جاء لغير ذلك، فمع القرائن[2].

القرآن

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)} [هود : ٧]

التفسير:

وهو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن في ستة أيام، وكان عرشه على الماء قبل ذلك؛ ليختبركم أيكم أحسن له طاعةً وعملا وهو ما كان خالصًا لله موافقًا لما كان عليه رسول الله ﷺ. ولئن قلت -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين من قومك: إنكم مبعوثون أحياءً بعد موتكم، لسارعوا إلى التكذيب وقالوا: ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا سحر بيِّن.

قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [هود : ٧]، أي:" وهو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن في ستة أيام"[3].

قوله تعالى:{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود : ٧]، أي:" وكان عرشه على الماء قبل ذلك"[4].

قوله تعالى:{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود : ٧]، أي:" ليختبركم أيكم أحسن له طاعةً وعملا وهو ما كان خالصًا لله موافقًا لما كان عليه رسول الله ﷺ"[5].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وهو الذي خلق السموات والأرض أيها الناس، وخلقكم في ستة أيام {ليبلوكم}، يقول: ليختبركم ، {أيكم أحسن عملا}، يقول: أيكم أحسن له طاعة"[6].

عن قتادة :"{ليبلوكم}، يعني: ليخبركم"[7].

عن ابن جريج، في قوله: "{ليبلوكم}، قال: الثقلين"[8].

عن أبي عجلان قال: قال الله: ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولم يقل أكثر عملا"[9].

وفي قوله تعالى:{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود : ٧]، أربعة وجوه:
أحدها : يعني أيكم أتم عقلاً ، قاله قتادة[1].

---

[1] انظر: اسماء الله الحسنى للسعدي:٢٠٤-٢٠٥، وتوضيح الكافية الشافية للسعدي: ١٢٨ و١٢٩، والحق الواضح المبين للسعدي: ٨٥..
[2] انظر: العواصم والقواصم:١٩٩/٢.
[3] التفسير الميسر:٢٢٢.
[4] التفسير الميسر:٢٢٢.
[5] التفسير الميسر:٢٢٢.
[6] تفسير الطبري:٢٥٠/١٥.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٠٤):ص٢٠٠٦/٦.
[8] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٠٦):ص٢٠٠٦/٦.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٠٦):ص٢٠٠٦/٦. هكذا مرقم بالمطبوع!

الثاني : أيكم أزهد في الدنيا ، وهو قول سفيان[٢].
الثالث : أيكم أكثر شكراً ، قاله الضحاك[٣].
الرابع : ما روى كليب بن وائل عن ابن عمر أن النبي -ﷺ-:" تلا هذه الآية: {أَيُكُم أَحْسَنُ عَمَلاً}، قال: أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله؟"[٤].
قوله تعالى:{وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ} [هود : ٧]، أي:" ولئن قلت -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين من قومك: إنكم مبعوثون أحياءً بعد موتكم"[٥].
قوله تعالى:{لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [هود : ٧]، أي:" ليقولنَّ الكفار المنكرون للبعث والنشور ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح مكشوف"[٦].
الفوائد:

١- أن العرش مخلوق من مخلوقات الله تعالى خلقه وأوجده، قال تعالى {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة ١٢٩] ، فالعرش موصوف بأنه مربوب وكل مربوب مخلوق، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله.
وأما مسألة خلق العرش فقد جاء ذكرها في حديث أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: "كان في عما ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء"[٧].

٢- دلت الآيات والأحاديث على أن خلق العرش متقدم على خلق السموات والأرض، قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود ٧] ، فالآية تدل على أن العرش كان موجوداً على الماء قبل خلق السموات والأرض ويؤيد تفسير الآية بهذا المعنى حديث عمران بن حصين رضي الله عنه الذي جاء فيه أن النبي ﷺ قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض"[٨].
٣- أنه من حِكمه تعالى في خلقه: الابتلاء، قال تعالى: {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ} [الملك: ٢] وقال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الكهف: ٧]، {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [هود: ٧].

القرآن
{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)} [هود : ٨]
التفسير:

---

[١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٧٠٨):ص٢٠٠٦/٦.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٧٠٧):ص٢٠٠٦/٦.
[٣] انظر: النكت والعيون:٤٥٩/٢.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٩٨٩):ص٢٥٠/١٥-٢٥١.
[٥] التفسير الميسر:٢٢٢.
[٦] صفوة التفاسير:٦/٢.
[٧]رواه الترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢)، وأحمد (٤/ ١١) (١٦٢٣٣)، وابن حبان (١٤/ ٨) (٦١٤١). قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقال الذهبي في (العلو) (٢٦): رواه الترمذي وابن ماجه، وإسناده حسن.
[٨]أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى {وَهُوَ اَلَّذِي يَبْدَأُ اَلخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيهِ} . انظر: فتح الباري (٢٨٦/٦، رقم ٣١٩٠).

ولئن أخَّرنا عن هؤلاء المشركين العذاب إلى أجل معلوم فاستبطؤوه، ليقولُنَّ استهزاء وتكذيبًا: أي شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقًا؟ ألا يوم يأتيهم ذلك العذاب لا يستطيع أن يصرفه عنهم صارف، ولا يدفعه دافع، وأحاط بهم من كل جانب عذاب ما كانوا يستهزئون به قبل وقوعه بهم.

قوله تعالى:{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ} [هود : ٨]، أي:" ولئن أخَّرنا عن هؤلاء المشركين العذاب إلى مدةٍ من الزمن قليلة"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولئن أخرنا عن هؤلاء المشركين من قومك، يا محمد، العذابَ فلم نعجله لهم، وأنسأنا في آجالهم إلى {أمة معدودة}، ووقت محدود وسنين معلومة"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ} [هود : ٨]، وجهان:

أحدهما : يعني إلى فناء أمة معلومة ، ذكره علي بن عيسى[٣].

الثاني : إلى أجل معدود، قاله ابن عباس[٤]، ومجاهد[٥]، وقتادة[٦]، والضحاك[٧]، وجمهور المفسرين . وتكون الأمة عبارة عن المدة ، واصلها الجماعة فعبر بها عن المدة لحلولها في مدة

.

قوله تعالى:{لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ} [هود : ٨]، أي:" ليقولُنَّ استهزاء وتكذيبًا: أي شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقًا؟"[٨].

عن ابن جريج قال قوله: "{ليقولن ما يحبسه}، قال: للتكذيب به، أو أنه ليس بشيء"[٩].

قوله تعالى:{أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ} [هود : ٨]، أي:" ألا يوم يأتيهم ذلك العذاب لا يستطيع أن يصرفه عنهم صارف، ولا يدفعه دافع"[١٠].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره تحقيقًا لوعيده وتصحيحًا لخبره: {ألا يوم يأتيهم} العذابُ الذي يكذبون به {ليس مصروفًا عنهم}، يقول: ليس يصرفه عنهم صارف، ولا يدفعه عنهم دافع، ولكنه يحل بهم فيهلكهم"[١١].

وفي قوله تعالى:{لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ} [هود : ٨]، وجهان[١٢]:

أحدهما : أنهم قالوا ذلك تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم .

الثاني : أنهم قالوا ذلك استعجالاً للعذاب واستهزاء ، بمعنى ما الذي حبسه عنا ؟

قوله تعالى:{وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [هود : ٨]، أي:" وأحاط بهم من كل جانب عذاب ما كانوا يستهزئون به قبل وقوعه بهم"[١٣].

قال الطبري:" يقول: ونزل بهم وأصابهم الذي كانوا به يسخرون من عذاب الله. وكان استهزاؤُهم به الذي ذكره الله، قيلهم قبل نزوله {ما يحبسه}، و«هلا تأتينا»؟"[١٤].

قال السدي:" يقول: وقع بهم العذاب الذي استهزءوا به"[١].

---

[١] انظر: التفسير الميسر:٢٢٢، وصفوة التفاسير:٦/٢.

[٢] تفسير الطبري:٢٥٢/١٥.

[٣] انظر: النكت والعيون:٤٦٠/٢.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٩١):ص٢٥٣/١٥.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٩٦)-(١٧٩٩٩):ص٣٥٣/١٥-٣٥٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٩٤):ص٢٥٣/١٥.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٩٩٥):ص٢٥٣/١٥.

[٨] التفسير الميسر:٢٢٢.

[٩] أخرجه الطبري(١٨٠٠٢):ص٢٥٤/١٥.

[١٠] التفسير الميسر:٢٢٢.

[١١] تفسير الطبري:٢٥٤/١٥.

[١٢] انظر: النكت والعيون:٤٦٠/٢.

[١٣] التفسير الميسر:٢٢٢.

[١٤] تفسير الطبري:٢٥٤/١٥.

عن مجاهد: "{وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون}، قال: ما جاءت به أنبياؤهم من الحق"[٢].

الفوائد:

١- تقرير مبدأ البعث الآخر بعد تقرير الألوهية لله تعالى.
٢- لا ينبغي الاغترار بإمهال الله تعالى لأهل معصيته، فإنه قد يأخذهم فجأة وهم لا يشعرون.

القرآن

{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩)} [هود : ٩]

التفسير:

ولئن أعطينا الإنسان مِنَّا نعمة من صحة وأمن وغيرهما، ثم سلبناها منه، إنه لَشديد اليأس من رحمة الله، جَحود بالنعم التي أنعم الله بها عليه.

قوله تعالى:{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً} [هود : ٩]، أي:" ولئن أعطينا الإنسان مِنَّا نعمة من صحة وأمن وغيرهما"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولئن أذَقنا الإنسان منّا رخاء وسعةً في الرزق والعيش، فبسطنا عليه من الدنيا وهي "الرحمة " التي ذكرها تعالى ذكره في هذا الموضع"[٤].

قوله تعالى:{ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ} [هود : ٩]، أي:" ثم سلبناها منه"[٥].

قال الطبري:" يقول: ثم سلبناه ذلك، فأصابته مصائب أجاحته فذهبت به"[٦].

قوله تعالى:{إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ} [هود : ٩]، أي:" إنه لَشديد اليأس من رحمة الله، جَحود بالنعم التي أنعم الله بها عليه"[٧].

قال الطبري:" يقول: يظل قَنِطًا من رحمة الله، آيسًا من الخير"[٨].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين ، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة ، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضي الحال ، كأنه لم ير خيرا ، ولم يَرْج بعد ذلك فرجا"[٩].

عن قتادة، قوله: "{إنه ليؤس كفور}، يقول: إذا ابتلى ببلاء ثم يصبر عليه"[١٠].

عن ابن جريج في قوله: "{ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور}، يا ابن آدم أما كانت نعمة من الله عز وجل من السعة والأمن والعافية فكفور لما بك منها، وإذا نزعت منك يبتغي بك فراغك وعملك فيئوس من روح الله، قنوط من رحمته كذلك أي المنافق والكافر، يئوس أن يرجع ما كان به منها، كفور لما كان من به"[١١].

القرآن

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧١٥):ص٢٠٠٧/٦.
[٢] أخرجه الطبري(١٨٠٠٣):ص٢٥٥/١٥.
[٣] التفسير الميسر:٢٢٢.
[٤] تفسير الطبري:٢٥٥/١٥.
[٥] التفسير الميسر:٢٢٢.
[٦] تفسير الطبري:٢٥٥/١٥.
[٧] التفسير الميسر:٢٢٢.
[٨] تفسير الطبري:٢٥٥/١٥.
[٩] تفسير ابن كثير:٣٠٩/٤.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧١٧):ص٢٠٠٨/٦.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧١٦):ص٢٠٠٧/٦.

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)} [هود : ١٠]

التفسير:

ولئن بسطنا للإنسان في دنياه ووسَّعنا عليه في رزقه بعد ضيق من العيش، ليقولَنَّ عند ذلك: ذهب الضيق عني وزالت الشدائد، إنه لبَطِر بالنعم، مبالغ في الفخر والتعالي على الناس.

قوله تعالى:{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ} [هود : ١٠]، أي:" ولئن بسطنا للإنسان في دنياه ووسَّعنا عليه في رزقه بعد ضيق من العيش"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولئن نحن بسطنا للإنسان في دنياه، ورزقناه رخاءً في عيشه، ووسعنا عليه في رزقه، وذلك هي النّعم التي قال الله جل ثناؤه: {ولئن أذقناه نعماء}، وقوله: {بعد ضراء مسته}، يقول: بعد ضيق من العيش كان فيه، وعسرة كان يعالجها"[٢].

قوله تعالى:{لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي} [هود : ١٠]، أي:" ليقولَنَّ عند ذلك: ذهب الضيق عني وزالت الشدائد"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ليقولن عند ذلك: ذهب الضيق والعسرة عني، وزالت الشدائد والمكاره"[٤].

قال ابن كثير:" أي : يقول : ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء "[٥].

عن ابن جريج قوله: "{ذهب السيئات عني}، غِرَّةً بالله وجراءة عليه"[٦].

قوله تعالى:{إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [هود : ١٠]، أي:" إنه لبَطِر بالنعم، مبالغ في الفخر والتعالي على الناس"[٧].

قال ابن كثير:" أي : فرح بما في يده ، بطر فخور على غيره "[٨].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الإنسان لفرح بالنعم التي يعطاها مسرور بها، {فخور}، يقول: ذو فخر بما نال من السعة في الدنيا، وما بسط له فيها من العيش، وينسى صُرُوفها، ونكدَ العَوَائص فيها، ويدع طلب النعيم الذي يبقى، والسرور الذي يدوم فلا يزول"[٩].

عن ابن جريج قوله: "{إنه لفرح}، والله لا يحب الفرحين،{فخور}، بعد ما أعطي، وهو لا يشكر الله"[١٠].

فوائد الآيتين [:٩-١٠]:

١- ذم اليأس والقنوط وحرمتهما.
٢- ذم الفرح بالدنيا والفخر بها.

القرآن

---

(١) التفسير الميسر:٢٢٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٥٦/١٥.
(٣) التفسير الميسر:٢٢٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٥٦/١٥.
(٥) تفسير ابن كثير:٣٠٩/٤.
(٦) أخرجه الطبري(١٨٠٠٥):ص٢٥٧/١٥.
(٧) التفسير الميسر:٢٢٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٣٠٩/٤.
(٩) تفسير الطبري:٢٥٦/١٥-٢٥٧.
(١٠) أخرجه الطبري(١٨٠٠٥):ص٢٥٧/١٥.

{إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)} [هود : ١١]

التفسير:

لكن الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانًا بالله واحتسابًا للأجر عنده، وعملوا الصالحات شكرا لله على نعمه، هؤلاء لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير في الآخرة.

قوله تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هود : ١١]، أي:" لكن الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانًا بالله واحتسابًا للأجر عنده، وعملوا الصالحات شكرا لله على نعمه"[(١)].

قال الطبري:" فإنهم إن تأتهم شدّة من الدنيا وعسرة فيها، لم يثنهم ذلك عن طاعة الله، ولكنهم صبروا لأمره وقضائه. فإن نالوا فيها رخاء وسعةً، شكروه وأدَّوا حقوقه بما آتاهم منها"[(٢)].

قال ابن كثير:" أي : في الشدائد والمكاره ، { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } أي : في الرخاء والعافية "[(٣)].

عن ابن جريج: "{إلا الذين صبروا}، عند البلاء، {وعملوا الصالحات}، عند النعمة"[(٤)].

وروي عن زيد بن أسلم :"{وعملوا الصالحات}، رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله، عنهم"[(٥)].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [هود : ١١]، أي:" هؤلاء لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير في الآخرة"[(٦)].

عن ابن جريج: "{ألئك لهم مغفرة}، لذنوبهم، {وأجر كبير}، قال: الجنة"[(٧)].

عن قتادة :"{أولئك لهم مغفرة}، يقول: مغفرة لذنوبهم"[(٨)]، " {وأجر كبير}: لحسناتهم وهي الجنة"[(٩)].

قال الطبري:" يقول الله: {أولئك لهم مغفرة} يغفرها لهم، ولا يفضحهم بها في معادهم، {وأجر كبير}، يقول: ولهم من الله مع مغفرة ذنوبهم، ثوابٌ على أعمالهم الصالحة التي عملوها في دار الدنيا، جزيلٌ، وجزاءٌ عظيم"[(١٠)].

قال ابن كثير:" {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ }، أي : بما يصيبهم من الضراء ، { وَأَجْرٌ كَبِيرٌ }، بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث : "والذي نفسي بيده ، لا يصيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ ، ولا نَصَب ولا وَصَب ، ولا حَزَن حتى الشوكة يشاكها ، إلا كَفَّرَ اللهُ عنه بها من خطاياه [(١١)]، وفي الصحيحين : «والذي نفسي بيده ، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد

---

(١) التفسير الميسر:٢٢٢.

(٢) تفسير الطبري:٢٥٧/١٥.

(٣) تفسير ابن كثير:٣٠٩/٤.

(٤) أخرجه الطبري(١٨٠٠٦):ص٢٥٧/١٥-٢٥٨.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٢٠):ص٢٠٠٨/٦.

(٦) التفسير الميسر:٢٢٢.

(٧) أخرجه الطبري(١٨٠٠٦):ص٢٥٧/١٥-٢٥٨.

(٨) أخرجه الن ابي حاتم(١٠٧٢١):ص٢٠٠٨/٦.

(٩)أخرجه الن ابي حاتم(١٠٧٢٢):ص٢٠٠٨/٦.

(١٠) تفسير الطبري:٢٥٧/١٥.

(١١)روى مسلم نحوه في صحيحه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٢٥٧٣) ومن حديث أبي هريرة وحده (٢٥٧٤).

غير المؤمن»[1] وهكذا قال الله تعالى : {وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [سورة العصر] ، وقال تعالى : { إِنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلا الْمُصَلِّينَ } الآية [المعارج : ١٩ - ٢٢]"[2].

الفوائد:

١- بيان كمال المؤمن الروحي المتمثل في الصبر والشكر وبيان جزائه بالمغفرة والجنة.
٢- يعد نعم الدنيا ومصائبها أعظم دليل على رضا الله عز وجل وسخطه، فإذا يسرت له نعم الديا ولم تنله مصائبها زعم أن الله عز وجل راضٍ عنه وعن دينه وعن عمله، وإلا زعن أن الله عز وجل ساخط عليه وعلى دينه وعلى عمله! وقال الله تبارك وتعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)} [الفجر : ١٥ - ١٦]

وقال تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌوَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هود: ٨ – ١١] .

وقال تعلى: {لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُودُعَاءٍ عَرِيضٍ}[فصلت: ٤٩ – ٥١].

وقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١]

وأقرأ من سورة «الفرقان: [٧ – ١١]، ومن سورة «الزخرف: [٣١ – ٣٥].

القرآن

{فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)} [هود : ١٢]

التفسير:

فلعلك -أيها الرسول لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب- تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه، وضائق به صدرك؛ خشية أن يطلبوا منك بعض المطالب على وجه التعنت، كأن يقولوا: لولا أُنزل عليه مال كثير، أو جاء معه ملك يصدقه في رسالته، فبلغهم ما أوحيته إليك؛ فإنه ليس عليك إلا الإنذار بما أُوحي إليك. والله على كل شيء حفيظ يدَبِّر جميع شؤون خلقه.

قوله تعالى:{فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [هود : ١٢]، أي:" فلعلك -أيها الرسول لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب- تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه"[3].

---

[1] مسلم برقم (٢٩٩) بلفظ : "عجبا للمؤمن إن أمره كله خير" من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه وليس في صحيح البخاري.
[2] تفسير ابن كثير:٣٠٩/٤.
[3] التفسير الميسر:٢٢٢.

عن ابن جريج في قوله: "{فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك}، أن تفعل فيه كما أمرت وتدعو إليه كما أرسلت"[١].

قوله تعالى:{وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ} [هود : ١٢]، أي:" وضائق به صدرك؛ خشية أن يطلبوا منك بعض المطالب على وجه التعنت"[٢].

قال ابن كثير:" يقول تعالى مسليّا لرسوله الله ﷺ ، عما كان يتعنت به المشركون ، فيما كانوا يقولونه عن الرسول - كما أخبر تعالى عنهم - : { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأسْوَاقِ لَوْلا أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنز أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا } [الفرقان : ٧ ، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صَدْرُه ، ولا يهيدنه ذلك ولا يُثْنينَّه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر : ٩٧ - ٩٩] ، وقال هاهنا : { فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا } أي : لقولهم ذلك"[٣].

قوله تعالى:{أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ} [هود : ١٢]، أي:" كأن يقولوا: لولا أُنزل عليه مال كثير"[٤].

قوله تعالى:{أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} [هود : ١٢]، أي:" أو جاء معه ملك يصدقه في رسالته"[٥].

قوله تعالى:{إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ} [هود : ١٢]، أي:" لست يا محمد إلا منذراً تخوّف المجرمين من عذاب الله"[٦].

قال ابن كثير:" فإنما أنت نذير ، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك ، فإنهم كُذبُوا وأوذُوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل "[٧].

عن عكرمة، عن ابن عباس قال: "نذيرا من الناس"[٨].

وعن ابن عباس، قال: "قال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[٩].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [هود : ١٢]، أي:" والله على كل شيء حفيظ يدَبِّر جميع شؤون خلقه"[١٠].

عن السدي قوله: "{وكيل}، أما «الوكيل»، فالحفيظ"[١١].

الفوائد:

١- بيان ولاية الله لرسوله وتسديده له وتأييده.

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٢٣):ص٦/٢٠٠٨.
[٢] التفسير الميسر:٢٢٢.
[٣] تفسير ابن كثير:٤/٣١١.
[٤] التفسير الميسر:٢٢٢.
[٥] التفسير الميسر:٢٢٢.
[٦] صفوة التفاسير:٢/٧.
[٧] تفسير ابن كثير:٤/٣١١.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٢٥):ص٦/٢٠٠٩.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٢٤):ص٦/٢٠٠٨.
[١٠] التفسير الميسر:٢٢٢.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٢٧):ص٦/٢٠٠٩. هكذا مرقم بالمطبوع!

٢- بيان أن الرسول ﷺ لم يكلف هداية الناس وإنما كلف إنذارهم عاقبة كفرهم وعصيانهم، وعلى الله تعالى بعد ذلك مجازاتهم.
٣- ومن اسمائه تعالى:«الوكيل»: قال الفراء: الوكيل: الكافي[١]، ويقال معناه: أنه الكفيل بأرزاق العباد، والقائم عليهم بمصالحهم، وحقيقته أنه الذي يستقل بالأمر الموكول إليه ومن هذا قول المسلمين: { حَسْبُنَا اللهُ ونعْمَ الوَكِيلُ} [آل عمران/١٧٣] أي: نعم الكفيل بأمورنا والقائم بها[٢].

القرآن

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)} [هود : ١٣]

التفسير:

بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل «مكة» : إن محمدًا قد افترى هذا القرآن؟ قل لهم: إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من جميع خلق الله ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر، إن كنتم صادقين في دعواكم.

قوله تعالى:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [هود : ١٣]، أي:" أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه؟"[٣].

عن ابن جريج:"{أم يقولون افتراه}، قد قالوه، قل: {فأتوا بعشر سور مثله}"[٤].

قوله تعالى:{قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} [هود : ١٣]، أي:" قل لهم: إن كان الأمر كما تزعمون، فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات"[٥].

عن مجاهد: "{سور مثله}، قال: مثل القرآن"[٦].

عن قتادة قوله: "{سور مثله مفتريات}، قال: مثل هذا القرآن حقا وصدقا لا باطل فيه ولا كذب"[٧].

عن الحسن، في قوله: "{سور مثله}، قال: فلا يستطيعون والله أن يأتوا بسورة من مثله ولو حرصوا"[٨].

قوله تعالى:{وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [هود : ١٣]، أي:" وادعوا من استطعتم من جميع خلق الله ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر"[٩].

عن ابن عباس: "{وادعوا من استطعتم}: من أعوانكم على ما أنتم عليه إن كنتم صادقين"[١٠].

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود : ١٣]، أي:" إن كنتم صادقين في دعواكم"[١١].

---

[١] انظر: معهاني القرآن:١١٦/٢، ١٩٨، .
[٢] انظر: شأن الدعاء:٧٧.
[٣] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم:٢٠٠٩/٦. والخبر غير مرقم بالمطبوع!
[٥] انظر: التفسير الميسر:٢٢٣، وصفوة التفاسير:٧/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٢٨):ص٢٠٠٩/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٢٩):ص٢٠٠٩/٦.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٠):ص٢٠٠٩/٦.
[٩] التفسير الميسر:٢٢٣.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣١):ص٢٠٠٩/٦.
[١١] التفسير الميسر:٢٢٣.

الفوائد:

١- بيان ما كان عليه المشركون من عناد في الحق ومكابرة.
٢- تحدي الله تعالى منكري النبوة والتوحيد بالإتيان بعشر سور من مثل القرآن فعجزوا وقامت عليهم الحجة وثبت أن القرآن كلام الله ووحيه وأن محمدا عبده ورسوله وأن الله لا إله إلا هو.

القرآن
{فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)} [هود : ١٤]
التفسير:
فإن لم يستجب هؤلاء المشركون لكم -أيها الرسول ومَن آمن معك- لما تدعونهم إليه؛ لِعَجْز الجميع عن ذلك، فاعلموا أن هذا القرآن إنما أنزله الله على رسوله بعلمه وليس من قول البشر، واعلموا أن لا إله يُعبد بحق إلا الله، فهل أنتم -بعد قيام هذه الحجة عليكم- مسلمون منقادون لله ورسوله؟

قوله تعالى:{فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ} [هود : ١٤]، أي:" فإن لم يستجب هؤلاء المشركون لكم -أيها الرسول ومَن آمن معك- لما تدعونهم إليه؛ لِعَجْز الجميع عن ذلك، فاعلموا أن هذا القرآن إنما أنزله الله على رسوله بعلمه وليس من قول البشر"[١].
عن مجاهد قال: "«الاستجابة»: الطاعة"[٢].

قوله تعالى:{وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [هود : ١٤]، أي:" واعلموا أن لا إله يُعبد بحق إلا الله"[٣].

عن ابن عباس: "«لا إله إلا الله»، قال: توحيد"[٤].

عن محمد بن إسحاق:«لا إله إلا هو»، قال: ليس معه غيره شريكا في أمره"[٥].

قوله تعالى:{فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [هود : ١٤]، أي:" فهل أنتم -بعد قيام هذه الحجة عليكم- مسلمون منقادون لله ورسوله؟"[٦].
عن مجاهد قوله: "{فهل أنتم مسلمون}، لأصحاب محمد ﷺ"[٧].

الفوائد:

١- الرد على الجهمية في نفيهم علم الله وقدرته.
وقد أجمع المسلمون قبل حدوث الجهمية والمعتزلة والحرورية على أن لله علما لم يزل، وقد قالوا: علم الله لم يزل، وعلم الله سابق في الأشياء ولا يمنعون أن يقولوا في كل حادثة تحدث، ونازلة تنزل: كل هذا سابق في علم الله.
٢- أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة، وذلك لأن المعجزة - التي هي فعل خارق للعادة - تدل بنفسها على ثبوت الصانع، كسائر الحوادث، بل هي أخص من ذلك لأن

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٢):ص٢٠٠٩/٦.
[٣] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٣):ص٢٠١٠/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٤):ص٢٠١٠/٦.
[٦] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٥):ص٢٠١٠/٦.

الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يسبح الربّ عندها، ويمجد، ويعظم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته، ما لا يحصل للمعتاد، إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها، وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبيّن أنه تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله، فتقرر بها الربوبية والرسالة[1].

القرآن

{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥)} [هود : ١٥]

التفسير:

من كان يريد بعمله الحياة الدنيا ومُتَعها نعطهم ما قُسِم لهم من ثواب أعمالهم في الحياة الدنيا كاملا غير منقوص.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك في قوله: "{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها}، قال: نزلت في اليهود والنصارى"[2].

قوله تعالى:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا} [هود : ١٥]، أي:" من كان يريد بعمله الحياة الدنيا ومُتَعها"[3].

عن الحسن :"{من كان يريد الحياة الدنيا}، قال: من كان يريد أن يعجل له حسناته"[4].

وعن الحسن أيضا:"{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها}، قال: طيباتهم"[5].

عن منصور أنه حدثهم ثم قال: "سألت سعيد بن جبير، عن هذه الآية في قول الله تعالى: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها}، قال: هو الرجل يعمل عمل الدنيا لا يريد بها الله وهي مثل الآية في الروم: وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله"[6].

عن عبد الله بن معبد قال: قام رجل إلى علي فقال: أخبرنا، عن هذه الآية؟: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها}، إلى قوله: {وباطل ما كانوا يعملون}، قال: له نعم ويحك ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة"[7].

قوله تعالى:{نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا} [هود : ١٥]، أي:" نعطهم ما قُسِم لهم من ثواب أعمالهم في الحياة الدنيا"[8].

قال الزمخشري:أي:" نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق. وقيل: هم أهل الرياء. يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحمن وتصدق: فعلت حتى يقال، فقيل. ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء"[9].

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى١١/٣٧٨.
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٦):ص٦/٢٠١٠.
[3] التفسير الميسر:٢٢٣.
[4] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤١):ص٦/٢٠١١.
[5] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٢):ص٦/٢٠١١.
[6] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٧):ص٦/٢٠١٠.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٨):ص٦/٢٠١٠.
[8] التفسير الميسر:٢٢٣.
[9] الكشاف:٢/٣٨٤.

قال الصابوني:"أي: نوفّ إليهم أجور أعمالهم بما يحبون فيها من الصحة والأمن والرزق"[١].

قال مجاهد:" نعجل لمن لا يتقبل منه"[٢].

عن الضحاك :"{نوف إليهم أعمالهم فيها}، يقول: يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا، يوسع عليه في المعيشة والرزق ويقر عينه فيما حوله ويدفع، عنه من مكاره الدنيا في نحو هذا وليس له في الآخرة من نصيب"[٣].

عن ابن عباس: "{نوف إليهم أعمالهم فيها}، يقول الله تعالى وفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة"[٤].

وعن ابن عباس أيضا، قوله: "{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون}، وهي الدنيا يعطيهم الله من الدنيا بحسناتهم وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا، يقول: من عمل صالحا التماس الدنيا صوم أو صلاة أو تهجد بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا"[٥].

عن قتادة قوله: "{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون}، يقول: من كانت الدنيا همه وطلبه ونيته وحاجته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفض إلى الآخرة، وليس له فيها حسنة وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة وهم فيها لا يبخسون"[٦].

عن الضحاك قوله: "{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون}، يقول: من عمل عملا صالحا يريد به وجه الله في غير تقوى يعني: أهل الشرك أعطي على ذلك أجرا في الدنيا يصل رحما، يعطي سائلا، يرحم مضطرا في نحو هذا من أعمال البر يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا"[٧].

وقرئ: «يوف»، بالياء، على أن الفعل لله عز وجل. و«توف» إليهم أعمالهم بالتاء، على البناء للمفعول. وفي قراءة الحسن:«نوفى»، بالتخفيف وإثبات الياء، لأن الشرط وقع ماضيا، كقول زهير[٨]:

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ   يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[٩]

قوله تعالى:{وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} [هود : ١٥]، أي:" وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئاً من أجورهم"[١٠].

عن قتادة:"{وهم فيها لا يبخسون}، يقول: لا يظلمون"[١١].

عن مجاهد: "{وهم فيها لا يبخسون}، قال: لا ينقصون"[١٢].

---

[١] صفوة التافسير:٧/٢.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٤):ص٢٠١١/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٥):ص٢٠١١/٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٣):ص٢٠١١/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٣٩):ص٢٠١٠/٦-٢٠١١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٦):ص٢٠١٢/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٠):ص٢٠١١/٦.
[٨]روي "مسغبة" مكان "مسألة". والخليل: الفقير، من الخلة. الديوان: ١٥٣، والأمالي: ١: ١٩٦، والكتاب: ١: ٤٣٦.
[٩] انظر: الكشاف:٣٨٤/٢.
[١٠] صفوة التافسير:٧/٢.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٧):ص٢٠١٢/٦.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٨):ص٢٠١٢/٦.

الفوائد:

١- أن من أنواع الشرك: شرك النية والإرادة والقصد.
٢- بيان حقيقة وهي أن الكفر غير مانع من أن ينتج الكافر بحسب جهده من كسب يده فيحصد إذ زرع، ويربح إذا اتجر، وينتج إذا صنع.

القرآن
{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)} [هود : ١٦]
التفسير:
أولئك ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم يقاسون حرَّها، وذهب عنهم نَفْع ما عملوه، وكان عملهم باطلا لأنه لم يكن لوجه الله.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ} [هود : ١٦]، أي:" أولئك ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم يقاسون حرَّها"[١].
عن الضحاك:" وأما قوله: {أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار}، يقول: ما عملوا من عمل صالح في شركهم، عجل الله لهم ثوابه في الدنيا، ولم يكن لهم في الآخرة إلا النار"[٢].
قوله تعالى:{وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا} [هود : ١٦]، أي:" بطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها"[٣].
عن ابن عباس:"{وحبط ما صنعوا فيها}، يقول: حبط ما صنعوا في الدنيا"[٤].
وعن ابن عباس أيضا، قوله: "{وحبط ما صنعوا فيها}، يقول: وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين"[٥].
عن السدي :"{وحبط ما صنعوا فيها}، قال: وحبط ما عملوا من خير"[٦].
عن أبي مالك :"{وحبط}، يعني: بطل"[٧].

قال الزمخشري:" وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعنى: لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا"[٨].

قوله تعالى:{وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود : ١٦]، أي:" وباطل ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات"[٩].
قال الزمخشري:" أى: كان عملهم في نفسه باطلا، لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له"[١٠].

عن السدي:"{وباطل ما كانوا يعملون}، قال: وباطل في الآخرة ليس لهم فيها جزاء"[١].
جزاء"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٤٩):ص٢٠١٢/٦.
[٣] صفوة التفاسير:٧/٢.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٥٣):ص٢٠١٣/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٥٢):ص٢٠١٣/٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٥١):ص٢٠١٢/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٥٠):ص٢٠١٢/٦.
[٨] الكشاف:٣٨٤/٢.
[٩] صفوة التفاسير:٧/٢.
[١٠] الكشاف:٣٨٤/٢.

عن ابن عباس :"{وباطل ما كانوا يعملون}،: في الدنيا"[٢].
وقرئ: «وبطل» على الفعل. وعن عاصم: «وباطلا» بالنصب، وفيه وجهان [٣]:

أحدهما: أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون، ومعناه: وباطلا، أى: باطل كانوا يعملون.

والثاني: وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلانا ما كانوا يعملون

الفوائد:

١- بيان أن الكافر لا ينتفع من عمله في الدنيا ولو كان صالحا وأن الخسران لازم له.
٢- أنه من رغب عن الله وما عنده من الجزاء لأوليائه المؤمنين، وعصى رسله واتبع هواه مريداً للدنيا وزينتها ومؤثرها على إتباع أوامره تعالى واجتناب مناهيه ، فليس له في الآخرة إلاَّ النار.

القرآن
{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)} [هود : ١٧]
التفسير:
أفمَن كان على حجة وبصيرة من ربه فيما يؤمن به، ويدعو إليه بالوحي الذي أنزل الله فيه هذه البينة، ويتلوها برهان آخر شاهد منه، وهو جبريل أو محمد عليهما السلام، ويؤيد ذلك برهان ثالث من قبل القرآن، وهو التوراة -الكتاب الذي أنزل على موسى إمامًا ورحمة لمن آمن به-، كمن كان همه الحياة الفانية بزينتها؟ أولئك يصدِّقون بهذا القرآن ويعملون بأحكامه، ومن يكفر بهذا القرآن من الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ فجزاؤه النار، يَرِدُها لا محالة، فلا تك -أيها الرسول- في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله تعالى بعد ما شهدت بذلك الأدلة والحجج، واعلم أن هذا الدين هو الحق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يصدِّقون ولا يعملون بما أُمروا به.

سبب النزول:

قال مقاتل:" وذلك أن كفار قريش قالوا: ليس القرآن من الله. إنما تقوله محمد وإنما يلقيه «الري»، وهو شيطان يقال له: «الري»، على لسان محمد- ﷺ- فأنزل الله: {فلا تك في مرية منه}.."[٤].

قوله تعالى:{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} [هود : ١٧]، أي:" أفمَن كان على حجة وبصيرة من ربه فيما يؤمن به، ويدعو إليه بالوحي الذي أنزل الله فيه هذه البينة"[٥].
وفي قوله تعالى:{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} [هود : ١٧]، أربعة أقوال:
أحدها : أنه القرآن ، قاله عبد الرحمن بن زيد .
الثاني : محمد -ﷺ- ، قاله الحسين بن علي[٦]، والحسن بن علي[٧]،محمد بن علي بن الحنفية[١]، ومجاهد[٢]، وسفيان[٣]، وأبو العالية[٤]، وأبو صالح[٥]، وإبراهيم[٦]، وعكرمة[٧]،

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٥٤):ص٢٠١٣/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم:٢٠١٣/٦. والخبر باسناد ابن المبارك عن ابن جريج عن ابن عباس.
[٣] انظر: الكشاف:٣٨٤/٢.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٦/٢.
[٥] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٤٠):ص٢٧١/١٥.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٤١)، و(١٨٠٤٢):ص٢٧١/١٥.

والضحاك[8]،وقتادة[9]، والسدي[10]، وابن زيد[11]، وخصيف[12]، وابن عيينة[13]، والفراء[14]، وابن قتيبة[15].
الثالث : الحجج الدالة على توحيد الله تعالى ووجوب طاعته ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[16].
والرابع: أن البينة هي الإشراف على القلوب والحكمة على الغيوب. ذكره الماوردي عن بعض المتصوفة[17].
قال الفراء:" فالذي على البينة من ربه: محمد ﷺ"[18].

قوله تعالى:{وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} [هود : ١٧]، أي:" ويتبعه شاهد من الله بصدقه"[19].
عن ابن عباس، "قوله: {ويتلوه شاهد منه}، فهو جبريل شاهد من الله بالذي يتلو من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﷺ"[20].
عن مجاهد في قوله: "{ويتلوه شاهد منه}، قال جبريل: تلا التوراة والإنجيل والقرآن، وهو الشاهد من الله عز وجل"[21].
قال الفراء:"يعني: جبريل -عليه السلام- يتلو القرآن، «الهاء» للقرآن "[22].

وقال ابن قتيبة:" {وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ}، أي: من ربّه. «الهاء» مردودة إلى الله تعالى، والشاهد من الله تعالى للنبي، صلّى الله عليه وسلم: جبريل عليه السلام، يريد أنه يتبعه ويؤيّده ويسدّده ويشهده، ويقال: الشاهد: «القرآن» {يَتْلُوهُ} يكون بعده تاليا شاهدا له، وهذا أعجب إليّ، لأنّه يقول: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى}، يعني: التوراة، {إِماماً وَرَحْمَةً}، قبل القرآن يشهد له بما قدّم الله فيها من ذكره"[23].

وفي قوله تعالى:{وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} [هود : ١٧]، سبعة أقوال:

---

(١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٠١٣/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٤٤):ص٢٧٢/١٥.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٤٧):ص٢٧٢/١٥.
(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٧٥٥)ص:٢٠١٣/٦.
(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٠١٣/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٤٦):ص٢٧٢/١٥.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٤٥):ص٢٧٢/١٥.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٠١٣/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٣٥):ص٢٧٠/١٥.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٠١٣/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٨٠٤٣):ص٢٧١/١٥-٢٧٢.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٠١٣/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٠١٣/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(١٤) انظر: معاني القرآن:٦/٢.
(١٥) انظر: تأويل مشكل القرآن:٢٢٦.
(١٦) انظر: النكت والعيون:٤٦١/٢.
(١٧) انظر: النكت والعيون:٤٦١/٢.
(١٨) معاني القرآن:٦/٢.
(١٩) صفوة التفاسير:٧/٢.
(٢٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٦١):ص٢٠١٤/٦.
(٢١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٦٢):ص٢٠١٤/٦.
(٢٢) معاني القرآن:٦/٢.
(٢٣) تأويل مشكل القرآن:٢٢٦.

أحدها : أنه لسانه يشهد له بتلاوة القرآن ، قاله الحسن[١]، وقتادة[٢]، ومنه قول الأعشى[٣]:
فلا تحسبنّي كافراً لك نعمةً   على شاهدي يا شاهد الله فاشهد .
الثاني : أنه محمد -ﷺ- شاهد من الله تعالى ، قاله الحسين بن علي[٤].
الثالث : أنه جبريل عليه السلام ، قاله ابن عباس[٥]، وأبو العالية[٦]، وأبو صالح[٧]، ومجاهد -في -في إحدى الروايات-[٨]، وإبراهيم[٩]، وعكرمة[١٠]، والضحاك[١١]، وعطاء الخراساني[١٢]، وخصيف[١٣].
الرابع : أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

روي عن عبد الله بن نجيّ قال:" قال علي رضى الله عنه: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان. فقال له رجُل: فأنتَ فأي شيء نزل فيك؟ فقال علي: أما تقرأ الآية التي نزلت في هود: {ويتلوه شاهد منه}"[١٤].

وأخرج ابن ابي حاتم عن المنهال، عن عباد بن عبد الله قال: "قال علي: ما في قريش من أحد إلا وقد نزلت فيه آية مثل له فما نزل فيك: قال: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ}"[١٥].

الخامس : أنه ملك يحفظه ، قاله مجاهد[١٦]، وأبو العالية[١٧].

والسادس: ما روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله: "{أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه}، قال: رسول الله ﷺ كان على بينة من ربه والقرآن يتلوه شاهدا أيضا لأنه من رسول الله ﷺ"[١٨].

والسابع: معناه: ويتلوه شاهد من نفسه بمعرفة حججه ودلائله وهو عقله ووحدته ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[١٩].

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال التي ذكرناها بالصواب في تأويل قوله: (ويتلوه شاهد منه) ، قولُ من قال: «هو جبريل»، لدلالة قوله: {ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمةً}، على صحة ذلك. وذلك أن نبي الله ﷺ لم يتلُ قبل القرآن كتاب موسى، فيكون ذلك دليلا على صحة قول من قال: «عنى به لسان محمد ﷺ، أو: محمد نفسه، أو: عليّ» على قول من قال: «عني به علي». ولا يعلم أنّ أحدًا كان تلا ذلك قبل القرآن، أو جاء به، ممن ذكر أهل التأويل أنه عنى بقوله: {ويتلوه شاهد منه}، غير جبريل عليه السلام"[٢٠].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٣١)-(١٨٠٣٦):ص١٥/٢٧٠.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٣٧):ص١٥/٢٧٠.
[٣] انظر: النكت والعيون:٢/٤٦١.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٧٥٨):ص٦/٢٠١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٤٩):ص١٥/٢٧٣، وتفسير ابن ابي حاتم(١٠٧٦٠):ص٦/٢٠١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٦١):ص١٥/٢٧٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٥٨):ص١٥/٢٧٤.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٥٢):ص١٥/٢٧٣، و(١٨٠٦٥):ص١٥/٢٧٥
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٥٠):ص١٥/٢٧٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٦٢):ص١٥/٢٧٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٥٩):ص١٥/٢٧٤.
[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٦/٢٠١٤. حكاه دون ذكر الإسناد.
[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٦/٢٠١٤. حكاه دون ذكر الإسناد.
[١٤] أخرجه الطبري(١٨٠٤٨):ص١٥/٢٧٢.
[١٥] تفسير ابن ابي حاتم(١٠٧٦٤):ص٦/٢٠١٤-٢٠١٥.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٦٦)-(١٨٠٧١):ص١٥/٢٧٥، وتفسير ابن ابي حاتم(١٠٧٦٣):ص٦/٢٠١٤.
[١٧] انظر: النكت والعيون:٢/٤٦١.
[١٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٦٥):ص٦/٢٠١٥.
[١٩] انظر: النكت والعيون:٢/٤٦٢.
[٢٠] تفسير الطبري:١٥/٢٧٦.

قوله تعالى:{وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً} [هود : ١٧]، أي:" ومن قبل القرآن كتاب التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوةً في الخير ورحمة لمن نزل عليهم"[١].

قال الطبري:" ومن قبله كتاب موسى إمامًا لبني إسرائيل يأتمُّون به، ورحمةً من الله تلاه على موسى"[٢].

عن إبراهيم، في قوله: "{ومن قبله كتاب موسى}، قال: من قبله جاء بالكتاب إلى موسى"[٣].

عن ابن عباس في قوله :"{ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة}، قال: فمن قبله تلا التوراة على موسى، كما تلا القرآن على محمد ﷺ"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى} [هود : ١٧]، وجهان:

أحدهما : ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ، قاله ابن زيد[٥].

الثاني : ومن قبل محمد كتاب موسى ، قاله مجاهد[٦].

وفي قوله تعالى:{إِمَامًا وَرَحْمَةً} [هود : ١٧]، وجهان[٧]:

أحدهما يعني متقدماً علينا ورحمة لهم .

الثاني : إماماً للمؤمنين لاقتدائهم بما فيه ورحمة لهم .

قوله تعالى:{أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [هود : ١٧]، أي:" أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدّقون بالقرآن حق التصديق"[٨].

قال الماوردي:" يعني: من كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه"[٩].

قال الطبري:" يقول: هؤلاء الذين ذكرت، يصدقون ويقرّون به، إن كفر به هؤلاء المشركون الذين يقولون: إن محمدًا افتراه"[١٠].

عن سعيد بن جبير في قول الله: "{ليؤمنوا}، قال: ليصدقوا"[١١]،"قوله: {به}، يعني: ليصدقوا بالله تعالى ورسوله"[١٢].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [هود : ١٧]، أي:" ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان، فله نار جهنم يردها لا محالة"[١٣].

عن ابن جريج في قوله: "{ومن يكفر به}، بالقرآن {من الأحزاب}"[١٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن يكفر بهذا القرآن، فيجحد أنه من عند الله {من الأحزاب} وهم المتحزّبة على مللهم، {فالنار موعده}، أنه يصير إليها في الآخرة بتكذيبه"[١٥].

قال الماوردي:" {فَالْنَّارُ مَوْعِدُهُ}، أي: أنها مصيره ، قال حسان بن ثابت :

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً ... فالنار موعِدُها والموت لاقيها"[١]

---

[١] صفوة التفاسير:٨/٢.
[٢] تفسير الطبري:٢٧٧/١٥.
[٣] أخرجه الطبري(١٨٠٧٢):ص٢٧٧/١٥.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٦٧):ص٢٠١٥/٦.
[٥] انظر: النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[٧] انظر: النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[٨] صفوة التفاسير:٨/٢.
[٩] النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[١٠] تفسير الطبري:٢٧٨/١٥.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٦٨):ص٢٠١٥/٦.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٦٨):ص٢٠١٥/٦.
[١٣] صفوة التفاسير:٨/٢.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم:١٠١٥/٦. باسناده ابن مبارك عن ابن جريج.
[١٥] تفسير الطبري:٢٧٨/١٥.

وفي قوله تعالى:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ} [هود : ١٧]، قولان:
أحدهما : أنهم أهل الأديان كلها، لأنهم يتحزبون : قاله سعيد بن جبير [٢].
الثاني : هم المتخزبون على رسول الله -ﷺ- المجتمعون على محاربته [٣].
وفي المراد بهم وجوه:
أحدها : قريش، قاله السدي[٤].
الثاني : اليهود والنصارى ، قاله سعيد بن جبير[٥]، وقتادة[٦].
وروي عن أبي موسى الأشعري: "أن رسول الله ﷺ قال: من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني، فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة"[٧].
الثالث : أهل الملل كلها. وهذا مروي عن سعيد بن جبير أيضا[٨].
وروي عن قتادة: "{ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) ، قال: الكفارُ أحزابٌ كلهم على الكفر"[٩].
وروي عن أيوب قال: "نبئت أن سعيد بن جبير قال: ما بلغني حديثٌ عن رسول الله ﷺ، على وَجهه إلا وجدت مصداقَه في كتاب الله تعالى، حتى قال: «لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصرانيّ، ثم لا يؤمن بما أرسلت به إلا دخل النار». قال سعيد، فقلت: أين هذا في كتاب الله؟ حتى أتيت على هذه الآية: {ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمةً أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده}، قال: من أهل الملل كُلّها"[١٠].
قوله تعالى:{فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ} [هود : ١٧]، أي:" فلا تكن في شكٍ من هذا القرآن"[١١].
قال الطبري:" يقول: فلا تك في شك منه، من أن موعدَ من كفر بالقرآن من الأحزاب النارُ، وأن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك من عند الله"[١٢].
وفي قوله تعالى:{فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ} [هود : ١٧] وجهان:
أحدهما : في شكّ من القرآن. قاله مقاتل[١٣].
الثاني : في مرية من أن النار موعد الكفار ، قاله الكلبي[١٤].
قال الماوردي:"وهذا خطاب للنبي -ﷺ- والمراد به جميع المكلفين"[١٥].
قوله تعالى:{إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [هود : ١٧]، أي:" إنه الحق الثابت المنزّل من عند الله"[١٦].
قال الطبري:" ثم ابتدأ جل ثناؤه الخبر عن القرآن فقال: إن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، يا محمد، الحقّ من ربك لا شك فيه"[١].

---

[١] النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٧٣):ص٢٧٩/١٥.
[٣] انظر: النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[٤] انظر: النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[٥] انظر: النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٧٨):ص١٨٠/١٥-١٨١.
[٧] أخرجه الطبري(١٨٠٧٩):ص٢٨١/١٥.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٧٤):ص٢٧٩/١٥-٢٨٠.
[٩] أخرجه الطبري(١٨٠٧٧):ص٢٨٠/١٥.
[١٠] أخرجه الطبري(١٨٠٧٣):ص٢٧٩/١٥.
[١١] صفوة التفاسير:٨/٢.
[١٢] تفسير الطبري:٢٧٩/١٥.
[١٣] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٦/٢.
[١٤] انظر: النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[١٥] النكت والعيون:٤٦٢/٢.
[١٦] صفوة التفاسير:٨/٢.

عن محمد بن إسحاق :"{الحق من ربك}، قال: ما جاءك من الخير"[2].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [هود : ١٧]، أي:" ولكن أكثر الناس لا يصدِّقون ولا يعملون بما أُمروا به"[3].

قال مقاتل:" يعني: ولكن أكثر أهل مكة لا يصدقون بالقرآن أنه من عند الله- تعالى"[4].

قال الطبري:" ولكنّ أكثر الناس لا يصدِّقون بأن ذلك كذلك-أي: «إن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، يا محمد، الحقّ من ربك»، فإن قال قائل: أوَ كان النبي ﷺ في شكٍّ من أن القرآن من عند الله، وأنه حق، حتى قيل له: "فلا تك في مرية منه"؟ قيل: هذا نظير قوله: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ} [سورة يونس: ٩٤]"[5].

الفوائد:

١- المسلمون على بينة من دينهم، وسائر أهل الأديان الأخرى لا بينة لهم وهم في ظلام التقليد وضلال الكفر والجهل.
٢- بيان سنة الله في الناس وهي أن أكثرهم لا يؤمنون.

القرآن
{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)} [هود : ١٨]
التفسير:
ولا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذبًا، أولئك سيعرضون على ربهم يوم القيامة؛ ليحاسبهم على أعمالهم، ويقول الأشهاد من الملائكة والنبيين وغيرهم: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم في الدنيا قد سخط الله عليهم، ولعنهم لعنة لا تنقطع؛ لأن ظلمهم صار وصفًا ملازمًا لهم.

سبب النزول:

عن عكرمة قال: "قال النضر وهو من بني عبد الدار: إذ كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فأنزل الله تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا}"[6].

قوله تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [هود : ١٨]، أي:" ولا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذبًا"[7].

قال البغوي:" فزعم أن له ولدا أو شريكا، أي: لا أحد أظلم منه"[8].

عن ابن جريج:"{ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا}، قال: هم الكفار والمنافقون"[9].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ} [هود : ١٨]، أي:" أولئك سيعرضون على ربهم يوم القيامة؛ ليحاسبهم على أعمالهم"[10].

قال الزمخشري:أي:" يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم"[1].

---

[1] تفسير الطبري:٢٧٩/١٥.
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧١):ص٢٠١٦/٦.
[3] التفسير الميسر:٢٢٣.
[4] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/٢.
[5] تفسير الطبري:٢٧٩/١٥.
[6] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧٢):ص٢٠١٦/٦.
[7] التفسير الميسر:٢٢٣.
[8] تفسير البغوي:١٦٨/٤.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧٣):ص٢٠١٦/٦.
[10] التفسير الميسر:٢٢٣.

قال البغوي:" {أولئك}، يعني: الكاذبين والمكذبين، {يعرضون على ربهم} فيسألهم عن أعمالهم"[٢].

قال ابن جريج:" فيسألهم، عن أعمالهم"[٣].

عن صفوان بن محرز قال: "قيل لعبد الله بن عمر، كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر في النجوى؟ فقال: سمعته يقول: يدنو المؤمن من ربه عز وجل يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ثم يقرئه بذنوبه هل تعرف؟ فيقول: يا رب أعرف حتى إذا بلغ منه ما شاء أن يبلغ يقول له تبارك وتعالى: فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفر لك اليوم قال ثم يعطى صحيفة حسابه أو قال: كتابه بيمينه وأما الكافر والمنافق فينادى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين"[٤].

قوله تعالى:{وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ} [هود : ١٨]، أي:" ويقول الأشهاد من الملائكة والنبيين وغيرهم: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم في الدنيا"[٥].

قال الزمخشري:"ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولدا وشريكا"[٦].

قال ابن كثير:" يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الخلائق ؛ من الملائكة ، والرسل ، والأنبياء ، وسائر البشر والجان ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز وعفان قالا أخبرنا هَمَّام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن مُحْرِز قال : كنت آخذًا بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل قال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول : "إن الله عز وجل يدني المؤمن ، فيضع عليه كنَفَه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قَرَّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول:{ الأشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ }»[٧] "[٨].

عن الضحاك قوله: "{ويقول الأشهاد}، يعني: الأنبياء والرسل"[٩]، "يقولون: يا ربنا أتيناهم بالحق، فكذبوا فنحن نشهد أنهم كذبوا عليك يا ربنا"[١٠].

وقال مجاهد:" هؤلاء الملائكة يشهدون على بني آدم بأعمالهم"[١١].

وقال زيد بن اسلم:" الأشهاد أربعة: الأنبياء والملائكة والمؤمنون والأجساد"[١٢].

قوله تعالى:{أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود : ١٨]، أي:" قد سخط الله عليهم، ولعنهم لعنة لا تنقطع؛ لأن ظلمهم صار وصفًا ملازمًا لهم"[١٣].

قال الزمخشري:" ويقال: «ألا لعنة الله على الظالمين»، فوا خزياه ووا فضيحتاه"[١٤].

---

[١] الكشاف:٣٨٥/٢.
[٢] تفسير البغوي:١٦٨/٤.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم:٢٠١٦/٦. بإسناد علي بن المبارك.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧٤):ص٢٠١٦/٦.
[٥] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٦] الكشاف:٣٨٥/٢.
[٧]المسند (٧٤/٢) وصحيح البخاري برقم (٤٦٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٨).
[٨] تفسير ابن كثير:٣١٤/٢.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧٦):ص٢٠١٧/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧٨):ص٢٠١٧/٦.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧٧):ص٢٠١٧/٦.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧٥):ص٢٠١٦/٦-٢٠١٧.
[١٣] التفسير الميسر:٢٢٣.
[١٤] الكشاف:٣٨٥/٢.

عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: "هذا كتاب رسول الله ﷺ، عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن فقال: إن الله كره الظلم، ونهى، عنه وقال: {ألا لعنة الله على الظالمين}"[١].

عن إبراهيم قال: "لعن بعض هؤلاء الجبابرة الحجاج أو غيره فقال: {ألا لعنة الله على الظالمين}"[٢].

عن ميمون بن مهران قال: "إن الرجل ليصلي ويلعن نفسه في قراءته، فيقول: ألا لعنة الله على الظالمين، وإنه لظالم"[٣].

الفوائد:

١- عظم ذنب من يكذب على الله تعالى بنسبة الولد أو الشريك إليه أو بالقول عليه بدون علم منه.
٢- بيان فضيحة المشركين أمام الخلائق يوم العرض.

القرآن

{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)} [هود : ١٩]

التفسير:

هؤلاء الظالمون الذين يمنعون الناس عن سبيل الله الموصلة إلى عبادته، ويريدون أن تكون هذه السبيل عوجاء بموافقتها لأهوائهم، وهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون ببعث ولا جزاء.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [هود : ١٩]، أي:" هؤلاء الظالمون الذين يمنعون الناس عن سبيل الله الموصلة إلى عبادته"[٤].

قال ابن كثير:" أي: يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبونهم الجنة "[٥].

عن ابن عباس، قوله: "{يصدون عن سبيل الله}، قال: عن دين الله عز وجل"[٦].

عن السدي قوله: "{الذين يصدون عن سبيل الله }، قال: هو محمد ﷺ صدت قريش، عنه الناس"[٧].

قوله تعالى:{وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} [هود : ١٩]، أي:" ويريدون أن تكون هذه السبيل عوجاء بموافقتها لأهوائهم"[٨].

قال ابن كثير:" أي : ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة "[٩].

عن ابي مالك، قوله: {ويبغونها عوجا}، يعني: يرجون بمكة غير الإسلام دينا"[١٠].

عن السدي: "{يبغونها عوجا}: كانوا إذا سألهم أحد هل تجدون محمدا: قالوا لا فصدوا، عنه الناس وبغوا محمدا عوجا هلاكا"[١].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٧٩):ص٢٠١٧/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٠):ص٢٠١٧/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨١):ص٢٠١٧/٦.
[٤] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٥] تفسير ابن كثير:٣١٤/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٣):ص٢٠١٧/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٢):ص٢٠١٧/٦.
[٨] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٩] تفسير ابن كثير:٣١٤/٢.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٤):ص٢٠١٧/٦.

قال الزمخشري:" {ويبغونها عوجا}، يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة. أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد"[٢].

قوله تعالى:{وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [هود : ١٩]، أي:" وهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون ببعث ولا جزاء"[٣].

قال قتادة:" لا يؤمنون بها"[٤].

قال الزمخشري:" و{هم} الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به"[٥].

الفوائد:

١- عظم جرم من يصد عن الإسلام بلسانه أو بحاله، أو سلطانه.
٢- عظم ذنب من يريد إخضاع الشريعة الإسلامية لهواه وشهواته بالتأويلات الباطلة والفتاوى غير المسؤولة ممن باعوا آخرتهم بدنياهم.

القرآن

{أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠)} [هود : ٢٠]

التفسير:

أولئك الكافرون لم يكونوا ليفوتوا الله في الدنيا هربًا، وما كان لهم مِن أنصار يمنعونهم من عقابه. يضاعَفُ لهم العذاب في جهنم؛ لأنهم كانوا لا يستطيعون أن يسمعوا القرآن سماع منتفع، أو يبصروا آيات الله في هذا الكون إبصار مهتد؛ لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} [هود : ٢٠]، أي:" أولئك الكافرون لم يكونوا ليفوتوا الله في الدنيا هربًا"[٦].

عن ابن عباس، في قوله: "{معجزين}، قال: مسابقين"[٧].

قال الزمخشري" أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم"[٨].

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ} [هود : ٢٠]، أي:" وما كان لهم مِن أنصار يمنعونهم من عقابه"[٩].

قال الزمخشري:أي:" وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد"[١٠].

قوله تعالى:{يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ} [هود : ٢٠]، أي:" يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم"[١١].

قال قتادة:" أي: عذاب الدنيا والآخرة"[١٢].

وقرئ: «يضعف»[١٣].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٥):ص٢٠١٧/٦.
[٢] الكشاف:٣٨٥/٢-٣٨٦.
[٣] التفسير الميسر:٢٢٣.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٦):ص٢٠١٧/٦.
[٥] الكشاف:٣٨٦/٢.
[٦]التفسير الميسر:٢٢٤.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٧):ص٢٠١٨/٦.
[٨] الكشاف:٣٨٦/٢.
[٩]التفسير الميسر:٢٢٤.
[١٠] الكشاف:٣٨٦/٢.
[١١] صفوة التفاسير:٨/٢.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٨):ص٢٠١٨/٦.
[١٣] انظر: الكشاف:٣٨٦/٢.

قوله تعالى:{مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} [هود : ٢٠]، أي:" سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً، ولكنهم كانوا صُما عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس"[١].

قال قتادة:" يقول: صم، عن الحق فلا يسمعونه"[٢].

وقال قتادة أيضا:" ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيرا فينتفعوا به ولا يبصروا خيرا فيأخذوا به"[٣].

قال الزمخشري:أي:" أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له، كأنهم لا يستطيعون السمع"[٤].

قال ابن كثير:" أي : يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا صُمًّا عن سماع الحق ، عُميا عن اتباعه ، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار : { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [الملك : ١٠] ، وقال تعالى : { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [النحل : ٨٨] ؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه ، وعلى كل نهي ارتكبوه ؛ ولهذا كان أصحَّ الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة"[٥].

الفوائد:

١- بيان أن من كره قولا أو شخصا لا يستطيع رؤيته ولا سماعه.

أن " الاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى :{لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) [البقرة: ٢٨٦]"[٦].

قال الالباني:" والأولى قال بها الأشاعرة والأخرى قال بها المعتزلة والصواب القول بهما معا على التفصيل الذي ذكره المؤلف رحمه الله تعالى وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بيانا شافيا لا بأس من نقله بتمامه لأهميته.

قال رحمة الله عليه في مجموع الفتاوى[٧] :

"قد تكلم الناس من أصحابنا وغيرهم في استطاعة العبد هل هي مع فعله أم قبله؟ وجعلوها قولين متناقضين فقوم جعلوا الاستطاعة مع الفعل فقط وهذا هو الغالب على مثبتة القدر المتكلمين من أصحاب الأشعري ومن وافقهم من أصحابنا وغيرهم.

وقوم جعلوا الاستطاعة قبل الفعل وهو الغالب على النفاة من المعتزلة والشيعة وجعل الأولون القدرة لا تصلح إلا لفعل واحد إذ هي مقارنة له لا تنفك عنه وجعل الآخرون الاستطاعة لا تكون إلا صالحة للضدين ولا تقارن الفعل أبدا والقدرية أكثر انحرافا فإنهم يمنعون أن يكون مع الفعل قدرة بحال فإن عندهم أن المؤثر لا بد أن يتقدم على الأثر لا يقارنه بحال سواء في

---

[١] صفوة التفاسير:٨/٢.

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٩):ص٢٠١٨/٦.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٩٠):ص٢٠١٨/٦.

[٤] الكشاف:٣٨٦/٢.

[٥] تفسير ابن كثير:٣١٤/٢.

[٦] شرح الطحاوية بتحقيق الالباني:٧٤-٧٥.

[٧] مجموع الفتاوى: (٨ / ٣٧١ - ٣٧٦).

ذلك القدرة والإرادة والأمر. والصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة أن الاستطاعة متقدمة على الفعل ومقارنة له أيضا وتقارنه أيضا استطاعة أخرى لا تصلح لغيره؟

فالاستطاعة نوعان: متقدمة صالحة للضدين، ومقارنة لا تكون إلا مع الفعل، فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له وهذه هي الموجبة للفعل المحققة له، قال الله تعالى في الأولى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا} [آل عمران: ٩٧] ولو كانت هذه الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حج ولما عصى أحد بترك الحج ولا كان الحج واجبا على أحد قبل الإحرام به بل قبل فراغه وقال تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: ١٦] فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط إذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة وقال تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [البقرة: ٢٨٦] و «الوسع» : الموسوع وهو الذي تسعه وتطيقه فلو أريد به المقارن لما كلف أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط دون ما تركه من الواجبات ... ونظائر هذا متعددة فإن كل أمر علق في الكتاب والسنة وجوبه بالاستطاعة وعدمه بعدمها لم يرد به المقارنة وإلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها وقد أسقطها عمن لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك الواجب المذكور.

وأما الاستطاعة المقارنة الموجبة: فمثل قوله تعالى: {ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون} [هود: ٢٠] فهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة إذ الأخرى لابد منها في التكليف.

فالأولى: هي الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي والثواب والعقاب وعليها يتكلم الفقهاء وهي الغالبة في عرف الناس.

والثانية: هي الكونية التي هي مناط القضاء والقدر وبها يتحقق وجود الفعل فالأولى للكلمات الأمريات الشرعيات والثانية للكلمات الخلقيات الكونيات كما قال: (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) [التحريم: ١٢]

وقد اختلف الناس في قدرة العبد على خلاف معلوم الحق أو مراده والتحقيق أنه قد يكون قادرا بالقدرة الأولى الشرعية المتقدمة على الفعل فإن الله قادر أيضا على خلاف المعلوم والمراد وإلا لم يكن قادرا إلا على ما فعله وليس العبد قادرا على ذلك بالقدرة المقارنة للفعل إنه لا يكون إلا ما علم الله كونه وأراد كونه فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكذلك قول الحواريين: {هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء} [المائدة: ١١٢] إنما استفهموا عن هذه القدرة. وكذلك ظن يونس {أن لن نقدر عليه} [الأنبياء: ٨٧] أي فسر بالقدرة كما يقال للرجل هل تقدر أن تفعل كذا؟ أي هل تفعله؟ وهو مشهور في كلام الناس. ولما اعتقدت القدرية أن الأولى (الاستطاعة قبل الفعل) كافية في حصول الفعل وأن العبد يحدث مشيئته جعله مستغنيا عن الله حين الفعل كما أن الجبرية لما اعتقدت أن الثانية موجبة للفعل وهي من غيره رأوه مجبورا على الفعل وكلاهما خطأ قبيح فإن العبد له مشيئة وهي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك في عدة مواضع من كتابه. فإذا كان الله قد جعل العبد مريدا مختارا شائيا امتنع أن يقال: هو مجبور مقهور مع كونه قد جعله مريدا وامتنع أن يكون هو الذي ابتدع لنفسه المشيئة فإذا قيل: هو مجبور على أن يختار مضطر إلى أن يشاء فهذا لا نظير له وليس هو المفهوم من الجبر بالاضطرار ولا يقدر على ذلك إلا الله. ولهذا افترق القدرية والجبرية على طرفي نقيض وكلاهما مصيب فيما أثبته دون ما نفاه. وابن الخطيب ونحوه من الجبرية يزعمون أن العلم بافتقار رجحان فعل العبد على تركه إلى مرجح من غير العبد ضروري لأن الممكن المتساوي الطرفين لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح ما وكلا القولين صحيح ولكن دعوى استلزام أحدهما نفي الآخر ليس بصحيح فإن العبد محدث لأفعاله كاسب لها وهذا الإحداث مفتقر

إلى محدث فالعبد فاعل صانع محدث وكونه فاعلا صانعا محدثا بعد أن لم يكن لابد له من فاعل كما قال: (لمن شاء منكم أن يستقيم) [التكوير: ٢٨] فإذا شاء الاستقامة صار مستقيما ثم قال: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) [التكوير: ٢٩]

فما علم بالاضطرار وما دلت عليه الأدلة السمعية والعقلية كله حق ولهذا كان لا حول ولا قوة إلا بالله والعبد فقير إلى الله فقرا ذاتيا له في ذاته وصفاته وأفعاله مع أن له ذاتا وصفات وأفعالا فنفي أفعاله كنفي صفاته وذاته وهو جحد للحق شبيه بغلو غالية الصوفية الذين يجعلونه هو الحق وجعل شيء منه مستغنيا عن الله أو كائنا بدونه جحد للحق شبيه بغلو الذي قال: {أنا ربكم الأعلى} [النازعات: ٢٤] وقال: إنه خلق نفسه وإنما الحق ما عليه أهل السنة والجماعة"[١].

القرآن

{أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١)} [هود : ٢١]

التفسير:

أولئك الذين خسروا أنفسهم بافترائهم على الله، وذهب عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدَّعون أنها تشفع لهم.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} [هود : ٢١]، أي:" أولئك الذين خسروا أنفسهم بافترائهم على الله"[٢].

قال البغوي:أي:" غبنوا أنفسهم"[٣].

قال ابن عطية:اي:" بوجوب العذاب عليهم، ولا خسران أعظم من خسران النفس"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله"[٥].

قوله تعالى:{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [هود : ٢١]، أي:" وذهب عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدَّعون أنها تشفع لهم"[٦].

قال البغوي:أي:" يزعمون من شفاعة األملائكة والأصنام"[٧].

قال الطبري:" وبطل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله، بادعائهم له شركاء، فسلك ما كانوا يدعونه إلهًا من دون الله غير مسلكهم، وأخذ طريقًا غير طريقهم، فضَلّ عنهم، لأنه سلك بهم إلى جهنم، وصارت آلتهم عدمًا لا شيء، لأنها كانت في الدنيا حجارة أو خشبًا أو نحاسًا، أو كان لله وليًّا، فسلك به إلى الجنة، وذلك أيضًا غير مسلكهم، وذلك أيضًا ضلالٌ عنهم"[٨].

قال ابن عطية:" {ضَلَ}، معناه: تلف ولم يجدوه حيث أملوه"[٩].

الفوائد:

---

[١] انظر: شرح الطحاوية، تحقيق الألباني:٧٤.
[٢] التفسير الميسر:٢٢٤.
[٣] تفسير البغوي:١٦٩/٤.
[٤] المحرر الوجيز:١٦١/٣.
[٥] تفسير الطبري:٢٨٨/١٥.
[٦] التفسير الميسر:٢٢٤.
[٧] تفسير البغوي:١٦٩/٤.
[٨] تفسير الطبري:٢٨٨/١٥.
[٩] المحرر الوجيز:١٦١/٣.

١- أنه في موقف الحساب يوم القيامة تتخلى عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه، سبحانه عما يشركون.
٢- أن الكافر هو الخاسر لنفسه وأهله وماله، قال تعالى في موضع آخر: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمر: ١٥] بينما المؤمن العامل للصالحات قد ربح نفسه وأهله وماله وانتفع به.

فهؤلاء الكفار خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئًا، بل ما استفادوا إلا الضرر، وخسروا أموالهم؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، حتى ما أعطوه للخلق لينتفع به، فإنه لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} [التوبة: ٥٤] وخسروا أهليهم، لأنهم في النار، فصاحب النار لا يأنس بأهله، بل إنه مغلق عليه في تابوت، ولا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا.
٣- من لم يوفق للإيمان والعمل الصالح؛ فقد خسر دنياه حقيقة؛ لأن مآلها للفناء، وكل شيء فإن فكأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق من عمرك تجده مر عليك وكأنه لم يكن، وهذا من حكمة الله عز وجل لئلا يركن إلى الدنيا.

القرآن
{لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)} [هود : ٢٢]
التفسير:
حقًا أنهم في الآخرة أخسر الناس صفقة؛ لأنهم استبدلوا الدركات بالدرجات، فكانوا في جهنم، وذلك هو الخسران المبين.

قوله تعالى:{لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ} [هود : ٢٢]، أي:" حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر الناس، ولا ترى أحداً أبينَ خسراناً منهم"[١].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: حقا أن هؤلاء القوم الذين هذه صفتهم في الدنيا وفي الآخرة هم الأخسرون الذين قد باعوا منازلهم من الجنان بمنازل أهل الجنة من النار ؛ وذلك هو الخسران المبين"[٢].
قال الصابوني:" لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجِنان بلظى النيران"[٣].
قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم ، بَسمُوم وحميم ، وظِلٍّ من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون"[٤].
عن ابن عباس، قوله: "{لا جرم}، يقول: بلى"[٥].

وفي قوله تعالى:{لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ} [هود : ٢٢]، ثلاثة وجوه:
أحدها : أن معنى «لا جرم»: لا بد ولا محالة. قاله الفراء[٦].

---
[١] صفوة التفاسير:٨/٢.
[٢] تفسير الطبري:٢٨٨/١٥.
[٣] صفوة التفاسير:٨/٢.
[٤] تفسير ابن كثير:٣١٥/٤.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٩٥):ص٢٠١٩/٦.
[٦] انظر: معاني القرآن:٨/٢.

الثاني : أن «لا» عائد على «الكفار»، أي: لا دافع لعذابهم، ثم استأنف فقال : جرم ، أي: كسب بكفره استحقاق النار، ويكون معنى «جرم»:كسب ، أي: بما كسبت يداه، ذكره الزجاج[1] والماوردي[2]، ومنه قول الشاعر[3]:

نَصَبْنَا رَأْسَهُ فِي جِذْعِ نَخْلٍ   بِمَا جَرَمَتْ يَدَاهُ ومَا اعْتَدَيْنَا

أي: بما كسبت يداه .

الثالث : أن «لا» زائدة دخلت توكيداً، يعني: حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون. وهذا قول الكلبي[4]، وسيبويه[5]، والخليل[6]، واختاره البغوي[7]، قال الشاعر[8]:

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً   جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا

أي: أحقتهم الطعنة بالغضب.

الفوائد:

١- أن الكفار هم الأخسرون في الآخرة.
٢- بيان ورثة دار الخسران وهم أهل الكفر والظلم.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣)} [هود : ٢٣]

التفسير:

إن الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة، وخضعوا لله في كل ما أُمروا به ونُهوا عنه، أولئك هم أهل الجنة، لا يموتون فيها، ولا يَخْرجون منها أبدًا.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هود : ٢٣]، أي: "إن الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة"[9].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا في الدنيا بطاعة الله"[10].

قوله تعالى:{وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [هود : ٢٣]، أي: "وخضعوا لله في كل ما أُمروا به ونُهوا عنه"[11].

وفي قوله تعالى:{وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [هود : ٢٣]، وجوه من التفسير:

أحدها : يعني: خافوا ربهم ، قاله ابن عباس[1].

---

[1] انظر: معاني القرآن:٤٦/٣.
[2] انظر: النكت والعيون:٤٦٤/٢.
[3] لم أقف عايه، والبيت من شواهد الماوردي في تفسيره:٤٦٤/٢، والواحدي في التفسير البسيط:٢٣٣/٧، والسمعاني في تفسيره:٤٢٢/٢، والقرطبي في تفسيره: ١٠/٩، وغيرهم.
[4] حكاه عنه ابو الليث السمرقندي في بحر العلوم:١٤٤/٢.
[5] حكاه عنه الزجاج في معاني القرآن:٤٥/٣-٤٦.
[6] حكاه عنه القرطبي في تفسيره:٢٠/٩.
[7] انظر: تفسير البغوي:١٦٩/٤.
[8] البيت لأبي أسماء بن الضريبة في لسان العرب (جرم) ، وله أو لعطية بن عفيف في خزانة الأدب ١٠/ ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١٣٦، ولرجل من فزارة في الكتاب ٣/ ١٣٨، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص ٦٢، والاشتقاق ص ١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٤٦٥، وجواهر الأدب ص ٣٥٥، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٥٠، والمقتضب ٢/ ٣٥٢.
[9] التفسير الميسر:٢٢٤.
[10]تفسير الطبري:٢٨٩/١٥ .
[11] التفسير الميسر:٢٢٤.

الثاني : يعني اطمأنوا ، قاله مجاهد[٢].
الثالث : أنابوا، قاله ابن عباس في رواية أخرى[٣]، وقتادة[٤].
الرابع : تواضعوا لربهم. والإخبات: التواضع والوقار. قاله ابن قتيبة[٥].
والخامس: خشعت قلوبهم إلى ربهم. قاله التستري[٦]، والفراء[٧].

قال الفراء:" معناه: تخشعوا لربهم وإلى ربهم"[٨].

قال سهل التستري:" أي: خشعت قلوبهم إلى ربهم، وهو الخشية، فالخشوع ظاهر والخشية سر، كما قال الرسول ﷺ: «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[٩]. فقد حكي أن موسى صلوات الله عليه قص في بني إسرائيل، فمزق واحد منهم قميصه، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن قل له: مزق لي قلبك ولا تمزق لي ثيابك»[١٠]"[١١].

والسادس: خشعوا وتواضعوا لربهم ، رواه معمر عن قتادة[١٢].
والسابع: أخلصوا إلى ربهم ، قاله مقاتل[١٣].

قال الطبري:" وهذه الأقوال متقاربة المعاني، وإن اختلفت ألفاظها، لأن الإنابة إلى الله من خوف الله، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة، والطمأنينة إليه من الخشوع له، غير أن نفس "الإخبات"، عند العرب: الخشوع والتواضع"[١٤].

قال أبو عبيدة:"{ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِم}: مجازه: أتابوا إلى ربهم وتضرعوا إليه، وخضعوا وتواضعوا له"[١٥].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون} [هود : ٢٣]، أي: "أولئك هم أهل الجنة، لا يموتون فيها، ولا يَخْرجون منها أبدًا"[١٦].

قال الطبري:" يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم سكان الجنة الذين لا يخرجون عنها ولا يموتون فيها، ولكنهم فيها لابثُون إلى غير نهاية"[١٧].

قال ابن عباس:" أي: من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها"[١٨].

وعن ابن عباس -أيضا-:"{هم فيها خالدون}: فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والسيئ مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له"[١٩].
الفوائد:

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٩٧):ص١٥/٢٩٠.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٩٨)-(١٨١٠٠):ص١٥/٢٩٠.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٩٥):ص١٥/٢٨٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٨٠٩٦):ص١٥/٢٨٩.
[٥] غريب القرآن:٢٠٢.
[٦] انظر: تفسير التستري:٧٨.
[٧] انظر: معاني القرآن:٢/٩.
[٨] معاني القرآن:٢/٩.
[٩] نوادر الأصول ٣/ ٢١٠، ٤/ ٢٤.
[١٠] صفوة الصفوة ٣/ ٢٦٥ وكتاب الزهد لابن أبي عاصم ص ٨٧ وفيض القدير ١/ ٧٩.
[١١] تفسير التستري:٧٨.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٨١٠١):ص١٥/٢٩٠.
[١٣] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٢٧٨.
[١٤] تفسير الطبري:١٥/٢٩٠.
[١٥] مجاز القرآن:١/٢٨٦.
[١٦] التفسير الميسر:٢٢٤.
[١٧] تفسير الطبري:١٥/٢٩١.
[١٨] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٨٠٠):ص٦/٢٠٢٠.
[١٩] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٨٠١):ص٦/٢٠٢٠.

٣- بيان ورثة دار النعيم وهم أهل الإيمان والطاعة.
٤- ومن الفوائد: بطلان قول من قال: أن الأعمال كلها ما خلا الاعتقاد والإقرار ليست بإيمان، وبينها في كتابه فقال: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات} فثبت بذلك أن الأعمال ليست بإيمان.

قالجواب: أن قوله تعالى:{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات}؛ لا يدل على أن عمل الصالحات ليس بالإيمان الذي لا كمال للاعتقاد والإقرار إلا به، ولكن المعنى: إن الذين آمنوا أقل الإيمان وهو الناقل عن الكفر والمخرج منه، ثم لم يقتصروا عليه، ولكنهم ضموا إليه الصالحات فعملوها، حتى ارتقى إيمانهم من درجة الأقل إلى الأكمل، كما يقال: أن من صلى وأطال القنوت والقراءة واستكثر من الذكر فله كذا، فيراد بمن يصلي: من حصل الأركان التي لا أقل منها، وبما وراء ذلك، من ضم إليها من نوافل الخير ما يقع منه مع غيره صلاة فيكثر ذلك الخير بها، ويفضل ويشرف[1].

القرآن

{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)} [هود : ٢٤]

التفسير:

مثل فريقَي الكفر والإيمان كمثل الأعمى الذي لا يرى والأصم الذي لا يسمع والبصير والسميع: ففريق الكفر لا يبصر الحق فيتبعه، ولا يسمع داعي الله فيهتدي به، أما فريق الإيمان فقد أبصر حجج الله وسمع داعي الله فأجابه، هل يستوي هذان الفريقان؟ أفلا تعتبرون وتتفكرون؟

قوله تعالى:{ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ} [هود : ٢٤]، أي:" مثل فريقَي الكفر والإيمان، كمثل الأعمى الذي لا يرى والأصم الذي لا يسمع والبصير والسميع: ففريق الكفر لا يبصر الحق فيتبعه، ولا يسمع داعي الله فيهتدي به، أما فريق الإيمان فقد أبصر حجج الله وسمع داعي الله فأجابه"[2].

قال الطبري:يقول تعالى ذكره:" مثل فريقَي الكفر والإيمان، كمثل الأعمى الذي لا يرى بعينه شيئًا، والأصم الذي لا يسمع شيئًا، فكذلك فريق الكفر لا يبصر الحق فيتبعه ويعمل به، لشغله بكفره بالله، وغلبة خذلان الله عليه، لا يسمع داعي الله إلى الرشاد، فيجيبه إلى الهدى فيهتدي به، فهو مقيمٌ في ضلالته، يتردَّد في حيرته. والسميع والبصير فذلك فريق الإيمان، أبصر حجج الله، وأقر بما دلت عليه من توحيد الله، والبراءة من الآلهة والأنداد، ونبوة الأنبياء عليهم السلام، وسمعَ داعي الله فأجابه وعمل بطاعة الله"[3].

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: "ثم ذكر محمدا ﷺ فقرأ فيما بينه وبين خالقه فقرأ: مثل الفريقين الآية كلها"[4].

قال ابن عباس:" «الأعمى» و«الأصم»: الكافر، و«البصير» و«السميع»: المؤمن"[5].

المؤمن"[5].

عن مجاهد: "{مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع}، الفريقان الكافران، والمؤمنان، فأما الأعمى والأصم فالكافران، وأما البصير والسميع فهما المؤمنان"[1].

---

[1] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:٤١/١.
[2] انظر: تفسير الطبري:٢٩١/١٥، والتفسير الميسر:٢٢٤.
[3] تفسير الطبري:٢٩١/١٥.
[4] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٠٢):ص٢٠٢٠/٦.
[5] أخرجه الطبري(١٨١٠٢):ص٢٩١/١٥-٢٩٢.

قال قتادة:" هذا مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن، فأما الكافر فصم عن الحق، فلا يسمعه، وعمي عنه فلا يبصره. وأما المؤمن فسمع الحق فانتفع به، وأبصره فوعاه وحفظه وعمل به"(٢).

قوله تعالى:{هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} [هود : ٢٤]، أي:" هل يستوي هذان الفريقان؟"(٣).

قال الطبري:" يقول: هل يستوي هذان الفريقان على اختلاف حالتيهما في أنفسهما عندكم أيها الناس؟ فإنهما لا يستويان عندكم، فكذلك حال الكافر والمؤمن لا يستويان عند الله"(٤).

قال سعيد بن جبير: "لا يستوي في الفضل"(٥).

قوله تعالى:{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [هود : ٢٤]، أي:" أفلا تعتبرون وتتفكرون؟"(٦).

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: أفلا تعتبرون أيها الناس وتتفكرون،، فتعلموا حقيقة اختلاف أمريهما، فتنزجروا عما أنتم عليه من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان؟"(٧).

الفوائد:

١- استحسان المقارنات بين الأشياء المتضادة للعبرة والاتعاظ.
٢- الكافر ميت موتا معنويا فلذا هو لا يسمع ولا يبصر، والمسلم حي فلذا هو سميع بصير.

القرآن

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥)} [هود : ٢٥]

التفسير:

ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال لهم: إني نذير لكم من عذاب الله، مبيِّن لكم ما أُرسلت به إليكم من أمر الله ونهيه.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [هود : ٢٥]، أي:" ولقد أرسلنا نوحارسولاً إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم"(٨).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه"(٩).

عن أبي صالح: "أرسل: أي: بعث"(١٠).

عن أنس :"أن النبي ﷺ قال: أول نبي أرسل نوح ﷺ"(١١).

قال الإمام الشافعي:" فأقام جل ثناؤه حجته على خلقه في أنبيائه، في الأعلام التي باينوا بها خلقه سواهم، وكانت الحجة بها ثابتة على من شاهد أمور الأنبياء، ودلائلهم التي باينوا بها غيرهم، ومن بعدهم، وكان الواحد في ذلك وأكثر منه سواء، تقوم الحجة بالواحد منهم قيامها بالأكثر"(١٢).

---

(١) أخرجه الطبري(١٨١٠٣):ص١٥/٢٩٢.
(٢) أخرجه الطبري(١٨١٠٤):ص١٥/٢٩٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٢٤.
(٤) تفسير الطبري:١٥/٢٩١.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٠٥):ص٦/٢٠٢١.
(٦) التفسير الميسر:٢٢٤.
(٧) تفسير الطبري:١٥/٢٩١.
(٨) انظر: صفوة التفاسير:٢/١٠. [بتصرف].
(٩) تفسير الطبري:١٥/٢٩٣.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٠٦):ص٦/٢٠٢١.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٠٧):ص٦/٢٠٢١.
(١٢) تفسير الغمام الشافعي:٢/٩٧١.

قوله تعالى:{إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [هود : ٢٥]، أي:" فقال لهم: إني نذير لكم من عذاب الله، مبيّن لكم ما أُرسلت به إليكم من أمر الله ونهيه"[١].

قال الطبري:أي: "إني لكم، أيها القوم، نذير من الله، أنذركم بأسَه على كفركم به، فآمنوا به وأطيعوا أمره"[٢].

عن ابن عباس:" لما أنزلت «نذير»، قال: يعني: النبي ﷺ أنزلت عليه: «مبشرا ونذيرا»، قال: نذيرا من النار"[٣].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى: {إني لكم} بفتح الألف، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة :{إني لكم} بكسر الألف[٤].

الفوائد:

١- إن نوحا واسمه عبد الغفار أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن أشركوا بربهم وعبدوا غيره من الأوثان والآلهة الباطلة.
٢- أن قوم نوح-عليه السلام- هم اول من عرفوا بالشرك، وأول من وقعوا فيه؛ فكان نوح أول رسول من الله لمقاومة الشرك وإقامة الحجة على المشركين؛ بتذكيرهم بنعم الله ووجوب شكرها، ودلالتهم على سوء مغبة الشرك ولزوم التبري منه، ولكن القوم غلب عليهم هوى الشرك، ففقدوا رشدهم، ولم يفقهوا جدال نبيهم، وأتوا في الدفاع عن وثنيتهم بما هو خارج عن موضوع النزاع.

القرآن
{أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)} [هود : ٢٦]
التفسير:
آمركم ألا تعبدوا إلا الله، إني أخاف عليكم -إن لم تفردوا الله وحده بالعبادة- عذاب يوم موجع.

قوله تعالى:{أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} [هود : ٢٦]، أي: آمركم ألا تعبدوا إلا الله"[٥].

قال الطبري:أي:" أن لا تعبدوا إلا الله أيها الناس، عبادة الآلهة والأوثان، وإشراكها في عبادته، وأفردوا الله بالتوحيد، وأخلصوا له العبادة، فإنه لا شريك له في خلقه"[٦].

عن ابن عباس، قوله: "{اعبدوا}، أي: وحدوا"[٧].

عن محمد بن إسحاق قال: "كان من حديث نوح وحديث قومه فيما يذكر أهل العلم أنه كان حليما صبورا لم يلق نبي من قومه من البلاء أكثر مما لقي إلا نبي قتل. وكان يدعوهم كما قال الله تعالى: { لَيْلًا وَنَهَارًا}[٨] وسرا وجهارا[٩] بالنصيحة لهم فلم يزدهم ذلك منه إلا فرارا حتى إنه إنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه ويجعل أصابعه في أذنيه لكيلا يسمع شيئا من قوله"[١٠].

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٤.
[٢] تفسير الطبري:٢٩٣/١٥.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٠٨):ص٢٠٢١/٦.
[٤] انظر: السبعة في القراءات:٣٣٢.
[٥] التفسير الميسر:٢٢٤.
[٦] تفسير الطبري:٢٩٤/١٥.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٠٩):ص٢٠٢١/٦.
[٨][نوح : ٥].
[٩] يقصد قوله تعالى: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)} [نوح : ٨ - ٩].
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨١٠):ص٢٠٢١/٦-٢٠٢٢.

قوله تعالى:{إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} [هود : ٢٦]، أي: إني أخاف عليكم -إن لم تفردوا الله وحده بالعبادة- عذاب يوم موجع"[١].

قال الطبري:" يقول: إني أيها القوم، إن لم تخصُّوا الله بالعبادة، وتفردوه بالتوحيد، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والأوثان أخاف عليكم من الله عذابَ يوم مؤلم عقابُه وعذابُه لمن عُذِّب فيه"[٢].

أخرج ابن ابي حاتم عن أبي العالية في قوله: "{عذاب يوم أليم}، قال: «الأليم»: الموجع في القرآن كله"[٣]. قال ابن ابي حاتم:"وكذلك فسره سعيد، بن جبير والضحاك، وقتادة، وأبو مالك وأبو عمران النحوي ومقاتل بن حيان"[٤].

الفوائد:

١- أن التوحيد هو الذي افتتح به الرسل دعوتهم، كما قال أول الرسل نوح عليه السلام لقومه: {أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} [هود -٢٦]، {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف -٥٩].
٢- أن الرسل المتقدمة أنهم كانوا ينذرون قومهم العذاب ولا يذكرون لهم دخول الجنة كما أخبر عن نوح عليه السلام في قوله تعالى {إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم}، وكذلك جميع الرسل، وقد أجمع المسلمون على أن مؤمنهم يدخل الجنة.
٣- أن الجر بالمجاورة أسلوب عربي معروف كثير الاستعمال، ومنه قول الله :{إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} [هود: ٢٦]، مع أنَّ الألم وصف للعذاب، وأما اليوم فهو ظرف ولا يُوصف اليوم بأنه مؤلم أو ليس بمؤلم، ولهذا صار الظاهر هنا في هذه الآية أنَّ معناها إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم، يعني عذاباً أليماً في يوم، كما هو القول الأظهر من قولي العلماء هنا.

القرآن

{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)} [هود : ٢٧]

التفسير:

فقال رؤساء الكفر من قومه: إنك لست بمَلَك ولكنك بشر، فكيف أُوحي إليك مِن دوننا؟ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أسافلنا وإنما اتبعوك من غير تفكر ولا رويَّة، وما نرى لكم علينا من فضل في رزق ولا مال لمَّا دخلتم في دينكم هذا، بل نعتقد أنكم كاذبون فيما تدَّعون.

قوله تعالى:{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ} [هود : ٢٧]، أي:" قال السادة والكبراء من قوم نوح"[٥].

قال الطبري:" فقال الكبراء من قوم نوح وأشرافهم -وهم {الملأ} - الذين كفروا بالله وجحدوا نبوة نبيهم نوح عليه السلام"[٦].

عن أبي مالك :"{ فَقَالَ الْمَلَأُ}، يعني: الأشراف من قومه"[٧].

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٤.
[٢] تفسير الطبري:٢٩٤/١٥.
[٣] تفسير ابن ابي حاتم(١٠٨١١):ص٢٠٢٢/٦.
[٤] تفسير ابن ابي حاتم: ٢٠٢٢/٦.
[٥] صفوة التفاسير:١١/٢.
[٦] تفسير الطبري:٢٩٥/١٥.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨١٢):ص٢٠٢٢/٦.

قوله تعالى:{مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا} [هود : ٢٧]، أي:" ما نراك إلا واحداً مثلنا ولا فضل لك علينا"[١].

قال مقاتل:" يعني: إلا آدميا مثلنا لا تفضلنا بشيء"[٢].

قال الطبري:" يعنون بذلك أنه آدمي مثلهم في الخلق والصُّورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن يكون الله يرسل من البشر رسولا إلى خلقه"[٣].

محمد بن إسحاق، عن من لا يتهم، عن عبيد بن عمير الليثي:" أنه كان يحدث أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون به يعني نوحا فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت فيهم في الأرض الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هذا مجنون لا يقبلون منه شيئا حتى شكا ذلك من أمرهم نوح إلى الله عز وجل وقال كما قص الله علينا في كتابه"[٤].

قال ابن زيد :"ما عذب قوم نوح حتى ما كان في الأرض سهل ولا جبل إلا له عامر يعمره وحائز يحوزه"[٥].

قوله تعالى:{وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} [هود : ٢٧]، أي:" وما نراك اتبعك إلا الذين هم أسافلنا"[٦].

قال الطبري:" يقول: وما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف"[٧].

قال مقاتل:" الرذالة من الناس: السفلة "[٨].

قوله تعالى:{بَادِيَ الرَّأْيِ} [هود : ٢٧]، أي:" وإنما اتبعوك في ظاهر الرأي من غير تفكر أو رويّة"[٩].

عن ابن عباس قوله: "{وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي}، قال: فيما ظهر لنا"[١٠].

قال الطبري:" فيما نرَى ويظهر لنا"[١١].

قال مقاتل:" يعني :بدا لنا أنهم سفلتنا"[١٢].

قال الفراء:" فيما يظهر لنا ويبدو"[١٣].

قال الاخفش:" أي: في ظاهر الرأي. وليس بمهموز لأنه من "بدا" "يبدو" أي: ظهر، وقال بعضهم «بادىء الرأي»، أي: فيما يبدأ به من الرأي"[١٤].

قال ابن قتيبة:" أي: ظاهر الرأي. بغير همز. من قولك: بدا لي ما كان خفيا: أي ظهر. ومن همزه جعله: أول الرأي. من بدأت في الأمر فأنا أبدأ"[١].

---

[١] صفوة التفاسير:١١/٢.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٨/٢.
[٣] تفسير الطبري:٢٩٥/١٥.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨١٣):ص٢٠٢٢/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨١٤):ص٢٠٢٢/٦.
[٦] التفسير الميسر:٢٢٤.
[٧] تفسير الطبري:٢٩٥/١٥.
[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٨/٢.
[٩] انظر: صفوة التفاسير:١١/٢، والتفسير الميسر:٢٢٤.
[١٠] اخرجه الطبري(١٨١٠٥):ص٢٩٧/١٥.
[١١] تفسير الطبري:٢٩٥/١٥.
[١٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٨/٢.
[١٣] معاني القرآن:١١/٢.
[١٤] معاني القرآن:٣٨١/١.

قال أبو عبيدة:" «بادِيَ الرَّأْيِ»مهموز لأنه من بدأت عن أبى عمرو، ومعناه:

أول الرأى، ومن لم يهمز جعله ظاهر الرأى من بدا يبدو، وقال [الراجز] [٢]:

وقد علتنى ذرأة بادى بدى

فلم يهمز جعلها من«بدا»: الذّراة الشّمط القليل فى سواد، ملح ذرآنىّ: الكثير البياض وكبش أذرأ، ونعجة ذرآء فى أذنها بياض شبه النّمش"[٣].

وفي قوله تعالى:{بَادِيَ الرَّأْيِ} [هود : ٢٧]، وجوه:
احدها : إنك تعمل بأول الرأي من غير فكر ، قاله الزجاج[٤].
الثاني : أنهم اتبعُوكَ في الظاهر، وبَاطِنُهم عَلَى خلاف ذلِك، قاله الزجاج ايضا[٥].
أن ما في نفسك من الرأي ظاهر ، تعجيزاً له ، حكاه الماوردي عن ابن شجرة[٦].
الثالث : يعني: ان أراذلنا اتبعوك بأقل الرأي وهم إذا فكروا رجعوا عن اتباعك ، حكاه ابن الأنباري[٧]، وذكره الزجاج[٨].
قرأ أبو عمرو:« بادىء» بهمزة مفتوحة بعد «الدل»، {الرأي} لا يهمزه، والباقون :«بادي»بـ«ياء» مفتوحة، وكلهم قرأ {الرأي} مهموزا[٩].
قوله تعالى:{وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} [هود : ٢٧]، أي:" وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة، واستحقاق المتابعة"[١٠].
عن سعيد بن جبير، قوله: "{من فضل}، يعني: فضيلة"[١١].
قال الطبري:" يقول: وما نتبين لكم علينا من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله وإخلاص العبودة له، فنتبعكم طلبَ ذلك الفضل، وابتغاءَ ما أصبتموه بخلافكم إيانا، وهذا خطاب منهم لنوح عليه السلام، وذلك أنهم إنما كذبوا نوحًا دون أتباعه، لأن أتباعه لم يكونوا رُسلا. وأخرج الخطَّابَ وهو واحد مخرج خطاب الجميع، كما قيل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ}، [سورة الطلاق: ١]"[١٢].
قوله تعالى:{بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [هود : ٢٧]، أي:" بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه""[١٣].
قال الطبري:" بل نظنك، يا نوح، في دعواك أن الله ابتعثك إلينا رسولا كاذبًا"[١٤].
الفوائد:

١- قوله أن لا تعبدوا إلا الله هو معنى «لا إله إلا الله».
٢- التذكير بعذاب يوم القيامة.

---

[١] غريب القرآن:٢٠٣.
[٢]من أرجوزة لأبى نخيلة فى الأغانى ٨١/ ١٥١ وهو فى الكتاب ٢/ ٥٠ والطبري ١٢/ ١٧ والجمهرة ٢/ ٣١٢ والشنتمرى ١/ ٥٤ واللسان والتاج (بداء ذرأ).
[٣] مجاز القرآن:٢٨٧/١-٢٨٨.
[٤] انظر: معاني القرآن:٤٧/٣.
[٥] انظر: معاني القرآن:٤٧/٣.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤٦٥/٢.
[٧] انظر: النكت والعيون:٤٦٥/٢.
[٨] انظر: معاني القرآن:٤٧/٣. قال:" اتبعوكَ ابتداء الرأي، أي حين ابتدأوا ينظرون وإذا فكروا لم يتبعوك".
[٩] انظر: السبعة في القراءات:٣٢٢، والداني:١٢٤.
[١٠] صفوة التفاسير:١١/٢.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨١٦):ص٢٠٢٣/٦.
[١٢] تفسير الطبري:٢٩٦/١٥-٢٩٧.
[١٣] صفوة التفاسير:١١/٢.
[١٤] تفسير الطبري:٢٩٧/١٥.

٣- اتباع الرسل هم الفقراء والضعفاء وخصومهم الأغنياء والأشراف والكبراء.
٤- احتقار أهل الكبر لمن دونهم. وفي الحديث :« الكبر من بطر الحق وغمط الناس»[١].
٥- بطلان منهج الكفار في الاستدلال على بطلان الشيء بأخذ الضعفاء به، وضعف فهم من أخذ به، على ما يدل عليه قول قوم نوح له كما حكاه عنهم الكتاب الكريم.

فانظر إلى قوم نوح كيف استنكفوا من اتباع نبيهم لسبب اتباع الضعفاء له، وذلك لكون مطمح أنظارهم الدنيا، وإلا لو كانت الآخرة همهم، لاتبعوا الحق أينما وجدوه، ولكن لجاهليتهم أعرضوا عن الحق لاتباع شهواتهم، وانظر إلى هرقل لما كان من العقل والبصيرة على جانب عظيم، اعتقد اتباع الضعفاء دليلا على الحق. فقال في جملة ما سأل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ. "وسألتك عن أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل"[٢].

القرآن

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)} [هود : ٢٨]

التفسير:

قال نوح: يا قومي أرأيتم إن كنتُ على حجة ظاهرة من ربي فيما جئتكم به تبيّن لكم أنني على الحق من عنده، وآتاني رحمة من عنده، وهي النبوة والرسالة فأخفاها عليكم بسبب جهلكم وغروركم، فهل يصح أن نُلْزمكم إياها بالإكراه وأنتم جاحدون بها؟ لا نفعل ذلك، ولكن نَكِل أمركم إلى الله حتى يقضي في أمركم ما يشاء.

قوله تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [هود : ٢٨]، أي:" قال نوح: يا قومي أرأيتم إن كنتُ على حجة ظاهرة من ربي فيما جئتكم به تبيِّن لكم أنني على الحق من عنده"[٣].

قال الصابوني:" تلطف معهم في الخجطاب لاستمالتهم إلى الإيمان"[٤].

عن ابن جريج: "قال نوح: {يا قوم إن كنت على بينة من ربي}، قال: قد عرفتها، وعرفت بها أمره، وأنه لا إله إلا هو"[٥].

وفي قوله تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [هود : ٢٨]، وجوه:
أحدها : يعني على ثقة من ربي ، قاله أبو عمران الجوني[٦].

الثاني : على حجة من ربي ، قاله عليّ بن عيسى[٧].
والثالث: يعني: على يقين وبيان، قاله ابن قتيبة[٨].

---

[١]حديث أبى هريرة: أخرجه أبو داود (٥٩/٤، رقم ٤٠٩٢) ، والحاكم (٢٠١/٤، رقم ٧٣٦٦) . وأخرجه أيضا: أيضا: إسحاق بن راهويه (٣٧٥/١، رقم ٣٩٤) ، والبخارى فى الأدب المفرد (١٩٥/١، رقم ٥٥٦) ، والبيهقى فى شعب الإيمان
(١٦١/٥، رقم ٦١٩٣) .
حديث سواد بن عمرو: أخرجه الطبرانى (٩٧/٧، رقم ٦٤٧٩) . وأخرجه أيضا: هناد (٤٢٢/٢، رقم ٨٢٧) .
[٢] صحيح البخاري(٧):ص٨/١-٩، وأخرجه مسلم في المغازي (الجهاد والسير) باب كتاب النبي صلى الله عليه عليه وسلم إلى هرقل رقم ١٧٧٣
[٣] التفسير الميسر:٢٢٤.
[٤] صفوة التفاسير:١١/٢.
[٥] أخرجه الطبري(١٨١٠٦):ص٢٩٩/١٥.
[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٨١٧):ص٢٠٢٣/٦.
[٧] انظر: النكت والعيون:٤٦٥/٢.
[٨] انظر: غريب القرآن:٢٠٣.

قوله تعالى:{وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ} [هود : ٢٨]، أي:" وآتاني رحمة من عنده، وهي النبوة والرسالة فأخفاها عليكم بسبب جهلكم وغروركم"[١].

قال الماوردي:"{فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ}، يعني: البينة في قوله{إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي} وإنما قال:{فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ} وهم الذين عموا عنها ، لأنها خفيت عليهم بترك النظر فأعماهم الله عنها"[٢].

قال ابن قتيبة:" {فعميت عليكم} أي: عميتم عن ذلك. يقال: عمي علي هذا الأمر. إذا لم أفهمه"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} [هود : ٢٨]، وجوه:

أحدهما : الإيمان[٤].

والثاني : النبوة ، قاله ابن عباس.

والثالث: الإسلام والهدى والإيمان والحكم والنبوّة. قاله ابن جريج[٥].

وقرأ حمزة والكسائي وحفص :«فعميت عليكم» بضم العين وتشديد الميم، وفي قراءة أُبي«فعمّاها»، وهي موافقة لقراءة من قرأ بالضم على ما لم يسم فاعله[٦].

وفي الذي عماها على هاتين القراءتين وجهان[٧]:

أحدهما : أن الله تعالى عماها عليهم .

الثاني : بوسوسة الشيطان . وما زينه لهم من الباطل حتى انصرفوا عن الحق .

قال الماوردي:"وإنما قصد نبي الله نوح بهذا القول لقومه أن يرد عيهم قولهم :{وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}، ليظهر فضله عليهم بأنه على بينة من ربه وآتاه رحمة من عنده وهم قد سلبوا ذلك ، فأي فضل أعظم منه"[٨].

قوله تعالى:{أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [هود : ٢٨]، أي:" فهل يصح أن نُلْزمكم إياها بالإكراه وأنتم جاحدون بها؟"[٩].

قال ابن قتيبة:" أي: نوجبها عليكم ونأخذكم بفهمها وأنتم تكرهون ذلك"[١٠].

قال الطبري:" يقول: أنأخذكم بالدخول في الإسلام، وقد عماه الله عليكم {وأنتم لها كارهون} يقول: وأنتم لإلزامناكُموها {كارهون}، يقول: لا نفعل ذلك، ولكن نكل أمركم إلى الله، حتى يكون هو الذي يقضي في أمركم ما يرى ويشاء"[١١].

وفي قوله تعالى:{أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [هود : ٢٨]، وجهان:

أحدهما: أنلزمكم الرحمة وهي النعمة والهدى، قاله مقاتل[١٢].

الثاني : أنلزمكم البينة وأنتم لها كارهون ، وقبولكم لها لا يصح مع الكراهة عليها[١٣].

قال قتادة:" أما والله لو استطاع نبيّ الله ﷺ لألزمها قومه، ولكن لم يستطع ذلك ولم يملكه"[١٤].

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٤.

[٢]النكت والعيون:٤٦٦/٢

[٣] غريب القرآن:٢٠٣.

[٤] انظر: النكت والعيون:٤٦٦/٢.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٨١٠٦):ص٢٩٩/١٥.

[٦] انظر: السبعة في القراءات:٣٢٢.

[٧] انظر: النكت والعيون:٤٦٦/٢.

[٨] النكت والعيون:٤٦٦/٢.

[٩] التفسير الميسر:٢٢٤.

[١٠] غريب القرآن:٢٠٣.

[١١] .

[١٢] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٩/٢.

[١٣] انظر: النكت والعيون:٤٦٦/٢.

[١٤] اخرجه الطبري(١٨١٠٧):ص٢٩٩/١٥.

عن عمرو بن دينار قال:" قرأ ابن عباس: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا مِنْ شَطْرِ أَنْفُسِنَا»، قال، عبد الله: "من شَطْر أنفسنا"، من تلقاء أنفسنا"[١].

عن أبي العالية قال: "في قراءة أبيّ: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا مِنْ شَطْرِ أَنْفُسِنَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ»"[٢].

وعن أبي العالية، عن أبي بن كعب: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا مِنْ شَطْرِ قُلُوبِنَا وأَنْتُمْ لَهَا كارِهُونَ»"[٣].

قال الشخ محمد شاكر:" هذه القراءة التي مرت في الأخبار السالفة، بالزيادة في الآية، قراءة شاذة لزيادتها على المصحف، لا يحل لأحد أن يقرأ بها وظني أن قوله: «من شطر أنفسنا»، أو: «من شطر قلوبنا»، تفسير مدرج في كتابة الآية، وليس قراءة"[٤].

الفوائد:

١- كره الشيء يجعل صاحبه لا يراه ولا يسمعه ولا يفهم ما يقال له فيه.
٢- أن النبي نوح-عليه السلام- كان لطيفاً في القول، ولين الجانب، يظهر ذلك في جوابه على قومه.

القرآن

{وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩)} [هود : ٢٩]

التفسير:

قال نوح عليه السلام لقومه: يا قوم لا أسألكم على دعوتكم لتوحيد الله وإخلاص العبادة له مالاً تؤدونه إليَّ بعد إيمانكم، ولكن ثواب نصحي لكم على الله وحده، وليس من شأني أن أطرد المؤمنين، فإنهم ملاقو ربهم يوم القيامة، ولكني أراكم قومًا تجهلون؛ إذ تأمرونني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني.

قوله تعالى:{وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا} [هود : ٢٩]، أي:" قال نوح عليه السلام لقومه: يا قوم لا أسألكم على دعوتكم لتوحيد الله وإخلاص العبادة له مالاً تؤدونه إليَّ بعد إيمانكم"[٥].

قوله تعالى:{إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ} [هود : ٢٩]، أي:" ولكن ثواب نصحي لكم على الله وحده"[٦].

عن مجاهد: "{إن أجري}: جزائي"[٧].

قوله تعالى:{وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا} [هود : ٢٩]، أي:" وليس من شأني أن أطرد المؤمنين"[٨].

قوله تعالى:{إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ} [هود : ٢٩]، أي:" فإنهم ملاقو ربهم يوم القيامة"[٩].

---

[١] اخرجه الطبري(١٨١٠٩):ص١٥/٢٩٩-٣٠٠.
[٢] اخرجه الطبري(١٨١٠٨):ص١٥/٢٩٩.
[٣] اخرجه الطبري(١٨١١١):ص١٥/٣٠٠.
[٤] تفسير الطبري:١٥/٣٠٠.[الهامش:١].
[٥] التفسير الميسر:٢٢٥.
[٦] التفسير الميسر:٢٢٥.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢١):ص٦/٢٠٢٣.
[٨] التفسير الميسر:٢٢٥.
[٩] التفسير الميسر:٢٢٥.

عن سعيد، في قوله: "{إنهم ملاقوا ربهم}، قال: الذين شروا أنفسهم لله وطمنوها على الموت"[١].

وفي قوله تعالى:{إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ} [هود : ٢٩]، وجهان[٢]:

أحدهما : أن يكون قال ذلك على وجه الإعظام لهم بلقاء الله تعالى .

الثاني : على وجه الاختصام ، بأني لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله.

قال الزمخشري:" معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم. أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به[٣] من بناء إيمانهم على بادىء الرأى من غير نظر وتفكر، وما على أن أشق عن قلوبهم وأ تعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون، ونحوه: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} [الأنعام : ٥٢] الآية. أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة"[٤].

قوله تعالى:{وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} [هود : ٢٩]، أي:" ولكني أراكم قومًا تجهلون؛ إذ تأمرونني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني"[٥].

قال الزمخشري:" تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل، من قوله[٦]:

ألا لا يجهلن أحد علينا"[٧].

قال الآلوسي:أي:" ولكني أراكم قوما تتسفهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة"[٨].

وفي قوله تعالى:{تَجْهَلُونَ} [هود : ٢٩]، وجوه:

أحدها : تجهلون في استرذالكم لهم وسؤالكم طردهم. ذكره الماوردي[٩].

الثاني : تجهلون في أنهم خير منكم لإيمانهم وكفركم. ذكره الماوردي [١٠].

الثالث: تجهلون بلقاء ربكم. ذكره الزمخشري[١١].

الرابع: تجهلون أنهم خير منكم. ذكره الزمخشري[١٢].

قال الزمخشري:" معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم. أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به[١٣] من بناء إيمانهم على بادىء الرأى من غير نظر وتفكر، وما على أن أشق عن قلوبهم وأ تعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون، ونحوه: {وَلَا

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢٢):ص٢٠٢٣/٦.

[٢] انظر: النكت والعيون:٤٦٧/٢.

[٣]قوله «ذلك مما تقرفونهم به» أى ترمونهم وتعيبونهم. أفاده الصحاح.

[٤] الكشاف:٣٩٠/٢.

[٥] التفسير الميسر:٢٢٥.

[٦] الشعر لعمرو بن كلثوم، وتمامه: "ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا .... فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا".
من معلقته، وهو في شرح القصائد العشر ص ٢٣٨ وأمالى المرتضى ٢ / ٨ والصاحبي ص ١٩٦ وما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن الكريم للمبرد ص ١٤ وأساس البلاغة ١ / ١٤٥ ومجمع البيان ١ / ٥٢ .

[٧] الكشاف:٣٩٠/٢.

[٨] روح المعاني:٢٤١/٦.

[٩] انظر: النكت والعيون:٤٦٧/٢.

[١٠] انظر: النكت والعيون:٤٦٧/٢.

[١١] انظر: الكشاف:٣٩٠/٢.

[١٢] انظر: الكشاف:٣٩٠/٢.

[١٣]قوله «ذلك مما تقرفونهم به» أى ترمونهم وتعيبونهم. أفاده الصحاح.

تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم} [الأنعام : ٥٢] الآية. أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة"[١].

الفوائد:

١- كراهية أخذ الأجرة على الدعوة والتربية والتعليم الديني.
٢- وجوب احترام الضعفاء وإكرامهم وحرمة احتقارهم وازدرائهم.
٣- ومن الفوائد: أنه ما حملت دعوة نبي، أو رسالة رسول شيئا من شأنه أن يضيق به الناس، أو يشقوا به، أنها دعوة تحمل إلى الناس الحياة لأموات القلوب والهدى لضلالات العقول كما يحمل الغيث الحياة لصنوف الأحياء، قال تعالى في مكان آخر: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام : ١٢٢].
٤- ذم الله تعالى الجهل وحذر منه وبيّن أنه سبب إعراض المعرضين عن دعوة الأنبياء والمرسلين وأن الناس لجهلهم كذبوا بهم يقول تعالى مخبراً عن قول نوح لقومه: {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ [هود: ٢٩].
وذكر سبحانه أن الجهل هو الذي دفع قوم لوط لعمل جريمتهم البشعة من اللواط، يقول تعالى: أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [النمل: ٥٥].
لذلك حثّ الله تعالى على العلم وبين منزلة العلماء والثواب العظيم عند الله قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [المجادلة: ١١]

القرآن
{وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)} [هود : ٣٠]
التفسير:
ويا قوم مَن يمنعني من الله إن عاقبني على طردي المؤمنين؟ أفلا تتدبرون الأمور فتعلموا ما هو الأنفع لكم والأصلح؟

قوله تعالى:{وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ} [هود : ٣٠]، أي:" ويا قوم مَن يمنعني من الله إن عاقبني على طردي المؤمنين؟"[٢].
قال الفراء:" يقول: من يمنعني من الله"[٣].
قال الزمخشري:"أي: من يمنعني من انتقامه إن طردتهم، وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء"[٤].

قال الطبري:أي:" فيمنعني من الله إن هو عاقبني على طردي المؤمنين الموحِّدين الله إن طردتهم؟"[٥].

---

[١] الكشاف:٣٩٠/٢.
[٢] التفسير الميسر:٢٢٥.
[٣] معاني القرآن:١٢/٢.
[٤] الكشاف:٣٩٠/٢.
[٥] تفسير الطبري:٣٠٢/١٥.

قال مقاتل:" يمنعني من الله إن طردتهم يعنى إن لم أقبل منهم الإيمان أي من السفلة"[1].

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: لو طردتهم فيعذبني الله بذلك، فمن يمنعني من عذاب الله، إن طردتهم عن مجلسي؟"[2].

قال الآلوسي: أي: "من يصونني منه تعالى ويدفع عني حلول سخطه، والاستفهام للإنكار أي لا ينصرني أحد من ذلك {إِنْ طَرَدْتُهُمْ} وأبعدتهم عني وهم بتلك المثابة والزلفى منه تعالى، وفي الكلام ما لا يخفى من تهويل أمر طردهم"[3].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [هود : ٣٠]، أي:" أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه؟"[4].

قال مقاتل:" يعني: أنه لا مانع لأحد من الله"[5].

قال الطبري:" يقول: أفلا تتفكرون فيما تقولون: فتعلمون خطأه، فتنتهوا عنه؟"[6].

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: أفلا تتعظون ولا تفهمون أن من آمن بالله لا يطرد؟"[7].

يطرد؟"[7].

قال الآلوسي:" أي: أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب"[8].

قال المراغي:" أي: أفلا تتفكرون فيما تقولون، وهو ظاهر الخطأ لائحه فتنتهوا عنه؟، فإن لهم ربا ينصرهم وينتقم لهم"[9].

الفوائد:

١- ان الله مولى المؤمنين وناصرهم، وينتقم لهم.

٢- الحث على التفكر، وأنه غاية مقصودة؛ لقوله تعالى: { أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}، لأن التفكر يؤدي إلى نتائج طيبة.

القرآن

{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)} [هود : ٣١]

التفسير:

ولا أقول لكم: إني أملك التصرف في خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولست بمَلَك من الملائكة، ولا أقول لهؤلاء الذين تحتقرون من ضعفاء المؤمنين: لن يؤتيكم الله ثوابًا على أعمالكم، فالله وحده أعلم بما في صدورهم وقلوبهم، ولئن فعلتُ ذلك إني إذًا لمن الظالمين لأنفسهم ولغيرهم.

قوله تعالى:{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ} [هود : ٣١]، أي:" ولا أقول لكم: إني أملك التصرف في خزائن الله"[10].

عن ابن جريج، قوله: "{ولا أقول لكم عندي خزائن الله} التي لا يفينها شيء، فأكون إنما أدعوكم لتتبعوني عليها لأعطيكم منها"[1].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٩/٢.
(٢) بحر العلوم:١٤٧/٢.
(٣) روح المعاني:٢٤١/٦.
(٤) صفوة التفاسير:١١/٢.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٩/٢.
(٦) تفسير الطبري:٣٠٢/١٥.
(٧) بحر العلوم:١٤٧/٢.
(٨) روح المعاني:٢٤١/٦.
(٩) تفسير المراغي:٢٨/١٢.
(١٠) التفسير الميسر:٢٢٥.

قال الزمخشري:" معناه: لا أقول لكم: عندي خزائن الله فأدعى فضلا عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل "[٢].

قال النحاس:" أخبر بتواضعه وتذلله لله جل وعز وأنه لا يدعي ما ليس له من خزائن الله جل وعز وهي أنعامه على من يشاء من عباده"[٣].

قوله تعالى:{وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [هود : ٣١]، أي:" ولا أقول لكم إني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية"[٤].

قال الزمخشري:أي:" ولا أدعى علم الغيب حتى تنسبونى إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعى وضمائر قلوبهم"[٥].

قال النحاس:" وأنه لا يعلم الغيب لأن الغيب لا يعلمه إلا الله جل وعز"[٦].

عن ابن جريج: "{ولا أعلم الغيب}، ولا أقول اتبعوني على علم الغيب"[٧].

قوله تعالى:{وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} [هود : ٣١]، أي:" ولا أقول لكم إني مَلَك من الملائكة"[٨].

قال النحاس:" أي ولا أقول إن منزلتي عند الله جل وعز منزلة الملائكة. وقد قالت العلماء: الفائدة في هذا الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلم لدوامهم على الطاعة واتصال عبادتهم إلى يوم القيامة"[٩].

قال الزمخشري:أي:" ولا أقول إني ملك حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا"[١٠].

عن ابن جريج: "{ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلا بشر مثلكم"[١١].

واحتمل قوله تعالى:{ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ}[هود : ٣١]، من نوح عليه السلام وجهين[١٢]:
أحدهما : أن يكون جواباً لقومه على قولهم:{مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا}.
الثاني : أن يكون جواباً لهم على قولهم :{وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}، فقال الله تعالى له قل : {وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِن اللَّهِ}، وفيها وجوه:
أحدها : أنها الرحمة، أي: ليس بيدي الرحمة فأسوقها إليكم ، قاله ابن عباس[١٣].
الثاني : أنها الأموال ، أي: ليس بيدي أموال فأعطيكم منها على إيمانكم .{وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ} فأخبركم بما في انفسكم . {وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} يعني: فأباين جنسكم. ذكره الماوردي[١٤].

---

[١] أخرجه الطبري(١٨١١٦):ص١٥/٣٠٣.
[٢] الكشاف:٢/٣٩٠.
[٣] إعراب القرآن:٢/١٦٧.
[٤] صفوة التفاسير:٢/١١.
[٥] الكشاف:٢/٣٩٠.
[٦] إعراب القرآن:٢/١٦٧.
[٧] أخرجه الطبري(١٨١١٦):ص١٥/٣٠٣.
[٨] انظر: صفوة التفاسير:٢/١١، والتفسير الميسر:٢٢٥.
[٩] إعراب القرآن:٢/١٦٧.
[١٠] الكشاف:٢/٣٩٠.
[١١] أخرجه الطبري(١٨١١٦):ص١٥/٣٠٣.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٢/٤٦٧.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٢/٤٦٧.
[١٤] انظر: النكت والعيون:٢/٤٦٧.

والثالث: أي: مقدوراته التى منع الناس عنها، لأن الخزن ضرب فى المنع. وهذا قول الفيروزآبادي[١].
والرابع: أنها: جوده الوسيع وقدرته. حكاه الفيروزآبادي[٢].
والخامس: أي: قوله: «كن». حكاه الفيروزآبادي[٣].
قوله تعالى:{وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا} [هود : ٣١]، أي:" ولا أقول لهؤلاء الذين تحتقرون من ضعفاء المؤمنين: لن يؤتيكم الله ثوابًا على أعمالكم"[٤].
قال مقاتل:" يعنى: السفلة، {لن يؤتيهم الله خيرا}، يعني: إيمانا وإن كانوا عندكم سفلة"[٥].
قال الزمخشري:أي:" ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيرا في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، كما تقولون، مساعدة لكم ونزولا على هواكم"[٦].

قال الطبري:" يقول: ولا أقول للذين اتبعوني وآمنوا بالله ووحَّدوه، الذين تستحقرهم أعينكم، وقلتم: إنهم أراذلكم: {لن يؤتيهم الله خيرًا} ، وذلك الإيمان بالله"[٧].
قال الماوردي:" أي: ليس لاحتقاركم لهم يبطل أجرهم أو ينقص ثوابهم ، وكذلك لستم لعلوكم في الدنيا تزدادون على أجوركم"[٨].
عن ابن زيد:"{ولا أقول للذين تزدري أعينكم}، قال: حقرتموهم"[٩].

و«الازدراء»: "الإحتقار . يقال: ازدريت عليه إذاعبته ، وزريت عليه إذا حقرته، وأنشد المبرد :

يباعده الصديق وتزدريه حليلته وينهره الصغير"[١٠]

قال الزجاج:" {تزدري}: تستسفل وتستخس، يقال: زريت على الرجل إذا عبت عليه وخسست فعله، وأزريت إذا قصرت به"[١١].

قوله تعالى:{اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ} [هود : ٣١]، أي:" فالله وحده أعلم بما في صدورهم وقلوبهم"[١٢].
قال الطبري:" يقول: الله أعلم بضمائر صدورهم، واعتقاد قلوبهم، وهو وليّ أمرهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهر وبدا، وقد أظهُروا الإيمان بالله واتبعوني، فلا أطردهم ولا أستحل ذلك"[١٣].
قال الزجاج:" أي: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في ظاهر الرأي والذي أدعو إليه

---

[١] البصائر:٥٣٥/٢.
[٢] البصائر:٥٣٥/٢.
[٣] البصائر:٥٣٥/٢.
[٤] التفسير الميسر:٢٢٥.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٩/٢.
[٦]التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه:١٧٤.
[٧] تفسير الطبري:٣٠٢/١٥-٣٠٣.
[٨] النكت والعيون:٤٦٨/٢.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢٣):ص٢٠٢٣/٦.
[١٠] النكت والعيون:٤٦٨/٢.
[١١] معاني القرآن:٤٨/٣.
[١٢] التفسير الميسر:٢٢٥.
[١٣] تفسير الطبري:٣٠٣/١٥.

توحيد الله، فإذا رأيت من يوحد الله جل ثناؤه عملت على ظاهره، والله أعلم بما في نفسه، لا يعلم الغيب إلا الله"[1].

قوله تعالى:{إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [هود : ٣١]، أي:" ولئن فعلتُ ذلك إني إذًا لمن الظالمين لأنفسهم ولغيرهم"[2].

قال الماوردي:" يعني: إن قلت هذا الذي تقدم ذكره "[3].

قال الطبري:" يقول: إنّي إن قلت لهؤلاء الذين أظهروا الإيمان بالله وتصديقي: {لن يؤتيهم الله خيرًا}، وقضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته ألسنتهم لي على غير علم منّي بما في نفوسهم، وطردتهم بفعلي ذلك، لمن الفاعلين ما ليس لهم فعله، المعتدين ما أمرهم الله به، وذلك هو «الظلم»"[4].

قال الزمخشري:أي:" إن قلت شيئا من ذلك، والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا عابه، وأزرى به: قصر به، يقال ازدرته عينه، واقتحمته عينه"[5].

الفوائد:

١- علم الغيب استأثر الله تعالى به دون سائر خلقه إلا من علمه الله شيئا منه فإنه يعلمه.
٢- حرمة غمط الناس وازدرائهم والسخرية منهم

القرآن

{قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢)} [هود : ٣٢]

التفسير:

قالوا: يا نوح قد حاججتنا فأكثرت جدالنا، فأتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين في دعواك.

قوله تعالى:{قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا} [هود : ٣٢]، أي:" قال قوم نوح لنوحٍ عليه السلام: قد خاصمتنا فأكثرهم خصومتنا"[6].

قال الزمخشري:" معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته، كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب"[7].

قال البيضاوي:أي:" خاصمتنا، فأطلته أو أتيت بأنواعه"[8].

عن مجاهد قوله: "{جادلتنا}: ماديتنا"[9].

ويقرأ: «فأكثرت جدلنا»، والجدل والجدال المبالغة في الخصومة، والمنافرة، وهو مأخوذ من الجدل وهو لتعدة الفتل، والصقر يقال له أجدل لأنه من أشد الطير[10].

---

[1] معاني القرآن:٤٩/٣.
[2] التفسير الميسر:٢٢٥.
[3] النكت والعيون:٤٦٨/٢.
[4] تفسير الطبري:٣٠٣/١٥.
[5]التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه:١٧٤.
[6] صفوة التفاسير:١١/٢.
[7] الكشاف:٣٩١/٢.
[8] تفسير البيضاوي:١٣٣/٣.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢٤):ص٢٠٢٤/٦.
[10] انظر: معاني القرآن للزجاج:٤٩/٣.

قوله تعالى:{فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [هود : ٣٢]، أي:" فائتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً في ما تقول"(١).

قال الزمخشري:أي:" من العذاب المعجل"(٢).

قال البيضاوي:أي:"من العذاب، {إن كنت من الصادقين} في الدعوى والوعيد فإن مناظرتك لا تؤثر فينا"(٣).

الفوائد:

١- مشروعية الجدال لإحقاق الحق وإبطال الباطل بشرط الأسلوب الحسن.

٢- بيان المنهج الفريد الذي سلكه النبي نوح-عليه السلام في ردّ قومه إلى عقيدة التوحيد، وهو منهج جدير بالتأمل والإعتبار، ويمكن تلخيصه فيما يأتي:

أ- لين الكلمة، وسهولة الأسلوب، وعدم مقابلة السب والأذى بمثله، يظهر ذلك واضحاً من جوابه لقومه عندما قالوا له: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}[الأعراف:٦٠]، حيث ردّ عليهم في هدوء ولين، قائلاً لهم: {يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[الأعراف:٦١-٦٢].

ب- تبرؤه من ادعائهم ما ليس له، كما وصف القرآن الكريم: {وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}[هود:٣١].

ت- تنويعه للأساليب في الدعوة، فلم يلتزم أسلوباً معيناً، أو حالة واحدة، ولكنه أخذ يدعوهم في الليل والنهار، وفي السر والجهر، يظهر ذلك من قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا}[نوح:٥-٩].

ث- ترغيبهم بمغفرة الذنوب إنْ هم أطاعوه، وصدقوا ما جاء به، ويمد الله في أعمارهم، ويدرأ عنهم العذاب الذي إنْ لم يجتنبوا ما نهاهم عنه أوقعه الله بهم، قال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[نوح:٢-٤].

كما رغبهم في سعة العيش، ويسر الحياة السعيدة، وذلك بهطول الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، إنْ هم استغفروا الله تعالى، وتابوا إليه من الشرك وجميع الذنوب، قال تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا}[نوح:١٠-١٢].

ج- استعماله معهم أسلوب الجدل والحوار، يتضح ذلك من آيات كثيرة، منها ما جاء في قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ}[الشعراء الآيات: ١٠٥-١١٧].

وكما هو واضح من قوله تعالى حكاية عن قولهم: { ... يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}[هود:٣٢].

---

(١) صفوة التفاسير:١١/٢.

(٢) الكشاف:٣٩١/٢.

(٣) تفسير البيضاوي:١٣٣/٣.

ح- التكرار الدائم في دعوتهم، على الرغم من مرور الأعوام الطوال، وبذله كل الجهود الهادفة إلى إرجاعهم إلى الحق، وسلوك الطريق المستقيم، ولكن ليس هناك جدوى تذكر، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ... }[العنكبوت:١٤].

وعن كثرة دعوته إليهم وتكرارها، كما في الآية المتقدمة: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ... }[هود:٣٢].

خ- دعوتهم إلى النظر إلى الكون، وما فيه من نظام وإبداع، وإلى الأنفس وما فيها من عجائب تدل على عظمة الخالق جل وعلا، وأنه المستحق للعبادة وحده، قال تعالى: {مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا}[نوح:١٣-٢٠].

القرآن

{قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣)} [هود : ٣٣]

التفسير:

قال نوح لقومه: إن الله وحده هو الذي يأتيكم بالعذاب إذا شاء، ولستم بفائتيه إذا أراد أن يعذبكم؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قوله تعالى:{قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ} [هود : ٣٣]، أي:" قال نوح لقومه: إن الله وحده هو الذي يأتيكم بالعذاب إذا شاء"[١].

قال الزمخشري:" أى: ليس الإتيان بالعذاب إلى إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه {إن شاء}، يعنى: إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم"[٢].

قوله تعالى:{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [هود : ٣٣]، أي:" ولستم بفائتيه إذا أراد أن يعذبكم، لأنكم في ملكه وسلطانه"[٣].

قال البغوي:أي:" بفائتين"[٤].

عن ابن عباس في قوله: "{بمعجزين}، قال: بمسابقين"[٥].

الفوائد:

١- بيان فرار الكفار من قوم نوح من ميدان المناظرة إلى استعجال الهلاك، وطلبوا ذلك من نوح، فبين لهم أن ذلك إلى الله لا إليه.

٢- إرادة الله تعالى قبل كل إرادة وما شاءه الله يكون وما لم يشأه لم يكن.

فإن الأصل يقضي بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السماوات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد. والنصوص المصرحة بهذا الأصل المقررة له كثيرة وافرة، قال تعالى: {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩]، وقال: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما

---

[١] التفسير الميسر:٢٢٥.

[٢] الكشاف:٣٩١/٢.

[٣] انظر: التفسير الميسر:٢٢٥، وصفوة التفاسير:١٢/٢.

[٤] تفسير البغوي:١٧٢/٤.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢٥):ص٢٠٢٤/٦.

كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ} [الأنعام: ١١١]، وقال: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} [الأنعام:١١٢]، وقال: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٣٦]، وقال: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩].

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن. فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه، قال تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: ٢٥٣]، وقال: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [المائدة:٤٨]، وقال: {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام: ٣٥]، وقال: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ} [الأنعام: ١٠٧]، وقال: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يونس:٩٩]، وقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا} [الفرقان: ٤٥]، والآيات في هذا كثيرة تدل على عدم وجود ما لم يشأ وجوده لعدم مشيئته ذلك، لا لعدم قدرته عليه، فإنه على كل شيء قدير تبارك وتعالى[١].

وقد وردت أدلة كثيرة جداً لهذه المرتبة من الكتاب والسنة:

أولا:- فمن أدلتها من الكتاب:

أ- قوله تعالى في معرض الحديث عن أهل الكتاب ونهي النبي ﷺ عن أن يتبع أهواءهم وأمره أن يلتزم الحكم بما أنزل الله مبيناً أن لكل من الأمم الثلاث: اليهود والنصارى وأمة محمد، شريعة ومنهاجاً في كل من التوراة والإنجيل والقرآن "وقد نسخ القرآن ما قبله {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم} [المائدة:٤٨] أي: لجعلكم على شريعة واحدة، وكتاب واحد، ورسول واحد، لكن لما لم يشأ الله ذلك بل شاء الابتلاء والاختبار فكنتم على الحالة التي أنتم عليها"[٢] فمشيئة الله مطلقة والنافذ هو ما يشاؤه سبحانه وتعالى فهذا دليل على مرتبة المشيئة.

ب- وقد ورد في القرآن الكريم - في الحديث عن بعض الأنبياء وغيرهم - تعليقهم كل أمر بمشيئة الله سبحانه وتعالى، فنوح عليه الصلاة والسلام لما قال له قومه: فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [الأعراف:٧٠] ، قَالَ {إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} [هود: ٣٣]. وشعيب عليه السلام بعد ما طلب منه قومه أن يعود إلى ملتهم بيَّن أنه لا يمكن له أن يعود إلى ملتهم بعد أن نجاه الله منها هو والمؤمنون معه، ولا ينبغي لهم ذلك إلا إذا شاء الله ذلك فقال: قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا [الأعراف: ٨٩] ، فعلق أعظم شيء وهو الإيمان والكفر على مشيئة الله. ويوسف عليه السلام قال لأهله بعد أن التقى بهم: ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ [يوسف:٩٩]. وقال موسى عليه السلام للخضر: قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا [الكهف:٦٩] ، والله سبحانه وتعالى وجه نبيه قائلاً: وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا [الكهف:٢٣ - ٢٤] ، فهذه الآيات تدل على استقرار عقيدة المسلمين ويقينهم بهذه المرتبة من مراتب القدر.

---

[١] انظر: الإيمان بالقضاء والقدر، عمر بن سليمان الأشقر:٣٢.
[٢]انظر: روح البيان في مقاصد القرآن،صديق حسن خان:٣/ ٤٤.

ت- وفي القرآن آيات كثيرة تدل على أن حوادث الدنيا إنما تجري وفق مشيئته سبحانه وتعالى، فهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، فتدول الدول، ويعز الذليل، ويذل العزيز كل ذلك بمشيئة الله قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [آل عمران:٢٦] ، وهو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء ذكوراً، وإناثاً، أشقياء، وسعداء، مختلفين في صفاتهم وأشكالهم حسناً وقبحاً، قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [آل عمران:٦].

ث- وفي إثبات أن الله مريد لكل ما يخلقه جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم، فحين يبين سبحانه أن الذين شقوا في النار، وأنهم خالدون في النار مادامت السموات والأرض، يعقب على ذلك بقوله: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ [هود:١٠٧] فلا يرده أحد عن مراده سبحانه، وبعد أن بين - تعالى - أنه يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، عقب على ذلك بقوله: إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ، وفي آية أخرى يبين الله تعالى أنه هو الذي يريد الهداية والإضلال قال تعالى: فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء [الأنعام:١٢٥].

ثانيا:- أدلة هذه المرتبة من السنة:

عقد البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب التوحيد باباً عرض فيه لبعض النصوص الواردة في أثبات المشيئة والإرادة، فقال: (باب في المشيئة والإرادة) ، ثم أورد بعض الآيات والأحاديث الواردة، ونحن نذكر شيئاً منها مما أورده البخاري وغيره:

أ- فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول ﷺ إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال: "اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء"[١]، فأوصى بالشفاعة وذلك فيما ليس بمحرم، وضابطها ما أذن فيه الشرع دون ما لم يأذن فيه، ثم بين أن الله يقضي على لسان رسوله ما شاء أي: يظهر على لسان رسوله بالوحي أو الإلهام ما قدره في علمه بأنه سيقع، فهذا يدل على مرتبة المشيئة.

ب- وقد "أقر النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أجابه بعد سؤاله له هو وفاطمة بقوله: ألا تصليان؟ فأجابه بقوله: أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. قال علي: فانصرف حيث قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مولٍ يضرب فخذه وهو يقول: وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا [الكهف:٥٤]"[٢]؛ ففي هذا الحديث إثبات المشيئة لله تعالى وأن العبد لا يفعل شيئاً إلا بإرادة الله، أما انصراف النبي ﷺ وضربه فخذه واستشهاده بالآية، فمعناه: أنه تعجب من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا، ولهذا ضرب فخذه وقيل: قال تسليماً لعذرهما، وأنه لا عتب عليهما، وقيل غير ذلك[٣].

ت- وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول ﷺ يقول: "إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك"[٤]، والشاهد قوله: "كقلب واحد يصرفه حيث يشاء"؛ فمعناه أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده

---

[١] رواه البخاري (١٤٣٢).

[٢] رواه البخاري (١١٢٧). من حديث علي رضي الله عنه.

[٣] انظر: ((فتح الباري)) (٣/ ١١).

[٤] رواه مسلم (٢٦٥٤).

كلهم، فيهدي ويضل كما يشاء، ففيه دلالة على مرتبة المشيئة، والحديث من أحاديث الصفات الثابتة والتي يجب الإيمان بها وبما دلت عليه من الصفات من غير تأويل أو تعطيل، وقد أخطأ النووي رحمه الله حيث ذكر في معنى الحديث قولين باطلين: أحدهما: أنه من أحاديث الصفات وينبغي الإيمان بها من غير تعرض لتأويل ولا لمعرفة، بل يؤمن بأنها حق، وأن ظاهرها غير مراد، والثاني: أن يتأول بحسب ما يليق بها، فعلى هذا المراد المجاز، وكلا القولين خطأ، إذ ذهب أهل السنة إلى إثباتها كما جاءت، والإيمان بها وبما دلت عليه على ما يليق بجلال الله وعظمته.

ث- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته إنه يفعل ما يشاء لا مكره له"[1] ، ففيه إثبات المشيئة لله تعالى فهو الغفور الرحيم، والرزاق إذا شاء، وهو سبحانه يفعل ما يشاء لا مكره له، والحديث فيه الحث على العزم في المسألة والجزم فيها، دون ضعف أو تعليق على المشيئة، وإنما نهى عن التعليق على المشيئة لأنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه، والله سبحانه وتعالى لا مكره له كما نص عليه الرسول ﷺ هنا [2].

ج- وعن ابن عباس رضي الله عنهما "أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت فقال النبي ﷺ: أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده"[3] والحديث واضح الدلالة على إثبات مرتبة المشيئة، وأن الله تعالى له المشيئة المطلقة، وأن للعباد مشيئة خاضعة لمشيئة الله تعالى، والنهي في الحديث إنما هو عن قرن مشيئة الله بمشيئة الرسول ﷺ، حيث عطفها بالواو التي هي لمطلق الجمع من غير ترتيب ولا تعقيب، والرسول مثل غيره من العباد، فالكل خاضعون لمشيئة الله، ومشيئتهم تابعة لمشيئة الله.

ح- ومن الأحاديث الدالة على الإرادة والمشيئة: الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله" [4]، فقوله: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" فيه إثبات مرتبة الإرادة، وأن الأمور كلها تجري بمشيئة الله تعالى ولهذا قال ﷺ: "وإنما أنا قاسم والله معطي"، أي: إنما أنا أقسم ما أمرني الله بقسمته، والمعطي حقيقة هو الله تعالى، فالأمور كلها بتقدير الله تعالى والإنسان مصرف مربوب، ومن الأحاديث الدالة على الإرادة حديث حذيفة بن أسيد الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ "إن ملكاً موكلاً بالرحم، إذا أراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله لبضع وأربعين ليلة .. " الحديث [5] فالله هو المريد لخلق الآدمي، والأحاديث الدالة على مرتبة المشيئة والإرادة كثيرة جداً[6].

القرآن

{وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)} [هود : ٣٤]

التفسير:

---

[1] رواه البخاري (٧٤٧٧).

[2] انظر: ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (١٧/ ٦، ٧)، وانظر أيضا: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٤٠).

[3] رواه أحمد (١/ ٢١٤) (١٨٣٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٢٤٥) (١٠٨٢٥)، والبيهقي (٣/ ٢١٧) (٥٦٠٣)، والخطيب في ((تاريخ بغداد)) (٨/ ١٠٤). والحديث حسن إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٢٠٠)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣/ ٢٥٣).

[4] رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

[5] رواه مسلم (٢٦٤٥).

[6] انظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٤، ٤٧).

ولا ينفعكم نصحي واجتهادي في دعوتكم للإيمان، إن كان الله يريد أن يضلَّكم ويهلككم، هو سبحانه مالككم، وإليه تُرجَعون في الآخرة للحساب والجزاء.

قوله تعالى:{وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ} [هود : ٣٤]، أي:" ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم"[١].

قوله تعالى:{إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} [هود : ٣٤]، أي:" إن أراد الله إضلالكم"[٢].

قوله تعالى:{هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [هود : ٣٤]، أي:" هو خالقكم والمتصرف في شئونكم، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم"[٣].

عن أبي العالية :"{إليه ترجعون}، قال: إليه يرجعون بعد الحياة"[٤].

الفوائد:

١- لا ينفع نصح الناصحين ما لم يرد الله الخير للمنصوح له.
٢- ينبغي عدم إصدار حكم على عبد لم يمت فيعرف بالموت مآله. إلا قول الله أعلم به.
٣- أن في قوله :{هو ربكم}، إشارة إلى أن تصرف المالك في ملكه ليس فيه ظلم إذ الرب في وضع اللغة المالك وهذا إنما ظهر لي عند وضع هذا الكلام أعني كون هذه الإشارة ظاهرة في التعليل

وكذلك قول عيسى بن مريم {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة : ١١٨، فإن الإشارة إلى التعليل المذكور أيضا مفهومة من قوله {فإنهم عبادك}.

٤- في الآية بيان الإرادة الدينية والإرادة الكونية:

فالمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان:

أ- إرادة قدرية كونية خلقية.

فالإرادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضى، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، وهذا كقوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} [الأنعام: ١٢٥]. وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: {ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم} [هود: ٣٤]. وقوله تعالى: {ولكن الله يفعل ما يريد} [سورة البقرة: ٢٥٣].

ب- إرادة دينية أمرية شرعية:

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية، فكقوله تعالى: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} [سورة البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم} [سورة النساء: ٢٦]. {والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا} [سورة النساء: ٢٧، ٢٨]. وقوله تعالى: {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم} [سورة المائدة: ٦]. وقوله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} [سورة الأحزاء: ٣٣].

فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أي: لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

---

[١] صفوة التفاسير:١٢/٢.
[٢] صفوة التفاسير:١٢/٢.
[٣] صفوة التفاسير:١٢/٢.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢٦):ص٢٠٢٤/٦.

وأما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غيره أن يفعل، فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلا فهذه الإرادة معلقة بفعله، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلا، فهذه الإرادة لفعل الغير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على [ما] أمر به وقد لا يريد ذلك، وإن كان مريدا منه فعله(١).

القرآن

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)} [هود : ٣٥]

التفسير:

بل أيقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه؟ :" قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي، كفركم وتكذيبكم وإجرامكم.

قوله تعالى:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [هود : ٣٥]، أي:" بل أيقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه"(٢).

قال ابن كثير:" هذا كلام معترض في وسط هذه القصة ، مؤكد لها ومقرر بشأنها، يقول تعالى لمحمد ﷺ : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون : افترى هذا وافتعله من عنده"(٣).

قوله تعالى:{قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي} [هود : ٣٥]، أي:" قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي"(٤).

قال الزمخشري:"المعنى: إن صح وثبت أنى افتريته، فعلى عقوبة إجرامى أى افترائى. وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عنى وتتألبوا علي"(٥).

قال ابن كثير:" أي : فإثم ذلك علي "(٦).

عن قتادة، في قوله تعالى: {فعليّ إجرامي}، يقول فعلي عملي"(٧).

قال العز بن عبدالسلام:" {إِجْرَامِى} عقاب إجرامي وهي الذنوب المكتسبة أو الجنايات المقصودة"(٨).

وقرىء :«أجرامي» بفتح الهمزة على أنه كما قال النحاس: "جمع جرم"(٩)، واستشكل العز بن عبد السلام الشرطية بأن الافتراء المفروض هنا ماض والشرط يخلص للاستقبال بإجماع أئمة العربية، وأجاب أن المراد- كما قال ابن السراج- إن ثبت أني افتريته فعلي إجرامي على ما قيل في قوله تعالى: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ [المائدة: ١١٦](١٠).

قوله تعالى:{وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ} [هود : ٣٥]، أي:" وأنا بريءٌ من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم"(١١).

---

(١) انظر: شرح الطحاوية:١١٤-١١٥.
(٢) صفوة التفاسير:١٢/٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.
(٤) صفوة التفاسير:١٢/٢.
(٥) الكشاف:٣٩٢/٢. وقوله «وتتألبوا على» أى تتجمعوا. أفاده الصحاح.
(٦) تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢٧):ص٢٠٢٤/٦.
(٨) تفسير العز بن عبدالسلام:٨٨/٢.
(٩) إعراب القرآن:١٦٧/٢.
(١٠) انظر: روح المعاني:٢٤٧/٦.
(١١) صفوة التفاسير:١٢/٢.

قال الآلوسي:" أي: من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي"(١).
قال ابن كثير:" أي : ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه"(٢).
قال الزمخشري:" يعنى: ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه. ومعنى {مما تجرمون}: من إجرامكم في إسناد الافتراء إلى فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم"(٣).
عن قتادة، قوله: "{وأنا بريء مما تجرمون}، أي: مما تعملون"(٤).
الفوائد:

١- بيان عناد مشركي مكة وتكذيبهم للرسول-ﷺ- وقلوهم: أن هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه. هذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.
فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال، الإعراض عنهم، ولهذا قال: {قل إن افتريته فعلي إجرامي} أي: ذنبي وكذبي، {وأنا بريء مما تجرمون} أي: فلم تستلجون في تكذيبي(٥).
٢- فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله، كما قال: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام : ١٦٤].

القرآن
{وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)} [هود : ٣٦]
التفسير:
وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح -عليه السلام- لمَّا حق على قومه العذاب، أنه لن يؤمن بالله إلا مَن قد آمن مِن قبل، فلا تحزن يا نوح على ما كانوا يفعلون.

قوله تعالى:{وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ} [هود : ٣٦]، أي:" وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح -عليه السلام- لمَّا حق على قومه العذاب، أنه لن يؤمن بالله إلا مَن قد آمن مِن قبل"(٦).
قال الزمخشري:" {لن يؤمن}: إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع إلا من قد آمن إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها"(٧).
عن قتادة قوله: "{وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن}، وذلك حين دعا عليهم نوح، قال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}(٨)"(٩).

قال الضحاك:" فحينئذ دعا على قومه، لما بيَّن الله له أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن"(١).

(١) روح المعاني:٢٤٧/٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.
(٣) الكشاف:٣٩١/٢.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢٨):ص٢٠٢٤/٦.
(٥) انظر: تفسير السعدي:٣٨١.
(٦) التفسير الميسر:٢٢٥.
(٧) الكشاف:٣٩٢/٢. وقوله «وتتألبوا على» أى تتجمعوا. أفاده الصحاح.
(٨)[نوح : ٢٦].
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٢٩):ص٢٠٢٤/٦.

قوله تعالى:{فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [هود : ٣٦]، أي:" فلا تحزن يا نوح على ما كانوا يفعلون"(٢).

عن ابن عباس قوله: "{فلا تبتئس}، يقول: لا تحزن ولا تيأس"(٣).

عن مجاهد قوله: "{فلا تبتئس}،: فلا تحزن"(٤).

قال الفراء:" يقول: لا تستكن ولا تحزن"(٥).

قال الزمخشري:أي:" فلا تحزن حزن بائس مستكين، قال(٦):

ما يَقْسِمِ اللَّهُ فاقبل غيرَ مُبْتَئِسٍ   منه وأقْعُدْ كريماً ناعمَ البالِ

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم"(٧).

قال الصابوني:"أي: فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم"(٨).

عن محمد بن كعب قال: لما استنقذ الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء كل مؤمن ومؤمنة قال: يا نوح «لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون»"(٩).

الفوائد:

١- كراهية الحزن والأسى والأسف على ما يقوم به أهل الباطل والشر والفساد.

٢- أن مهمة الرسل استدعاء إيمان قومهم، ولا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن بدليل قوله تعالى لنوح عليه السلام: {وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن} [هود : ٣٦] ، وعند ذلك قال: {رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا} [نوح: ٢٦](١٠).

٣- وفي الآية بطلان قول الزاعم أن التوبة لو لم يجز وجودها من المطبوع على قلبه لما جاز أن يؤمر بها.

فالجواب: أن الكفار الذين أخبر عنهم الله تعالى قطعا بأنهم لا يؤمنون أكان الأمر بالإيمان زائلا عنهم فلا يستطيع أن يقول: نعم، فيقال له: فإن جاز أن يكون من بين الله تعالى لنبيه ﷺ على أنه لا يؤمن مأمورا بالإيمان، لم لا جاز أن يكون كل مطبوع على قلبه مأمورا بالإيمان أو بالتوبة؟ وإن كان لا يمكن وجود واحد منهما. وقد أخبر عز وجل أنه أوحى إلى نوح النبي ﷺ. {أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن} ولذلك عرفهم. ولا يجوز أن يقال: إن الأمر بالإيمان زال عنهم. فما أنكرت أن كل مطبوع على قلبه فالأمر بالتوبة قائم عليه، وأن كلا لا تؤخذ منه التوبة أبدا وبالله التوفيق(١١).

---

(١) أخرجه الطبري(١٨١٢٦):ص٣٠٨/١٥.

(٢) التفسير الميسر:٢٢٥.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٢):ص٢٠٢٤/٦.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣١):ص٢٠٢٤/٦.

(٥) معاني القرآن:١٢/٢.

(٦)البيت لحسان كما في "ديوانه" ص ١٨٩، اللسان (بأس) ١/ ٢٠٠، "التنبيه والإيضاح" ٢/ ٢٦١، "تاج العروس" (بأس) ٨/ ١٩٦، "أساس البلاغة" (بأس)، وبلا نسبة في "مقاييس اللغة" ١/ ٣٣٨، و"المخصص" ١٢/ ٣١٧.

(٧) الكشاف:٣٩٢/٢. وقوله «وتتألبوا على» أى تتجمعوا. أفاده الصحاح.

(٨) صفوة التفاسير:١٢/٢.

(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٠):ص٢٠٢٤/٦.

(١٠) انظر: التفسير المنير للزحيلي:٢٥٣/١١.

(١١) انظر: المنهاج في شعب الغيمان:١٣١/٣.

القرآن
{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧)} [هود : ٣٧]
التفسير:
واصنع السفينة بمرأى منَّا وبأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا، ولا تطلب مني إمهال هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من قومك بكفرهم، فإنهم مغرقون بالطوفان.

قوله تعالى:{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [هود : ٣٧]، أي:" اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا"[١].
قال المراغي:" أي: واصنع الفلك الذي سننجيك ومن آمن معك فيه وأنت محروس ومراقب برعايتنا، أي إننا حافظوك فى كل آن، فلا يمنعك من حفظنا مانع"[٢].
قال ابن عباس:" وذلك أنه لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله عز وجل إليه أن يصنعها على مثل [جؤجؤ][٣] الطائر"[٤].
عن أبي صالح في قوله: "{الفلك}، قال: سفينة نوح"[٥].
قال ابن عباس: "كان طول سفينة نوح أربعمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعا"[٦].
قال الحسن:" كان طول سفينة نوح ستمائة ذراع، وارتفاعها ثلاثون ذراعا، وعرضها ثلاثمائة ذراع، وكان بابها في جنبها"[٧].
وفي رواية أخرى عن الحسن:" كان طول سفينة نوح ألف ومائة ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت مطبقة"[٨].
وعن الحسن ايضا:" كان طول سفينة نوح ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع"[٩].
عن خصيف :"أن سفينة نوح كانت من خشب وكانت ثلاثة أبيات وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا وطول الأبيات الثلاثة من أسفل إلى فوق ثلاثون ذراعا كل بيت منها عشرة أذرع، وكانت مغطاة أعلاها وأسفلها الا باب يدخل منه كل شيء ثم ردمه"[١٠].
وفي قوله تعالى:{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [هود : ٣٧]، وجوه[١١]:

أحدهما : بحيث نراك، فعبر عن الرؤية بالأعين لأن بها تكون الرؤية .
الثاني : بحفظنا إياك حفظ من يراك .
الثالث : بأعين أوليائنا من الملائكة .
والرابع : بمعونتنا لك على صنعها. أفاده الماوردي[١٢].

---

[١] صفوة التفاسير:١٢/٢.
[٢] تفسير المراغي:٣٤/١٢.
[٣] في المطبوع« جؤحؤ».
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٣):ص٢٠٢٥/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٤):ص٢٠٢٥/٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٥):ص٢٠٢٥/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٦):ص٢٠٢٥/٦.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٨):ص٢٠٢٥/٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٩):ص٢٠٢٦/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٣٧):ص٢٠٢٥/٦.
[١١] انظر: النكت والعيون:٤٦٩/٢-٤٧٠.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٤٧٠/٢.

وروي عن ابن عباس :"{واصنع الفلك بأعيننا}، قال: بعين الله ووحيه"(١).
وعن عطاء: "وأما قوله بأعيننا ووحينا فيقال بعين الله ورحمته"(٢).

قوله تعالى:{وَوَحْيِنَا} [هود : ٣٧]، أي:" وتعليمنا لك"(٣).
قال السمعاني:" أي: وأمرنا"(٤).
قال عطاء الخراساني :" أي" بوحي الله"(٥).

قال المراغي: أي:"وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه، فلا يعرضن لك خطأ فى صنعته ولا فى وصفه"(٦).
وفي قوله تعالى:{وَوَحْيِنَا} [هود : ٣٧]، وجهان(٧):
أحدهما : وأمرنا لك أن تصنعها. وهذا معنى قول مجاهد(٨).
روي عن مجاهد: قوله :"{ووحينا}، كما نأمرك"(٩).
الثاني : تعليمنا لك كيف تصنعها .
قوله تعالى:{وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا} [هود : ٣٧]، أي:" ولا تشفع في الذين ظلموا أنفسهم من قومك بكفرهم، فإني مهلكهم لا محالة"(١٠).
قال المراغي: " أي: ولا تراجعنى فى شىء من أمرهم من دفع العذاب عنهم وطلب الرحمة لهم"(١١).

قال قتادة:" نهى الله عز وجل نوحا عليه السلام أن يراجعه في أحد"(١٢).
قال محمد بن إسحاق:" فلما شكا ذلك منهم نوح إلى الله عز وجل واستنصر عليهم أوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا، أي: بعد اليوم إنهم مغرقون"(١٣).
وفي قوله تعالى:{وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا} [هود : ٣٧]، قولان(١٤):
أحدهما: ولا تخاطبني في إمهال الكفار، فإني قد حكمت بإغراقهم.
والثاني: لا تخاطبني في ابنك؛ فإنه هالك مع القوم.

قال الزمخشري: معناه:" ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك إنهم مغرقون إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، كقوله: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود : ٧٦]"(١٥).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٠):ص٢٠٢٦/٦.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٣):ص٢٠٢٦/٦.
(٣) صفوة التفاسير:١٢/٢.
(٤) تفسير السمعاني:٤٢٧/٢.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٢):ص٢٠٢٦/٦.
(٦) تفسير المراغي:٣٤/١٢.
(٧) انظر: النكت والعيون:٤٧٠/٢.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٨٤١):ص٢٠٢٦/٦.
(٩) اخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤١):ص٢٠٢٦/٦.
(١٠) صفوة التفاسير:١٢/٢.
(١١) تفسير المراغي:٣٤/١٢.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٥):ص٢٠٢٦/٦.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٤):ص٢٠٢٦/٦.
(١٤) انظر: تفسير السمعاني:٤٢٧/٢.
(١٥) الكشاف:٣٩٣/٢.

قال الماوردي:" نهاه الله عن المراجعة فيهم فاحتمل نهيه أمرين :
أحدهما : ليصرفه عن سؤال ما لا يجاب إليه .
الثاني : ليصرف عنه مأثم الممالأة للطغاة "[1].
قوله تعالى:{إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [هود : ٣٧]، أي:" فإنهم هالكون غرقاً بالطوفان"[2].
قال المراغي: " أي: فقد حقت عليهم كلمة العذاب وقضى عليهم بالإغراق، والخلاصة- لا تأخذنك بهم رأفة ولا شفقة"[3].

الفوائد:

١- بيان تاريخ صنع السفن وانها بتعليم الله لنوح عليه السلام.
٢- لم ينص القرآن الكريم على حجم السفينة، وإنما أشير إليها بأنها الفلك المشحون، قال تعالى: { الْفُلْكِ الْمَشْ} [يس : ٤١]، وبأنها {ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ} [القمر : ١٣] [القمر: ١٣] أي: مسامير، وبأن صناعتها بوحي من الله وإلهام: {واصنع الفلك بأعيننا ووحينا} [هود: ٣٧][4].

القرآن
{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)} [هود : ٣٨]
التفسير:
ويصنع نوح السفينة، وكلَّما مر عليه جماعة من كبراء قومه سخروا منه، قال لهم نوح: إن تسخروا منا اليوم لجهلكم بصدق وعد الله، فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق كما تسخرون منا.

قوله تعالى:{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ} [هود : ٣٨]، أي:" صنع نوحٌ السفينة كما علّمه ربُّه"[5].
قال الزمخشري:" {ويصنع الفلك}: حكاية حال ماضية... وروى أن نوحا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعا، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضا بين الرجال والنساء. وقيل: إن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب بن حام. قال:

فضرب الكثيب بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام: هكذا أهلكت؟ قال لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير. ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد ترابا"[6].

---

[1] النكت والعيون:٤٧٠/٢.
[2] صفوة التفاسير:١٢/٢.
[3] تفسير المراغي:٣٤/١٢.
[4] انظر: التفسير المنير للزحيلي:٢٥٣/٨.
[5] صفوة التفاسير:١٢/٢.
[6] الكشاف:٣٩٣/٢.

قال سليمان القراسي: "عمل نوح السفينة في أربع مائة سنة، وأنبت الساج أربعين سنة، حتى كان طوله أربع مائة ذراع، والذراع إلى المنكب"[١].

عن زيد بن أسلم :"أن نوحا عليه السلام مكث يغرس الشجر ويقطعها وييبسها، ثم مائة يعملها"[٢].

عن كعب الأحبار :"أنه قال لما استنفذ الله من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين والكافرين أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فاصنع الفلك، قال: يا رب ما أنا بنجار، قال: بلى فإن ذلك بعيني خذ القادوم فجعلت يده لا تخطئ فجعلوا يمرون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجارا فعملها أربعين سنة"[٣].

قوله تعالى:{وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ} [هود : ٣٨]، أي:" كلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزءوا منه وضحكوا"[٤].

وفي سخريتهم منه قولان [٥]:

أحدهما : أنهم كانوا يرونه يبني في البر سفينة فيسخرون منه ويستهزئون به ويقولون : يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً. قاله عن كعب الأحبار[٦].

قال الزمخشري:" سخروا منه ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء[٧] في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجارا بعد ما كنت نبيا"[٨].

الثاني : أنهم لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا يا نوح : ما تصنع ؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء فعجبوا من قوله وسخروا منه .

عن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبي ربيعة أخبره:" أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن رسول الله ﷺ: قال لو رحم الله عز وجل من قوم نوح أحد لرحم أم الصبي قال رسول الله ﷺ: كان نوح مكث في قومه ألف سنة وغرس مائة سنة الشجر فعظمت، وذهب كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه فيسخرون منه ويقولون: يعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما صار الماء على الجبل فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها دفعته بيدها فرقا فلو رحم الله عز وجل منهم أحدا لرحم أم الصبي"[٩].

و«الملأ»: "الأشراف من الناس، وهو اسم الجماعة، كالقوم والرهط والجيش، وجمعه أملاء، قال الشاعر[١٠]:

وقال لها الأملاء من كل معشر   وخير أقاويل الرجال سديدها

---

(١) أخرجه الطبري(١٨١٤٢):ص١٥/٣١٧.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٦):ص٦/٢٠٢٦.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٧):ص٦/٢٠٢٦.
(٤) صفوة التفاسير:٢/١٢.
(٥) انظر: النكت والعيون:٢/٤٧١.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٧):ص٦/٢٠٢٦.
(٧)قوله «برية بهماء» أى لا يهتدى فيها الطريق. ويقال: الممر أبهم، وكذا الرجل الشجاع أبهم، كذا في الصحاح.
(٨) الكشاف:٢/٣٩٣.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٨):ص٦/٢٠٢٧.
(١٠)لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الرازي في مفاتيح الغيب: ٦/ ٥٠١، وأساس البلاغة: ٢/ ٢٢٤، والعين: ٨/ ٣٤٦.

وأصلها من الملء، وهم الذين يملؤون العيون هيبة ورواء، وقيل: هم الذين يملؤون المكان إذا حضروا، وقال الزجاج: الملأ الرؤساء، سموا بذلك لأنهم يملؤون القلوب بما يحتاج إليه، من قولهم: ملأ الرجل يملأ ملأة فهو مليء"[1].

قوله تعالى:{قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} [هود : ٣٨]، أي:" قال لهم نوح: إن تسخروا منا اليوم لجهلكم بصدق وعد الله، فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق كما تسخرون منا"[2].

قال الزمخشري:" يعنى: في المستقبل كما تسخرون منا الساعة، أى: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا. أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق"[3].

عن أم عبد الله -يعني: بنت خالد بن مهران، عن أبيها قال:" يقال: الذين يسخرون من الناس في الدنيا ادخلوا الجنة فإذا آتوها ردوا وقيل لهم: سخر بكم كما كنتم تسخرون بالناس في الدنيا"[4].

وفي قوله تعالى:{قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} [هود : ٣٨]، وجهان:

أحدهما : إن تسخروا من قولنا فسنسخر من غفلتكم .

الثاني : إن تسخروا من فِعلنا اليوم عند بناء السفينة فإنا نسخر منكم غداً عند الغرق .

قال الماوردي :"والمراد بالسخرية ها هنا الاستجهال . ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم "[5].

القرآن

{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩)} [هود : ٣٩]

التفسير:

فسوف تعلمون إذا جاء أمر الله بذلك: من الذي يأتيه في الدنيا عذاب الله الذي يُهينه، وينزل به في الآخرة عذاب دائم لا انقطاع له؟

قوله تعالى:{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} [هود : ٣٩]، أي:" فسوف تعلمون إذا جاء أمر الله بذلك: من الذي يأتيه في الدنيا عذاب الله الذي يُهينه"[6].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل نوح لقومه: {فسوف تعلمون}، أيها القوم، إذا جاء أمر الله، من الهالك، {من يأتيه عذاب يخزيه} ، يقول: الذي يأتيه عذابُ الله منا ومنكم يهينه ويذله "[7].

قال الزمخشري:أي:" فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعنى به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا وهو الغرق"[8].

عن عكرمة، في قوله: "{من يأتيه عذاب يخزيه}، قال: الغرق"[1].

---

[1]مفاتيح الغيب: ٦/ ٥٠١.
[2] التفسير الميسر: ٢٢٦.
[3] الكشاف:٣٩٣/٢.
[4] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٤٩):ص٢٠٢٧/٦.
[5] النكت والعيون:٤٧١/٢.
[6] التفسير الميسر: ٢٢٦.
[7] تفسير الطبري:٣١٧/١٥.
[8] الكشاف:٣٩٤/٢.

قال ابن عطية:" ثم جاء قوله: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، تهديدا"[٢].

قوله تعالى:{وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [هود : ٣٩]، أي:" وينزل به في الآخرة عذاب دائم لا انقطاع له"[٣].

قال الطبري:" يقول: وينزل به في الآخرة، مع ذلك، عذابٌ دائم لا انقطاع له، مقيم عليه أبدًا"[٤].

قال الزمخشري:أي:" حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه، {عذاب مقيم} وهو عذاب الآخرة"[٥].

وقال السمعاني:" معناه: ينزل عليه عذاب دائم، وهو الغرق"[٦].

قال ابن عطية:" «العذاب المخزي» هو الغرق، و «المقيم» هو عذاب الآخرة"[٧].

قال النحاس:" أي: من يؤول أمره إلى هذا فهو الجاهل"[٨].

عن أبي مالك قوله: "{عذاب مقيم}، يعني: دائما لا ينقطع"[٩].

عن عكرمة:"{ويحل عليه عذاب مقيم}، قال: جهنم"[١٠].

قال المقري:" قَوْله {مِن يَأتيهِ عَذابٌ يُخزيهِ وَيَحِلُّ عَلَيهِ عَذابٌ مُقيم} نسخ بِآيَة السيف"[١١].

فوائد الآيتين:[٣٨-٣٩]:

١- بيان سنة البشر في الاستهزاء والسخرية بأهل الحق ودعاته لظلمة نفوسهم بالكفر والمعاصي.
٢- بيان صدق وعد الله رسله.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الثامن عشر من التفسير ويليه الجزء التاسع عشر بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (٤٠) من سورة «هود».

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٥٠):ص٢٠٢٧/٦.
[٢] المحرر الوجيز:١٧٠/٣.
[٣] التفسير الميسر: ٢٢٦.
[٤] تفسير الطبري:٣١٧/١٥.
[٥] الكشاف:٣٩٤/٢.
[٦] تفسير السمعاني:٤٢٨/٢.
[٧] المحرر الوجيز:١٧٠/٣.
[٨] معاني القرآن:٣٤٧/٣.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٥١):ص٢٠٢٨/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٨٥٢):ص٢٠٢٨/٦.
[١١] الناسخ والمنسوخ:١٥٠.